منشورات
ديوان الوقف الشيعي
٢٩

أصول العقيدة

الجزء الثالث في الإمامة

ويليه

الجزء الرابع في المعاد

بقلم

السيد مهدي الصدر (قده)

العراق - بغداد

١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

أصول العقيدة

الجزء الثالث في الإمامة

ويليه

الجزء الرابع في المعاد

بقلم

السيد مهدي الصدر

أصــول العقــيدة

الجزء الثالث

في الإمامة

بقلم

السّيّد مهدي الصّــدر

بسم الله الرّحمٰن الرّحيم

﴿وَنُرِيدُ أن نَمُنَّ عَلى ٱلّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا في ٱلأرْضِ ونَجْعَلَهُم أئِمّـةً ونَجْعَلَهُمُ ٱلوارِثِين﴾. (القصص / ٥)

«مَنْ ماتَ ولم يعرفْ إمامَ زمانهِ ماتَ ميتةً جاهليّةً». الرّسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم

المقـدّمة

بسم الله الرّحمٰن الرّحيم

يُولي الباحثـون الكلاميون موضـوع «الإمامة» عناية كبرى، واهتماماً بالغاً، ويخصّـونه بالقسط الأوفر من عـطائهم الفكـري، لما يعكسـه من ضروب الحـقائق والمفاهيم الّتي يرتكز عليها كيان الإسـلام، وحماية مقدّراته، وتنفيذ قانونه، وريادة مسيرته الصاعدة، واستلهام مثله العُليا.

تلك المفاهيم الّتي اختلفت فيها الآراء، وتناقضت فيها النوازع تناقضاً صارخاً فرّق المسلمين شيعاً وأحزاب.

ومن هنا تنوّعت مناهج الكُـتّاب وأساليب بحثهم في الإمامة: فاتّسم بعضها بطابع الأصالة والموضوعية، والاستهداء بمنطق الإسلام وقيمه الأصيلة، واتّسم البعض الآخر بالإرتجال والتحكّم.

وفي غمرة هذا السجال الفكري، وصورته العارمة، أوشكتْ أن تنطمس معالم الحقّ، وتلتبس فيه قيم القيادة العُليا وريادتها الكفوءة المخلصة الّتي خطّطتها السماء على لسان رسـولها الكريم، وأعدّت لمركزها الخطير القائد الرسـالي الأمثل الّذي يُجسّد رسالة الإسـلام، ويُمثّل النّبيّ المرسَل هدْياً وسلوكاً، ليكون امتداداً لحياته الكريمة، وعطاءً فيّاضاً متواصلاً لرسـالته الخالدة، وزخماً من طاقاتـه الجهادية الضّخمة الّتي تُبوّئ المسلمين قمم المفاخر والأمجاد.

وهذا الكتاب عرضٌ لامحٌ لأبرز مفاهيم الإمامة وأهمّها موضوعاً، فهو يعالج:

(١) تشخيص الإمام ونصبه، أهو بالنصّ النّبويّ عليه، أم ٱنتخاب المنتخبين له مُقرِّراً وجهات نظر الباحثين وأبعاد ترجيحاتها في معيار الإسلام.

(٢) ويعرض أقباساً وهّاجة من القرآن الكريم، تُجسِّد إرادة السماء وتنويهها عن الإمام القائد بعد الرّسول ﷺ.

(٣) ويُملي بعد هذا وذاك حشداً زاخراً من النصوص النّبويّة المتواترة في صحاح الفريقين، والمشخِّصة للإمام المستخلَف بعد النّبيّ ﷺ.

(٤) ويُنوِّه في خاتمة المطاف عن طرف لامح من أمجاد الإمام عليه السلام وعظمته المجلّلة في دنيا الإسلام، والزّاخرة بألوان العطاء.

وقد توخّيتُ فيما حرّرته ـ مخلصًا ـ جلاء مفاهيم الإمامة الحقّ وإبراز واقعها الأصيل على ضوء الحقائق والمبادئ المسلّمة عند الفريقين عسى أن تُقرِّب بين المسلمين وتؤلِّف بين قلوبهم وتوحِّد جهودهم وأهدافهم تحت راية الإسلام.

والله من وراء القصد.

العراق ـ الكاظمية

مهدي السّيّد علي الصّدر

الإمامة بين النصّ والإنتخاب

تعريف الإمامة:

هي: رئاسة عامّة في أمور الدِّين والدّنيا، لشخص نائب عن النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، والإمامة هي من دعائم الإسلام، ومبادئه الأصيلة، ومنطلق مفاهيمه الخالدة، وزخم موكبه الصاعد، وقوام سعادة المسلمين وسلامهم.

لذلك ٱتّفق المسلمون على ضرورتها في الإسلام، بيدَ أنّهم اختلفوا في أسلوب تعيين الإمام، وصلاحيّة نصبه، أهو من مختصّات الله تعالى، وواجب لطفه؟ أم هو راجع إلى اختيار المسلمين وانتخابهم.

أمّا الإمامية: فقد ٱختارت الوجه الأوّل، وأجمعت عليه، مستدلّةً ببراهينها العقلية والنقلية:

البراهين العقلية:

(١) إنّ جميع الحجج والبراهين الّتي ٱستدلّ بها العلماء على ضرورة بعثة الأنبياء، وإرسال الرّسل من قِبَل الله عزّ وجلّ، لوجوب لطفه على العباد، وبالغ عطفه عليهم، هو صالحٌ للبرهنة على ضرورة الإمامة، وحتميّة تعيين الإمام ونصبه على النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

ذلك: أنّ الإمامة هي ٱمتداد لحياة النّبوّة، وٱستمرار لسيرها الصاعد وعطائها

الزاخر المبارك، فلو أُلغِيَت الإمامة من دنيا النّبوّة، لأصبحت الثانية قصيرة الحـياة، محدودة الأمد، لا تلبث بعد رسولها إلّا فترة عابرة وظرفاً خاطفاً، لا تبلغ أبعادها من أرجاء الأرض وأغوار الزّمن.

وهذا مناقض لواقع الإسلام، وخلوده مدى الحياة...

حسبكَ في ذلك سيرة الأنبياء عليهم السلام وإجماعهم على سُنّة الاستخلاف، ومبدئها المنطقي الأصيل، فاختار كلُّ نبيّ وصيّاً وخليفةً له، يؤازره في حياته، ويستخلفه على أمّته بعد وفاته، وعلى هذا درجوا عبرَ القرون، ولم يفارق أحدهم الحياة حتّى عيّن الوصيّ والإمام من بعده.

فقد ثبت في تاريخ الأنبياء عليهم السلام أنّ آدم عليه السلام ٱستوصى ابنه (شيث)، وٱستوصى نوح عليه السلام (سام)، وٱستوصى ابراهيم عليه السلام ابنه (اسماعيل)، وٱستوصى موسى عليه السلام (يوشع بن نون)، وٱستوصى عيسى عليه السلام (شمعون الصّفا)، وهكذا اقترنت النّبـوّة بالوصاية، وتواكبت منذ فجر الأديان حتّى الإسلام.(١)

وهكذا درج الملوك والرؤسـاء قديماً وحديثاً على مبدأ الإستخلاف، فاتّخذوا ولاةَ عهدٍ لهم، ونوّاباً يستوزرونهم في حياتهم، ويستخلفونهم على أممهم بعد الوفاة.

وعلى هذا تواطأت تقاليد الواعين من الناس، وتجاوبت أعرافهم، فترى عليهم العاقل لا تطاوعه نفسه، ويأبى وجدانه أن يُخلِّف أطفالاً صغاراً يخشى عليهم الضّياع والحرمان، ويترك أموالاً يخاف عليها السّـلب والإبتزاز دون أن يجعل عليهما وصيّاً أميناً، وقيِّماً مخلصاً، يحوطهما برعايته، ويكلؤهما بحُسن تدبيره.

---

(١) راجع إثبات الوصيّة للمؤرِّخ الشهير المسعودي وغيره من المصادر الجمّة المؤلّفة في الوصيّة.

وحيث كانت سُنَّةُ الإستخلاف أزليّةً ثابتةً في عالم الأنبياء، ودنيا البشر رعيّة وحُكّاماً، كان محتّماً على سيِّد الرّسل وخاتم الأنبياء ﷺ وصاحب الشريعة الخالدة، أن يستخلف وصيّاً على أمّته، حياطةً على الإسلام وحرصاً على سعادة المسلمين وسلامهم.

* * *

وشيء آخر بالغ الأهمية والخطورة، أنّ النّبيّ ﷺ كان يستهدف برسالته الأبديّة صنع تأريخ جديد زاهر للإنسان، ويبني للبشرية حضارة فريدة في دنيا الحضارات، ويصوغ من أتباعه خير أمّة أخرجت للناس، ويجعل السماء فردوساً في الأرض، ويجعل من الأرض فردوساً في السماء.

فكان عليه ﷺ أن يُحطِّم القيم الجاهلية، وتقاليدها الشاذّة، وأعرافها السقيمة، مستبدلاً بها مبادئ الإسلام الخلّاقة، ونظمه الخالدة، ودستوره الكافل الشامل لمختلف شؤون الحياة وحقوقها الفكرية والمادِّية.

وٱستطاع النّبيّ ﷺ بطاقاته الروحية الجبّارة، وعزمه الصّارم، ودأبه المتواصل، أن يُحقِّق في أقلِّ من ربع قرن من معاجز الإصلاح، وفتوحات الإيمان، ما عجز عن تحقيقه عظماء الأنبياء عليهم السلام عبرَ القرون.

بيدَ أنّ سرعة ٱنتشار الإسلام، وٱرتفاع مدِّه في الآفاق، وملابسات الأحداث الطارئة عليه، أولدت أموراً مهمّة في دنياه، حَرِيّةً بالنظر والإعتبار.

(أ) إنّ الإسلام بعقيدته وشريعته وآدابه لم يقطع ـ من فجر النّبوّة وعهدها الزّاخر ـ المرحلة الكافية لغرس مفاهيمه في نفوس أفواج الداخلين فيه، وبلورةِ المتظاهرين باعتناقه رغبةً في عطائه، أو رهبةً من سلطانه، حيث لم تتفاعل بعد قلوبهم ومشاعرهم بنور الإيمان، فأعلنوا الإيمان، وأسرّوا النِّفاق، وطفقوا يُبيِّتون للإسلام ضروب الغدر والتآمر.

وهذا ما عناه القرآن الكريم:

﴿قالَتِ الأعْرابُ آمَنّا قُل لَمْ تُؤمِنُوا ولكِنْ قُولُوا أسْلَمْنا ولمّا يَدْخُلِ الإيمانُ في قُلوبِكُم﴾. (الحجرات / ١٤)

وأنبأ في آية أخرى:

﴿وما مُحمّدٌ إلاّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُل أفإن ماتَ أو قُتِلَ ٱنْقَلَبْتُم عَلى أعقابِكُم ومَن يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرّ ٱلله شَيْئاً وسَيَجْزِي ٱللهُ الشّاكِرين﴾.

(آل عمران / ١٤٤)

وهذا ما تبيّنه الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم، وهو يستطلع مستقبل أمّته بمنظار الغيب وما يترصّدها من مآسي الضّلال والإنحراف:

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: **«إنّ أُمّة موسى عليه السلام ٱفترقت بعده على إحدى وسبعين فرقة، فرقة ناجية، وسبعون في النار، وٱفترقت أُمّة عيسى بعده على اثنتين وسبعين فرقة، فرقة ناجية، وإحدى وسبعون في النار، وإنّ أُمّتي ستفترِق بعدي على ثلاث وسبعين فرقة، فرقة منها ناجية، واثنتان وسبعون في النار»**.

ومن خارج المحيط الإسلامي كانت الإمبراطوريّتان الفارسية والرومية، تتوجّسان المخاوف من انتشار الإسلام، وامتداد سلطانه، وتعاظم قوّته، ما حفّزهما على تحيّن الفرص لغزو عاصمة الإسلام، وإطفاء شعلته الوهّاجة، وسحق المسلمين، والقضاء المبرم عليهم.

كلّ ذلك يُحتّم على النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أن يستخلف من بعده وصيّاً وإماماً كفؤاً قديراً على حماية الإسلام، وصيانته من كيد المتربّصين به، والطّامعين فيه، ووقاية المسلمين من مضلّات الفتن، ودوافع الزّيْغ والإنحراف.

(ب) إنّ بداهة العقل والوجدان تجعل من المستحيل على الرّسول الأعظم ﷺ أن يغفل أمر الوصاية، وتعيين الوصيّ، وهو المثل الأعلى للحكمة ونفاذ البصيرة وشدّة الحبّ والإخلاص لأمّته ورسالته، وهو صاحب الشريعة الخالدة الّتي استوعبت كلّ نشاطات الإنسان، وجميع شؤون الحياة المادّية والروحية الجزئية والكلّية حتّى آداب الأكل والشّرب والنّوم والتخلّي، عالجت كلّ ذلك ونظّمت بتشريعها أحكم علاج، وأبلغ نظام.

فكيف يهمل أمر الوصاية، وتعيين الوصيّ؟! وهي مركز الثّقل في الإسلام ونظام حياة المسلمين، ومعقل آمالهم وأمانيهم.

(ج) إنّ الشريعة الإسلامية رغم اكتمالها واشتمالها على جميع مستلزمات الحياة، ومقتضيات التشريع الخالد، فإنّ النّبيّ ﷺ خلال بعثته المباركة لم تسنح له الظّروف، ولم يتسنّ له الوقت الكافي لتبليغ كافّة المفاهيم الإسلامية، واستيعاب نشرها وإعلامها، واستنفاد رصيدها الضّخم لضغوط المشاكل والأحداث عليه، وحيلولتها دون ذلك.

فكان ﷺ يوزّع أوقاته ونشاطاته على تركيز العقيدة الإسلامية وقيادة الفكر الإسلامي، وإحباط شبهات المضلّلين الحاقدين على الإسلام، وخوض الحروب الإسلامية دفاعاً عن كيانِ الإسلام ومقدّرات المسلمين.

هذا إلى ممارسة شؤون حياته الخاصّة، ورعاية أسرته، وتفقُّد أصحابه ومستلزمات تهجّده وعبادته، ونحو ذلك ممّا كان يستنفد الجهد الضّخم، والوقت المديد من حياته الكريمة.

وشيء آخر يجب اعتباره في المجال أنّ الوعي الإسلامي إبّان فجر الإسلام ومُدّةَ البعثة النّبويّة لم يكن متحلّياً بالنّضج والتفتّح بحيث يستطيع هضم عامّة المفاهيم

الإسلامية، وتفهّمها تفهّماً واعياً مُدرِكاً، ممّا أوجب إرجاء شطر منها إلى ٱستنارة العقول ونضج الوعي الإسلامي غبّ عصر النّبيّ ﷺ.

أضف إلى ذلك الفتوحات الإسلامية الواسعة، ودخول الأفواج الزّاخرة من مختلف الأمم والشعوب فيه. وما تقتضيه تلك الفتوح من تخطيط حازم وسياسة كافلة حكيمة تدير شؤونها وتنظِّم حياتها على ضوء الإسلام.

من أجل ذلك، فقد برزت قضايا، وٱستجدّت مطالب في دنيا المسلمين، لم يعهدوها في حياة الرّسول ﷺ، ولم يهتدوا إلى ٱستنباط أحكامها من القرآن الكريم والسنّة النّبويّة كنظام الحكم، وأساليب الإدارة، وطرائق التجارة والإقتصاد، ونحوها من مستلزمات الحياة المتحضِّرة، ممّا حفّز المسلمين الأوّلين على ملء ذلك الفراغ التنظيمي بما ٱستحدثوه من صور الأحكام الإرتجالية الّتي ما زالت موضع جدل وخلاف بين متشرّعة المسلمين.

وكلّ ما أسلفناه من دلائل العقل والوجدان يحتِّم على النّبيّ ﷺ أن يصطفي وصيّاً لنفسه، ويدأب على تعليمه وإطلاعه على أسرار الوحي، وتأويل القرآن، ومفاهيم الشريعة، ليكون كفؤاً قديراً على حلِّ مشاكل الفتيا ومعضلات الأحكام، وريادة المسلمين نحو المُثُل الإسلامية وأهدافها السامية، ويعمل على نشرها على أوسع نطاق ممكن من أرجاء الأرض، وأعماق الزّمن.

* * *

الأدلّة النقليّة:

وهكذا تجاوبت دلائل العقل والنقل عند الإمامية، وأطبقت على ضرورة تشخيص الإمام ونصبه من قِبَل النّبيّ ﷺ بأمر الله تعالى وترشيحه إيّاه، وأنّ الإمامة سلطة روحيّة كسلطة النّبوّة، فكما يصطفي المولى عزّ وجلّ النّبيّ للنّبوّة، كذلك

يصطفي الإمام للإمامة، وكما لا يحقّ للبشر، وليس في مقدورهم انتخاب النّبيّ واختياره حسب أهوائهم ورغائبهم، كذلك الإمام، لاستمداد سلطانهما الروحي من الله تعالى، واشتراكهما في مؤهّلات القيادة الإسلامية العامّة، والمرجعية العُليا في الإسلام، خلا ٱستلهام النّـبيّ ﷺ أسرار التشريع ومفاهيمه بطرائق الوحي الإلهي، واقتـباس الإمام تلك الأسرار والمفاهيم من طريق النّبيّ، فالأوّل هو المشرِّع، والثاني هو المبلِّغ عنه، الّذي يجب أن يتجسّـد في شـخصه الكريم مثاليـة النّـبيّ ﷺ، وتُنـاط به مسـؤولياته الخطيرة الّتي لا يسـتطيع النهوض بأعبائها إلّا مَنْ رشّحه الله سـبحانه، وأهّله لهذا المركز القيادي الرّفيع.

وقد قرّر القرآن الكريم هذا الواقع، ونوّه عنه في مواطن عديدة وآيات جمّـة:

قال الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ ويَخْتارُ ما كانَ لَهُم الخِـيَرَةُ سُبْحانَ ٱللهِ وتَعالى عَمّا يُشْرِكُون﴾. (القصص / ٦٨)

وقال تعالى: ﴿إنِّي جاعِلُكَ للنّاسِ إماماً﴾. (البقرة / ١٢٤)

وقال تعالى: ﴿إنِّي جاعِلٌ في ٱلأرْضِ خَلِيفَة﴾. (البقرة / ٣٠)

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْناهُم أَئِمّةً يَهْدُونَ بأمْرِنا﴾. (الأنبياء / ٧٣)

وقال تعالى: ﴿ونُرِيدُ أن نَمُنَّ على الّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا في الأرْضِ وَنَجْعَلَهُم أئمّـةً ونَجْعَلَهُم الوارِثِين﴾. (القصص / ٥)

وما إلى ذلك من الآيات الصريحة المتضافرة على اختصاص نصب النّـبيّ أو الإمام بالله تعالى وحده، ومحض إرادته النافذة.

وقد نوّه النّبيّ ﷺ عن هذا الواقع في مستهلّ بعثته، يوم عرضَ نفسه على القبائل، فبلّغ بني عامر بن صعصعة، ودعاهم إلى الله تعالى.

فقال له قائلهم: أرأيـتَ إنْ نحنُ تابعـناك على أمرِك، ثمّ أظهركَ الله على مَنْ خالفكَ، أيكونُ لنا الأمر بعدك؟

قال: إنّ الأمر إلى الله يضعهُ حيث يشاء.(١)

وهكذا تواترت الأحاديـث النّبـويّة مؤكِّدةً على حتميّة النـصّ على الإمـام واستخلافه من قِبَل النّـبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وإليك نماذج لامحة منها، ونُرجئ الأخـرى إلى موطنها من هذا الكتاب:

١ ـ قال صلى الله عليه وآله وسلم: **«لكلِّ نبيٍّ وصيّ ووارث، وإنّ عليّاً وصيِّي ووارثي»**(٢).

وفي هذا الحديـث دلالة صارخة على اقتران النّبوّة بالإمامة، وترابطهما ترابطاً قويّاً، لا ٱنفصـام بينهما عبرَ تأريخ الأنبـياء عليهم السلام، وسُنّتِهم الأزليّـة في ٱسـتخلاف الأوصياء.

٢ ـ وقال صلى الله عليه وآله وسلم: **«مَنْ ماتَ ولم يعرف إمام زمانه، ماتَ ميتةً جاهلية»**(٣).

---

(١) سيرة ابن هشام ج٢، ص٣٢، والسيرة الحلبية، ج٢، ص٣، وسيرة زيني دحلان، ج١، ص٣٠٢ في هامش الحلبية، وحياة محمّد لهيكل، ص١٥٢، ط١ وغيرها. راجع الغدير للمرحوم الحجّة الأميني، ج٧، ص ١٣٤.

(٢) ذخائر العُقبى، ص ٧١، وتذكرة ابن الجـوزي، ص ٤٩٢، والرِّياض النّـضرة، ج ٢، ص١٧٨، ولسان الميزان لابن حجر، ج ٤، ص ٤٨٠، ومحمّدصالح الحنفي الترمذي في المناقب الرّضـوية، ص ٨٩، والعضد الأيجي في المواقف كما في شرحه، ج ٢، ص٦١٣، والمـناوي في كنوز الحقائق، ص ١٣٠.

(٣) ذكره التفتازاني في شرح المقاصد، ج٢، ص ٢٧٥، وقد أورد مضمون هذا الحديث أعلام الحفّاظ: أورده مسلم في صحيحه، ج٦، ص ٢٢، والبيهقي في سننه، ج٨، ص١٥٦، وٱبن كثير في تفسيره، ج١، ص٥١٧، والهيثمي في المجمع، ج ٥، ص٢١٨ وغيرهم. يُراجع الغدير، ج ١٠، ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠.

وفي هذا الحديث دلالة واضحة على وجود الإمام، ووجوب معرفته وموالاته في جميع العصور والأجيال، وإنذار مَنْ جهله بالإرتداد، وميتة الجاهلية الكافرة الخاسرة.

ذلك أنّ إضافة الإمام إلى الزّمان (إمام زمانه) تفيد تجدّد الإمام، وٱستمرارية بقائه مدى الحياة.

وواضح أنّ المعنيّ بالإمام هو المرشّح المنصوص على إمامته من قِبَل الرّسول ﷺ دون المختار المنتخَب من الناس، حيث لا يستحقّ الجاهل بالثاني ذلك الوعيد الرّهيب، والمصير الجاهليّ المهين.

٣ ـ وقال ﷺ: **«لا يزال الدِّين قائماً حتّى تقوم السّاعة، ويكون عليهم إثنا عشر خليفة كلّهم من قريش»**(١).

وقد أعلن هذا الحديث الشريف خلود الإسلام، وشموخه عبرَ الحياة، وٱنحصار الخلافة الإسلامية باثني عشر خليفة من خلفاء قريش وأئّمتهم المعصومين عليهم السلام.

وهذا برهان ساطع على صحّة مبدأ الإمامية، وصدق ٱعتقادهم بالأئمّة الإثني عشر من أهل البيت عليهم السلام، لانطباقه عليهم دون غيرهم من خلفاء الأمويِّين والعبّاسيِّين لزيادتهم عن العدد المذكور.

٤ ـ وقال ﷺ: **«في كلِّ خلفٍ من أمّتي عدول من أهل بيتي، ينفون عن هذا الدِّين تحريف الضّالِّين، وٱنتحال المُبطلين، وتأويل الجاهلين، ألا وإنّ أئمّتكم وفدكم إلى الله فانظروا مَنْ توفدون»**(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، ج٢، ص١١٩، ورواه البخاري مثيله في ج٤، ص ١٦٤، ورواه أحمد بن حنبل في مسنده، ج ٥، ص ٨٩، ورواه التّرمذي في صحيحه، ج ٢، ص ٣٥، وغيرهم.

(٢) صواعق ابن حجر، ص ٩٠.

وقد نوّه النّبيّ ﷺ بهذا الحديث عن مواكبة الأئمة من أهل البيت عليهم السلام لمسيرة الإسلام الصّاعدة، وأخلاف المسلمين، وأجيالهم المتعاقبة، ثمّ أطرى جهاد الأئمة في حماية الإسلام، ونصرة مبادئه، وصيانة مفاهيمه من عوادي الدّسّ والتحريف، وأهاب ـ بعد هذا ـ بالأمّة الإسلامية في جميع أجيالها وعصورها أن تستهدي بهم، وتستلهم مثلهم العُليا، وتتمسّك بولائهم لتفوز برضوان الله تعالى، ونعيمه الخالد.

٥ ـ وقال ﷺ: **«إنّي تركتُ فيكُم ما إن تمسّكتُم به لن تضلّوا بعدي، كتاب الله حبلٌ ممدودٌ من السّماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»**(١).

وفي هذا الحديث دلالة واضحة: على أنّ القرآن الكريم، والعترة النّبويّة الطاهرة صنوان مقترنان لا ينفصلان ولا يفترقان مدى الحياة، وحتّى المعاد، وأنّ الهدى والسعادة منوطان بالتمسّك بهما والحفاظ عليهما، وأنّ الضّلال والشّقاء مقرونان بمجافاتهما والإنحراف عنهما.

ولا عجب فالقرآن هو دستور الإسلام الكافل الخالد، والعترة الطاهرة هم خزّان علمه، وتراجمة وحيه، وروّاد مثله وأهدافه.

ولم يزل النّبيّ ﷺ يواصل توعية المسلمين وإعلامهم بوصيِّه، والإمام القائم من بعده، تارةً على الصعيد الجماهيري الحاشد، وأخرى في نطاق مجلسه الخاص، وحتّى في زحمة مرضه، ودنوّ وفاته ﷺ.

فعن ابن عبّاس، قال: اشتكى النّبيّ ﷺ يوم الخميس، فجعل ـ يعني ابن عبّاس ـ يبكي ويقول: **يوم الخميس وما يوم الخميس؟!** قال: اشتدّ بالنّبيّ ﷺ

---

(١) كنز العمّال، ج ١، ص ٤٤. راجع مصادر هذا الحديث عند ذكر الآتي في الدلائل النّبويّة.

وجعه، فقال: «**إيتوني بدواةٍ وصحيفةٍ أكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعده أبداً**».

قال: فقال بعضُ مَنْ كان عنده إنّ نبيّ الله ﷺ ليهجر، قال: فقيل له: ألا نأتيكَ بما طلبت؟! قال: «**أوَ بعدَ ماذا؟!**»، قال: فلم يدعُ به[1].

❊ ❊ ❊

وخالف أخواننا السنّة في حتميّة استخلاف الإمام ونصبه من قِبَل النّبيّ ﷺ، وخوّلوا تلك الصلاحية الخطيرة إلى نفرٍ من أهل الحلِّ والعقد، واعتبروا الشخص المنتَخَب إماماً مُفترَض الطاعة على جميع المسلمين، نافذ الحكم والسلطان عليهم، ومن ثمّ أنكروا عهد النّبيّ ﷺ واستخلافه لشخصٍ معيّنٍ بالذّات!!

قال القاضي عضد الأيجي في المواقف:

«المقصد الثالث فيما تثبت به الإمامة، إنّها ثبتت بالنصّ من الرّسول، ومن الإمام السابق بالإجماع، وثبتت ببيعة أهل الحلّ والعقد خلافاً للشيعة: لنا ثبوت إمامة أبي بكر (رض) بالبيعة.

وقال: إذا ثبت حصول الإمامة بالإختيار والبيعة، فاعلم أنّ ذلك لا يفتقر إلى الإجماع، إذ لم يقم عليه دليل من العقل أو السّمع، بل الواحد والإثنان من أهل الحلِّ والعقد كاف، لعلمنا أنّ الصّحابة مع صلابتهم في الدِّين اكتفوا بذلك كعقد عمر لأبي بكر، وعقد عبدالرّحمٰن بن عوف لعثمان، ولم يشترطوا إجماع مَنْ في المدينة فضلاً عن إجماع الأمّة، هذا ولم يُنكر عليهم أحد، وعليه انطوت الأعصار إلى وقتنا هذا»[2].

---

(١) أخرج هذا الحديث مشاهير الحفّاظ كابن حنبل في مسنده من الجزء الأوّل، ص ٣٥٩، وابن سعد في الطّبقات، ج ٤، ص ٥٩، ومسلم في صحيحه في آخر كتاب الوصيّة، وغيرهم.

(٢) راجع شرح المواقف، ج ٣، ص ٢٦٥.

وقال الماوردي في الأحكام السلطانية، ص ٤:

«اختلف العلماء في عدد مَنْ تنعقد به الإمامة منهم على مذاهب شتّى: فقالت طائفة لا تنعقد إلّا بجمهور أهل العقد والحلّ، من كلِّ بلد، ليكون الرِّضا به عامّاً، والتسليم لإمامته إجماعاً، وهذا مذهب مدفوع ببيعة أبي بكر (رض) على الخلافة باختيار مَنْ حضرها، ولم ينتظر ببيعة قدوم غائب عنها.

وقالت طائفة أخرى أقلّ مَنْ تنعقد به منهم الإمامة خمسة، يجتمعون على عقدها، أو يعقدها أحدهم برضا الأربعة، إستدلالاً بأمرين:

أحدهما: أنّ بيعة أبي بكر (رض) انعقدت بخمسة اجتمعوا عليها، ثمّ تابعهم الناس فيها، وهم: عمر بن الخطّاب، وأبو عبيدة بن الجرّاح، وأسيد بن حضير، وبشر ابن سعد، وسالم مولى أبي حذيفة (رض).

الثاني: أنّ عمر بن الخطّاب (رض) جعل الشورى في ستّة، ليعقد لأحدهم برضا الخمسة، وهذا قول أكثر الفقهاء والمتكلِّمين من أهل البصرة.

وقال آخرون من علماء الكوفة: تنعقد بثلاثة يتولّاها أحدهم برضا الإثنين ليكونوا حاكماً وشاهدين،، كما يصحّ عقد النِّكاح بوليٍّ وشاهدين».

وقال إمام الحرمين الجويني في الإرشاد، ص ٤٢٤:

«إعلموا أنّه لا يشترط في عقد الإمامة الاجماع، بل تنعقد الإمامة وإن لم تُجمع الأمّة على عقدها،... فإذا لم يشترط الإجماع في عقد الإمامة، لم يثبت عدد معدود، ولا حدّ محدود، فالوجه الحكم بأنّ الإمامة تنعقد بعقد واحد من أهل الحلِّ والعقد».

ونحنُ نناقش هذه الأقوال ونمحِّصها على ضوء الحقائق التالية:

(١) إنّ اختيار الإمام من قِبَل فرد أو أفراد من أهل الحلِّ والعقد، مناقض

للبراهين العقلية السالفة والحاكمة بضرورة ترشيحه ونصبه من النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، ومناقض لسنّة الأنبياء وسيرتهم في ٱستخلاف الأوصياء ونصبهم جميعاً حججاً على أممهم، ومناقض بعد هذا وذاك لأعراف القيادة والزّعامة عبرَ العصور القديمة والحديثة، وعهودها ونصّها على مَنْ يخلفها في السياسة والحكم.

حسبكَ في ذلك سيرة الخليفتين الأوّل والثاني، واهتمامهما البالغ باستخلاف مَنْ يملأ فراغهما بعد الوفاة.

فهذا الخليفة الأوّل لمّا حانت وفاته، استوصى صاحبه (عمر) ونصّ على استخلافه، وهكذا أعربَ الخليفة الثاني عن أمنيته في الإستخلاف والنصّ على خليفته، فقال:

«لو أدركني أحد رجلين، فجعلتُ هذا الأمر إليه لوثقتُ به: سالم مولى أبي حذيفة، وأبي عبيدة الجرّاح، ولو كان سالم حيّاً ما جعلتها شورى»[1].

وٱستمع إلى عبدالله بن عمر وهو يحاور أباه ويحرِّضه على الإستخلاف:

«إنّ الناس يتحدّثون إنّك غير مستخلف، ولو كان لك راعي إبل أو راعي غنم، ثمّ جاء وتركَ رعيّته، رأيت أنْ قد فرّط ـ لرأيت أن قد ضيّع ـ ورعيّة الناس أشدّ من رعيّة الإبل والغنم، ماذا تقول لله عزّ وجلّ إذا لقيته ولم تستخلف عباده»[2].

وقالت عائشة لابن عمر: «يا بُنيّ! أبلِغ عمر سلامي وقُل له: لا تدع أمّة محمّد بلا راعٍ، استخلف عليهم، ولا تدعهم بعدك هملاً، فإنِّي أخشى عليهم الفتنة، فترْكُ

(١) طبقات ابن سعد، ج٢، ص٢٤٨، التمهيد للباقلاني، ص٢٠٤، الإستيعاب لأبي عمر، ج٢، ص٥٦١، أسد الغابة، ج٢، ص٢٤٦.

(٢) سنن البيهقي، ج٨، ص١٤٩، سيرة عمر لابن الجوزي، ص١٩٠، الرِّياض النّضرة، ج٢، ص٧٤، حلية الأولياء، ج١، ص٤٤.

الناس مهملين فيه خشية الفتنة عليهم»[1].

وقال معاوية لابن حصين: «ما الّذي شتّت أمر المسلمين، وفرّق أهواءهم، وخالف بينهم؟

قال: قتْل الناس عثمان، قال ما صنعت شيئاً.

قال: قتال عليّ إيّاك، قال ما صنعت شيئاً.

قال مسير طلحة والزبير وعائشة، وقتال عليّ إيّاهم، قال صنعت شيئاً، قال: ما عندي غير هذا.

قال: لم يشتّت أمر المسلمين، ولا فرق أهواءهم، ولا خالف بينهم إلّا الشورى التي جعلها عمر إلى ستّة نفر.. فلم يكن رجلٌ منهم إلّا رجاها لنفسه، ورجاها له قومه، وتطلّعت إلى ذلك نفسه. ولو أنّ عمر استخلف عليهم كما استخلف أبو بكر ما كان في ذلك خلاف»[2].

ومَن استقرأ تاريخ الخلفاء الأمويين والعبّاسيين، وجدهم قد ارتكزوا على نصِّ السابق منهم على اللّاحق بهم، ودرجوا عليه، دون أن يستطلعوا رأي الأمّة فيمَن يستخلفونه على الحكم، أو يسمحوا لها بانتخابه واختياره.

وفيهم مَن استُخلِفَ قسراً واعتسافاً رغم مروقه عن الدِّين، ورغم ازدراء المسلمين له وترفّعهم عن بيعته، كاستخلاف معاويه لابنه يزيد، مبرِّراً ذلك بقوله: «إنِّي أرهب أن أدع أمّة محمّد كالضأن لا راعى لها»[3].

حسبك أنّه لمّا أراد البيعة ليزيد، خطبَ أهل الشام، وقال: «يا أهل الشّام!

---

(١) الإمامة والسياسة، ج ١، ص ٢٢.

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربّه، الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٣،، ص ٣١.

(٣) تاريخ الطّبري، ج ٦، ص ١٧٠، والإمامة والسياسة، ج ١، ص ١٥١.

إنّه قد كَبُرت سنّي، وقَرُب أجلي، وقد أردتُ أن أعقد لرجلٍ يكون نظاماً لكم، فأصفقوا واجتمعوا وقالوا: رضينا عبدالرّحمٰن بن خالد، فشقّ ذلك على معاوية، ثمّ إنّ عبدالرّحمٰن مرضَ، فأمرَ معاوية طبيباً عنده يهوديّاً أن يقتله سمّاً، فسقاهُ فانخرق بطنه فمات، ثمّ ترصّد أخوه المهاجر ذلك اليهودي وقتله»[1].

(٢) إنّ انتخاب الإمام مخالف لصميم الكتاب والسنّة، ودلالتهما الصريحة الواضحة على اختصاص تعيين الإمام ونصبه بالله تعالى، على لسان رسوله ﷺ، كما صوّرتهُ الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة الآنفة الذّكر.

(٣) ولو افترضنا جدلاً أنّ النّبيّ ﷺ فوّض صلاحيّة اختيار الإمام ونصبه إلى أفراد أهل الحلّ والعقد ـ كما يحسبون ـ لكان من الواجب المقدّس عليه أن يخطّط نظاماً وافياً يضمن نجاح عملية الانتخاب، ويُفصِّل شرائط المنتَخَب للحكم، ويعدّ المسلمين إعداداً واعياً لتقبّله والسّير على هداه.

ومن الواضح أنّا لا نجد فيما أثر عنه من مختلف المفاهيم الإسلامية نصّاً متّفقاً عليه بين الفريقين المتنازعين يعكس قضيّة الاختيار ويصوّره تصويراً واضحاً.

وكلّ ما تذرّعوا في شرعيّة اختيار الإمام، أنّهم نسبوا إلى النّبيّ ﷺ: «أصحابي كالنجوم، بأيّهم اقتديتم اهتديتم».

وهذا الحديث واضح الإختلاق والتزوير للنقاط التالية:

(أ) تصريح زمرة من الحفّاظ بذلك:

قال محمّد أمين البخاري إنّه: «مكذوب، موضوع، باطل»[2].

كما صرّح بهذا ابن حزم وغيره من الرّواة.[3]

---

(١) الإستيعاب، ج ٢، ص ٤٠٨، وأسد الغابة لابن الأثير، ج ٣، ص ٢٨٩.

(٢) تيسير التحرير، ج ٣، ص ٢٤٤.

(٣) راجع دلائل الصّدق، للحجّة المظفّر رحمه الله، ج ٢، ص ٩٦.

(ب) إنّ الحديث يُشعر بتزكية عامّة الصّحابة، وجدارتهم بقيادة المسلمين وهدايتهم، وهذا مناقض لمنطوق القرآن الكريم وواقع الصّحابة وسلوكهم في ظلِّ الإسلام، فقد أعلن القرآن نفاق جماعة منهم.

قال تعالى: ﴿إذا جاءكَ المُنافِقُونَ قالُوا نشهدُ إنّكَ لَرَسُولُ اللهِ واللهُ يَعْلَمُ إنّكَ لَرَسُولُهُ واللهُ يَشْهَدُ إنّ المُنافِقينَ لَكاذِبُون﴾. (المنافقون/ ١)

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النّاسِ مَنْ يقُولُ آمَنّا باللهِ واليومِ الآخِرِ وما هُمْ بِمُؤْمِنِين، يُخادِعُونَ اللهَ والّذِينَ آمَنُوا وما يَخْدَعُونَ إلّا أنْفُسَهُم وما يَشْعُرُون﴾. (البقرة/ ٩)

وقال تعالى: ﴿ومِنْ أهْلِ المَدينَةِ مَرَدُوا عَلى ٱلنِّفاقِ لا تَعْلَمُهُم نَحْنُ نَعْلَمُهُم﴾. (التّوبة/ ١٠١)

حسبك أنّه خصّهم بسورةٍ كاملةٍ نوّهت عن أحقادهم ومخطّطاتهم العدوانية نحو الرّسول الأعظم ﷺ وكيان الإسلام، وفضحت نواياهم الماكرة.

فكيف يسوغ أن يكون الصّحابة بأسرهم قادةً وهداةً للمسلمين!!

قال الإمام شرف الدِّين:

«إنّ الصّحبة بمجرّدها وإن كانت عندنا فضيلة جليلة، لكنّها غير عاصمة، فالصّحابة كغيرهم من الرِّجال فيهم العدول، وهم عظماؤهم وعلماؤهم، وفيهم البُغاة، وفيهم أهل الجرائم من المنافقين، وفيهم مجهول الحال.

فنحنُ نحتجّ بعدولهم، ونتولّاهم في الدّنيا والآخرة، أمّا البُغاة على الوصيِّ وأخي النّبيّ، وسائر أهل الجرائم والعظائم كابن هند، وابن النابغة، وابن الزّرقاء، وابن عقبة، وابن أرطأة، وأمثالهم، فلا كرامة لهم، ولا وزنَ لحديثهم.

ومجهول الحال نتوقّف فيه حتّى نتبيّن أمره»(١).

---

(١) أجوبة مسائل جار الله، لسماحة آية الله السيد عبدالحسين شرف الدّين رحمه الله، ص ١٥.

(ج) روايات الحوض المصرِّحة بردّة فئات من الصّحابة بعد الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم :

فقد أورد البخاري في كتاب الحوض عن النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، قال :

«بينا أنا قائم، فإذا زمرة حتّى إذا عرفتهم، خرج رجل من بيني وبينهم، فقال: هلمّ، فقلت أين؟ قال: إلى النار والله، قلت: وما شأنهم؟! قال: إنّهم ارتدّوا بعدك على أدبارهم القهقرى.

ثمّ إذا زمرةٌ حتّى إذا عرفتهم، خرج رجل بيني وبينهم، فقال: هلمّ، قلتُ أين؟ قال: إلى النار والله، قلتُ: ما شأنهم؟! قال: إنّهم ارتدّوا بعدك على أدبارهم القهقرى، فلا أراه يخلص منهم إلّا مثل همل النِّعم»[1].

وأخرج البخاري في كتاب الحوض أيضاً عن أبي هريرة أنّه كان يُحدِّث أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال:

«يرد عليَّ يوم القيامة رهط من أصحابي فيملَأون عليَّ الحوض، فأقول: يا ربِّ أصحابي، فيقول: إنّك لا علمَ لكَ بما أحدثوا بعدك، إنّهم ارتدّوا على أدبارهم القهقرى»[2].

(د) وممّا يؤكِّد انحراف بعض الصّحابة، معاقبة الخليفة الثاني (رض) لنفرٍ من مشاهيرهم ومبرزيهم بجلد بعضهم وحدّ آخرين منهم.

فقد أقامَ حدَّ الخمر على قُدامة بن مظعون بن حبيب، رغم سبقه إلى الإسلام، وتحلِّيه بشرف الهجرة، حيثَ قامت البيِّنة على شربه للخمر.[3]

---

(١) صحيح البخاري، ج ٤، ص ٩٤، وصحيح مسلم، ج ٧، ص ٦٦، راجع أجوبة مسائل جار الله، ص ١٠.

(٢) صحيح البخاري، ج ٤، ص ٩٧.

(٣) راجع تفصيل الحادثة في الإصابة، ج ٣، ص ٢٢٨.

وهكذا عاقبَ صحابيّاً شهيراً قائلاً له:

«علمتُ أنِّي استعملتك على البحرين وأنتَ بلا نعلين، ثمّ بلغني أنّك ابتعتَ أفراساً بألف دينار وستمائة دينار.

قال: كانت لنا أفراس تناتجت وعطايا تلاحقت.

قال عمر: قد حسبت لك رزقك ومؤنتك وهذا فضل فأدِّه.

قال: ليسَ لك ذلك.

قال: بلى والله، أوجع ظهرك، ثمّ قام إليه بالدرّه فضربه حتّى أدماه، ثمّ قال: ائتِ بها.

قال: أحتسبها عند الله.

قال: لو أخذتها من حلال وأدّيتها طائعاً، أجئتَ من أقصى البحرين تجبي الناس لك، لا لله ولا للمسلمين؟ ما رجّعت بك أميمة إلّا لرعية الحمر.[(١)]

وكم عاقبَ الخليفة ولاةً على ابتزازهم أموال الأمّة والاستئثار بحقوقها، وجُلّهم كانوا من الصّحابة ممّن يطول تعدادهم في هذه الرسالة.

أضف إلى ذلك ما شجر بين بعض الصّحابة من ضروب النِّزاع والمهاترات، وألوان التناكر والتناحر المؤدِّية حتماً إلى انسلاخ أحد الفريقين من سمات العدل والصّلاح، واتِّصافه بالغوغائية والإنحراف.

وهكذا حسب القائلون بالإختيار: أنّ القرآن الكريم والسنّة النّبويّة يغنيان عن الإمام الشرعي، فلا حاجة إلى تشخيصه والنصّ عليه من قِبَل النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، وللمسلمين أن ينتخِبوا مَنْ شاؤوا للخلافة والإمامة.

---

(١) العقد الفريد، ج ١، ص ٢٦.

وهذا رأي حالم لا يفقه واقع الكتاب والسنّة وما ينطويان عليه من غموض وملابسات.

فالقرآن الكريم وإن اشتمل على جميع شؤون الحياة، ومقتضيات التشريع الخالد، بيدَ أنّه خفيّ الدلالة، قابل لوجوه التفسير والتأويل، لاحتوائه على المُحْكَم والمتشابه، والمُجمَل والمُبيّن، والنّاسخ والمنسوخ، ممّا سبّب اختلاف المفسِّرين، وتعدّد مذاهبهم في تفسيره.

وليس بعضهم أدرى بالتفسير وأحقّ بالتصديق من الآخر، إلّا إذا كان المفسِّر عليماً بأسرار القرآن، خبيراً بمفاهيمه، عارفاً بمغزاه، وهو آنذاك الأجدر بالثِّقة والإطمئنان فيما يعرضه من صور التفسير والتأويل الأصيلين:

﴿قُل لا يَعْلَمُ تأويلَهُ إلّا اللهُ والرّاسِخُونَ في العِلْم﴾. (آل عمران/ ٧)

ولا ريب أنّ الراسخين في العلم هم الأئمة الطاهرون من أهل البيت عليهم السلام، الّذين جعلهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قرناء القرآن، وتراجمة وحْيه، وأدلّاءه المخلصين الأمناء:

«إنّي تركتُ فيكُم ما إن تمسّكتُم به لن تضلّوا بعدي، كتاب الله حبل ممدود من السّماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض»[(١)].

وهكذا السنّة النّبويّة لا آستغناء بها عن الإمام النيقد الخبير بواقعها الحقّ، ومغزاها الصحيح، حيث تلاعبت بها الأهواء، وشابتها بالدسِّ والتحريف، تزلّفاً للحكّام الجائرين، وطمعاً في مساوماتهم الرخيصة على حساب الدِّين والضّمير، ممّا أجهد العلماء في تمييز الصحيح من السقيم، والأصيل من اللّصيق منها.

حسبك ما أثبته النقّاد المتضلّعون في علم الحديث ورجالات أسناده أنّهم

(١) انظر مصادر هذا الحديث في الدلائل النّبويّة، ص ٨٩.

أحصوا (خمسمائة ألف حديث) ممّا لفّقه الرّواة ووضعوه على لسان النّبيّ ﷺ كذباً وافتراءً.[1]

وبهذا يتجلّى لك أنّ الكتاب والسنّة لا يغنيان عن الإمام في استنباط الأحكام الشرعية عن أدلّتها التفصيلية، واستجلاء واقعها الأصيل.

ولو أغنينا عنه لما تذرّع الفقهاء بالإجماع والعقل، ونزع مَنْ نزع منهم إلى القياس والإستحسان، ولما اختلف المسلمون في مفادهما ودلالاتهما فرقاً شتّى ومذاهب مختلفة، رغم وحدة الكتاب والسنّة والمُشرِّع: «**حلال محمّد حلال إلى يوم القيامة، وحرامه حرام إلى يوم القيامة**».

وذلك ما يحتّم على النّبيّ ﷺ أن يتّخذ لنفسه وصيّاً كفوءاً، ويُعنى عناية بالغةً بتثقيفه، وإطلاعه على حقائق القرآن والسنّة وأسرار الشريعة، ليستهدي به المسلمون في متاهات الضّلال، وينتهلوا من معينه الرائق الأصيل مفاهيم الإسلام وأحكامه الواقعيّة الحقّ.

(٤) ولو تجاهلنا جميع المآخذ السالفة على مبدأ الشورى في الانتخاب ودرسناه على ضوء التاريخ الإسلامي، وجدناه متّسماً بضروب الأخطاء والمضاعفات، ومثاراً لصنوف الفتن والكوارث الّتي عاشها المسلمون قروناً وأجيالاً، وعانوا من جرّائها أفدح الخسائر، وأفتك الرّزايا كما تصوّره الأمثلة التالية:

(أ) إنّه باعث على إثارة المنافسات الخطيرة بين الطامحين في الحكم، والمتطلّعين إلى أمجاد الخلافة الإسلامية ومغانمها الجزيلة، حسبك ما حدث يوم السقيفة من

---

(١) راجع الغدير للمرحوم الحجّة الأميني، ج ٥، ص ٢٠٩ ـ ٣٧٤، لتعرف أبعاد التقوّل والإختلاق على النّبيّ ﷺ.

ضروب التنافس بين مشاهير الصّحابة وأعلام الإسلام وبين الحكم القائم آنذاك:

فهذا سعد بن عبادة سيِّد الخزرج وزعيم الأنصار يتخلّف عن البيعة ويتوعّد الفئة المسيطرة، قائلاً: «لا والله حتّى أرميكم بما في كنانتي، وأخضِّب سنان رمحي، وأضرب بسيفي ما أطاعني، وأقاتلكم بأهل بيتي ومَنْ تبعني ولو ٱجتمع معكم الجنّ والإنس ما بايعتكم حتّى أعرض على رِّبي».

فقال عمر: إقتلوا سعداً قتله الله، إنّه منافق. ثمّ وقف على رأس سعد، وقال: لقد هممتُ أن أطأك حتّى تندر عيونك.(١)

فوثبَ قيس بن سعد، فأخذ بلحية عمر، وقال: والله لو خفضتَ منه شعرة ما رجعتَ وفيك جارحة.(٢)

وهذا الصّحابي الجليل الحبّاب بن المنذر بن الجموح، تخلّف عن البيعة، وانتضى سيفه على أبي بكر، وقال: والله لا يردّ عليَّ أحدٌ ما أقول إلّا حطّمتُ أنفه بالسيف، أنا جذيلها المحكّك وعذيقها المرجّب، أنا أبو شبل في عرينة الأسد.

فقال له: إذن يقتلك الله.

فقال له الحبّاب: بل إيّاك يقتل.(٣)

فأُخِذَ وَوُطئَ في بطنه، ودُسَّ في فيهِ التّراب.(٤)

---

(١) مسند أحمد، ج ١، ص ٥٦، العقد الفريد، ص ٢٤٩، تاريخ الطّبري، ج ٣، ص ٢١٠، تاريخ ابن الأثير، ج ٢، ص ١٣٧، السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٣٨٧، الرّياض النّضرة، ج ١، ص ١٦٢.

(٢) تاريخ الطّبري، ج ٣، ص ٢١٠، السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٣٨٧.

(٣) صحيح البخاري، ج ١٠، ص ٤٥، مسند أحمد، ج ١، ص ٥٦، سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٣٣٩، العقد الفريد، ج ٢، ص ٢٤٨.

(٤) شرح ابن أبي الحديد، ج ٢، ص ١٦.

وجاء بعد هذا وذلك الزّبير مخترطاً سيفه وهو يقول: لا أغمدهُ حتّى يبايَعَ عليٌّ.

فقال عمر: عليكم الكلب.

فأخذ سيفه من يده وضُرِبَ به الحجر وكُسِر.(١)

وجاء بعد هؤلاء أبو سفيان، صخر بن حرب، مُعلناً سخطه ووعيده على انتخاب السقيفة قائلاً: إنِّي لأرى عجاجة لا يطفِئُها إلّا الدم.(٢)

وهكذا أثار انتخاب الخليفة ضروب الفتن والكوارث الّتي عاشها المسلمون قروناً وأجيالاً، وعانوا من جرّائه أفدح الخسائر وأمضّ النوائب، وحفّز المتنافسين على الحكم والطّامعين فيه على اغتنامه والتوصّل إليه بالصِّراع الدامي والمجازر الرهيبة الّتي قوّضت أمجاد المسلمين، ومزّقت صفوفهم وصيّرتهم شيعاً وأحزاباً...

وما تلك المآسي الرهيبة، وفجائع القتل والتنكيل الّتي عاناها أهل البيت عليهم السلام من طواغيت الحكم الأموي والعبّاسي، إلّا نتيجة للخلافة المزيّفة والخلفاء المتجبِّرين الّذين تقحّموا مركز القيادة الإسلامية، بغير جدارة وتأهيل من الله عزّ وجلّ، وأصبحوا ملوكاً مستبدِّين يستبيحون دماء المسلمين، وأموالهم وكراماتهم.

(ب) إنّ الإمام بوصفه خليفة النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ووصيّه على أمّته، يجب أن يتحلّى بجميع الفضائل والخصائص الروحية المتجسِّدة في النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، كالعصمة والقداسة النفسية، والكمال الخُلقي، ونحوها من الخِلال الّتي يتعذّر استشفافها واكتشاف أبعادها في واقع الإنسان.

---

(١) الإمامة والسياسة، ج ١، ص ١١، تاريخ الطّبري، ج ٣، ص ١٩٩، شرح ابن أبي الحديد، ج ١، ص ٥٨ و ١٣٢، الرّياض النّضرة، ج ١، ص ١٦٧.

(٢) الكامل لابن الأثير، ج ٢، ص ١٣٥.

من أجل ذلك، كان انتخابه من قِبَل الأفراد المتفاوتين وعياً وشعوراً، والمتخلِّفين ميولاً وأهواءً، والمنقسمين شِيَعاً وأحزاباً، عرضةً لسوء الإنتـخاب واختيار المزيّفين والمنحرفين المتظاهرين بالصّلاح.

﴿وَمِنَ النّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قولهُ في الحَياةِ الدُّنيا ويُشْهِدُ ٱللهَ عَلى ما في قَلْبِهِ وهو ألدُّ الخِصام * وإذا تولّى سَعىٰ في ٱلأَرْضِ ليُفْسِدَ فيها ويُهلِكَ الحَرْثَ وٱلنّسْلَ واللهُ لا يُحِبُّ الفَساد﴾. (البقرة / ٢٠٤ ـ ٢٠٥)

ولك أن تُقدِّر نتائج هذا الانتخاب، ومضاعفاته الخطيرة على رسالة الإسلام ومقدّرات المسلمين!!

وهل يستطيع المنتخِبون تفادي الإنخداع بمظاهر البشر المموّهة الّتي لم يستطعه أماثل الأنبياء عليهم السلام:

«فهذا موسى كليم الله، مع وفور عقلـه، وكمال علمـه، ونزول الوحي عليـه، اخـتار من أعيان قومـه، ووجوه عسكره لميقات ربّه سـبعين رجلاً ممّن لا يشكّ في إيمانهم وإخلاصهم، فوقعت خيرته على المنافقين.

قال الله تعالى: ﴿وٱختارَ مُوسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِميقاتِنا، فلمّا أخَذَتْهُمُ ٱلرّجْفَةُ قالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أهْلَكْتَهُم مِن قَبْلُ وإيّايَ أتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ ٱلسُّفَهاءُ مِنّا ...﴾.

(الأعراف / ١٥٥)

فلمّا وجدنا اختيار مَنْ قد اصطفاه الله للنّبوّة واقعاً على الأفسد، دون الأصلح، علمنا أنْ لا اختيار لَمَنْ لا يعلم ما تُخفي الصّدور»[١].

---

(١) من رواية للحجّة المنتظر عليه السلام، بحار الأنوار، ج ١٣، ص ١٢٧.

(ج) إنّ نصب الإمام من قِبَل الأفراد، وفرض طاعته وسلطانه على عامّة المسلمين من غير تخويل إلهي أو شعبي جماهيري، يُعتبر تحدِّياً صارخاً وافتئاتاً جائراً على الخلافة الإسلامية، وحرِّية المسلمين، ومقدّراتهم، وكيف تنصاع الأمّة الواعية المتحرِّرة لموالاة هذا الإمام، وطاعته المطلقة؟! وهي عالمة أنّه لم يستمدّ سلطان إمامته من استخلاف النّبيّ له، وتأهيله إيّاه لهذا المنصب الخطير.

(د) ولو افترضنا إمكان انتخاب الإمام، لكان من أبده الأمور، وأحقّها بالإعتبار أنْ يجري انتخابه على ضوء المبادئ الشوريّة السائدة في الأعراف الدولية آنذاك، وفي جوٍّ يضمن حرِّية المنتخِب، وسلامته من دوافع القسر والإرهاب، ويمنح المنتخَب أكثريّة أصوات الأمّة، ورضاها الجماهيري، وإغفال ذلك يُعتبر تجنّباً صارخاً على حرِّية المنتخِبين ومقدّراتهم.

ومن الثابت أنّ انتخاب السقيفة لم يحرز شيئاً من تلك الشروط والمواصفات لاتِّسامه بطابع التحدِّي، وتعجّل الفرص السانحة، واستغفال أعلام الصّحابة وجمهرة المهاجرين والأنصار، للأسباب التالية:

(١) إنّه كان خلوّاً من جماهير الصّحابة، وغالب أعلامهم، ولم يحرز إجماعهم عليه، ورغبتهم العامّة فيه، وقد جرى في جوٍّ غفول، مكهرب بالمحاباة بين نفر نزر من الطامعين في الخلافة، والمخطِّطين للاستيلاء عليها.

من أجل ذلك، تخلّف ثلّة من أجلّاء الصّحابة عن بيعة المنتخَب حينذاك، ولم يبايعوه إلّا بعد القسر والإرهاب.

«وهذا أمير المؤمنين عليه السلام، وعمّه العبّاس وبنوه، وعتبة بن أبي لهب، وسائر بني هاشم، وسلمان الفارسي، وأبو ذرّ، والمقداد، وعمّار، والزّبير، وخزيمة بن ثابت، وأُبيّ بن كعب، وفروة بن عمر بن ورقة الأنصاري، وخالد بن سعيد بن العاص، والبراء

ابن عازب، ونفرٌ غيرهم تخلّفوا عن البيعـة، حتّى لحقت سيّدة النِّساء بأبيها ﷺ وانصرفت عنه وجوه الناس.

وصرّح بتخلّفه المؤرِّخون: كابن جرير الطّبري من تأريخه الشهير في أحداث السنة الحادية عشرة، وابن عبدربّه المالكي في الجزء الثاني من العقـد الفـريد، ص ١٩٧، وابن قتيبة في أوائل كتابه (الإمامة والسياسة)، وأبي الفداء في تأريخه الموسوم بالمختصر في تأريخ البشر»[١].

اسـتمع إلى عليّ عليه السلام وهو يُحاجّ المستأثرين بالحكم احتجاجاً بليـغاً صارخاً ممتنعاً عن بيعتهم والإستجابة لهم:

قال وهو يحاورهم: «أنا أحقّ بهذا الأمر منكم، لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي، أخذتم هذا الأمـر من الأنصـار، واحتججتم عليهم بالقرابة من النّـبيّ ﷺ، وتأخذوه منّا أهل البيـت غصباً. ألستم زعمتم للأنصار أنّكم أولى بهذا الأمر منهم لمكان محمّد منكم، فأعطوكم المقادة وسلّموا إليكم الإمارة.

فإذا أحتجُّ عليكم بمثل ما ٱحتججتم على الأنصار، نحنُ أولى برسول الله حَيّاً وميِّتاً، فانصفونا إن كنتم تؤمنون، وإلّا فبوؤا بالظّلم وأنتم تعلمون.

فقال له عمر: إنّك لستَ متروكاً حتّى تُبايع.

فقال له عليّ: إحلب حلباً لكَ شطره، وشدّ له اليوم يمدده عليك غداً.

ثمّ قال: والله يا عمر! لا أقبل قولك ولا أبايعه.

---

(١) راجع الفصول المهمّة للإمام شرف الدين، ص٤٦، ويراجع في هذا الموضوع: تأريخ اليعقوبي، ج٢، ص١٠٣، والرّياض النّضرة، ج١، ص١٦٧، وتأريخ أبي الفداء، ج١، ص ١٥٦، وشرح ابن أبي الحديد، ج١، ص ١٣٤.

فقال أبو بكر: فإن لم تُبايع فلا أُكرِهك»[1].

وهكذا ٱحتجّ عليهم العبّاس بن عبدالمطّب غداة حاولوا ٱستدراجه إلى البيعة، وإرشاءَهُ وتأميله بأن يكون له نصيب في الحكم، ولعقبه من بعده:

فقال: «إنّ الله بعث محمّداً نبيّاً وللمؤمنين وليّاً، فَمَنّ الله بمقامه بين أظهرنا حتّى ٱختار له ما عنده فخلّى الناس أمرهم ليختاروا لأنفسهم مصيبين للحقِّ لا مائلين عنه بزيغ الهوى.

فإن كنت برسول الله طلبت فحقّنا أخذت، وإن كنت بالمؤمنين طلبت فنحنُ منهم متقدِّمون فيهم، وإن كان الأمر إنّما يجب لك بالمؤمنين، فما وجب إذْ كنّا كارهين.

فأمّا ما بذلتَ لنا، فإن يكن حقّاً لك، فلا حاجة لنا فيه.

وإن لم يكن حقّاً للمؤمنين، فليس لك أن تحكم عليهم.

وإن كان حقّنا لم نرض عنك فيه ببعض دون بعض.

وأمّا قولك: إنّ رسول الله منّا ومنكم، فإنّه قد كان من شجرة نحنُ أغصانها وأنتم جيرانها»[2].

(٢) إغفال أهل البيت وإقصاؤهم عن مشهد الإنتخاب، وهم آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وقادة الفكر، وأعلام الإسلام، حسباً ونسباً وأمجاداً، وقد ٱستُغفِلوا ولم يُمهلوا حتّى يفرغوا من مواراة جثمان النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وتوديعه الوداع الأخير.

«فلو فُرض أنْ لا نصّ بالخلافة على أحدٍ من آل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، وفرض كونهم مع هذا غير مبرَّزين في حسب أو نسب، أو أخلاق، أو جهاد، أو علم، أو عمل، أو

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة باختصار.

(٢) الإمامة والسياسة، ج ١، ص ١٥.

إيمان، أو إخلاص، ولم يكن لهم السّبق في مضامير كلِّ فضل، بل كانوا كسائر الصّحابة، فهل كان من مانع شرعي أو عقلي، أو عُرفي يمنع من تأجيل عقد البيعة إلى فراغهم من تجهيز رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ؟ ولو أنْ يُوكّل حفظ الأمن إلى القيادة العسكرية مؤقّتاً حتّى يستتبّ أمر الخلافة.

أليس هذا المقدار من التريّث كان أرفق بأولئك المفجوعين؟ وهم وديعة النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم لديهم، وبقيّته فيهم، وقد قال الله تعالى:

﴿**لقد جاءَكُم رَسولٌ من أنفُسِكُم عَزيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّم، حَرِيصٌ عَليكُم بالمُؤمِنينَ رَؤُوفٌ رَحيم**﴾.

أليس من حقِّ هذا الرّسول الّذي يعزُّ عليه عَنت الأمّة، ويحرص على سعادتها، وهو الرؤوف بها، والرّحيم لها، أن لا تعنت عترته فلا تفاجأ بمثل ما فوجئت به، والجرحُ لمّا يندمل، والنّبيّ لمّا يُقبَر»[1].

(٣) والقائلون بالإنتخاب بعد هذا لا يخلون من فرضين:

إمّا أنْ يعترفوا بإغفال الإمامة والوصاية في التشريع الإسلامي، وإسقاطها من حسابه، أو يؤمنوا بأنّه أولاها عنايةً بالغة، وقرّر نظامها كما قرّر غيرها من أصول العقيدة وأحكام الشريعة، وآدابها المثالية.

والفرض الأوّل: يستلزم نقص الإسلام، وخلوّه من أبرز حاجات البشر، ومقتضيات التشريع العام الخالد، وبالتالي يستلزم إتّهام القرآن الكريم فيما أعلنه من اكتمال دستوره، واحتوائه على جميع متطلّبات الحياة المادِّية والروحيّة:

﴿**ما فرّطْنا في الكِتابِ من شَيء**﴾. (الأنعام / ٣٨)

---

(١) النصّ والإجتهاد، للمرحوم الإمام شرف الدين، ص ٧.

﴿ونزّلنا عَلَيْكَ ٱلقُرْآنَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيءٍ، وهُدىً ورَحْمَةً وبُشْرى للمُسْلِمِين﴾.
(النّحل / ٨٩)

﴿اليَـوْمَ أكْمَلْتُ لكُم دِينـكُم وأتْمَمْتُ عَلَيْكُم نِعْمَتي ورَضِيْتُ لَكُم الإسْـلاَمَ دِيناً﴾. (المائدة / ٣)

والفرض الثاني: يحتِّم نصب الإمام، والنصّ الصّريح على استخلافه كما تقرِّره بداهة الفرض.

(٣) خلوّ الإنتـخاب من أبرز شرائطه ومقوّماته كحرِّيـة الرأي، والإختـيار الهادف، وقد تمّ بأسلوب قسري، يتوعّد كلّ معارض للحكم الجديد، ومنحرف عن مواكبته، ما صيّر المتآمرين على الخلافة في ثورة نفسية عارمة، تخشى فشل مخطّطها المرسوم، وتتذرّع ما وسعها بألوان القمع والتكميم.

قال ابن أبي الحديد:

«كان أبو بكر وعمر وأبو عبيـدة وجماعـة من الأصـحاب لا يمرّون بأحدٍ إلّا خبطوه وقدّموه، فمدّوا يده فمسحوها على يد أبي بكر يبايعه شاء أو أبى»[(١)].

واقتحموا بعد هذا دار عليّ عليه السلام، ليقـتادوه إلى البيعـة قسراً واعتسافاً، وهم يتوعّدونه وينذرونه بحرق داره بمَنْ ضمّته من أبناء الرّسول وآله الأطهار إنْ لم يُبايع:

«لتخرجنّ إلى البيعة أو لأحرقنّها على مَنْ فيها. فيُقال للرّجل: إنّ فيها فاطمة. فيقول: وإنْ»[(٢)].

---

(١) شرح النّهج، ج ١، ص ٧٣.

(٢) تأريخ الطّبري، ج ٣، ص ١٩٨، الإمامة والسياسة، ج ١، ص ١٢، ابن أبي الحديد، ج ١، ص ١٣٤، وج ٢، ص ١٩، أعلام النّساء، ج ٣، ص ١٢٥.

وهذا ما عناه شاعر النّيل حافظ إبراهيم في قصيدته الشهيرة:

وقـــولةٍ لعـــليٍّ قـــالها عُـــمر ... أكرِمْ بسـامِعها أعظِـم بمُلقيها

حرّقتُ داركَ لا أبقي عليكَ بها ... إنْ لم تُبايع وبنت المصطفى فيها

ولأجل هاتيك المشاكل التعسّفية، قال عمر كلمته الشهيرة:

«إنّ بيعة أبي بكر كانت فلتةً، وقى الله المسلمين شرّها، فمَنْ دعاكم إلى مثلها فاقتلوه»[1].

وتفادياً من تلك المجازفات الخطيرة وضماناً لقدسيّة عرش الخـلافة، وحمـايةً لكيان الإسلام، ومقدّرات المسلمين، كان حتماً على النّبيّ ﷺ أن يستخلف إماماً كفؤاً خبيراً بأسرار الشريعة ومفاهيم الإسلام، عارفاً بأسـاليب السـياسة الإلهـية، ليخوِّله قيادة الأمّة وريادتها نحو المُثُل الإسلامية وأهدافها السامية.

وهذا هو ما صنعه النّـبيّ ﷺ وجهد في إعلامـه والتنـويه عنه في مواطن عديدة، وعلى ملأ الجماهير الإسـلامية، كحديث الدار، وحديث الغـدير، وحديث الوصيّة، ونحوها من النصوص المتواترة بين الفريقين، والّتي نعرضها في خلال الأبحاث التالية.

ومن المستغرَب جدّاً أن يتنكّر القائلون بالإختيار للنّصوص النّبـويّة، الناطقة بالإستخلاف، والمشخِّصة للوصيّ بعده، رغم ثبوتها في صحاحهم وأسانيدهم المعتبرة، ويعمدوا على تجاهلها ونكرانها، أو تحريفها عن مفادها الحقّ، ومدلولها الصّريح.

---

(١) صحيح البخاري، ج ١٠، ص ٤٤، مسند أحمد، ج ١، ص ٥٥، تأريخ الطّبري، ج ٣، ص ٢٠٠، كامل ابن الأثير، ج ٢، ص ١٣٥، تاريخ ابن كثير، ج ٥، ص ٢٤٦، راجع الغدير، ج ٥، ص ٣٧٠.

ومن هٰذين الإتّجاهين المتعاكسين في ترشيح الإمام ونصبه، نُدرك سرّ انقسام الأمّة الإسلامية في نطاق رسالتها الخالدة، وأطار دستورها الموحّد إلى طائفتين: الشيعة الإمامية والسنّة.

فاختارت الإمامية ضرورة النصّ، وحتميّة التعبّد به، والإذعان المطلق له في مختلف مجالات التشريع: العبادية، والإقتصادية، والإجتماعية، والسياسية، وغيرها من حقول الحياة، وحرّجت فيها جميع صور التحريف والتبديل، إتّباعاً للقرآن الكريم وتمسّكاً بمنطقه البليغ.

﴿وما آتاكُم الرّسولُ فخُذوه، وما نهاكُم عنهُ فانتهوا﴾. (الحشر/ ٧)

﴿وما كانَ لِمُؤْمِنٍ ولا مُؤْمِنَةٍ إذا قَضى ٱللهُ وَرَسُولُهُ أمْراً أن يَكُونَ لَهُم ٱلخِيَرَةُ مِنْ أمْرِهِمْ، ومَن يَعْصِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبيناً﴾. (الأحزاب/ ٣٦)

﴿فَلَا وربُّكَ لا يُؤْمِنُونَ حتّى يُحَكِّموكَ فيما شَجَرَ بَيْنَهُم، ثُمّ لا يَجِدُوا في أنفُسِهِم حَرَجاً مِمّا قَضَيْتَ ويُسَلِّموا تَسْلِيماً﴾. (النِّساء/ ٦٥)

واختارت الثانية التعبّد في النصوص النّبويّة المختصّة بالعبادات، والشؤون الأخروية، واستجازت لنفسها النّظر والإجتهاد، فيما سوى ذلك من نواحي التّشريع الإسلامي، وخاصّةً في المجالات السياسية، كالولايات، والإمارات، وتنظيم شؤون الدولة الإسلامية، مستسيغةً تحريفها ومخالفتها وفقَ المصالح والأهواء، والشواهد على ذلك كثيرة لا يسعها هذا البحث المجمل، فنحيل القارئ إلى السِّفر القيِّم الجليل (النصّ والإجتهاد) للإمام شرف الدين ﵀، ليشهد فيه عرضاً مسهباً من صور الإجتهاد في مخالفة النصّ الصّريح.

قال ابن أبي الحديد:

«روى أبو بكر الأنباري في أماليه أنّ عليّاً عليه السلام جلس إلى عمر في المسجد وعنده ناس، فلمّا قام عرَّض واحد بذكره ونسبه إلى التِّيه والعُجب، فقال عمر: حقّ لمثله أن يتيه، والله لولا سيفه لما قام عمود الإسلام، وهو بعد أقضى الأمّة، وذو سابقتها، وذو شرفها.

فقال له ذلك القائل: فما منعكم يا أمير المؤمنين عنه؟!

قال: كرهناه على حداثة السنّ، وحبّه بني عبدالمطّلب.

قلت: سألتُ النقيب أبا جعفر يحيى بن محمّد بن أبي زيد، وقد قرأتُ عليه هذه الأخبار، فقلتُ له: ما أراها إلّا تكاد تكون دالّة على النصّ، ولكنّي أستبعد أن يجتمع الصحابة على دفع نصّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على شخص بعينه.

فقال لي رحمه الله: إنّ القوم لم يكونوا يذهبون في الخلافة إلى أنّها من معالم الدين، وأنّها جارية مجرى العبادات الشرعية كالصّلاة والصّوم، ولكنّهم كانوا يجرونها مجرى الأمور الدنيوية، ويذهبون لهذا، مثل تأمير الأمراء، وتدبير الحروب، وسياسة الرعيّة، وما كانوا يُبالون في أمثال هذا من مخالفة نصوصه صلى الله عليه وآله وسلم ...

وقد أطبقت الصّحابة إطباقاً واحداً على ترك كثير من النصوص، لما رأوا المصلحةَ في ذلك: كإسقاطهم سهم ذوي القربى، وإسقاط سهم المؤلَّفة قلوبهم، وهذان الأمران أدخل في باب الدِّين منهما في باب الدّنيا، وقد عملوا بآرائهم أموراً لم يكن لها ذكر في الكتاب والسنّة.

قال النقيب: وكان أكثرهم ما يعملون بآرائهم فيما يجري مجرى الولايات، والتأمير والتدبير، وتقرير قواعد الدولة، وما كانوا يقفون مع نصوص الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم وتدبيراته ...

والقـوم الّذين كانوا قد غلب على ظنـونهم: أنّ العـرب لا تطيع عليّاً عليه السلام، فبعضها للحسد، وبعضها للوتر والثأر، وبعضها لاستحداثهم سِنّهُ، وبعضها لاستطالته عليهم ورفعه عنهم، وبعضها كراهة اجتماع النّبـوّة والخلافة في بيتٍ واحد، وبعضها للخوف من شـدّة وطأته وشـدّته في دين الله، وبعضها خوفاً، لرجاء تداول قبائـل العرب الخلافـة، إذا لم يقتصر بها على بيت مخصوص عليه، فيكون رجاء كلّ حي لوصولهم إليها ثابتاً مستمرّاً، وبعضها ببغضه لغضهم من قرابته لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهم المنافقون من الناس ومَنْ في قلبه زيغ من أمر النّبوّة، فأصفق الكلّ إصفاقاً واحداً على صرف الأمر عنه لغيره...»[1].

وهكذا تتمثّل وجهة نظر الإماميـة في الإسـتجابة الواعية التامّـة، والتطبيق الحرفي للنصوص النّبـويّة المتضافرة في اسـتخلاف أمير المؤمنـين عليّ عليه السلام وفرض إمامته على المسلمين.

وتتمثّل وجهة نظر غـيرهم في تأويل تلك النصـوص وصرفها عن مداليلها الصارخة، والنزوع إلى انتخاب مَنْ شاؤا للحكم الإسلامي.

فمن التجنّي والإختلاق على التشيّع أن يعتبره المفرّقون مذهباً سياسياً مبتدعاً في الإسـلام، ولّدته عواطف المـوالين للإمـام عليه السلام، وٱصطنعه الشـيعة الإمـاميـة، وٱستدلّوا على ذلك بقلّة أعدادهم نسبياً إزاء المـذاهب الإسلامية الأخرى، جاهلين أومتجاهلين أنّ القلّة والكثرة العددية لا تصلح مقياساً للتمييز بين الأصيل والدخيل، وبين الواقعيين وغيرهم، فطالما حدث الإنقسام بين أرباب العقيدة الواحدة، والمبدأ الواحد، لاختلاف وجهات نظر المنقسـمين في تفسـير بعض مفاهيمها، وتشخيص

(١) شرح النّهج لابن أبي الحديد، ج ٣، طبع دار الكتب العـربية الكـبرى، ص ١١٥ ـ ١١٦، بتصرّف واختصار.

مدلوله الحقّ، وهم رغم انقسـامهم واختلافهم يُمثّلون عقيـدة واحدة متّفقة المصادر والأهداف.

بيدَ أنّ الفرص والظروف واتت إحـدى الفئات المنقسـمة، وخوّلتها مقاليـد الزّعامة والحكم، فنمـت واتّسع مدّها عبرَ القرون، وعاقـت الأخرى عن سـيرها الصّاعد، ونموّها المأمول، فعاشت أقلّيّة مضطهدة رغم أصالتها وتجاوبها مع الحقّ.

وهذا هو ما يُفسِّر القلّة النسبية لمعتنقي التشيّع إزاء المجموعة الحاكمة.

وجدير بالذّكر: إنّ الباحثين المحقّقين اعتقدوا اعتقاداً جازماً «أنّ للحكومات دخلاً في نصرة المذاهـب وانتشارها، فإذا كانت الحكومـة قويّة وأيّدت مذهباً من المذاهب، تبعه الناس بالتقليد، وظلّ سائداً إلى أن تدول الدولة.

ومن هنا كان انتشار المذاهب وعظيم الإقبال عليها لا يدلّ على قوّتها الروحية وعواملها الذاتية، فقد رأينا أنّ قوّة الدّعاة وتدخّل السلطة أقوى عامل لنشر المذهب.

والمذاهب الأربعة نفسها كانت تختلف بالقوّة والإنشاء:

فالمذهب الحنـفي أكثر المذاهب انتشاراً، لقوّة أنصـاره وكثرة دُعاتـه، إذ كان أبو يوسف قاضي قضاة الدولة العبّاسية هو ناشر المذهب، وقد كان أبو يوسف وجيهاً في الدولة، مقبـولاً عند الخلـفاء، له منزلة لا يشاركه فيها أحد. فكان لا يولّي قاضياً إلّا من آنتسب لمدرسة أبي حنيفة.

واستمرّ القضاة في نشر المذهب في جميع الأقطار، مستمدّين قوّتهم من السلطة التنفيذية، حتّى أصبح مذهب أبي حنيفة هو المذهب الرسمي للدولة.

وقد ناصرهُ الأتراك لطمعهم في الخلافة. فإنّ السـلطان سليماً طمع في الخلافة الإسلامية، وهي لا تكون إلّا في قريش باتّفاق المذاهـب إلّا الحنـفي، فإنّه جوّز أن يتولّى الخلافة غير القرشي، فحمل الناس على اعتناق هذا المذهب.

وهكذا انتصر العبّاسيون لمالك بن أنس ـ بعد غضبهم عليه ـ فقد أمروا بقصر الفتوى عليه وأُعلِن ذلك بأمر الدولة، ونُودي ـ غير مرّة علناً ـ ألّا يفتي الناس إلّا مالك، وأمروا عمّالهم باستشارته في الأمر وعدم القطع دونه.

أمّا مذهب الإمام أحمد، فلم يكن كغيره من المذاهب شهرة، وقد اقتصر انتشاره في بغداد، وفي سائر الأقطار كان قليلاً جدّاً.

ولكنّه ظهر في القرن الثامن عشر الميلادي في صورة قويّة جديدة، بظهور الوهابيين الّذين يتبيّن في مذهبهم أثر تعاليم ابن تيميّة...»[1].

وأمّا المذهب الشافعي:

«فقد كان ظهوره أوّ لاًبمصر، وكثر أصحابه هناك، فغلب على بغداد وعلى كثير من بلاد خراسان، ودخل شيء منه إلى أفريقيا والأندلس بعد سنة ٣٠٠ هـ، وقويت شوكته، وعظمت شهرته في عهد الدولة الأيوبية الّتي كانت تتّسم سمة شافعية، وبذلوا جهدهم في نصرته.

وكان انتشار المذهب الشافعي بعد صلاح الدِّين أكثر من غيره لاعتناق الملوك الّذين تولّوا من بعده مذهب الشافعي»[2].

المذهب الجعفري:

لم يكن هذا المذهب ـ كالمذاهب الأربعة الآنفة ـ محفيّاً برعاية الحكّام ودعمهم وإسنادهم، بل كان مستهدَفاً بعوامل الهدم والتخريب من قِبَل الحكّام أنفسهم عبرَ

---

(١) كتاب الإمام الصّادق للمرحوم الحجّة الشيخ أسد حيدر، بتصرّف واختصار، ج ٣، ص ١٠ ـ ١٢.

(٢) نفس المصدر، ج ١، ص ١٦٨.

العصور الأموية والعبّاسية والعثمانية.. وعاش معتنقوه أقسى وأبشع مآسي الإضطهاد والإستعباد، ومرارة الفاقة والحرمان، ورهبة القتل الفردي والجماعي، فكان أحدهم يؤثر نبذه بالزندقة على نِحلَةِ التشيّع!!

ورغم تلك المحن والكوارث الّتي حاقت بالمذهب، فقد ظلّ صامداً شامخاً، مشعّاً بالنور زاخراً بالعطاء، وارفَ الظِّلال، محفوفاً برعاية الله عزّ وجلّ.

وذلك لتميّزه بالأصالة الإسلامية، وانطباعه بطابع أئمة أهل البيت عليهم السلام، وتوفّره على جميع الخصائص الذاتية، والطاقات الروحية الهائلة، الّتي أمدّتهُ ـ رغم وضع العوائق في سبيل سيره الصّاعد ـ بعوامل النموّ والإزدهار، وعناصر الخلود والإنتشار.

«انتشر التشيّع في الشّام بفضل الصحابي الجليل أبي ذرّ الغفاري، وهم اليوم عدد كبير اشتركوا في إدارة البلاد، وشغلوا مناصب مهمّة في حكومة سوريا، ومنهم التجّار والأطبّاء، ولهم مركز مهم هناك...

وانتشر التشيّع في لبنان، وهو محفوظ الحقوق، مرعيّ الجانب، وتخرّج فيها عدد كثير من أبطال العلم، ودعاة الإصلاح، وجهابذة المجتهدين..

وفي أندونسيا عدد كثير من الشيعة يُقدّر بثمانية ملايين نسمة.

وانتشر التشيّع في مصر، ولا زال يظهر ويخفى حسب العوامل الداعية إلى خفائه وظهوره.

وظهر التشيّع في الهند، بسبب الروابط بين العرب والهنود، ولا يخلو بلد منهم...

وانتشر التشيّع في تركيا وكثر أتباعه، ولكنّ السلطان سليم قاومَ الشيعة وقتل منهم مقتلة عظيمة.

وهكذا انتشر التشيّع في البحرين وقطر والأحساء والقطيف، ومنهم العلماء البارزون، والأدباء اللّامعون، خدموا الأمّة الإسلامية بمؤلّفاتهم القيِّمة، وآثارهم الجليلة.

وفي الأفغان انتشر التشيّع من زمن بعيد، ويُقدّر عددهم اليوم بعشرة ملايين.

وهاجر من الشيعة إلى أمريكا للتجارة، وينوف عددهم اليوم على خمسين ألفاً (*)، وهم ذوو شأن وعزّة هناك، يُقيمون شعائر الإسلام علناً.

ودخل مذهب التشيّع إلى الصِّين منذ القرن الرابع، ولهم عدد كثير هناك.

وفي روسيا كان للشيعة فيها حرِّية واسعة في إقامة الشعائر الدينية كبلاد بخارى والقوقاس، وكانوا قبل الحرب العالمية عام ١٣٣٢هـ يتواردون بكثرة لزيارة المشاهد المقدّسة.

أمّا العراق فقد انتشر فيه مذهب أهل البيت في الصدر الأوّل: في الكوفة والبصرة والمدائن. وعُرِفت الكوفة بأنّها علوية النّزعة.

وانتشر مذهب أهل البيت في بلاد إيران، حتّى أصبحت إيران كلّها شيعة حكومةً وشعباً، وقامت بخدمة المذهب ونشر مآثر أهل البيت وعمارة مراقدهم.

أمّا عدد الشيعة في اليمن فكثير جدّاً، وقد انتشر التشيّع في بقاعها منذ صدر الإسلام...» [1].

(*) هذا العدد كان سنة ١٩٧٢م، أمّا الآن فقد ازدادوا أضعافاً.

(١) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٤١ ـ ٢٤٥، بتصرّف واختصار.

شرائط الإمام

والإمام بصفته خليفة النّبيّ ﷺ، ورائد أمّته، ومثلها الأعلى، كان محتماً عليه أن يتحلّى بالخصائص المثالية، والطاقات الروحية الضخمة الماثلة في النّبيّ ﷺ، عدا شرف النّبوّة، واستلهام الوحي المباشر من الله عزّ وجلّ.

فالرّسول هو: الكوكب الإلهي المشعّ الوهّاج بنور السماء وإلهام هداها، والإمام هو: تابع ذلك الكوكب، والدائر في فلكه العُلوي، الّذي يعكس نوره وإشعاعه، ويطلّ برسالته الهادية ـ بعد أفول فجرها ـ على أرجاء الأرض، وآفاق البشرية.

وليس في مقدور الإمام أن ينهض بأعباء الخلافة الإسلامية، ومسؤوليّتها الخطيرة نهوضاً واعياً إلّا إذا كان مؤهّلاً ومزوّداً بالمواهب التالية:

١ ـ العصمة:

وهي حصانة روحية، ومناعة نفسية تعصم أربابها من مقارفة الذنوب والمساوئ رغم قدرتهم عليها.

فالعصمة من ضرورات الإمام الحقّ، وشرائطه الأصيلة، الّتي يرتكز عليها نجاح الدعوة الإسلامية، ويزدان بها عرش الخلافة، ويتحقّق بها العدل الإسلامي، لذلك فرضها العقل، وحتّمها الشّرع، كما تصوّرها البراهين التالية:

(أ) إنّ من المحال على الرّسول ﷺ ـ وهو المثل الأعلى في الحكمة، ونفاذ

البصيرة، وسداد الرأي ـ أنْ يستخلف على الأمّة الإسلامية إماماً منحرفاً عن الإسلام، ومخالفاً لشريعته ومنهاجه، إذ سرعان ما يغدو قدوة سيِّئة، وداعية ضلال لأمّته، يغويها ويسوِّل لها ضروب التحلّل والمنكرات.

(ب) إذا لم يكن تاريخ الإمام فوّاحاً بالطِّيبة والصّلاح، ولم يكن مرضيَّ السيرة والسلوك، غدا هدفاً للنّقد والإزدراء، وخسر ثقة الأمّة، واستخفّت بتوجيهه وهداه، وضاعت على يده رسالة الإسلام.

﴿يا أيُّها ٱلّذِينَ آمَنُوا لِمَ تقولُونَ ما لا تَفْعَلُون، كَبُرَ مَقْتاً عندَ اللهِ أن تقُولوا ما لا تَفْعَلُون﴾. (الصفّ / ٣)

(ج) لقد أعلن القرآن أنّ شرف الإمامة ومركزها الرفيع لا ينالها إلّا المصطفون الأبرار:

﴿إنِّي جاعِلُكَ للنّاسِ إماماً، قالَ ومِن ذُرِّيّتي، قالَ لا يَنالُ عَهْدي الظّالِمين﴾.
(البقرة/ ١٢٤)

والظالم في منطق القرآن الكريم، هو: المنحرف عن الشّرع، والمناقض لأحكامه:
﴿ومَن يَتَعدَّ حُدودَ ٱللهِ فأولئِكَ هُم الظّالِمُون﴾. (البقرة / ٢٢٩)

(د) لقد أوجب الله تعالى طاعة (أولي الأمر) كوجوب طاعته وطاعة رسوله:

﴿يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا أطِيعُوا ٱللهَ وأطِيعُوا ٱلرّسولَ وأولي الأمْرِ مِنْكُم﴾.
(النِّساء / ٥٩)

وبديهي أنّ المعنيَّ بأولي الأمر هم الأئمّة الهداة المعصومون عليهم السلام، إذ يستحيل على المولى سبحانه أنْ يأمر بطاعة العُصاة والمتحلِّلين من قِيَم الإسلام.

وماذا يكون مصير الأمّة وموقفها من الولاة العُصاة؟!!

هل هو طاعتهم والتأسّي بهم، أو عصيانهم والإنكار عليهم، وفي الأوّل: تسويغ للمعاصي وترخيص فيها، وفي الثاني: نهي عن الطاعة المفروضة، وكلاهما متناقضان يستنكرهما العقل والشّرع.

(هـ) لقد نوّه القرآن الكريم عن حصانة الأئمة الهداة من أهل البيت عليهم السلام، وعصمتهم عن الذنوب، ونزاهتهم عن الآثام والمساوئ:

﴿إنّما يُريدُ اللهُ ليُذْهِبَ عَنْكُم ٱلرِّجْسَ أهلَ ٱلبيْتِ ويُطَهِّرَكُم تَطْهِيراً﴾.

(الأحزاب / ٣٣)

والرِّجس هو الذّنب الّذي عصمهم الله من مقارفته، وطهّرهم من دنسه ومساويه.

قال محي الدين بن عربي في كتابه الفتوح المكيّة، ج ١، ص ١٩٦:

«إنّ الله سبحانه طهّر نبيّه وأهل بيته بدليل قوله تعالى: ﴿يُريدُ اللهُ ليُذْهِبَ عَنْكُم الرِّجْسَ أهلَ البَيْتِ ويُطَهِّرَكُم تَطْهِيراً﴾، والرِّجس في اللّغة القذر، ولا شيء أقذر من الذنوب..

وعليه فلا يُضاف لأهل البيت إلّا مطهّر مقدّس بل هم عين الطّهارة».

وقد صرّحت مصادر أخواننا الجمّة باختصاص هذه الآية الكريمة في أصحاب الكساء الخمسة، وهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعليّ وفاطمة والحسن والحسين صلّى الله عليهم، وأوردت ذلك في ثمانية وسبعين مصدراً، سنعرضها عند ذكر آية التطهير في الدلائل القرآنية الآتية، وسنوضّح مغزاها ودلالتها على عصمتهم.

(و) وهكذا صرّح النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بعصمة الأئمة الميامين من آله بأحاديثه المتواترة الكُثر: كحديث الثّقلين وحديث السفينة، وغيرهما من الأحاديث المحرِّضة على ولائهم، والإقتداء بهم، واستلهام مُثُلهم وآدابهم، وسنطلعك عليها في الدلائل النّبويّة.

يُحدِّثنا العالِمُ الكلامي الحبر الجليل (هشام بن الحكم) رضوان الله عليه عن فلسفة عصمة الإمام، فقال:

«إنّ جميع الذنوب لها أربعة أوجه لا خامس لها، الحرص، الحسد، الغضب، والشهوة، فهذه منتفيةٌ عنه:

لا يجوز أن يكون حريصاً على هذه الدنيا وهي تحت خاتمه، لأنّه خازن المسلمين، فعلى ماذا يحرص.

ولا يجوز أن يكون حسوداً، لأنّ الإنسان إنّما يحسد مَنْ فوقه، وليس فوقه أحد، فكيف يحسد مَنْ دونه؟

ولا يجوز أن يغضب لشيء من أمور الدنيا، إلّا أن يكون غضبه لله عزّ وجلّ، فإنّ الله قد فرض عليه إقامة الحدود وأن لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا رأفة في دينه، حتّى يقيم حدود الله عزّ وجلّ.

ولا يجوز أن يتّبع الشهوات، ويؤثر الدنيا على الآخرة، لأنّ الله عزّ وجلّ حبّب إليه الآخرة، كما حبّب إلينا الدنيا، فهو ينظر إلى الآخرة كما ننظر إلى الدنيا.

فهل رأيتَ أحداً تركَ وجهاً حسناً لوجهٍ قبيح، وطعاماً طيّباً لطعامٍ مُرّ، وثوباً ليّناً لثوبٍ خشن، ونعمةً دائمةً باقيةً لدنيا زائلة فانية»(١).

وقال الشيخ الصّدوق رحمه الله:

«إعتقادنا في الأنبياء والرّسل والأئمة عليهم السلام أنّهم معصومون مطهّرون من كلّ دنس، وأنّهم لا يُذنبون ذنباً صغيراً ولا كبيراً، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما

---

(١) البحار، ج٧، ص٢٢٨، عن الخصال وعلل الشرائع ومعاني الأخبار والأمالي، وكلّها للشيخ الصّدوق رحمه الله.

يُؤمرون، ومَن نفى العصمة عنهم فقد جهلهم.

واعتقادنا فيهم أنّهم الموصوفون بالكمال والتمام والعلم من أوائل أمورهم إلى آخرها، لا يوصفون في شيء من أحوالهم بنقص، ولا عصيان، ولا جهل»[1].

وجوزّ غير الإمامية اقتراف المعصية على الإمام، ولم يشترطوا عصمته ونزاهته عنها:

قال الباقلاني في التمهيد، ص ١٨٦:

«قال الجمهور من أهل الإثبات، وأصحاب الحديث: لا ينخلع الإمام بفسقه وظلمه بغصب الأموال، وضرب الأبشار، وتناول النفوس المحرّمة، وتضييع الحقوق، وتعطيل الحدود، ولا يجب الخروج عليه، بل يجب وعظه وتخويفه وترك طاعته في شيء ممّا يدعو إليه من معاصي الله».

وقال التفتازاني في شرح المقاصد، ج ٢، ص ٧١:

«ولا يُشترَط أن يكون الإمام هاشمياً، ولا معصوماً، ولا أفضل مَنْ يولّى عليهم».

وقال في ص ٢٧٢:

«إذا مات الإمام وتصدّى للإمامة مَنْ يستجمع شرائطها من غير بيعة واستخلاف، وقهر الناس بشوكة انعقدت الخلافة له، وكذا إذا كان فاسقاً أو جاهلاً على الأظهر، إلّا أنّه يُعطى فيما فعل، ويجب طاعة الإمام ما لم يخالف حكم الشّرع سواءً كان عادلاً أو جائراً».

وبديهيٌّ أنّ كلّ ذي وعي سليم، وضمير حرٍّ أبيّ يستبشع الموالاة والإئتمام بالفسّاق والمتحلّلين من قِيَم الدِّين والأخلاق، ويترفّع عن مشايعتهم، والرّكون إليهم:

---

(١) البحار، ج ٧، ص ٢٣٣.

﴿أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَن كانَ فاسقاً لا يَسْتَوُون﴾.   (السجدة / ١٨)

وكان من نتائج إسقاط العصمة من شرائط الإمام، وتعريته من قداستها وحصانتها الروحيّتين، أنْ هزل عرش الخلافة، واستامه المفلسون العاطلون من مؤهّلات الحكم الإسلامي، ومقوّماته الأصيلة، وتسنّمه الجبابرة والطّغاة من حكّام الأمويّين والعبّاسيّين الّذين اتّخذوا المسلمين خَوَلاً، وأموالهم مَغْنَماً، ودماءَهم وحُرماتهم هَدْراً مَهْدوراً، كما يُصوِّره تأريخهم الحافل بألوان التحكّم والجور.

٢ ـ استكمال الفضائل:

وليس في مقدور الإمام أن ينهض بأعباء الخلافة، ويُمثِّل دوره القيادي الرائد، إلّا إذا كان مستجمعاً ومستكملاً عناصر الفضل والكمال، والتفوّق على جميع الرعيّة في سائر الفضائل والمكرمات كالعلم، والحكمة، والعدل، والإخلاص، والشجاعة، والأريحية، والزّهد، والعبادة، وحُسْن التدبير ونفاذ البصيرة، ونحوها من السجايا الكريمة، والخلال الرفيعة المتجسِّدة في شخص الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم.

ولولا تلك الخصائص الغُرّ الّتي تبوِّئ الإمام عرش القلوب، وتخوِّله الرئاسة العامّة بجدارة واستحقاق، لما أهّلته السماء ليكون إماماً وحجّة على العباد، وافترضت ولايته وطاعته عليهم جميعاً، وضمنت لأوليائه سعادة الدِّين والدّنيا.

وهذا أمر بديهيّ يُحتِّمه العقل، ويفرضه الوجدان، ضرورة اتصاف الإمام بجميع مؤهّلات الرئاسة العامّة، والقيادة العُليا في الإسلام.

ويُعتبر العلم أسمى وأكرم تلك العناصر المتكاملة في الإسلام، فهو نظام عقدها، ومنطق إشعاعها الوهّاج.

لذلك وجب أن يكون الإمام أوسع الناس أفقاً، وأنفذهم بصيرة، وأوفرهم

علماً، وأعمقهم خبرةً واطِّلاعاً على أسرار الشريعة ومفاهيم الإسلام، ليكون كفؤاً قديراً على سياسة الأمّة وريادتها على ضوء الدستور الإلهي الأصيل، آمناً من مزالق الخطأ والإنحراف، وتلبية ما يُستجدّ لها من ضروب الأحكام والتكاليف، وصدّ ما يتحدّاها من شُبه الحاقدين، وأراجيفهم المضلِّلة.

منابع علم الإمام:

وهنا أودّ أن أبحث منابع علم الإمام، ومصادر استلهامه المعارف والعلوم: «فهو يتلقّى المعارف الإلهية وجميع المعلومات من طريق النّبيّ أو الإمام من قبله. وإذا استجدّ شيء لا بدّ أنْ يَعْلَمَهُ من طريق الإلهام بالقوّة القدسية الّتي أودعها الله فيه، فإن توجّه إلى شيء وشاء أنْ يَعْلَمَهُ، عَلِمَهُ على وجهه الحقيقي لا يخطأ فيه ولا يشتبه».

واقع الإلهام:

«لقد ثبت في الأبحاث النفسية: أنّ كلّ إنسان له ساعة أو ساعات في حياته، قد يعلم فيها ببعض الأشياء من طريق الحَدْس الّذي هو فرع الإلهام، بما أودع الله فيه من قوّة على ذلك.

وهذه القوّة تختلف شدّةً وضعفاً، وزيادةً ونقيصةً في البشر باختلاف أفرادهم، فيطفر ذهن الإنسان في تلك الساعةِ إلى المعرفة دون أن يحتاج إلى التفكير، وترتيب المقدّمات، أو تلقين المعلِّمين، ويجد كلّ إنسان من نفسه ذلك في فرص كثيرة من حياته، فيجوز أن يبلغ من قوّته الإلهامية أعلى الدرجات وأكملها، وهذا أمر قدّره الفلاسفة المتقدِّمون والمتأخِّرون.

لذلك كانت قوّة الإلهام في الإمام في قمّة الكمال، وأعلى الدرجات، فيكون في صفاء نفسه القدسية على استعداد لتلقِّي المعلومات في كلِّ وقت وفي كلِّ حالة.

فمتى توجّه إلى شيء من الأشـياء وأراد معرفته، إسـتطاع علمه بتلك القـوّة القدسية الإلهامية بلا توقّف، ولا ترتيب مقدّمات، ولا تلقين معلّم. وتنجلي في نفسـه المعلومات كما تنجلي المرئيات في المرآة الصـافية، لا غطش فيها ولا إبهام. ويبـدو واضحاً هذا الأمر في تأريخ الأئمّة عليهم السلام كالنّبيّ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، فإنّهم لم يتربّوا على أحد، ولم يتعلّموا على يد معلّم، من مبدأ طفولتهم إلى سنّ الرّشد، حتّى القراءة والكتابة، ولم يُسمَع عن أحدهم أنّه دخل الكتاتيب، أو تتلمذ على يد أستاذ في شيء من الأشياء، مع ما لهم من منزلة علمية لا تُجارى، وما سُئلوا عن شيء إلّا أجابوا عليه في وقته، ولم تمرّ على ألسنتهم كلمة (لا أدري) ولا تأجيل الجواب إلى المراجعة أو التأمّل أو نحو ذلك، في حين أنّك لا تجد شخصاً من فقهاء الإسلام ورواته وعلمائه إلّا ذُكرت في ترجمته تربيتُه وتلمذته على غيره، وأخذ الرّواية أو العلم عن أحد المعروفين، وتوقّفه في بعض المسائل، أو شكّه في كثيرٍ من المعلومات، كعادة البشر في كلّ عصرٍ ومصر»[1].

وصفوة القـول أنّ الإماميـة ترى ضرورة تفوّق الإمام على الرعيّـة في جميع الفضائل والمواهب، وأجاز غيرهم تقديم الإمام المفضول على الفاضل، نظراً لمعاييرهم ومقاييسهم الخاصّة.

قال القاضي في المواقف:

«جوّز الأكثرون إمامة المفضول مع وجود الفاضل، إذ لعلّه أصلح للإمامة من الفاضل، إذ المُعتبر في ولاية كلّ أمر معرفة مصالحه ومفاسده، وقوّة القيام بلوازمه، وربّ مفضول في علمه وعمله هو بالزّعامة أعرَف، وبشرائطها أقوَم»[2].

---

(١) عقائد الشيعة، للحجّة المظفّر رحمه الله، ص ٤٥ ـ ٤٧، بتصرّف بسيط. أنظر ص ٩٨ ـ ٩٩ من الجزء الثاني من أصول العقيدة للمؤلّف.

(٢) شرح المواقف، ج ٣، ص ٢٧٩.

ونحنُ نناقش تبرير تقديم المفضول على الفاضل، بحجّة تميّز الأوّل ببعض مستلزمات الإدارة والحكم على الثاني، بأنّا نقصد بالأفضل المستجمع لجميع الفضائل والكمالات البشرية، والمتحلّي بجميع مقتضيات الإمامة والقيادة العُليا في الإسلام، في جميع الشؤون والمجالات، وبهذا يبطل تميّز المفضول بصفةٍ خاصّةٍ على الفاضل المتحلّي بجميع الفضائل والخصائص المثالية.

وكيف يرتضي الوجدان هدر كرامة الفاضل، وإقصاءه عن حقّه المشروع ومركزه القيادي، وإيثار مَنْ هو دونه كفاءة وفضلاً عليه، وفي ذلك خنق للمواهب المجلّية، وهدر لقِيَم العبقرية والنّبوغ.

﴿أفَمَنْ يَهدي إلى الحقّ أحقُّ أن يُتّبع، أمَّن لا يهدِّي إلّا أن يُهْدى، فما لكُم كيفَ تَحْكُمُون﴾. (يونس / ٣٥)

٣ ـ النّزاهة من المعايب الخَلْقية والخُلُقية:

ولكي يتسنّى للإمام أن يستقطب جماهير الأمّة، ويوجّهها نحو مُثُل الإسلام وأهدافه، وجب أن يكون سليماً من جميع النقائص والمعائب الخَلْقية والخُلُقية الباعثة على نفرة الناس منه، وتباعدها عنه: كالعمى، والبرَص، والجذام، وسوء الخُلْق، وخسّة الآباء، وعهر الأمّهات، ونحوها من المساوئ المنفّرة.

٤ ـ النصّ على الإمام:

ولأجل تحقّق الفضائل والمواهب الروحية المشروطة في الإمام، والّتي يتعذّر استكشافها وسبرها من مظاهره السطحية: كالعصمة، وحُسْن السّريرة، والعفّة، والأمانة، والإخلاص ونحوها من الملكات النفسية، ولأجل تعزيز مركز الإمام ونفاذ سلطانه الروحي، وجبَ تشخيصه والنصّ عليه من النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، أو الإمام السابق عليه.

٥ ـ برهان الإعجاز:

ولمّا كانت الإمامة رئاسة روحية عامّة، ومركزاً قياديّاً مرموقاً، كثر ٱدّعاؤها وٱنتحالها من أدعيائها المزيّفين، ما سبّب التباس الصّادق بالكاذب، والمحقّ بالمبطل منهم، ومن ثمّ تشخيص صاحبها الشرعي.

وما يصنع الإمام ازاء عنت الجاهلين، ولجاجة الجاحدين لإمامته؟ لذلك كان لا بدّ للإمام من إثبات دعواه المشروعة، وإمامته الحقّ، بإظهار المعاجز الخارقة بإذن الله ونافذ مشيئته، دعماً لدعواه، وإثباتاً لإمامته.

ومتى أظهر الإمام الإعجاز الخارق، عرفنا صدق ٱدِّعائه، وصحّة إمامته، حيث يستحيل على المولى عزّ وجلّ أن يُظهِر المعجز على أيدي المدجّلين من أدعياء الإمامة، كما أوضحنا ذلك في فلسفة المعجزات في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

* * *

هذه شرائط الإمامة ومقوّماتها الأصيلة، وعلى ضوئها واستهدائها يُعرَف الإمام الحقّ الّذي فرض الله تعالى معرفته على المسلمين، وحتّم موالاته وطاعته عليهم جميعاً، وأناط بها سعادة الدِّين والدّنيا وبإغفالها وجحودها الضّلال والشِّقاء.

من أجل ذلك، كان محتّماً على كلِّ مسلم نافذ البصيرة مستنير الوعي أن يتحرّى معرفة الإمام معرفة واعية مُستمدّة من دلائل العقل، وبراهين الكتاب والسنّة، ويتوخّاها بتجرّد وترفّع عن الرواسب الفكرية، والنِّزاعات التقليدية سواء في ذلك المعترفون بالإمامة، أو الجاحِدون بها، فلا يليق بالمؤمن أن يتلقّف الإيمان تلقّفاً عاطفياً موروثاً، ويؤمن بالإمامة إيماناً سطحيّاً، لا تمتدّ جذوره إلى أعماق النفس وقرارة الوجدان، فيغدو آنذاك واهناً هزيلاً لا يصمد إزاءَ أعاصير الشُّبه وتيّارها العرم.

ورُبّ معترِض على جدوى التحدّث بالإمامة، وتشخيص صاحبها الشرعي وقد تصرّمت عهودها، وأصبحَ النِّقاش فيها والجدل حولها من ألوان التّرف الفكري، واجترار الأحداث والمنازعات التأريخية العقيمة!!

وهذا اعتراض مغفّل لا يفقه واقع الإمام، وحتميّة معرفته وموالاته على جميع المسلمين، وتلقِّي المفاهيم الإسلامية والأحكام الواقعية عنه، كما صوّره الحديث السالف في مُستهلّ البحث:

«مَنْ ماتَ ولم يعرف إمام زمانه ماتَ ميتةً جاهليّة».

ومن هنا وجب الإيمان به، واتّخاذه ذريعة إلى السعادة والنّجاة في عاجل الحياة وآجلها، وسواء ذلك حال حياة الإمام أو بعدها، إذ الإمام هو ممثِّل النّبيّ ﷺ، ومحقِّق أهدافه، ورائد أمّته إلى الصّلاح والرّشاد.

ولذلك اعتبر الإسلام موالاته موالاة للرّسول ﷺ، ومخالفته مخالفة للرّسول، وأنّها تُمثِّل حجر الزاوية في بناء العقيدة، وكيان الإيمان.

وهذا ما يُفسِّر ويُعلِّل موالاة الإمامية لأئمّتهم الأطهار عليهم السلام، بوصفهم أبناء النّبيّ ﷺ، وخزّان علمه، وحُماة شريعته، ولم تكن وليدة تعصّب أو محاباة كما يزعم المفرِّقون، وإنّما كانت استجابة واعية، وتلبية صادقة لدعوات القرآن الكريم والسنّة النّبويّة إلى التمسّك بحبلهم، والسّير على هداهم.

وسأعرض في الأبحاث التالية نماذج من تلك الدعوات المشخّصة للإمام، والمحرِّضة على ولائه، مستمدّاً من الله تعالى العون والسّداد.

❊ ❊ ❊

مَنْ هو الإمام؟

يعتقد الإمامية أنّ الإمام الحقّ، والخليفة الشرعي بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مباشرة هو أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ثمّ تنحدر الإمامة متسلسلة في أبنائه المعصومين الأحد عشر عليهم السلام، واستدلّوا على ذلك بدلائل عقلية ونقلية.

واعتقد غيرهم أنّها مختصّة بالخلفاء الراشدين حسب تعاقبهم في الخلافة، وتسنّمهم مركز الحكم.

الدلائل العقلية:

واحتجّ الأوّلون على اعتقادهم بالأدلّة التالية:

(١) إنّ الإمام يجب أن يكون معصوماً كما أوضحناه، ومن الثابت أنّ الخلفاء الراشدين عدا عليّ لم يكونوا معصومين، حيث لم يدّعوا العصمة لأنفسهم ولم يثبتها لهم أحد، وعليٌّ هو المتّسم بالعصمة، والمتفرِّد بها دونهم، بشهادة القرآن الكريم، والنّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الّتي سنوافيك بها في مظانها من الأبحاث التالية، لذلك كان هو الوصيّ المباشر، والخليفة الشرعي بعد الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم.

(٢) إنّ من دلائل الإمام، وآيات إمامته نصّ الإمام السابق عليه، أو ظهور المعجزة على يديه كما سبق بيانه. وغير عليّ عليه السلام من الخلفاء لم يدّعِ نصّاً نبويّاً عليه، أو يُظهر معجزة خارقة مسلّمة تثبت دعواه، وعليٌّ هو المتميِّز بهما، والحائز على شرفهما معاً بشهادة صحاح الفريقين، لذلك كان هو الإمام الحقّ المفترَض الطّاعة والموالاة.

(٣) عرفنا ضرورة أفضليّة الإمام على سائر الرعيّة، وتفوّقه عليهم في جميع الفضائل والمحامد، لقُبح تقديم المفضول على الفاضل شرعاً ووجداناً، ومن الثابت أنّ عليّاً عليه السلام كان أوّل الناس إسلاماً، وأوفرهم علماً، وأكثرهم جهاداً وتضحيةً في سبيل

الله، وأسخاهم يداً، وأنصعهم تأريخاً، وأجمعهم لعناصر الفضل والكمـال، وليس في المسلمين مَنْ يُضاهيه أو يُباريه في سوابقه وأمجاده.

وبهذا كان أحقّ بالإمامة وأجدر بها ممّن سواه.

هذه إلمامة قصيرة، وعرض خاطف لأبرز الدلائل العقلية في تشخيص الإمام، وقد صعّدها بعض الباحثين الأعلام على أعداد ضخمة وفيرة.[١]

الدلائل القرآنية على إمامة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام:

من الواضح أنّ أساليب القرآن الكريم، وطرائق تعبيره عن مفاهيم الوحي ورسالة السماء، تتفاوت تفاوتاً ملحوظاً، إجمالاً وتفصيلاً، وضوحاً وإبهاماً، تصريحاً وتلويحاً، حسب مقتضيات بلاغته، وحكمة أهدافه.

فهو تارةً يعرض مفاهيمه عرضاً واضحاً مشرقاً لا غموض فيه ولا إبهام، كالأحكام التفصيلية الواردة في حقوله التشريعية.

ويعرضها تارات أخرى عرضاً مجملاً لا يشف عن مدلوله ومغزاه، موكلاً تفسيره وشرحه إلى الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم كالمبادئ العامّة، والقضايا الكلّيّة، ذات المصاديق العديدة، والمداليل الجزئية: كالصّلاة، والصِّيام، والحجّ، والزّكاة، فإنّها رغم ورودها في القرآن الكريم، ورغم تركيزه الملحّ عليها، فإنّه لم يُفصِّلها تفصيلاً واضحاً يصوِّر هيئتها، وأجزاءَها وشرائطها، ما جعل القرآن بحاجة ماسّة إلى شرح السنّة وتفاصيلها الموضحة.

والإمامة في القرآن الكريم من هذا النمط الثاني، فإنّه رغم توفّر آياتها فيه،

---

(١) يُراجع كتاب الألفين، للعلّامة الحلّي رحمه الله.

واهتمامه البالغ فيها، فإنّا لا نتبيّن أغراضها ومداليلها إلّا بدراستها على أضواء السنّة، وشرحها وتفسيرها المعبِّرين عنها، والموضِّحين لها.

وقد استهدف القرآن الكريم بإجمال آيات الإمامة، ولم يُصرِّح بإسم الإمام المعنيّ فيها، حكمةً بالغةً، ورعايةً سامية عطوفاً لمشاعر المسلمين وإيمانهم به.

ذلك أنّه لو شخّصه وصرّح به لأوشك أن يستثير حنق المنافسين له والحاقدين عليه، وربّما دفعهم هَوَس الحسد والحقد إلى تكذيب القرآن أو الطّعن فيه، ممّا يوجب إباقهم وارتدادهم عن الإسلام، كما حدث ذلك إبّان مرض الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم وقُرب وفاته أن اتُّهم بالهجر والهذيان، حين ناشدهم أن يأتوه بدواةٍ وصحيفةٍ ينصّ فيها على وصيِّه، والإمام المستخلَف على أمّته نصّاً صريحاً، يُنجيهم من الخِلاف فيه، ويُحتِّم عليهم وَلاءَهُ، فنبزوه بالهجر والهذيان رغم عصمته، وتزكية القرآن له:

﴿وما يَنْطِقُ عَنِ ٱلهَوىٰ إنْ هُوَ إلّا وَحْيٌ يُوحىٰ، عَلَّمَهُ شَديدُ ٱلقُوىٰ﴾.

(النّجم/ ٣)

عن سعيد بن جبير، عن ابن عبّاس، قال، كان يقول: يوم الخميس، وما يوم الخميس!! قال: وكأنِّي أنظر إلى دموع ابن عبّاس على خدِّه كأنّها نظام اللّؤلؤ، قال، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «آتوني بالكتف والدّواة أكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعده أبدا»، قال، فقالوا: إنّما يهجر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم.[1]

وليست مخالفة القرآن الكريم أو الطّعن فيه بأشدّ من مخالفة النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم واتّهامه بتلك الفرية الجاهلية.

---

(١) الطّبقات الكبرى، لابن سعد، ج ٤، ص ٦٠، وقد ذكرنا نظير هذا الحديث ص ٢١، فراجعه هناك.

من أجل ذلك، أجمل القرآن أمر الإمامة، وأوكل توضيحها، وتعيين صاحبها الشرعي إلى النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، كما أوكل إليه تفاصيل الفرائض والأحكام المجملة فيه.

قال الإمام شرف الدين رحمه الله:

«إنّ العرب عامّة، وقريشاً خاصّة، كانت ترى: أنّ أمير المؤمنين وترها وسفك دماءها بسيفه، حيث جاهدها في سبيل الله، وقهرها في إعلاء كلمة الله، وقد عصبوا به كلّ دم أراقه الإسلام على عهد النّبوّة على عاداتهم في أخذ ثاراتهم، إذ كانوا يعصبون دماءهم بالزّعيم نفسه، أو بأمثل عشيرته وأفضل أهل بيته، وعليٌّ كان أمثل الهاشميين برسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وأفضلهم من بعده، لا يدافع ولا ينازع في ذلك.

ولذا عصبوها به، فتربّصوا به الدوائر، وأضمروا له ولذرِّيته كلّ سوء، ووثبوا عليهم في كلِّ جيل من أجيال الأمّة العربية كلّ وثبة.

وكانوا ـ إلى ذلك ـ يحسدونه على ما آتاه الله من فضله حيث بلغ بعلمه وعمله وخصائصه وسوابقه رتبة عند الله ورسوله تقاصرت عنها الأقران، وانقطعت دونها المطامع.

وبذلك دبّت عقارب الحسد له في قلوب المتنافسين وكبار القوم، فأجمعوا على نقض عهده مهما كلّفهم الأمر.

وهكذا كان العرب قد تشوّقوا إلى تداول الخلافة في قبائلهم، فتتابعوا على صرف الخلافة (بعد النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم) عن بني هاشم، مخافة أن لا تخرج عنهم، وتصافقوا على جعلها من أوّل مرّة بالإختيار والإنتخاب، ليكون لكلِّ قبيلة من قبائل العرب أمل في الوصول إليها ولو بعد حين.

على أنّ مَنْ ألمّ بتاريخ قريش وسائر العرب في صدر الإسلام يعلم: أنّهم لم يخضعوا للنّبوّة الهاشمية إلّا بعد أن تهشّموا ولم يبقَ فيهم من قوّة، فكيف يرضون في

اجتماع النّبوّة والخلافة في بني هاشم ؟!

إذا عرفت هذا كلّه، تعلم: أنّ أمر الإمامـة كان حرجاً إلى الغاية، إذ أنّها من أصول الدِّين، فلابدّ من تبليغها، والعهـد بها إلى كفئها على كلِّ حال، وهنا الخـطر والإشفاق، لأنّ أولئك البغاة كانوا يأبون تبليغها والعهد بها إلى صاحبها كلّ الإباء، وكانوا يصدّون عن ذلك كلّ الصّدود.

وقد علم الله ما أضمروه من الفتنة في هذا السبيل، وما تأهّبوا وأعدّوا وتجهّزوا له من الوثبة إذا عهد بها النّبيّ إلى الوصيّ.

لذلك لم تقتض حكمته تعالى، ولطفه بعباده ورفقه بهم، أن يُفاجئهم بآية من القـرآن الكريم يُنزلها نصّـاً صريحاً جليّاً، لما في نزولها على ذلك الوجـه من الضّرر والخطر، لأنّها حنيئذٍ لا محالة تُحرج أولئك الأوغاد، فتُخرجهم على الله ورسوله بثورة في الإسلام شـعواء، فيها الخطر على الأمّـة، والتغدير بالإمام وبالنّـبيّ وبالدِّين كلّه فروعه وأصوله.

لهذا لم تقتض حكمة الله تعالى أن يُعيّن الإمام بالآية الصريحـة، وإنّما اقتضت حكمته تعيينه بآيات لا تُحرج أولئك المعارضين.

وقد أمر الله تعالى نبـيّه صلى الله عليه وآله وسلم أن يعهد بالإمامة إلى عليّ عليه السلام على الوجه الّذي يراعى فيه الحكمة، ويتحرّى فيه المطابقة لمقتضى تلك الأحوال، فلم يأل سيّد الأنبياء والحكماء في ذلك جهداً، إذ كان يورد نصوصه في ذلك منذ بُعِثَ بالحقِّ إلى أن لحقَ بالرّفيق الأعلى.

تدرّج النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في أمر الولاية بأحاديثه المختلفة، وأساليبه المتنوّعة تدريجاً حسب مقتضيات الأحوال، ولم يُفاجئهم بها دفعة واحدة.

بهذا خفّض النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من غلوائهم، وأمن معرتهم، فتدرّجوا معه بالقبول

شيئاً فشيئاً، حتّى كان يوم الغدير، فأعلنَ الأمر لتلك الجماهير بعد أن أمره الله بذلك، وضمنَ له العصمة من أذاهم:

﴿يا أيُّها الرّسولُ بَلِّغ ما أُنْزِلَ إلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وإنْ لَمْ تَفْعَلْ فما بَلَّغْتَ رِسالَتَه واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاس﴾. (المائدة / ٦٧)

فجمع بذلك بين تعيين الإمام، وحفظ الأمن والنظام، وما كان المعارضون يحسبون أن يقف موقفه يوم الغدير أبداً، فلمّا وقف هذا الموقف، وأدّى فيه عن الله ما أدّى، رأوا أنّ معارضته في آخر حياته وقد بخعت العرب لطاعته لا تجديهم نفعاً، بل توجِب سقوطهم بالخصوص أو سقوط الإسلام والعرب عامّة، فيفوتهم المنصب الّذي كانوا له يعملون.

لهذا أجمعوا على تأجيلها إلى وقتها بعد وفاة النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

وهكذا كان الأمر، وأوحى الله عزّ وجلّ إلى نبيِّه بما يضمرون، وأطلعه على ما سيكون، لكنّ الدِّين لا بدّ من إكماله، والنِّعمة لا بدّ من إتمامها، والرِّسالة لا بدّ من أدائها:

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ويَحْيىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بيِّنة﴾»[١].

وبديهيّ أنّ نصوص السنّة النّبويّة في حقل الإمامة لا يُحتجّ بها على منكرها، ولا يمكن إقناعه وإلزامه بها، إلّا إذا كانت مرويّة في صحاحه المعتبرة عنده، ومصادره الموثوقة لديه.

وعلى ضوء هذه الفكرة، وانطلاقاً من هذه الزاوية، نستعرض في هذا الفصل طَرفاً من الآيات الكريمة الناصّة على إمامة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام وخلافته المباشرة بعد الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) فلسفة الميثاق والولاية، للإمام شرف الدين، ص ١٧ ـ ٢٦، باختصار.

١ ـ ﴿إنّما وَلِيُّكُم ٱللهُ ورسُولُهُ وٱلّذِينَ آمَنُوا ٱلّذِينَ يُقيمُونَ ٱلصّلاةَ ويُؤتُونَ ٱلزّكاةَ وهُمْ راكِعُون﴾. (المائدة / ٥٥)

أجمع الإمامية على نزول هذه الآية المباركة في عليّ عليه السلام يوم تصدّقه ـ حالَ صلاته ـ بخاتمه على أحد المساكين، وطابقهم على ذلك أعلام الحفّاظ، والمفسّرين من غير الإمامية، ما خلّد هذه المنقبة خلود القرآن، يُرتّلها المسلمون آناء اللّيل وأطراف النّهار.

وإليك نصّ الواقعة:

«أخرج أبوإسحاق الثّعلبي في تفسيره، بإسناده عن أبي ذرّ الغفاريّ، قال: أما إنّي صلّيتُ مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً من الأيام الظّهر، فسأل سائل في المسجد، فلم يُعطه أحد شيئاً، فرفع السائل يديه إلى السماء وقال: اللّهمّ ٱشهد أنّي سألتُ في مسجد نبيّك محمّد صلى الله عليه وآله وسلم فلم يُعطني أحد شيئاً، وكان عليّ رضي الله عنه في الصّلاة راكعاً، فأومأ إليه بخنصره اليُمنى وفيه خاتم، فأقبلَ السائل فأخذ الخاتم من خنصره، وذلك بمرأى من النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وهو في المسجد، فرفعَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طرفه إلى السماء وقال: اللّهمّ إنّ أخي موسى سألك فقال: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لي صَدْري * ويَسِّرْ لي أمْري * وٱحْلُلْ عُقْدَةً من لِساني يَفْقَهُوا قَوْلي * وٱجْعَلْ لي وزيراً مِنْ أهْلي * هارُونَ أخي * ٱشْدُدْ به أزْرِي * وأشْرِكْهُ في أمْري﴾ [1]، فأنزلتَ عليه قرآناً: سنشدُّ عضدكَ بأخيكَ ونجعل لكُما سلطاناً فلا يصلون إليكما.

اللّهمّ وإنّي محمّدٌ نبيّك وصفيّك، اللّهمّ وٱشرح لي صدري، ويسّر لي أمري، وٱجعل لي وزيراً من أهلي عليّاً، ٱشدد به ظهري.

قال أبوذرّ رضي الله عنه: فما ٱستتمّ دعاءه حتّى نزل جبرئيل عليه السلام من عند الله عزّ

(١) طه / ٢٥ ـ ٣٢.

وجلّ، وقال: يا محمّد! اقرأ: ﴿**إنّما وَليّكُم ٱللهُ ورسولهُ وٱلّذينَ آمَنُوا**﴾ الآية»[1].

دلالة الآية:

إتّفق اللّغويّون أنّ أداة (إنّما) تفيد الحصر والتخصيص. وأنّ (الوليّ) في الآية هو الأجدر والأحقّ بالتصرّف في شؤون المُولّى عليه، فهو مرادف للإمـام، وممـاثل لاصطلاحات العرب: السلطان وليّ الرعيّة، وفلان وليُّ الطّفل، ووليُّ المرأة، والمراد بها الولاية عليهم، وأحقِّية التصرّف في شؤونهم، وهذا هو المتبادر من الوليّ.

وقد أفادت الآية الكريمة حصر الولاية العامّة بالله عزّ وجلّ، وبالرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم وعليّ عليه السلام، لانطباق الصّفات المنوّه عنها في الآية عليه دون غيره، وهي:

الإيمان، وإقامة الصّلاة، وإيتاء الزّكاة حال ركوعه، ونزول الآية فيه، كما يُشعر بذلك تعاطف الآية، وتضافر قرائنها الحالية والمقالية.

وإنّما أطلق القـرآن الكريم لفظ الجمع (الّذين آمنوا) على الإمام عليه السلام، وهو فرد واحد، تفخيماً له، وتعظيماً لشأنه، كما أطلقت آية المباهلة لفظ الأبناء على الحسنين عليهما السلام، والنِّساء على الزّهراء عليها السلام، والأنفس على عليّ عليه السلام.

ولهذا الإطلاق أشباه ونظائر في القرآن والسنّة وكلام العرب: من ذلك، قوله تعالى:

---

(١) ذكر ذلك الطّبري في تفسيره، ج٦، ص١٦٥، والواحدي في أسباب النّزول، ص١٤٨، والرّازي في تفسيره، ج ٣، ص ٤٣١، والخازن في تفسيره، ج ١، ص ٤٩٦، والنّيسابوري في تفسيره، ج٣، ص٤٦١، وابن حجر في الصّواعق، ص٣٥، وجمع غفير من الحفّاظ والمفسّرين. وقد ذكر المرحوم الحجّة الأميني في غديره، ص٦٦ مصدراً من مصادر اخواننا في نزول الآية في الإمام عليّ عليه السلام، فراجع الجزء الثالث، ص ١٥٦ ـ ١٦٢.

﴿الّذِينَ قالَ لهُم ٱلنّاسُ إنّ ٱلنّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُم فاخْشَوْهُم فَزادَهُم إيماناً وقالُوا حَسْبُنا ٱللهُ ونِعْمَ الوَكيل﴾. (آل عمران / ١٧٣)

وقد أجمع المفسِّرون أنّ المعنيّ بصيغة الجمع (الناس) شخص واحد، وهو نعيم ابن مسعود الأشجعي، حيث رشاهُ أبو سفيان على إشاعة الفزَع والأرجاف في صفوف المسلمين، وإرهابهم من سطوة الكفّار والمشركين، إضعافاً لمعنويّاتهم وتثبيطاً لهم عن مقارعتهم.

وتأثّر المسلمون بتلك الحرب النفسيّة، وخذلتهم عن نصرة الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم، ممّا ٱضطُرَّهُ إلى جهاد الأعداء بسبعين فارساً مغواراً، لا يرهبون الموت، ولا يعبأون بإرجاف الكفر ووعيده، فأظفرهُ الله بهم، ونصرهُ عليهم، وبذلك أطلقت الآية لفظ الجمع على ذلك المرجف تبجيلاً وتكريماً للمجاهدين الّذين لم يستجيبوا لإغوائه، ولم يكترثوا بتخويفه.

وهكذا فهم المسلمون الأوّلون بتمرّسهم في فنون البلاغة وأساليب البيان واقع (الوليّ) ومدلوله الحقّ، وعرفوه من قرائن النصوص النّبويّة المحفِّزة على ولاء عليّ عليه السلام والمحذِّرة من عدائه، من ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم من حديث عمران بن حصين:

«إنّ عليّاً منِّي وأنا منه، وهو وليُّ كلّ مُؤمنٍ بعدي»(١).

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم من حديث بُريدة:

---

(١) صحيح التّرمذي، ج ٢، ص ٢٩٧، ورواه أحمد بن حنبل في مسنده، ج ٤، ص٤٣٧، باختلاف لفظي يسير، ورواه أبونعيم في حليته، ج٦، ص٢٩٤، والنِّسائي في خصائصه مختصراً، ص١٩ و٢٣، والمتّقي في كنز العمّال، ج٦، ص ١٥٤. راجع الفضائل الخمسة من الصِّحاح الستّة للعلّامة السيِّد مرتضى الحسيني الفيروزآبادي، ج ٢، ص ٣ ـ ٦، والغدير، ج ٣، ص ٢١٦.

«لا تقعْ في عليّ، فإنّه منِّي وأنا منه، وهو وليّكم بعدي»[1].

عرف المسلمون واقع (الوليّ) ومغزاه الصّريح، بيدَ أنّ حسّاد الإمام عليه السلام عمدوا على تحريف جميع النصوص القرآنية والنّبـويّة في وصايته وإمامته العامّـة، وتضليل مداليلها الصارخة، ففسّروا الوليّ في هذه الآية الكريمة: بالناصر، والصّديق، والمحبّ، بحجّة اشتراكها وترادفها في مدلول الوليّ، وتوهمّ ورود الآية في سياق النّهـي عـن مودّة الكفّار.

وفاتهم أنّ تفسير الوليّ بتلك التفسيرات الإعتباطية لا يستوجب إخفاء القرآن الكريم، وتمجيده بأريحيّة عليّ عليه السلام غبّ تصدّقه بالخاتم، ولا ينسجم وحصر الولاية وقصرها على الله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم والإمام عليه السلام، وفاتهم بعد هذا وذاك أنّ تلك الأوصاف المزعومة (الناصر والمحبّ...) لا تخصُّ علـيّاً عليه السلام، وإنّما هي شاملة عامّة لجميع المؤمنين.

وأمّا الادّعاء بأنّ سـياق الآية ظاهر فيما ذهبـوا إليه، فيُفنِّده أنّ آية التصدّق مفصولة عن الآيات المحذِّرة عن مودّة الكفّار، وداخلة في سياق إعلامي جديد يُصوِّر سخط السماء ووعيدها للمرتدِّين عن الدِّين، والخارجين عليه:

﴿يا أيُّها الّذِينَ آمَنُـوا مَن يَرتدَّ مِنْكُم عن دِينِهِ فَسْوْفَ يأتي اللهُ بِقَومٍ يُحِبُّهُم ويُحِبُّونهُ أذِلّةٍ عَلى المُؤْمنينَ أعزّةٍ عَلى ٱلكافِرين ويُجاهِدونَ في سَبيلِ ٱللهِ ولا يخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾. (المائدة / ٥٤)

---

(١) مسند أحمد بن حنـبل، ج ٥، ص ٣٥٦، والنِّسـائي في خصائصـه باختلاف يسـير، ص ٢٤، والهيثمي في مجمع الزّوائد، ج ٩، ص ١٢٧، والمتّـقي في كنز العمّال، ج ٦، ص ١٢٤، وغير هؤلاء.

هذا إلى أنّ السِّياق لا يكافئ النصوص المتواترة في اختصاص الآية بعليّ عليه السلام ونزولها فيه، ولو عاد لنا النصّ والسِّياق في ميزان التعديل والترجيح، لفاقه الأوّل ورجح عليه، لحجّته القاطعة، وانتفاء تسلسل الآيات الكريمة حسب نزولها، كما نُفصِّله في الأبحاث التالية.

* * *

٢ ـ ﴿ يا أيُّها ٱلرّسولُ بَلِّغ ما أُنْزِلَ إليكَ من رَبِّكَ وإنْ لم تَفْعَلْ فما بَلَّغْتَ رِسالَتَه وٱللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاس ﴾. (المائدة / ٦٧)

أجمع الإمامية على نزول هذه الآية الكريمة على النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في حجّة الوداع يوم الثامن عشر من ذي الحجّة من السنة العاشرة الهجرية، غداة قفوله من الحجّ، وعند بلوغه غدير (خم).

ولمّا بلغه صلى الله عليه وآله وسلم هبط الأمين جبرئيل بهذه الآية: **﴿ يا أيُّها الرّسولُ بَلِّغ ما أُنْزِلَ إليكَ من رَبِّكَ ﴾**، وكان موكب الحجّ مؤلّفاً من مائة ألف حاج أو يزيدون، فاسترجع النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مَنْ تقدّم منهم، وٱستوقف المتأخِّر، وتلاقى الجميع في رحاب الغدير، ووقف آنذاك صلى الله عليه وآله وسلم خطيباً فيهم، صادعاً بأمر الله تعالى، ومُبلِّغاً رسالته قائلاً:

«**ألستُم تعلمون أنِّي أولى بالمؤمنين من أنفسهم**، قالوا: بلى! قال: **ألستُم تعلمون أنِّي أولى بكلِّ مؤمنٍ من نفسه**، قالوا: بلى، قال (الرّاوي) فأخذ بيَد عليٍّ، فقال: **مَنْ كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه، اللّهُمّ والِ مَنْ والاهُ وعادِ مَنْ عاداه**. قال (الرّاوي) فلقيه عمر بعد ذلك، فقال له: هنيئاً يا ابن أبي طالب، أصبحتَ وأمسيتَ مولى كلِّ مؤمنٍ ومؤمنة».

وقد شهد بنزول آية التبليغ، وخطبة النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في يوم الغدير، جماعة من

أعلام الحفّاظ والمفسّرين، وسجّلوا ذلك في حشدٍ من المسانيد والأسفار.[1]

يلحظ الباحث في الآيات التحريضية الّتي جاءت تحفِّز النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وتحرِّضه على نشر الدعوة الإسلامية، ومواصلة تبليغها وتركيزها، أنّها اتّسمت برقّة الأسلوب، وعذوبة الألفاظ، وروعة الرأفة والإشفاق.

﴿فإنّما عَلَيْكَ ٱلبَلاغُ وعَلينا ٱلحِساب﴾. (إبراهيم / ٤٠)

﴿إنّما أنتَ مُذكِّر، لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِر﴾. (الغاشية / ٢٢)

﴿فاصْبِر كما صَبَرَ أولُو ٱلعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُل﴾. (الأحقاف / ٣٥)

أمّا آية التبليغ فقد تميّزت عن تلك الآيات بأسلوب قاصف مزمجر، يستحثّ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على تبليغ محتواها ويتوعّده على كلِّ إرجاءٍ أو تأخير: ﴿**وإن لَمْ تَفْعَلْ فما بَلَّغْتَ رِسالَتَه**﴾. فما هذا الّذي يُحتِّم القرآن الكريم إبلاغه على سيّد الرّسل صلى الله عليه وآله وسلم، ويُنذره بهدر جهوده الرسالية الجبّارة على إغفاله؟!!

لقد بلّغ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم رسالة الإسلام أروع بلاغ وأتمّه وأوفاه، ولم يدّخر وسعاً في سبيل ذلك، فما هذا الّذي يعدل إبلاغه إبلاغ الرسالة بأسرها، وإغفاله إغفالها؟!!

وما هذا الّذي يتهيّب النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم تبليغه، ويخشى إعلانه؟!! وهو الّذي لا يخالجه الخوف، ولا يجد سبيلاً إلى قلبه، فيُطمئنه الله عزّ وجلّ بحمايته وعصمته ممّن

(١) ذكره الإمام أحمد في مسنده، ج ٤، ص ٢٨١، وفخرالدّين الرّازي الشّافعي في تفسيره الكبير، ج ٣، ص ٦٣٦، وابن الصّبّاغ المالكي في فصوله، ص ٢٧، والسّيوطي الشّافعي في الدرّ المنثور، ج ٢، ص ٢٩٨، والشّوكاني في تفسيره فتح القدير، ج ٣، ص ٥٧. وقد ذكر الحجّة الحبر الأميني رحمه الله ثلاثين مصدراً روت نزول الآية الكريمة في يوم الغدير. راجع الغدير، ج ١، ص ٢١٤ ـ ٢٢٣.

يتهيّبه ويخشاه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾. والجواب الرضيّ عن ذلك: أنّ الوحي الإلٰهي جاء يستحثّ النّبيّ ﷺ على إبلاغ الجماهير الإسلامية نصّ السماء على عليّ بالإمامة، وٱستخلافه عليهم جميعاً، كما صوّرتهُ النصوص المستفيضة في صحاح الفريقين. وهذا ما كان يتهيّب الرّسول ﷺ إعلانه خشية ٱتّهامه بمحاباةصهره وٱبن عمّه، وإيثاره على عامّة الصّحابة بالوصاية والإستخلاف، وخوفاً من تمرّد حسّاد الإمام ومنافسيه عن رغبة السماء وأمرها النافذ.

لقد كان النّبيّ ﷺ يستشفّ الرواسب الجاهليّة، والعُقَدَ النفسيّة، الّتي كانت تضطرم في قلوب غالبهم إزاء عليّ عليه السلام، لقتله صناديد قريش وأبطال العرب في سبيل الإسلام، فهي لا تَنْسىٰ وترها وأحقادها عليه رغم ٱعتناقها الدِّين الإسلامي، وتفيُّوئها ظلاله.

وهو الّذي ٱستثارت أمجاده وفضائله حسد الحسّاد، وحنق المنافقين له، فطفقوا يتجنّون عليه، ويسعون جاهدين في إطفاء نوره، وطمس مآثره وبطولاته، وإقصائه عن مركزه القيادي الرفيع.

استشعر النّبيّ ﷺ ذلك، وتلمّس آثاره في نفوس القوم، ما جعله يتهيّب إبلاغهم رغبة السماء، وإرادتها المُلحّة باستخلاف عليّ عليه السلام.

فماذا يصنع الرّسول والحالة هذه؟

أيترك رعاية الأمّة الإسلامية، وقيادتها العُليا شاغرةً من القائد الموجِّه بعد وفاته، وهو يعلم تآمر الحاقدين على الإسلام، من داخل الجزيرة العربية وخارجها، وتألّبهم على محقه والقضاء عليه، أم يترك الخلافة الإسلامية في مهبِّ أعاصير الشورى وسورات المنافسات الخطيرة بين المهاجرين والأنصار، والطّامعين في الحكم،

وهذا ما يأباهُ عطفه وحرصه البالِغَـيْن على سعادة أمّتـه وسلامها من دوافع الفرقة والإنقسام.

فلم يبقَ أمام الرّسول ﷺ إلّا سبيل واحد، لا مناصَ منه، ولا محيدَ عنه، وهو إبلاغ المسلمين رسالة الوحي، وإعلامهم باستخلاف عليّ عليه السلام وإمامته عليهم جميعاً.

فانبرى ﷺ إلى خطاب تلك الحشود الزّاخرة المتجمِّعة في رحاب الغدير، مستدرجاً إيّاهم ببلاغته الفائقة، وأسلوبه النّبويّ الرّفيع، قائلاً: «ألستُم تعلمون أنِّي أولى بالمؤمنين من أنفسهم»، وبهذا أشعرهم بولايته عليهم، وأولويّته بالتصرّف في شؤونهم، ورعاية مصالحهم، وتنظيم حياتهم، وعقّب بعد هذا قوله: «ألستُم تعلمون أنِّي أولى بكلِّ مؤمنٍ من نفسه»، وبعد هذا التقرير الهادف، والإستنطاق البليغ، أعلنَ بصراحةٍ وجدٍّ إمامة عليّ، وولايته العامّة عليهم جميعاً: «مَنْ كنتُ مَولاهُ فعليٌّ مولاه»، وبعد أن قلّد الإمام وسـام الإمامـة، وعهد الخلافـة، طفقَ يُبارك هذا العهد الجـديد والمركز الخطير في دُنيا الإسـلام، داعياً له بالنصرة والتأييد: «اللّهُمّ والِ مَنْ والاه، وعادِ مَنْ عاداه»، وطفقَ حضّار الغدير يُهنِّئون الإمام عليه السلام على مركزه القيادي الرّفيع، حتّى قال له عمر (رض): «هنيئاً يا ابن أبي طالب، أصبحتَ وأمسيتَ مولى كلِّ مؤمنٍ ومؤمنة»[1].

---

(١) لقد أورد حديث التهنئة جماعة من أعلام اخواننا، أورده الخطيب البغدادي في تأريخه، ج٨، ص٢٩٠، والخوارزمي في المناقب، ص٩٣، ومحبّ الدّين الطّبري في ذخائر العُقبى، ص٦٧، والزرندي الحنفي في درر السمطين، ص١٠٩، والمقريزي في الآثار المقريزية، ص ٢٣٠، وابن الصّبّاغ في فصوله، ص٢٣، والسّيوطي في الحاوي، ص٧٩، وغير هؤلاء. راجع حاشية إحقاق الحقّ لسماحة آية الله السيّد شهاب الدّين النجفي، ج ٦، ص ٣٦١ ـ ٣٦٧. وذكر الحجّة الأميني رحمه الله ستّين مصدراً لاخواننا في هذا الحديث، يُراجع الجزء الأوّل من الغدير، ص ٢٧١ ـ ٢٨٣.

وشاء منكرو الإمامة أن يتأوّلوا هذا النصّ تأوُّلاً صارفاً مضلّلاً عن أهدافه النّبويّة، ومدلوله الحقّ الجليّ، فحسبوا أنّ المولى مشترك بين الناصر والمحِب والصديق والعمّ وٱبن العمّ والأولى بالتصّرف، وليس مختصّاً بالمعنى الأخير، ومقصوراً عليه.

وهذا تحكّم وتجنٍّ على النصّ، وإغفال لقرائنه الحاليّة والمقاليّة.

فلو لم يقصد النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بالمولى الأولى بالتصرّف المرادف للإمام، فعلامَ جاءتْ آية التبليغ تستحثّه على تبليغها وتتوعّده على إرجائها؟!

ولماذا ٱستوقف الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم مسيرة الحجّ المغذّة في قفولِها في أرض الغدير القاحلة، وهجيرها اللّاهب؟!!

ولِمَ ٱستنطق تلك الحشود الزّاخرة: «ألستُ أولى بالمؤمنين من أنفسهم»؟!

وفيمَ باركَ عليّاً بدعواته الحارّة المشبوبة بالعطف والحنان؟!

لماذا ٱتّخذ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم تلك الإجراءات الإعلامية لو لم يرد نصب الإمام وإعلان إمامته؟!!

فكيفَ ينكر الذّوق والوعي السّليمين تلك القرائن، وتحريف تلك الدلالات الصارخة.

وزعم آخرون اختلاق هذه الحادثة، لوفادة الإمام عليه السلام إلى اليمن، وتغيّبه عن حجّة الوداع، وهذا ٱدّعاء زائف، حيث تعاضد المؤرّخون والحفّاظ على رجوعه منها، وٱلتحاقه بالنّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وشيك دخوله مكّة المكرّمة.[1]

---

(١) راجع كتاب إمتاع الأسماع، ج ١، ص ٥٠٥، وتاريخ أبي الفداء، ج ١، ص ١٥٠، وج ٢، ص ٩٠، والرّياض النّضرة، ج ٢، ص ١٧٦، وطبقات ابن سعد، ج ٣، ص ٢٣٩.

هذا إلى المصـادر الحجّة والأسـانيد الوثيقة المعتبرة لدى إخواننا والمُصرِّحة بنزول آية التبليغ في يوم الغدير، كما أسلفنا في مُستهلّ بحث الآية.

هذا نقاش لامح حول آية التبليغ، أُرجئ تفصيله إلى حقل الدلائل النّبويّة على إمامة عليّ عليه السلام في شرح حديث الغدير، وبيان مغزاه الحقّ وواقعه الأصيل.

* * *

٣ـ ﴿اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لكُمْ دينكُم، وأتمَمْتُ عَلَيْكُم نِعْمَتي ورَضِيتُ لكُم الإسْلَامَ دِيناً﴾. (المائدة / ٢٣)

هذه الآية الكريمة قريبة من آية التبليغ روحاً وهدفاً، ونظيرها في البرهنة على إمامة عليّ عليه السلام، وقد أجمع الإماميّـة على نزولها يوم الغـدير غبّ ٱستخلاف الإمـام عليّ عليه السلام ووصايته العامّة على المسلمين، فجاءت آية الإكمال تُبارك فرحة المسلمين الكبرى وعيدهم السعيد، زافّة إليهم بشارة السماء بإتمام الدِّين وإتمام النِّعمة الكـبرى على المسلمين بوصاية عليّ عليه السلام وعهده الزّاهر الميمون.

وساند الإماميـة على ذلك طائفـة من أعلام الحفّاظ والمفسِّرين من غيرهم، وإليك نصّاً واحداً من نصوصهم العديدة في هذا الموضوع:

أورد الحافظ أبو نعيم الأصفهاني في كتابه (ما نزل من القـرآن في عليّ)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه:

«أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم دعا النّاس إلى عليّ في غدير خم، أمر بما تحت الشّجرة من الشّوك فقُمَّ، وذلك يوم الخميس، فدعا عليّاً فأخذ بضبعيه فرفعها، حتّى نظر النّاس إلى بياض أبطي رسول الله، ثمّ لم يتفرّقوا حتّى نزلت هذه الآية:

﴿اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دينَكُم ...﴾.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**الله أكبر على إكمال الدِّين، وإتمام النِّعمة، ورضا الربِّ برسالتي، وبالولاية لعليّ عليه السلام من بعدي**»[1].

وحسب بعض منكري الإمامة أنّ هذه الآية نزلت يوم عرفة، قبل يوم الغدير، وهذا مناقض لإجماع أهل البيت عليهم السلام على نزولها يوم الغدير، وهم أعلم الناس وأدراهم بحقائق القرآن ومواقع نزوله، ومخالف لشهادات أعلام الحفّاظ من غير الإمامية ونصوصهم المؤيّدة لأهل البيت عليهم السلام، وقد نقل الحجّة صاحب الغدير رحمه الله ستّة عشر مصدراً لهم تثبت نزول الآية في يوم غدير خم.[2]

* * *

٤ ـ ﴿سأَلَ سـائِلٌ بِعَذابٍ واقِـعٍ * لِلْكافِـرينَ لَيْسَ لَهُ دافِـعٌ * مِنَ ٱللهِ ذي المعارِجِ﴾. (المعارج / ١ ـ ٣)

جاءت هذه الآية الكريمة مجسِّـدةً ومعمِّقةً دلالة الآيتين السـابقتين على إمامة عليّ عليه السلام، وزادت عليهما بتصويرها الرواسـب الجاهلية، والعقد النفسـيّة الّتي كان يعيشها الحاقدون على الإمام، والّتي مثّلها الحارث الفهري أبشع تمثيل، وأشدّه نقمة وسخطاً على الله ورسوله باستخلاف عليّ عليه السلام كما يُصوِّرها الحفّاظ والرّواة:[3]

---

(١) ذكر هذا المضمون ابن كثير في تفسيره، ج ٢، ص ١٤، والسيوطي في الدرّ المنثور، ج ٢، ص ٢٥٩، والخطيب البغـدادي في تأريخـه، ج ٨، ص ٢٩٠، والخوارزمي في المـناقب، ص ٨٠، وابن الجوزي في تذكرته، ص ١٨، وابن كثير الشّافعي الدّمشقي في تفسيره، ج ٢، ص ١٤، وآخرون غيرهم.

(٢) راجع الغدير، ج ١، ص ٢٣٠ ـ ٢٣٦.

(٣) وقد صرّح بهذه الواقعة ابن حجر في الصّواعق، ص ١٤٧، وابن الجوزي في التذكرة، ص ٢١، وأبو نعيم الأصفهاني كما في كفاية الخصام، ص ٣٦٠، وغيرهم. راجع حاشية إحقاق الحقّ للسيّد شهاب الدين النّجفي، ج ٣، ص ١٠٣ ـ ١٠٦.

«أخرج الثّعلبي في تفسير سورة المعارج من تفسيره الكبير بسندين معتبرين، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمّا كان يوم غدير خم، نادى الناس فاجتمعوا، فأخذ بيَد عليّ فقال: «مَنْ كنتُ مولاهُ فعليٌّ مولاه»، فشاعَ ذلك، وطارَ في البلاد، وبلغ ذلك الحارث ابن النّعمان الفهري، فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على ناقةٍ له، فأناخها ونزل عنها وقال: يا محمّد! أمرتنا أن نشهد أن لا إله إلّا الله، وأنّكَ رسول الله، فقبلنا منك، وأمرتنا أن نُصلِّي خمساً فقبلنا منك، وأمرتنا بالزّكاة فقبلنا، وأمرتنا أن نصوم رمضان فقبلنا، وأمرتنا بالحجِّ فقبلنا، ثمّ لمْ ترضَ بهذا حتّى رفعتَ بضبعيّ ٱبن عمّك تُفضِّله علينا، فقُلتَ: مَنْ كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه، فهذا شيء منك أم من الله؟!

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: فوَالله الّذي لا إله إلّا هو، إنّ هذا لمِنَ الله عزّ وجلّ، فولّى الحارث يريد الراحلة، وهو يقول: اللّهمّ إن كان ما يقول محمّد حقّاً، فامطر علينا حجارةً من السماء أو ٱئتنا بعذابٍ أليم.

فما وصل إلى راحلته حتّى رماهُ الله سبحانه بحجرٍ سقط على هامته فخرج من دبره فقتله، وأنزل الله تعالى: ﴿**سألَ سائِلٌ بِعذابٍ واقعٍ للكافِرينَ ليسَ لهُ دافِع، مِنَ اللهِ ذي المعارِج**﴾.

وقد ٱتّفق الإماميــة على نزول الآية الكريمة في شأن الحارث الفهري، وجاء ذلك مثبتاً في ثلاثين مصدراً من مصادر الحديث والتفسير لغيرهم.(١)

وتجاهل ابن تيميّة هذا الواقع التأريخيّ محتجّاً في تزييفه وإسقاط مغزاه الجليّ: بأنّ سورة المعارج مكّيّة، وكان نزولها قبل واقعة الغدير بعشر سنين، فما وجه الإحتجاج به؟!

---

(١) راجع الغدير، ج ١، ص ٢٣٩ ـ ٢٤٦.

وهذه مكابرة صارخة وزعم باطل من وجهين:

(١) تُفنِّده النصوص المتواترة عن أعلام الرّواة والمحدِّثين لدى الطّائفتين المصرِّحة بنزولها بعد واقعة الغدير.

(٢) إنّ جملة من السّور المكِّيّة نزلت بعض آياتها في المدينة المنوّرة:

فسورة العنكبوت مكِّية عدا عشر آيات من أوّلها كما رواه الطّبري في تفسيره، ج ٢، ص ٨٦، والقرطبي في تفسيره، ج ١٣، ص ٣٢٣، والشربيني في السِّراج المنير، ج ٣، ص١١٦.

وسورة الإسراء مكِّيّة خلا قوله تعالى: ﴿**وإن كادوا ليستفزّونكَ من الأرضِ**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**واْجعل لي مِن لدُنكَ سُلطاناً نصيراً**﴾، كما في تفسير القرطبي، ج ١٠، ص٢٠٣، والرّازي، ج ٥، ص ٥٤٠، والسّراج المنير، ج ٢، ص ٢٦١.

وسورة الحجّ مكِّيّة باستثناء قوله تعالى: ﴿**ومِنَ ٱلنّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ على حَرْف**﴾، كما جاء في تفسير القرطبي، ج١٢، ص١، والرّازي، ج٦، ص٢٠٦، والسّراج المنير، ج ٢، ص ٥١١.

وقد ذكر المغفور له الحجّة الأميني في غديره سبع عشرة سورة من هذا القبيل، يُراجع الجزء الأوّل منه، ص ٢٥٥ ـ ٢٥٧.

* * *

٥ ـ ﴿وَقِفُوهُم إنّهُم مَسْؤولون﴾.

وهنا تُعلن الآية الكريمة بأسلوبها الجاد الحاسم عن مواقفة العباد يوم القيامة ومساءلتهم عن ولاية أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام كما أوضحته مصادر الخاصّة والعامّة.

قال ابن حجر في الصّواعق المحرقة:

«أخرج الدّيلمي، عن أبي سعيد الخدري أنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: ﴿**وقِفُوهُم إنّهُم مَسْؤولون**﴾، عن ولاية عليّ عليه السلام. قال: وكأنّ هذا هو مُراد الواحدي بقوله: رُوي في قوله تعالى: ﴿**وقِفُوهُم إنّهُم مَسْؤولون**﴾، أي عن ولاية عليّ عليه السلام وأهل البيت، لأنّ الله أمر نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم أن يُعرِّف الخَلْق إنّه لا يسألهم على تبليغ الرسالة أجراً إلّا المودّة في القُربى، والمعنى أنّهم يُسألون هل والوهم حقّ الموالاة؟ كما أوصاهم النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أم أضاعوها وأهملوها فتكون المطالبة والتبعة»(١).

وهذا السؤال برهان ساطع على إمامة عليّ عليه السلام ووجوب موالاته، ولو لم يكن إماماً مفترض الطاعة، واجب الموالاة، لم يكنْ أيّ مقتضٍ لإيقاف الخلق في المعاد، ومساءلتهم عن ولائه والإئتمام به.

وحيث كانت الإمامة عنصراً أصيلاً من عناصر العقيدة الإسلامية، إستحقّت مناشدة المسلمين عنها، وأستجوابهم عليها، وعلى إيمانهم بها أو جحودهم إيّاها يتوقّف مصيرهم النهائي نجاحاً أو رسوباً، سعادةً أو شقاءً، على نسق الحديث النّبويّ المتواتر: «**مَنْ ماتَ ولم يعرف إمام زمانه مات ميتةً جاهليّة**».

ونظير هذا الحديث الثابت لدى الفريقين والمرويّ عن أبي بكر الصِّدِّيق (رض) أنّه قال: «سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: لا يجوز أحد الصِّراط إلّا مَنْ كتب له عليٌّ الجواز»(٢).

ولا غرابة أن ينال عليّ عليه السلام تلك الحظوة السماوية البالغة، والعناية الكُبرى الّتي لم ينلها أحد في الإسلام سواه!!

---

(١) الصواعق المحرقة، لابن حجر، ص ٨٩، وينابيع المودّة، ج ١، ص ١١٢.

(٢) الرِّياض النّضرة، ج ٢، ص ١٧٧ و ٢٤٤، والصّواعق المحرقة، ص ٧٥، وإسعاف الرّاغبين، ص ١٦١. راجع الغدير، ج ٢، ص ٣٢٣.

فهو الّذي أعدّتهُ السماء إعـدادها الروحي الفريد، ولخّصت فيه أسرار الفضل والكمال، لِتَأهُّلِهِ قيادة الفكر الإسلامي والمرجعيّة العُليا في الإسلام.

وهو مستودَع علم الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم وخـازن حكمـته، ومكنـون أسراره، والأطروحة النّبويّة الّتي تُجسِّد واقع الإسلام جمالاً وجلالاً وعطاءً، فليس بمستكثر على صاحب هذه الفضائل والأمجاد أن يكون إماماً مُفترَض الطاعة والموالاة، وتغدو إمامته موضع إهتمام السماء وتنويهها البليغ.

❊ ❊ ❊

٦ ـ ﴿يا أيُّها ٱلّذينَ آمَنُوا ٱتّقوا ٱللهَ وكُونُوا معَ الصّادِقِين﴾. (التّوبة/ ١١٩)

خاطبت هذه الآية الكريمة جماهير المؤمنين محرِّضة لهم على تقوى الله عزّ وجلّ، وصيانة أنفسهم عمّا يضرّها من الآثام، وتجميلها بالأعمال الصالحة النافعة، وعطفت على ذلك بأمرهم أن يكونوا مع الصّادقين، وينضمّوا إلى زمرتهم.

ومن الواضح أنّها لا تعني بالكون معهم في مكان محدود، لامتناع ذلك، وعدم جدواه، وإنّما عنت مشايعة الصّادقين، والإقتداء بهم، والإنضمام إلى زمرتهم، وٱستلهام مُثُلهم ومبادئهم.

وكذلك لاتعني الصّادقين المتّصفين بمثالية الصِّدق فحسب، فرُبّ مُتّصِف بالصِّدق وهو رغم ذلك منحرف خلقاً وسلوكاً، فلا يسوغ آنذاك مشايعته والرّكون إليه.

فتلخّص من ذلك أنّ المُراد بالصّـادقين هم المثل العُليا، والنماذج الرفيعـة من الناس المتحلّون بالعصمة، والمثالية قولاً وفعلاً، ولولا تلك الصِّفات الفريدة لما فرض المولى مشايعتهم والإنضمام إليهم.

والعصمة ـ كما أسلفنا ـ تُمثِّل حجر الزّاوية في دُنيا الإمامة، وشرائط الإمـام، ومن الثابت أنّ عليّاً عليه السلام هو معصـوم بحُكم الكـتاب والسنّة والعقل، كما فصّلناه في

بحث العصمة، وغيره ليس بمعصوم إجماعاً، فهو لذلك أحقّ الأمّة بالإمامة، وأجدرهم بها جميعاً.

وهذا ما عنتهُ الآية الكريمة، واستهدفته بمنطقها البليغ.

وممّا يُلفت النظر أنّ خطاب الآية عام لجميع المؤمنين في جميع العصور والأجيال، ممّا يُشعر بوجود الإمام المعصوم على التعاقب في مختلف أدوار الحياة.

وإطلاق لفظ الجمع (الصّادقين) على عليّ عليه السلام لتفخيمه وإجلاله ولأنّه أبو الأئمّة الأطهار، ومحور فلكهم الرّفيع، كما فسّرتهُ الصِّحاح المتواترة بين الفريقين:

فقد أورد السيوطي في (الدّرّ المنثور)، ج ٣، ص ٢٩٠، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إتّقُوا اللهَ وكُونوا مع الصّادقين﴾، قال: مع عليّ بن أبي طالب.(١)

وقال سبط ابن الجوزي في تذكرته، ص ١٠: قال علماء السِّير: معناه كونوا مع عليّ وأهل بيته. قال ابن عبّاس: عليٌّ سيِّد الصّادقين.

وبهذا يتّضح مفاد الآية ويتجلّى مدلولها الحقّ، وتبطل كلّ المزاعم الأخرى.

* * *

٧ ـ ﴿إنّما يُريدُ اللهُ ليُذْهِبَ عَنْكُم الرِّجْسَ أهلَ البَيْتِ ويُطَهِّرَكُم تَطْهِيراً﴾.

(الأحزاب / ٣٣)

وهذه آية التطهير نزلت من علياء الوحي مُعلنةً ومبشِّرةً بعصمة أهل البيت عليهم السلام، وطهارتهم من رجس الذنوب، ودنس الآثام، وأضافت بذلك مفخرةً قرآنيةً جديدة، ومجداً سماوياً شامخاً إلى رصيد عظماتهم ومآثرهم، ما جعله أضخم وأكرم

---

(١) وصرّح بذلك الكنجي في كفاية الطّالب، ص ١١١، والشّوكاني في تفسيره، ج٢، ص ٣٩٥، ومحمّدصالح الكشفي التّرمذي في (مناقب مرتضوي)، ص٥٣، والآلوسي في روح المعاني، ج ١١، ص ٤١، وآخرون غيرهم.

رصيد في الإسلام، لا يملكه إلّا هؤلاء العظماء الّذين اصطفاهم الله تعالى، وأهّلهم لقيادة البشرية، وريادتها نحو قِيَم السّماء.

وقد أجمع الإمامية على نزول آية التطهير في أهل البيت عليهم السلام، وطابقهم على ذلك أعلام الحفّاظ والمفسّرين من غيرهم.

أخرج التّرمذي، عن عمرو بن سلمة ربيب النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «نزلت هذه الآية على النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في بيت أمّ سلمة، فدعا النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فاطمة وعليّاً وحسناً وحسيناً، فجلّلهم بكساء، ثمّ قال: **اللّهمّ هؤلاء أهل بيتي، فأذْهِبْ عنهُم الرِّجس وطهِّرهُم تطهيراً**».

قالت أمّ سلمة: يا رسول الله! وأنا معهم؟ قال: أنتِ على مكانكِ، وأنتِ على خير.[1]

دلالة الآية:

صوّرت هذه الآية الكريمة سموّ رعاية الله تعالى لأهل البيت عليهم السلام وعنايته بهم، وتكريمه إيّاهم أنْ طهّرهم من رجس الذنوب، ودنس الآثام، وعصمهم عن جميع

---

(١) أخرجه التّرمذي، ج ٤، ص ٣٠٤، وأخرجه مسلم في صحيحه، ج ٤، ص ١٢٧، وأخرجه الخطيب في ج ٩، ص ١٢٧، وأخرجه ابن عبدالبرّ في الإستيعاب بهامش الإصابة، ج ١، ص ٢٧، وأخرجه ابن جرير في تفسيره، ج ٧، ص ٢٢، وأخرجه السيوطي في الدّرّ المنثور، ج ٥، ص ١٩٨، وأخرجه محبّ الدّين الطّبري في ذخائر العُقبى، ص ٢١ ـ ٢٤، وأخرجه الحاكم في المستدرك، ج ٢، ص ٤١٦. راجع الإمام الصّادق والمذاهب الأربعة، للعلّامة الشيخ أسد حيدر، ج ١، ص ٨٤ ـ ٨٩، وقد ذكر الحجّة السيّد شهاب الدّين النجفي في هامش إحقاق الحقّ، ج ٢، ص ٥٠٢ ـ ٥٤٢، ٧٨ مصدراً لورود الآية في الخمسة من أصحاب الكساء عليهم السلام من مصادر إخواننا.

المساوئ والمذام، صوّرتْ ذلك وركّزت عليه بكلِّ طاقاتها البلاغيـة، إشعاراً بجلالة العصمة وبالغ أثرها في دُنيا الإمامة، وٱستقطاباً للجماهير الإسلامية حول أهل البيت عليهم السلام ومواكبة فلكهم الإماميّ الرائد. والعصمة هي مركز الثِّقل في الخلافة، والعنصر الأصيل الفعّال من عناصر الإمام، ولولاها لاتّسمت القيادة الإسلامية بطابع الأثَرَةِ والطّغيان والتجـبّر، كما صوّرتها عهود الخـلفاء المتحـلّلين من حصـانتها وضوابطها الهادية الموجّهة.

وٱستلهم النّـبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إرادة السماء في ٱصطفاء أهل البيـت عليهم السلام وتحصينهم بالعصمة ليكونوا منار العقول، وقادة الفكر، وأعلام الإسلام، وزخم ٱمتداده الصّاعد، فهبّ صلى الله عليه وآله وسلم لتبليغهم رسـالة السماء، فاسـتدعى عليّاً وفاطمة والحسن والحسـين، وضمّهم إليه بعطفٍ بالغ، وحنانٍ جمٍّ، وأضفىٰ عليهم كساءه النّبـويّ، تكرمةً وتمييزاً لهم من سائر الأهل، وزفّ إليهم بشارةَ السماء: ﴿**إنّما يُريدُ اللهُ ليُذْهِبَ عَنْكُم الرِّجْسَ أهلَ البَيْتِ ويُطَهِّركُم تَطْهِيراً**﴾.

ولمّا بلّغهم الآية الكريمة، رفع يديه إلى السماء داعياً ومباركاً هذا الشّرف الخالد والمنقبة الفريدة في الإسلام: «**اللّهُمَّ هؤلاءِ أهلُ بَيْتي، فأذْهِبْ عنهم الرِّجسَ وطهِّرْهُم تَطْهيراً**».

ونستنتج من العرض السـالف أمرين خطـيرين، هما موطن العـبرة من هذا الحديث:

(١) أفادت الآية باستهلالها بأداة الحصر (إنّما) وتعقيبها بلام التأكيد (ليُذْهِبَ)، وتكرار المصـدر بعد فعله (تطهيراً) إقتضاء إرادة الله تعالى ونافذ أمره عصـمة أهل البيت، وطهارتهم من الرِّجس، وهو: الذنب والإثم، تطهيراً عامّاً منزّهاً عن جمـيع صوره ومصاديقه، ومحال أن تتخلّف الإرادة الإلهٰية القاهرة عن مرادها فيهم:

﴿**إنّما أمْرُهُ إذا أرادَ شَيْئاً أن يَقُولَ لهُ كُنْ فَيَكُون**﴾. (يٓس / ٨٢)

وهكذا أعلن النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عصمتهم، حيث شبّهـهم بسفينة نوح تارةً إشعاراً بنجاة المتمسِّـك بهم، وهلاك المتخلِّف عنهم، وقرنهم وعادلهم بالقـرآن الكريم تارةً أخرى، إعلاماً بتلازمهما الأبديّ، وعصمتهم كعصمة القرآن من الخطأ والمذام، ولولا ذلك لما جعلهما عِدْلَيْن متلازمين.[1]

وناهيكَ عن هديهم وسلوكهم، أنّهم كانوا المثل الأعلى في النّزاهة والترفّع عن كلِّ ما يخلّ بالدِّين والضّمير، والتجسيد الحيّ لواقع الإسلام ومثاليّته ومعطياته.

(٢) وأفادت الآية إلى ذلك إمامـة عليّ عليه السلام وخلافته الحقّ، ولكنّها عادت تراثاً منهوباً على حدّ تعبيره عليه السلام، واستنكر الحسنان والزهراء عليهم السلام اغتصابها منه، وإقصاءه عنها، وكلّهم بحكم عصمتهم مبرّؤون من الكذب والإختلاق.

وزعم المنحرفون عن أهل البيت عليهم السلام أنّ الآية الكريمة ليست مختصّة بأصحاب الكساء، وإنّما هي: واردة في نساء النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأزواجه.

ونحنُ نناقش هذا الإدِّعاء بالوجوه التالية:

(أ) أنّ ذلك مناقض لجميع القرائن الحالية والمقالية الدالّة على ٱختصاص الآية بأصحاب الكساء الخمس فحسب ونزولها فيهم، وقصرها عليهم، حيث ٱستدعاهم بأسمائهم فرداً فرداً، وحصرهم تحت الكساء، وبلّغهم الآية بضمير الجمع المخـاطب، ولو كانت في نسائه وأزواجه لجاءت ضمائرها مؤنّثةً كآيات النِّساء، ولقال سبحانه: (عنكنّ ويُطهِّركنّ). أضف إلى ذلك ٱجتذابه الكساء من أمّ سلمة وهي تحاول الإنضمام إليهم، قائلاً لها: أنتِ على مكانكِ وأنتِ على خير، حيث نزلت هذه الآية في حجرتها.

كلّ ذلك برهان على ٱختصاص الآية في أولئك الخمس دون النِّساء.

---

(١) سنُفصِّل ذلك في حقل الدلائل النّبويّة عند شرح هٰذين الحديثين.

(ب) ورغم هاتيك القرائن، فإنّه كان ﷺ يُشعر المسلمين قولاً وفعلاً باختصاص الآية بهم، ونزولها فيهم:

فقد أخرج ابن جرير الطّبري في تفسيره، عن أبي سعيد الخدري، قال، قال رسول الله ﷺ: نزلت هذه الآية في خمسة: فيَّ، وفي عليّ، وحسن وحسين وفاطمة: ﴿إنّما يُريدُ اللهُ ليُذْهِبَ عَنْكُم الرِّجْسَ أهلَ البَيْتِ ويُطَهِّرَكُم تَطْهِيراً﴾.

وأخرج عن أمّ سلمة: «أنّ هذه الآية نزلت في بيتها، وأنّ في البيت رسول الله ﷺ وعليّ وفاطمة والحسن والحسين»[1].

روى التّرمذي في صحيحه، عن أنس بن مالك، قال: إنّ رسول الله ﷺ كان يمرُّ بباب فاطمة ستّة أشهر، كلّما خرج إلى صلاة الفجر، ويقول: الصّلاة يا أهل البيت: ﴿إنّما يُريدُ اللهُ ليُذْهِبَ عَنْكُم الرِّجْسَ أهلَ البَيْتِ ويُطَهِّرَكُم تَطْهِيراً﴾.[2]

وروى السّيوطي، عن أبي الحمراء، أنّ النّبيّ ﷺ كان يمرُّ على باب بيت فاطمة ثمانية أشهر بالمدينة ليس من مرّة يخرج إلى صلاة الغداة إلّا وأتى باب فاطمة ويقول: السّلام عليكم أهل البيت ﴿إنّما يُريدُ اللهُ...﴾.[3]

---

(١) تفسير ابن جرير، ج ٧، ص ٢٢، وأورد ذلك الخطيب البغدادي في تأريخه، ج ٩، ص ١٢٩، و ج ١٠، ص ٢٧٨، وأخرجه البغوي في معالم التنزيل بهامش الخازن، ص ٢١٣، وذكر ابن كثير في تفسيره طرق نزول هذه الآية في الخمسة فقط في خمسة عشر مورداً. راجع كتاب الإمام الصّادق والمذاهب الأربعة، ج ١، ص ٨٥ ـ ٨٨.

(٢) شرح التّرمذي لابن العربي، ج ١٣، ص ٨٥، وأخرجه أحمد في ج ٣ من مسنده، ص ٢٥٩.

(٣) الدّرّ المنثور، ج ٥، ص ١٧٤.

وعن ابن عبّاس: سبعة أشهر، وفي رواية النّبهاني وغيره: ثمانية أشهر.[١]

(ج) ومن الثابت أنّ القرآن الكريم لم يُجمَع ويُرتّب حسب التسلسل الزّمنيّ لنزول آياته. فورود آية التطهير في سياق آيات النِّساء لا يدلّ على نزولها فيهنّ، حيث أنّ الكلام البليغ قد تتخلّله جُملٌ اعتراضية، من ذلك قوله تعالى:

﴿فلا أُقْسِمُ بمَواقِعِ النُّجُومِ * وإنّهُ لَقَسَمٌ لو تَعْلَمُونَ عَظِيم * إنّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيم﴾، وآية: ﴿وإنّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيم﴾، معترضة بين الآيتين الأوليين.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إنّ المُلُوكَ إذا دخَلُوا قَرْيَةً أفْسَدُوها وَجَعَلُوا أعِزّةَ أهْلِها أذِلّةً وكَذلِكَ يَفْعَلُون * وإنّي مُرْسِلَةٌ إلَيْهِم بِهَدِيّةٍ فناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المُرْسَلُون﴾، فقوله: ﴿وكذلِكَ يَفْعَلُون﴾ مستطردة بين ما قبلها وما بعدها.

وقوله تعالى حكاية عن خطاب العزيز لزوجته: ﴿إنّهُ من كَيْدِكُنَّ إنّ كَيْدَكُنَّ عَظِيم * يُوسُفُ أعْرِضْ عن هٰذا واسْتَغْفِرِي لِرَبِّكِ﴾، وقوله: ﴿يُوسُفُ أعْرِضْ عَنْ هٰذا﴾ معترض بين كلام العزيز.

ومن هنا جاءت آية التطهير كغيرها من الآيات المعترضة في سياق القرآن الكريم وأسلوبه الفريد.

(د) ومَنْ عرفَ أسباب نزول آيات النِّساء، والجوّ المكفهر الّذي نزلت فيه، يجد من المحال ورود آية التطهير فيهنّ، قال سماحة الحجّة السيِّد محمّدصادق الصّدر في كتابه القيمِّ (الإجماع):

«أمّا سبب نزول آيات النِّساء، فقد قال الخازن في تفسيره ما نصّه: «سبب نزول هذه الآية: أنّ نساء النّبيّ ﷺ طالَبْنَه من عَرَض الدّنيا شيئاً، وطلبنَ منه

(١) الشّرف المؤبّد، ص ٨.

زيادة في النّفقة وآذَيْنَهُ بِغَيْرَةِ بعضهنّ على بعض، فهجرهنّ رسول الله ﷺ وآلى ألّا يقربهنّ شهراً، ولم يخرج إلى الصّحابة، فقالوا ما شأنه، وكانوا يقولون طلّق رسول الله ﷺ نساءه، قال عمر: لأعلمنّ لكم شأنه، قال: فدخلتُ على رسول الله، فقلت: يا رسول الله! أطلّقْتَهُنّ؟ قال: لا، قلت: يا رسول الله! إنّي دخلتُ المسجد والمسلمون يقولون طلّق رسول الله نساءه، أفأنزل فأخبرهم إنّك لم تُطلّقهنّ، قال: نعم إنْ شئت، فقمتُ على باب المسجد، وناديتُ بأعلى صوتي: لم يُطلّق رسول الله نساءه»[1].

لبث النّبيّ الكريم ﷺ ينتظر الوحي، فوردَ الأمر بأنْ يخيّر البقاء أو الفراق:

﴿يا أيُّها ٱلنّبيُّ قُلْ لأزْواجِكَ إنْ كُنْتنَّ تُرِدْنَ الحَياةَ الدُّنيا وزينَتها فَتَعالَيْنَ أُمتِّعْكُنَّ وأُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَميلاً * وإن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ ٱللهَ ورَسُولَهُ والدّارَ الآخِرَةَ فإنَّ ٱللهَ أعَدَّ للمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ أجْراً عَظِيماً...﴾.

فخيّر الرسول الكريم نساءه بعد نزول آية التطهير بين البقاء والطّلاق، فاخترنَ كلّهنّ البقاء، وآثَرْنَ اللهَ ورسولَه والدّارَ الآخرة، وخُتمت هذه المشكلة برضا الرّسول ﷺ وعودة الحياة الهانئة إلى بيت الزوجيّة في سعادة ووئام... كيف تنطبق الآية على النِّساء، وقد شهد الله لأهل البيت بالعصمة من الذّنوب، في حين أنّا نعلم أنّ سبب الهجر لهنّ قد أدانهنّ بالذّنب، كما أنّ هجرهنّ له ﷺ أثبت عليهنّ النّشوز الشرعي، وهو مُحرّم صدوره مع الرّجل أيّاً كان، فكيف إذا كان رسول الله ﷺ وقد فُرضت طاعته عليهنّ كزوج وكرسول الله ﷺ ...

إذاً كيف يشهد الله تعالى لهنّ بالعصمة إذا كنّ المقصودات في (أهل البيت) وهنّ في حال التلبُّس بالذّنب؟

---

(١) تفسير الخازن، ج ٥، ص ٢٥٥.

هذا لا يصدر من الناس، فكيف ننسبه إلى الله، تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً.

وإذا كُنّ غير مقصودات كما ٱتّضح ذلك، فَمَنْ هم إذن أهلُ البيت، ولماذا ذكر هنا هذا البيت؟

للرّسول الكريم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ بيتان: بيت الزّوجيّة وبيت النّبوّة.

أمّا بيت الزّوجيّة فلم يكن بيتاً واحداً، وإنّما كان بيوتاً متعدِّدة تسكنها زوجاته صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ، كما يُشعر بتعدّدها صيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ في بيوتِكُنّ﴾، وفي قوله: ﴿وٱذْكُرْنَ ما يُتلىٰ في بيوتِكُنّ﴾.

هذا إلى أنّ بيت الزّوجية يكوِّنه السبب بإيقاع العقد الشرعي فيجعله سكناً ومسكناً، وتقوّض دعائمه في كلمة واحدة تؤذن بالطّلاق، فإذا البيت يتهدّم وإذا بالزّوجة تصبح إمرأة أجنبيّة تخرج من أهله إلى أهلها.

وأمّا بيت النّبوّة، فكان منحصراً في بيتٍ واحدٍ تسكنه ٱبنته الزّهراء، وٱبن عمّه عليّ، وريحانتاه الحسنان عَلَيْهِمَٱلسَّلَامُ.

وهو البيت الّذي يكوِّنه النّسب الزّاهر سلسلة علوية محكمة الحلقات تبدأ بالنّبيّ والوصيّ وتُختم بالحجّة المهدي.

وحيث قد ٱنتفت العصمة عن تلك البيوت الممثّلة بالأزواج بالنظر لارتكابهنّ المعصية، وخروجهنّ عن الطّاعة، إتّجهت العصمة إلى البيت الواحد، وأعلنها الوحي بقوله تعالى: ﴿إنّما يُريدُ اللهُ ليُذْهِبَ عَنْكُم الرِّجْسَ أهلَ البَيْتِ ويُطَهِّرَكُم تَطْهِيراً﴾... ولو أراد بيوت السكن الّتي تقدّم ذكرها لكررّ جمعها وألحق بها نون النسوة لتكون المقصودة بالذّات»[1].

---

(١) الإجماع، ص٦٦ ـ ٧٠، نُقل باختصار.

وزعم بعض المنازعين في (آية التطهير) أنّها تنتظم أصحاب الكساء الخمس ونساء النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم معاً، وهذا وَهْمٌ حالم تزيّفه النصوص المتواترة بين الفريقين، والقرائن الحالية والمقالية الدالّة على اختصاصها بأصحاب الكساء، وقصرها عليهم، ولولا ذلك لقال الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم في دعائه: اللّهمّ هؤلاء من أهل بيتي ولم يُطلِقْهُ على أولئك الخمسة فحسب.

ومن المستغرَب جدّاً إنكار القوم دعوى عليٍّ بالإمامة، ومناشدته بها على رؤوس الأشهاد، وإعلان ظلامته باغتصابها منه، نُرجئ تفصيلها إلى مجالها المرسوم من الأبحاث التالية في هذا الكتاب.

* * *

٨ـ ﴿فَمَنْ حاجّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ العِلْمِ فَقُلْ تعالَوْا نَدْعُ أبْناءَنا وأبْناءَكُم ونِساءَنا ونِساءَكُم وأنْفُسَنا وأنْفُسَكُم ثُمّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلىٰ الكَافِرين﴾. (آل عمران / ٦١)

صوّرت هذه الآية الكريمة مشهداً رائعاً خطيراً من مشاهد الصّراع الفكري بين الإسلام والنصرانية، الّذي جسّد مثالية الدعوة الإسلامية، وتذرّع الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى نشرها بالحكمة والموعظة الحسنة، كما جسّد مكابرة نصارى نجران ومراوغتهم إزاء منطق الإسلام، ممّا اضطُرَّ النّبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى مباهلتهم ومحاكمتهم إلى عدل السماء، وحكمها الفاصل.

ولمّا أزف التباهل، وحانَ لقاؤه الموعود، زجّ النصارى في ساحته أبرز قادتهم، وأمثَل أعلامهم، وأحاطوهم بمظاهر الأبّهة، وفخامة المظهر، وروعة العرض، علّهم ينالون بذلك إعجاب السماء، وفتحها المبين.

وإذا بسيّد الرّسل صلى الله عليه وآله وسلم يبرز إلى مباهلتهم بنفرٍ من آلهِ الميامين الأبرار، وهم

يمثّلون أروع صور الطُّهْر والنّقاء والمهابة، مُبتهلين إلى الله عزّ وجلّ في نصرة الحقّ، وخذلان الباطل.

وسار موكب النّبـوّة في حلبة المـباهلة بكل بساطة ودعة وٱطمئنان، يتقدّمه الرّسـول صلى الله عليه وآله وسلم وهو يحتضن الحسـين ويُمسِك بيد الحسـن، وفاطمة خلفه، وعليٌّ خلفها.

وإذا بأولئك المزهوِّين بزخارف المادّة، وأبّهة المظهر، ينبهرون بهذا النفر القليل، ويتطلّعون إليهم بدهشة وإعجاب بالغين!! وطفقوا يتناجون في همسٍ وذهول: ما لهذه الزّمرة المتواضعة تصوِّر طهارة الملاك وصفاءه وقدسيّته؟!!

ما لهذه الوجوه الزّهر المشعّة بالنّور والجمال والوقار، الّتي لخّص الله فيها جمال أهل الجنّة؟!!

ما لهذه الأشخاص المثالية الّتي حوت أسرار الجاذبية وقواها الآسرة، فلا يملك الناظر إليها إلّا الخضوع والإجلال؟!!

وإذا بكبير النصارى يهتف بهم قائلاً: «يا معشر النّصارى! إنِّي لأرى وجوهاً لو سألوا الله عزّ وجلّ أن يُزيل جبـلاً لأزاله بها!! فلا تباهلوهم فتهلكوا، ولا يبقى على وجه الأرض نصرانيّ إلى يوم القيامة!!».

وهكذا ٱنتهت المباهلة بانتصار الإسـلام بممثِّلي جلالته وروحانيّته، وٱنخذال أعدائه ومناوئيه.

وقد أجمع الإماميّة على نزول آية المباهلة في أولئك الخمسة الأطهار: النّـبيّ وعليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

وطابقهم على ذلك جمع غفـير من الحفّاظ والمفسِّرين من غير الإماميّـة، ما

جعله مسلّماً بين الفريقين.[1]

دلالة الآية الكريمة:

وبديهيّ أنّ اختيار النّبيّ ﷺ لتلك الصّفوة المختارة من أهل بيته الطّاهرين للمباهلة، وإيثارها على عامّة الأقرباء والصّحابة، برهان ساطع على تميّزها وتفوّقها عليهم جميعاً، ولا سيّما عليّاً عليه السلام، ذلك المثاليّ العظيم الّذي جعله القرآن نفس النّبيّ ﷺ.

وحيث كان كذلك، علمنا بأفضليّته على صحابة الرّسول ﷺ وأحقّيّته بالخلافة الإسلامية لاستكماله جميع شرائطها ومقوّماتها.

وكبر على المنحرفين عن الإمام أن يكون عليٌّ نفس الرّسول ﷺ ونظيره في جلالة الخصائص، وشرف المميّزات عدا خاصّة النّبوّة، واستلهام الوحي المباشر من السماء.

وفاتَ هؤلاء أنّ تقييم العظماء الرّبّانيّين والأولياء الروحانيّين، مهمّةٌ لا يقوى عليها الناس، وليس في مقدورهم استكشاف أبعاد خصائصهم ومواهبهم الروحية.

---

(١) أورد ذلك مسلم في صحيحه، ج ٧، ص ١٢٠، وأحمد بن حنبل في مسنده، ج ١، ص ١٨٥، والطّبري في تفسيره، ج ٣، ص ١٩٢، والواحدي في أسباب النّزول، ص ٧٤، والزّمخشري في الكشّاف، ج ١، ص ١٩٣، والرّازي في تفسيره، ج ٨، ص ٨٥، والبيضاوي في تفسيره، ج ٢، ص ٢٢، ومحبّ الدّين الطّبري في ذخائر العُقبى، ص ٢٥، والنّسفي في تفسيره، ج ١، ص ١٣٦، والنّيشابوري في تفسيره، ج ٣، ص ٢٠٦، والسّيوطي في الدّرّ المنثور، ج ٤، ص ٣٨. وقد ذكر الحجّة السيِّد شهاب الدّين النّجفي في تعليقاته على إحقاق الحقّ ٥٨ مصدراً من غير الإماميّة تنصّ على اختصاص الآية الكريمة بالخمسة الأطهار، راجع ج ٣ من إحقاق الحقّ، ص ٤٦ ـ ٧٥.

وإنّما تعرف أقدارهم ومنازلهم الرفيعة عن طريق المقاييس الإلٰهية والتثمينات النّبويّة المحيطة بكفاءاتهم وأبعاد جلالِهم.

ومن الثابت أنّ القرآن ساوى بين الرّسول ﷺ وعليّ عليه السلام في العصمة بشهادة آية التطهير: ﴿**إنّما يُريدُ اللهُ ليُذْهِبَ عَنْكُم الرِّجْسَ أهلَ البَيْتِ ويُطَهِّرَكُم تَطْهِيراً**﴾.

وساوى بينهما في وجوب المـوالاة في آية الولايـة: ﴿**إنّما وَليُّكُم اللهُ ورسُولُهُ والّذينَ آمَنُوا الّذينَ يُقيمُونَ الصّلاةَ ويُؤتُونَ الزّكاةَ وهُم راكِعُون**﴾.

وساوى بينهما في فرض الطّاعة: ﴿**يا أيُّها الّذينَ آمَنُوا أطِيعُوا اللهَ وأطِـيعُوا الرّسولَ وأولي الأمْرِ مِنْكُم**﴾.

وقد صرّح بنزول هذه الآية الكريمة في حقِّ عليّ والأئمة المعصومين من أهل البيـت عليهم السلام، جماعة من مشـاهير الحفّاظ من إخواننا: كالمفسّر الشهير ابن حيّان الأندلسي في تفسـيره بحر المحيط، ج ٣، ص ٢٧٨، والنّيشابوري في تفسـيره، ج ٥، ص ٧٩ بهامش الطّبري، ومحمّدصالح الكشفي التّرمذي في مناقب مرتضوي، ص ٥٦، والقندوزي في ينابيع المودّة، ص ١١٦. كما فصّلناه في دلائل هذه الآيات في الأبحاث السالفة.

وهكذا أعرب النّـبيّ ﷺ عن مسـاواة عليّ له، وقرنه بنفسـه في مختلف الفضائل خلا ميزة النّبوّة، وأعلنَ ذلك بأحاديث متواترة بين الفريقين. قال ﷺ: «**ما من نبيّ إلّا وله نظير في أمّته، وعليٌّ نظيري**»(١).

---

(١) أخرجه محبّ الدّين الطّبري في الرّياض النّضرة، ج ٢، ص ١٦٤، وأخطب خـطباء خوارزم في مقتل الحسين، ص ٨٤.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**عليّ منّي، وأنا من عليّ**»[1].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**عليٌّ منّي بمنزلة رأسي من بدني**»[2].

وعن عبدالرّحمٰن بن عوف، قال: لمّا فتح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكّة، انصرف إلى الطائف، وحاصرهم سبع عشرة أو تسع عشرة ليلة، ثمّ قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: «**أوصيكم بعترتي خيراً، وإنّ موعدكم الحوض، والّذي نفسي بيده لتقيمُنَّ الصّلاةَ ولتؤتُنَّ الزّكاةَ أو لأبعَثَنَّ إليكُم رجلاً منّي أو كنفسي يضربُ أعناقكم، ثمّ أخذ بيد عليّ، فقال: هذا**»[3].

وقام رجلٌ في مجلس ابن عائشة، فقال: يا أبا عبدالرّحمٰن! مَنْ أفضل أصحاب رسول الله؟ فقال: أبو بكر وعمر وعثمان وعبدالرّحمٰن وطلحة والزّبير.

فقال الرّجل: فأين عليّ بن أبي طالب؟ فقال ابن عائشة: تستفتيني عن أصحابه أم عن نفسه؟

---

(١) أخرجه السّيوطي في تأريخ الخلفاء، ص١٦٩، وابن حجر الهيثمي في الصّواعق المحرقة، ص٧٣، والمناوي في كنوز الحقائق، ص٩٨، والصّبّان في إسعاف الرّاغبين بهامش نور الأبصار، ص١٧٣، والنّبهاني في الفتح الكبير، ج ٢، ص ٢٤٣، وغيرهم. راجع هامش إحقاق الحقّ، ج ٥، ص ٢٧٤ ـ ٣١٧.

(٢) أخرجه السّيوطي في الجامع الصّغير، ج٢، ص١٤٠، وابن حجر في الصّواعق، ص٧٥، وأخطب خوارزم في المناقب، ص ٨٩، ومحمّدصالح الكشفي الحنفي في المناقب المرتضويّة، ص ٨٨، والمناوي في كنوز الحقائق، ص ١٨، والصّبّان في إسعاف الرّاغبين، ص ١٧٨، وغيرهم.

(٣) أورد مضمون هذا الحديث الشريف جماعة من الحفّاظ، منهم: الحاكم في المستدرك، ج ٤، ص ٢٩٨، والهيثمي في مجمع الزّوائد، ج ٩، ص ١٦٣، وابن حجر في الصّواعق المحرقة، ص ٧٥، والأمرتسري في أرجح المطالب، ص ٤٤٦، والنّسائي في الخصائص، ص ١٩، وابن الجوزي في تذكرة الخواص، ص ٤٥، ومحبّ الدّين الطّبري في الرّياض النّضرة، ج ٢، ص ١٦٤، وابن عبدالبرّ في الإستيعاب، ج ٢، ص ٤٦٤، وغيرهم.

فقال الرّجل: عن أصحابه. قال: إنّ الله تبارك وتعالى يقول: ﴿ **فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وأَبْناءَكُم ونِساءَنا ونِساءَكُم وأَنْفُسَنا وأَنْفُسَكُم** ﴾، فكيف يكون أصحابه مثل نفسه؟![1]

فهل بعد ذلك التكريم القرآني، وبعد هذه المآثر والمفاخر النّبويّة الّتي منحها عليّاً عليه السلام، يُستكثر عليه أن يكون نفس النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، ونظيره في الفضائل والأمجاد؟!!

وهكذا أطلقت آية المباهلة الجمع المضاف الدالّ على الشمول والإستغراق على الزّهراء والحسنين عليهم السلام، إشعاراً بجلالتهم وسموّ قدرهم بوصفهم المشاعل الوضّاءة، والنماذج الفريدة لأشرف النِّساء والأبناء، وأجلّهم حسباً ونسباً وأرفعهم فضلاً وعلماً.

* * *

٩ ـ وقال تعالى: ﴿ **قُل لا أسألكُم عليهِ أجْراً إلّا ٱلمَوَدّةَ في ٱلقُرْبى ومَن يَقْتَرِف حَسَنَةً نَزِدْ لهُ فيها حُسْناً إنّ اللهَ غَفُورٌ شَكُور** ﴾. (الشّورى/ ٢٣)

اتّفق الإماميّة على أنّ المُراد بالقُربى في هذه الآية المباركة هم: (عليّ وفاطمة والحسن والحسين) عليهم السلام، وأنّ (الحسنة) هي مودّتهم، وأنّ الله تعالى (غفورٌ رحيم) لأهل ولايتهم، ووافقهم على ذلك جمهور من مشاهير الحفّاظ والمفسِّرين من غير الإمامية، وإليك نموذجاً من أحاديثهم:

أخرج أحمد في المناقب، عن ابن عبّاس، قال: لمّا نزلت هذه الآية، قيل: «يا رسول الله! مَنْ قرابتكَ هؤلاء ٱلذينَ وجبت علينا مودّتهم؟! فقال: (عليّ وفاطمة وٱبناهما)»[2].

---

(١) البيهقي في المحاسن، ج ١، ص ٣٩.

(٢) رواه محبّ الدّين الطّبري في الذّخائر، ص ٢٥، والزّمخشري في الكشّاف، ج ٢، ص ←

وروى ذلك السّيوطي، عن ٱبن المنذر، وابن أبي حاتم والطّبراني وٱبن مردويه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبّاس.[١]

ورواه النّيسابوري في تفسيره، عن سعيد بن جبير، وعلّق النّيسابوري على ذلك فقال: إنّ هذا فخرٌ عظيم وشرفٌ تام...[٢].

وأخرج أحمد في المناقب أيضاً، عن ابن عبّاس، في قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً**﴾، قال: المودّة لآل محمّد.[٣]

وامتثالاً لأمر السماء، واستجابة لوحيها المنزل، طفقَ النّبيّ ﷺ يُحرِّض المسلمين ويشوِّقهم إلى محبّة قُرباه، ويُحذِّرهم تحذيراً رهيباً من عقوقهم وقِلاهم، مستهدفاً بذلك شدّهم إلى قيادة أهل البيت عليهم السلام وريادتها الهادية على ضوء القرآن وهدى الرّسول ﷺ.

وإليكَ طرفاً من أحاديثه الشريفة في ثواب حبِّهم وعقاب بغضهم الواردة من طرف إخواننا:

أخرج الخطيب الخوارزمي في المناقب، عن أبي برزة، قال: قال رسول الله ﷺ ونحنُ جلوس ذات يوم: «**والّذي نفسي بيده، لا تزول قدم عبد يوم القيامة**،

← ٣٣٩، وأبو حيّان في تفسيره، ج ٧، ص ٥١٩، وابن حجر في الصّواعق، ص ١٠١ و ١٣٥، وابن الصّبّاغ المالكي في الفصول، ص ١٢، وكثيرون غيرهم. راجع الغدير، ج ٢، ص ٣٠٧ ـ ٣١٠.

(١) الدّرّ المنثور، ج ٦، ص ٧.

(٢) أنظر تفسير غرائب القرآن، ج ٢٥، ص ٣١، بهامش تفسير الطّبري، ط الميمنية بمصر.

(٣) ذكره ابن حجر في الصّواعق، ص ١٠١، والسّيوطي في الدّرّ المنثور، ج ٦، ص ٧، وابن الصّبّاغ المالكي في الفصول، ص ١٣، والنّبهاني في الشّرف المؤبّد، ص ٩٥، وغيرهم.

حتّى يسأله الله تبارك وتعالى عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن جسده فيما أبلاه، وعن ماله ممّا اكتسبه فيما أنفقه، وعن حبّنا أهل البيت».

فقال له عمر: فما آية حبّكم من بعدكم؟

قال: فوضع يده على رأس عليّ عليه‌السلام وهو إلى جانبه، وقال: «إنّ آية حبّي من بعدي حبّ هذا، وطاعته طاعتي، ومخالفته مخالفتي»[1].

وأخرج الطّبراني، قال: قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لعليّ: «أوّل أربعة يدخلون الجنّة: أنا وأنت، والحسن والحسين، وذرِّيّتنا خلف ظهورنا، وشيعتنا عن أيماننا وشمائلنا»[2].

وأخرج ابن حنبل والتّرمذي أنّه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أخذ بيد الحسنين، وقال: «مَنْ أحبّني وأحبّ هٰذين وأباهما وأمّهما، كان معي في درجتي يوم القيامة»[3].

وأخرج الثّعلبي في تفسيره الكبير بالإسناد إلى جرير بن عبدالله البجلي، قال: قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: «مَنْ ماتَ على حُبِّ آلِ محمّد ماتَ شهيداً، ألا ومَنْ ماتَ على حُبِّ آلِ محمّدٍ ماتَ مغفوراً له، ألا ومَنْ ماتَ على حُبِّ آل محمّد ماتَ تائباً، ألا ومَنْ ماتَ على حُبِّ آلِ محمّدٍ ماتَ مؤمناً مستكملَ الإيمان، ألا ومَنْ ماتَ على حُبِّ آلِ محمّدٍ بَشَّرَهُ مَلَكُ الموتِ بالجنّة، ثمّ منكرٌ ونكيرٌ، ألا ومَنْ ماتَ على حُبِّ آل محمّد يُزفُّ إلى الجنّة كما تُزفّ العروس إلى بيتِ زوجها، ألا ومَنْ ماتَ على حُبِّ آلِ محمّدٍ فُتِحَ له في

---

(١) ذكره الخطيب الخوارزمي في المناقب، ص ٤٥، والهيثمي في مجمع الزّوائد، ج ١٠، ص ٣٤٦، ومحمّدصالح التّرمذي في المناقب المرتضوية، ص٩٩، والأمرتسري في أرجح المطالب، ص ٥٢٤.

(٢) الصّواعق المحرقة لابن حجر، ص ٩٦.

(٣) نفس المصدر.

قبرِهِ بابان إلى الجنّــة ، ألا ومَنْ ماتَ على حُبِّ آلِ محمّدٍ جعلَ الله قبره مزارَ ملائكة الرّحمة ، ألا ومَنْ ماتَ على حُبِّ آل محمّد ماتَ على السنّة والجماعة ، ألا ومَنْ ماتَ على بغضِ آل محمّد جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيسٌ من رحمةِ الله» (١).

وأورد ابن حجر في آية المودّة في القُربى من صواعقه حديثاً هذا لفظه:

«إنّ النّبيّ ﷺ خرج على أصحابه ذات يوم ووجهه مشرق كدائرة القمر، فسأله عبدالرّحمٰن بن عـوف عن ذلك، فقال ﷺ: بشارة أتتني من ربِّي في أخي وٱبن عمِّي وٱبنتي، بأنّ الله زوّج عليّاً من فاطمة وأمرَ رضوان خازن الجـنان، فهزّ شجرة طوبى فحملت ورقاً صكاكاً بعدد محبّي أهل بيتي، وأنشأ تحتها ملائكة من نور، دفع إلى كلِّ ملك صكّاً، فإذا ٱستوت القيامة بأهلها نادت الملائكة في الخـلائق، فلا يبقى محبّ لأهل البيت إلّا دفعت إليه صكّاً فيه فكاكه من النار، فصار أخي وابن عمِّي وٱبنتي فُكّاك رقاب رجال ونساء من أمّتي من النّار» (٢).

وقال ﷺ: «أوصي مَنْ آمنَ بي وصدّقني بولايــة عليّ بن أبي طالب، فَمَنْ تولّاه فقد تولّاني، ومَنْ تولّاني فقد تولّى الله، ومَنْ أحبّه فقد أحبّني، ومَنْ أحبّني فقد أحبّ الله، ومَنْ أبغضه فقد أبغضني، ومَنْ أبغضني فقد أبغض الله عزّ وجلّ» (٣).

وعن زياد بن مطـرف قال، سمعتُ رسـول الله ﷺ يقول: «مَنْ أحبّ أن يحيا حياتي ويموت ميتتي، ويدخل الجنّــة الّتي وعدني ربِّي، وهي جنّة الخُلد، فليتولّ

---

(١) وأرسله الزّمخشري في تفسير آية المودّة إرسال المسلّمات، ورواه المؤلّفون في المناقب والفضائل.

(٢) الصواعق المحرقة، ص ١٠٣.

(٣) كنز العمّال، ج ٦، ص ١٤٥.

علياً وذرِّيّتــه من بعــده، فإنّهم لن يُخرجـوكم من بابِ هُدى، ولن يُدخلوكم باب ضلالة»[(١)].

وقال ﷺ: «إلزموا مودّتنا أهل البيــت، فإنّه مَنْ لقيَ الله وهو يودّنا دخل الجنّة بشفاعتنا، والّذي نفسي بيده لا ينفع عبداً عمله إلّا بمعرفةِ حقّنا»[(٢)].

وعن أمّ سلمة، عن رسـول الله ﷺ: أنّه قال: «يا أمّ سلمة أتعرفينه؟! قلت: نعم، هذا عليّ بن أبي طالب، قال: صدقتِ، سجيّته سجيّتي، ودمه دمي، وهو عيبة علمي، فاسمعي واشهدي لو أنّ عبداً من عباد الله عزّ وجلّ عَبَدَ الله ألفَ عامٍ بين الرُّكن والمقام، ثمّ لقيَ الله عزّ وجلّ مُبغضاً لعليّ بن أبي طالب وعترتي، أكبّهُ الله تعالى على منخرهِ يوم القيامة في نارِ جهنّم»[(٣)].

وعن جابر بن عبدالله: جاء أعرابي إلى النّبيّ ﷺ وقال: «يا محمّد! أعرض عليَّ الإسـلام، فقال: تشهد أن لا إله إلّا الله وحدهُ لا شريكَ له، وأنّ محمّـداً عبدهُ ورسوله.

قال: تسألني عليه أجراً؟! قال: لا (إلّا المودّة في القُرْبى).

قال: قرابتي أو قرابتك؟ قال: قرابتي. قال: هات، أبايعك، فعلى مَنْ لا يحـبّك ولا يحبّ قرابتك لعنة الله، فقال ﷺ: آمين»[(٤)].

وأمّا الأحاديث الواردة من طرق الإمامية فهي كثيرة جدّاً وإليك قبساً منها:

---

(١) كنز العمّال، ج ٦، ص ١٥٥.

(٢) نقلنا هذه الأحاديث عن الفصول المهمّة والمراجعات للإمام شرف الدّين رحمه الله.

(٣) أخرجه الكنجي في الكفاية، ص ١٧٩، وابن المغازلي في المناقب، والحمويني في الفرائد، عن الغدير، ج ٢، ص ٣٠٢.

(٤) أخرجه الكنجي في الكفاية، ص ٣١.

عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، عن أبيه، عن جدّه عليهم السلام، قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **حُبِّي وحُبّ أهل بيتي نافع في سبعة مواطن، أهوالهنّ عظيمة: عند الوفاة، وفي القبر، وعند النّشور، وعند الكتاب، وعند الحساب، وعند الميزان، وعند الصّراط»** [1].

وعن الصّادق، عن آبائه عليهم السلام، قال، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**يا عليّ! أنا أوّل مَنْ ينفض التّراب عن رأسه وأنتَ معي ثمّ سائر النّاس، يا عليّ! أنتَ وشيعتكَ على الحوض، تسقون مَنْ أحببتُم وتمنعون مَنْ كرهتم، وأنتم الآمنون يومَ الفزعِ الأكبر، في ظلِّ العرش، يفزع الناس ولا تفزعون، ويحزن الناس ولا تحزنون، فيكم نزلت هذه الآية: ﴿إنّ الّذينَ سَبَقَتْ لهُم مِنّا الحُسْنىٰ أولئِكَ عنها مُبْعَدُون لا يسمعونَ حسيسَها وهم فيما ٱشتَهَت أنفسهم خالدون، لا يحزنُهم الفزَعُ الأكبرُ وتتلقّاهُم الملائكةُ هذا يومُكُم ٱلّذي كُنتُم تُوعَدون﴾.**

يا عليّ! أنتَ وشيعتك تُطلبون في الموقف، وأنتم في الجنان تتنعّمون» [2].

وعن الحكم بن عتيبة، قال: «بينا أنا مع أبي جعفر عليه السلام والبيت غاصٌّ بأهله، إذ أقبلَ شيخٌ يتوكّأ على عنزة [3] له حتّى وقف على باب البيت، فقال: السّلامُ عليكَ يا ابن رسول الله ورحمة الله وبركاته، ثمّ سكت. فقال أبو جعفر: وعليك السّلام ورحمة الله وبركاته، ثمّ أقبل الشيّخ بوجهه على أهل البيت وقال: السّلام عليكم، ثمّ سكت حتّى أجابه القوم جميعاً وردّوا عليه السّلام.

---

(١) البحار، ج ٧، ص ٣٩١، عن الخصال للشيخ الصّدوق رحمه الله.

(٢) البحار، ج ٧، ص ٣٩١، عن فضائل الشّيعة.

(٣) عنزَةَ: أطولُ من العصا وأقصر من الرّمح في أسفلها زجّ كزجّ الرّمح، يتوكأ عليها الشيخ الكبير. المعجم الوسيط.

ثمّ أقبل بوجهه على أبي جعفر عليه السلام، ثمّ قال: يا ابن رسول الله! أدنني منك، جعلني الله فداك، فوَ الله إنِّي لأحبّكم وأحبُّ مَنْ يحبّكم، والله ما أحِبُّكُم وما أحبُّ مَنْ يحبّكُم لطمعٍ في دُنيا، وإنِّي لأبغَضُ عدوَّكم وأبرأُ منه، ووالله، ما أبغضه وأبرأ منه لوترٍ كان بيني وبينه، والله إنِّي لأُحِلُّ حلالَكُم، وأحرِّمُ حرامَكُم، وأنتظر أمركُم.

فهل ترجو لي، جعلني الله فداك؟

قال أبو جعفر عليه السلام: إليَّ.. إليَّ، حتّى أقعدهُ إلى جنبه. ثمّ قال: أيّها الشّيخ! إنّ أبي عليّ بن الحسين عليه السلام أتاهُ رجل فسأله عن مثل الّذي سألتني عنه، فقال له أبي: إنْ تَمُتْ تَرِدْ على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وعليّ والحسن والحسين وعليّ بن الحسين عليهم السلام، ويثلجْ قلبك، ويبرد فؤادك، وتقرّ عينك، وتُسْتَقْبَلْ بالرّوح والرّيحان مع الكرام الكاتبين، لو قد بلغت نفسك هاهنا.

وأهوى بيده إلى حلقه، وإن تعشْ ترَ ما يقرُّ الله به عينك، وتكون معنا في السّنام الأعلى...»(١).

دلالة الآية:

دعت آية المودّة إلى ولاء أهل البيت عليهم السلام والإيمان بإمامتهم بأسلوبٍ عاطفيٍّ بليغ، حيث فرضت ودّهم على جميع المسلمين، مكافأةً لجهود الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم الجبّارة، وتضحياته الغالية في سبيل هدايتهم وإسعادهم.

وواضح أنّ المودّة الصادقة الواعية تستلزم رعاية المودود، وتحرِّي رضاه، وتفادي سخطه، وتبعث على التأسِّي به وانتهاج دستوره.

(١) الوافي، ج ٣، ص ١٣٩، عن الكافي.

وهذه المستلزمات مشروطة بمثالية المودود، وعصمته من المساوئ والآثـام، ولولاها لوجب بغضه والصّدود عنه:

﴿لا تَجِدُ قَوْماً يُؤمِنُونَ بالله والْيَوْمِ ٱلآخِرِ يوادُّونَ مَنْ حادَّ ٱللهَ ورَسُولَه﴾.

(المجادلة / ٢٢)

ومن هنا كانت العصمة شرط الولاء الحقّ والإمامة الروحيّة الرائدة.

ومن الثابت أنّ عليّاً والحسن والحسين عليهم السلام كلّهم معصومون بحكم آية التطهير والنصوص النّبويّة الّتي عرضناها خلال الأبحاث السالفة، وغيرهم ليس بمعصوم إتّفاقاً، فهم الأحقّ بالإمامة، والأجدر بها من جميع المسلمين.

وزعم بعض المكابرين أنّ مفاد (القُربى) في الآية الكريمة عام يشتمل جميع أقرباء النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وليس مختصّاً بالأئمّة الأطهار عليهم السلام. وهذا تفسير واهن هزيل تُفنِّده النصوص المتواترة الحاكمة باختصاصها في الأئمّة عليهم السلام !!

وكيف يحتِّم القرآن مودّة عامّةِ قُرباه وفيهم المحارِب للإسلام كعمِّه أبي لهب، والمتّسم بالميوعةِ والإنحراف.

وأنكرَ آخرون ضرورة التلازم بين مودّة (القُربى) والإيمان بإمامتهم، وإنّما تدلّ على وجوب حبّهم، وقد أوضحنا آنفاً حتميّة التلازم بين الودّ الصّادق الواعي، والإمامة الرشيدة الحقّ.

وحسبوا بعد هذا وذاك أنّ آية (المودّة) منسوخة بآية: ﴿**قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أجْرٍ فَهُوَ لَكُم**﴾ (سبأ / ٤٧).

وهذا ٱدِّعاء لا تنهض به حجّة، حيث إنّ سياق آية المودّة، والنصوص النّبويّة الّتي جسّدت مفادها، وعمّقت مدلولها كلّ ذلك دالّ دلالة واضحة على ٱستمرار وجوب المودّة، وأبديّتها عبرَ الحياة.

هذا إلى أنّ الباحث الخبير لا يجد تناقضاً بين مغزى الآيتين الكريمتين، فمفاد الآية الأولى: لا أسألكم أجراً على رسالتي إلّا مودّة قُرباي وحبّهم. ومفاد الآية الثانية: ما سألتكُم على رسالتي أجراً مادِّيّاً، وعرضاً من أعراض الحياة المادِّية فهو لكم، لا أبتغيه منكم، ولا أطالبكم به، وكلّ ما أتوقّعهُ من مكافأتكم هو: محبّة قُرباي محبّة خالصة، تعود عليكم بالنّفع الجزيل، والعطاء الجمّ، لأنّهم أعلام الهدى، وسفن النّجاة، وروّاد السّعادة والسّلام.

فأين التناسخ بين الآيتين المتجاوبتين دلالةً وقصداً؟!!

وشاء بعض المهرِّجين أن يُزيِّف نزول آية المودّة في عليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام بحجّة اندراج الآية في سورة الشّورى وهي مكِّية نزلت قبل اقتران الإمام بفاطمة وقبل ولادة الحسنين!!

وهذا ادِّعاء زائف مُدجّل تنقضه النصوص المتضافرة الجمّة المصرِّحة بنزول الآية في هؤلاء الأربعة عليهم السلام، وقد أشرتُ إلى طرف من تلك النصوص في مستهلّ هذا البحث.

أضف إلى ذلك أنّ جملة من السّور المكِّية نزلت بعض آياتها في المدينة المنوّرة، وقد ذكر الحجّة الأميني سبع عشرة سورة من هذا القبيل.(١)

وقد نصّ القرطبي في تفسيره، ج ١٦، ص ١، والنّيسابوري في تفسيره والخازن في تفسيره، ج ٤، ص ٤٩، والشّوكاني في فتح القدير، ج ٤، ص ٥١٠، وغيرهم، عن ابن عبّاس وقتادة على أنّ سورة الشّورى مكِّية إلّا أربع آيات، أوّلها:

﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُم عليه أَجْراً إلّا ٱلمَوَدَّةَ في القُرْبى﴾.

---

(١) راجع الغدير، ج ١، ص ٢٥٥ ـ ٢٥٧.

وهذا ما عناهُ الإمام الشّافعي بقوله الشّهير:

يا أهلَ بيتِ رسولِ اللهِ حُبُّكُمُ فَرْضٌ مِنَ اللهِ في القُرْآن أنزلهُ
كفاكُمُ من عظيمِ القَدْرِ أنّكُمُ مَنْ لم يُصلِّ عليكُم لا صلاةَ لهُ[1]

* * *

١٠ ـ وقال تعالى: ﴿**إنّ ٱلّذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا ٱلصّالحاتِ أولئِكَ هُم خَيْرُ ٱلبَرِيّةِ * جَزاؤُهُم عِنْدَ رَبِّهِم جنّاتُ عَدْنٍ تَجرِي من تَحْتِها الأنْهارُ خالدينَ فيها أبَداً رضيَ اللهُ عنهُم ورضوا عنه ذِلكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبّه**﴾. (البيّنة / ٧ ـ ٨)

صرّح الحفّاظ والمفسّرون من الفريقين بنزول هذه الآية الكريمة في أمير المؤمنين عليه السلام وشيعته الدائرين في فلكه العُلوي، والسّائرين على هُداه.

وإليكَ ما أثر عن إخواننا:

روى الحافظ جمال الدِّين الزّرندي، عن ابن عبّاس، قال: لمّا أنزل الله ﴿**إنّ الّذينَ آمَنُوا وعملُوا الصّالحاتِ أولئِكَ هُم خَيْرُ البَرِيّة ...**﴾.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعليّ: هُمْ أنتَ وشيعتك، تأتي أنتَ وشيعتكَ يوم القيامة راضين مرضيِّين، ويأتي عدوّك غضابى مُقمحين»[2].

---

(١) ذكرهما له ابن حجر في الصّواعق المحرقة، ص٨٧، والحمراوي المالكي في مشارق الأنوار، ص٨٨، والصّبّان في إسعاف الرّاغبين، ص ١١٩.

(٢) أورد الحديث ابن حجر في الصّواعق، ص ١٥٩، والسّيوطي في الدّرّ المنثور، ج ٦، ص ٣٧٩، وابن جرير الطّبري، ج ٣٠، ص ١٤٦، والخطيب الخوارزمي في المناقب، ص ٤٢١، وابن الصّبّاغ المالكي في الفصول المهمّة، ص ١٠٥، وقد ذكر الحجّة السيّد شهاب الدّين النّجفي في تعليقه على إحقاق الحقّ، ج ٣، ص ٢٨٧ ـ ٢٩٣، ثمانية عشر مصدراً من مصادر غير الإمامية، وراجع الغدير، ج ٢، ص ٥٧ ـ ٥٨.

لقد طالعتنا هذه الآية المباركة بأسلوبها الإعلاميّ البليغ، وتنويهها الشيِّق الجذّاب عن جلالة عليّ عليه السلام، وكرامة شيعته الأبرار، وقلّدتهم جميعاً وسام «خير البريّة»، وهو أشرف الأوسمة، وأرفعها درجة في عالم البرايا، ودنيا الإسلام، وضمنت لهم الجزاء الأوفى، والنعيم الخالد يوم القيامة.

وقد تبوّأ الإمام عليه السلام بهذا التكريم والتبجيل القرآني والنّبويّ أسمى قمم الفضل والكمال، وأرفع شهادات الجدارة والإستحقاق بالإمامة العامّة والخلافة الإسلامية، من سائر الصّحابة الّذين لا يملكون أمجاده الشامخة وسوابقه المشرِّفة، ولم ينالوا مآثره الخالدة.

وأنكر بعض المكابرين اختصاص هذه الآية الكريمة بعليّ عليه السلام وشيعته الأبرار، وحسبها عامّة في جميع المسلمين!!

وهذا تفسير واهم تفنِّده صحاح الفريقين المصرِّحة بنزولها في عليّ وأشياعه وٱختصاصها بهم اختصاصاً واضحاً ملموساً كما صوّره النصّ السّالف، ومصادره العديدة.

* * *

هذه قبسات من الوحي الإلهي، استنطقناها في إمامة عليّ عليه السلام، واستنتجنا دلالاتها الصّارخة، وحججها المنطقية على إمامته، ولو شئنا لأطنبنا في البحث وعرضنا طائفة أخرى من الآيات الكريمة في هذا المجال، بيدَ أنّ ذلك لا تسعه هذه الرِّسالة المجملة، وفيما عرضنا بلغة تروي ظمأ المتعطِّشين إلى معرفة واقع الإمامة ونشدان الإمام الحقّ.

وحسب أمير المؤمنين عليه السلام فضلاً ومجداً أن ينال النصيب الأوفر من عناية القرآن الكريم، ودلائله المشرقة على إمامته عليه السلام وإطرائه الخالد عليه، وتكريمه المنقطع النظير له:

يُحدِّثنا ابن عـبّاس رضي الله عنه، قال: «ما أنزل الله يا أيّها الّذينَ آمنـوا، إلّا وعليٌّ أميرها وشريفها، ولقد عاتبَ الله أصحاب محمّـد في غير مكان، وما ذكر عليّاً إلّا بخير»[1].

وعنه قال: «ما نزل في أحد من كتاب الله تعالى ما نزل في عليّ»[2].

وعنه قال: «نزلت في عليّ ثلاثمائة آية»[3].

الدلائل النّبويّة على إمامة أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام:

١ ـ حديث الدّار:

وهو من الأحاديـث الشهيرة الصحيحة المتـواترة بين أقطاب العلم وأثبـات الرّواة من المذاهب الإسلامية، وهذا نصّه:

لمّا أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿**وأنْذِرْ عشيرتكَ الأقربين**﴾ فدعاهم إلى دار عمِّه، وهم يومئذٍ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصونه، وفيهم أعمامه أبوطالب، وحمزة، والعبّاس، وأبو لهب، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«يا بني عبدالمطّلب! إنِّي والله ما أعلم شابّاً في العـرب جاء قومه بأفضل ممّا جئتكم به، جئتكم بخـير الدّنيا والآخرة، وقد أمـرني الله أن أدعـوكم إليه، فأيّكم

---

(١) الصّواعق المحرقة، ص ١٢٥، والسّيوطي في تأريخ الخلفاء، ص١١٦، ومحبّ الدّيـن الطّبري في ذخائر العُقبى، ص ٨٩، والكنجي الشّافعي في كفاية الطّالب، ص ٥٤، وأبو نعيم في حلية الأولياء، ج ١، ص ٦٤.

(٢) الصّواعق المحرقة، ص ١٢٥، والمناوي في الكواكب الدرِّيّة، ص ٣٩.

(٣) الصّواعق المحرقة، ص ١٢٥، والسّـيوطي في تأريخ الخلفاء، ص١١٧، والكنجي في كفاية الطّالب، ص١٠٨.

يؤازرني على أمري هذا، فقال عليّ: «وكان أحدثهم سنّاً»: أنا يا نبيّ الله! أكون وزيرك عليه، فأخذ رسول الله ﷺ برقبة عليّ، وقال: إنّ هذا أخي ووصيِّي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا، فقام القومُ يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع»(١).

عند مولد الإسلام وانبثاق فجره المتلألئ الوهّاج بالنّور والجمال والعطاء، وفي ذلك الحفل النّبويّ الكريم الحافل بسادات قريش، وعيون بني عبدالمطّلب، أرسى النّبيّ ﷺ دعائم الإمامة، وأعلن ٱستخلافه لعليّ عليه السلام إستجابةً لوحي السّماء، وجرياً على سنن الأنبياء عليهم السلام في ٱصطفاء الأولياء وٱستخلافهم على ملأ من أماثل أممهم.

في ذلك اليوم الخالد، هتف النّبيّ ﷺ هتافه المجلجل في مسمع الدّهر، والمعرب عن ثقته الغالية في أخيه وابن عمّه عليّ عليه السلام، والناطق بوحي السّماء: «إنّ هذا أخي ووصيِّي وخليفتي فيكم ...».

وفي ذلك الجمع الحاشد، غرس النّبيّ ﷺ بذرة الإمامة، وطفق يرعاها

---

(١) لقد أورد هذا الحديث ابن جرير الطّبري في تأريخه الكبير، ج ٢، ص ٢١٦، وفي تفسيره الكبير، ج ١٩، ص ٦٨، وابن الأثير في تأريخه الكامل، ج ٢، ص ٢٢، والمتّقي الحنفي الهندي في كنز العمّال، ج ٦، ص ٣٩٢، والكنجي في كفاية الطّالب، ص ٨٩، والحمويني في فرائد السّمطين، ج ١، ص ١٦، والخازن في تفسيره، ج ٣، ص ٣٧١، وأبو الفداء في تأريخه، ج ١، ص ١١٩، والسّيوطي في الدّرّ المنثور، ج ٥، ص ١٩٧، وبرهان الدّين الحلبي في سيرته (الحلبيّة)، ج ١، ص ٣١١، وابن كثير في البداية والنّهاية، ج ٣، ص ٣٩، والنِّسائي في خصائصه، ص ١٣، والحاكم النّيسابوري في مستدرك الصّحيحين، ج ٣، ص ١٣٣، وأحمد بن حنبل في مسنده، ج ١، ص ١١١ و ١٥٩، وغيرهم. راجع كتاب عليّ والوصيّة للعلّامة الشّيخ نجم الدّين العسكري، ص ١٧ ـ ١٩، وراجع الغدير، ج ٢، ص ٢٧٨ ـ ٢٨٤.

بجفاوة بالغة وحنان جم، يغذوها بثمار الوحي، وعطاء السّماء، ومبادئ الإسلام، لتغدو بإذن ربّها باسقة العود، وارفة الظّلال، يانعة الثمار، دانية القطوف، يتفيّؤها المسلمون، فيجدون في ظلالها النديّة امتداداً لظلال الإسلام، وفي عطائها امتداداً لعطائه الجزيل، وفي فنائها الرّحب نوره وبرده وسلامه.

ومضى النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يُحرِّض المسلمين بأساليبه النّبويّة البليغة على تَفيُّؤ دوحة الإمامة، وٱستدرار خيرها، وٱستلهام هداها، ليأمن عليهم مضلّات الفتن، ودوافع الضّلال.

وما حديث الدّار إلّا قبس من إعلاماته المركّزة المتواصلة على إمامة عليّ عليه السلام وفرض ولائه، وٱنتهاج سبيله النيِّر، كأحاديث الغدير والمنزلة والوصيّة والثّقلين وغيرها من الأحاديث الّتي سنوافيك بها في الأبحاث التالية.

وشاء المنحرفون عن الإمام أن يتصامّوا عن دعوةِ الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم ويتجاهلوا آياته البيّنة على إمامة عليّ، وراحوا يعملون على تحريفها وطمس دلالتها الصّارخة ما وسعهم ذلك.

فمِن مزاعمهم في حديث الدّار أنّه لا يُشْعِرُ بوصايتهِ وإمامتهِ العامّة، وإنّما ينصّ على استخلافه في أسرته وعشيرته!!

وفيه أنّ خصوصيّة المورد لا تخصِّص النصّ الوارد فيه، فطالما قرّر الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم حكماً تشريعياً لفرد أو جماعة مخصوصين، وهو يستهدف بذلك التشريع العام لكافّة المسلمين كما هو معروف للباحثين في التشريع الإسلامي.

وإنّما وجّهَ النّبيُّ خطابَه السّامي إلى بني عبدالمطّلب بوصفهم سادات العرب، وأعلام قريش، وأجدر الناس بمؤازرته، وتعزيز رسالته الخالدة.

هذا إلى أنّ كلّ قائل بخلافته الخاصّة قائل بخلافته العامّة، وهكذا العكس، فما هذا التحكّم فيما تعاضدت فيه النصوص النّبويّة، وسانده الرأي الإسلامي؟!!!

* * *

٢ ـ حديث المنزلة:

وهو كذلك من الأحاديث المستفيضة المتواترة في صحاح الطائفتين، وأسانيدهم المعتبرة، وهذا نصّه: قال صلى الله عليه وآله وسلم لعليّ عليه السلام: **«أنتَ منِّي بمنزلة هارون من موسى، إلّا أنّه لا نبيّ بعدي»**(١).

لقد ٱبتكر النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الخطاب إسلوباً إعلامياً بليغاً رائعاً في ٱستخلاف عليّ عليه السلام والنصّ عليه، وذلك بعقد المقارنة والتنظير بين شخصه الكريم وبين موسى عليه السلام، بصفته من سادات الأنبياء وأماثلهم، وبين عليّ عليه السلام وهارون، بوصفه وزير موسى عليه السلام وشريكه في النّبوّة وخليفته على أمّته، وآية ذلك قوله تعالى حاكياً عن موسى عليه السلام: ﴿**وٱجْعَلْ لي وَزيراً مِن أهْلِي * هارُونَ أخِي * ٱشْدُدْ بِهِ أزْرِي * وأشْرِكْهُ في أمْرِي**﴾ (طه / ٢٩ ـ ٣٢).

---

(١) ذكره البخاري في صحيحه، ج ١٤، ص ٣٨٦، وج ١٧، ص ٤٧٥، في باب غزوة تبوك، ومسلم في صحيحه، ج ٢، ص ٣٢٣، والتّرمذي في جامعه، ج ٢، ص ٤٦٠، والنّيسابوري في مستدرك الصحيحين، ج ٣، ص ١٠٨، وابن ماجة في سننه، ج ١، ص ٢٨، والنِّسائي في الخصائص، ص ٨ و ٢٨، والخطيب البغدادي في تأريخه، ج ٣، ص ٢٩٩، وأبو داود في سننه، ج ١، ص ٢٩، وابن عساكر في تأريخه، ج ٤، ص ١٩٦، وأحمد بن حنبل في مسنده، ج ١، ص ١٧٠ و ١٨٥ و ٢٣١، وج ٢، ص ٣٢، وج ٦، ص ٢٦٩، وأبو الفداء في البداية والنّهاية، ج ٧، ص ٢٣٩ و ٢٤٠. راجع كتاب عليّ والوصيّة للعلّامة الشيخ نجم الدِّين العسكري، ص ٤٤ ـ ٤٥، وراجع تعليقة آية الله السيِّد شهاب الدّين النّجفي على إحقاق الحقّ، ج ٥، ص ١٣٣ ـ ١٦٦.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿ٱخلُفني في قومي وأصْلِحْ ولا تتّبعْ سبيلَ ٱلمُفسِدين﴾.
(الأعراف / ١٤٢)

وقوله سبحانه: ﴿قد أوتِيتَ سُؤْلكَ يا موسى﴾. (طٰه / ٣٦)

وقد منح الرّسول عليّاً عليه السلام بهذا الحديث جميع الخصائص والصلاحيات الّتي يتمتّع بها هارون من قِبَل موسى ويتميّز بها على جميع أمّته خلا النّبوّة، حيث لا نبيّ بعده صلى الله عليه وآله وسلم، وٱستثناؤها برهان على عموم المنزلة، ومن الثابت أنّ من أظهر خصائص هارون ومنازله من موسى عليهما السلام أنّه كان وليّ عهده، وأفضل أمّته، وأحقّهم بمنصبه الرّفيع، وأكفأهم على قيادة الأمّة، وزعامتها الحكيمة الرّائدة. لذلك ٱستخلفه ـ حال غيابه ـ على قومه، وكان بحكم تلك المؤهّلات أجدر الناس وأحقّهم بخلافته لو بقيَ حيّاً بعد وفاة موسى.

وهذا نصٌّ جليّ، وبرهانٌ ساطع على إمامة عليّ وخلافته المباشرة الحقّ، حيث أحلّه النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من نفسه محلّ هارون من موسى، وقلّده جميع الفضائل والكفاءات الهارونيّة المؤهِّلة للخلافة الإسلامية، عدا خاصّة النّبوّة، والسفارة الإلٰهية: **«أنتَ منّي بمنزلةِ هارون من موسى، إلّا أنّه لا نبيَّ بعدي»**.

وحسب بعض المنحرفين عن خطِّ الإمامة: أنّ ورود الحديث في غزوة تبوك يُشعر باستخلاف عليّ عليه السلام على المدينة في ظرف تلك الغزوة ونطاقها المحدود، وليس فيه إشعار بخلافته العامّة، وهذا باطل لأمرين:

(١) إنّ خصوصيّة المورد لا تخصِّص الوارد، كما أوضحناه في الحديث السالف.

(٢) إنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قد صدع بهذا الحديث وأعلنه في مواطن عديدة، وموارد مختلفة، تنفي ٱختصاصه بمورد خاص.

(أ) فقد صدع به في دار أمّ سليم، المرأة المثاليّة في إيمانِها وتفانيها في الإسلام، فقال صلى الله عليه وآله وسلم وهو يخاطبها: **«يا أمّ سليم! إنّ عليّاً لحمه من لحمي، ودمه من دمي،**

وهو منّي بمنزلة هارون من موسى»[1].

(ب) وصدع به ﷺ في بيت أمّ سلمة، فقال وهو يخاطبها: **«هذا عليّ بن أبي طالب، لحمه من لحمي، ودمه من دمي، وهو منّي بمنزلة هارون من موسى، إلّا أنّه لا نبيّ بعدي»**[2].

(ج) وصدع به يوم المؤاخاة الأولى حين آخى بين المهاجرين قبل الهجرة، ويوم المؤاخاة الثانية حين آخى بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة، وفي كلا اليومين صدع ﷺ بحديث المنزلة.

يُحدِّثنا عن اليوم الأوّل زيد بن أبي أوفى، قال: «لمّا آخى النّبيّ ﷺ بين أصحابه، وآخى بين عمر وأبي بكر...

فقال عليّ: لقد ذهب روحي، وٱنقطع ظهري، حين رأيتك فعلتَ بأصحابك ما فعلت [مع] غيري، فإن كان هذا من سخطٍ عليَّ فلكَ العُتبى والكرامة. فقال رسول الله ﷺ: **والّذي بعثني بالحَقِّ ما أخّرتك إلّا لنفسي، وأنتَ منّي بمنزلة هارون من موسى، غير أنّه لا نبيّ بعدي، وأنتَ أخي ووارثي.**

قال: وما أرثُ منكَ يا رسول الله؟!

قال: **ما ورَّثَ الأنبياءُ من قبلي.**

قال: وما وَّرثَ الأنبياءُ من قبلك؟!

---

(١) المراجعات، ص ١٢٦، عن كنز العمّال، ج ٦، ص ١٥٤.

(٢) أورده الحمويني في الفرائد في الباب ٢٧ و ٢٩ بطرق ثلاث، والكنجي في الكفاية، ص ٦٩، والمتّقي في الكنز، ج ٦، ص ١٥٤، والبيهقي في المحاسن والمساوئ، ج ١، ص ٣١، والخوارزمي في المناقب، ص ٥٢ و ٥٨.

قال: كتاب ربّهم، وسنّة نبيّهم، وأنتَ معي في قصري في الجنّة مع فاطمة ٱبنتي، وأنتَ أخي ورفيقي. ثمّ تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿إخواناً على سُرُرٍ مُتقابِلين﴾ (١).

ويُحدِّثنا عن اليوم الثاني ابن عبّاس، قال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لعليّ: «أغَضِبْتَ عليَّ حين آخيتُ بين المهاجرين والأنصار، ولم أُواخِ بينكَ وبين أحدٍ منهم؟!! أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى، إلّا أنّه ليس بعدي نبيّ» (٢).

وللحديث مَوارِدُ أخرى أغفلنا ذكرها خشية الإطالة، وممّا عرضناه كافٍ في إبطال زعم القائلين باختصاص وروده في غزوة تبوك.

* * *

٣ ـ نصوص الوصيّة:

لقد درج الأنبياء عليهم السلام عبرَ تأريخهم، وتعاقبهم على سنّة الإستخلاف، وٱتّخاذ الأوصياء ليعاضدوهم على نشر دعوتهم وتحقيق أهدافهم الرسالية إبّان حياتهم، ويستخلفوهم على قيادة أممهم بعد الوفاة.

وحيث تواطأ الأنبياء على تلك السنّة الأزليّة، كان محتّماً على سيّد الرّسل وخاتمهم أن يسير على سننهم ويدرج على مناهجهم، فيختار الوصيّ الكفوء الأمين، لاستخلافه على حماية الشريعة وقيادة الأمّة الإسلامية، وريادتها نحو مثله العُليا، ومبادئه الخالدة.

---

(١) الرّياض النّضرة، ج ٢، ص ٢٠٩، وتأريخ ابن عساكر، ج ٦، ص ٢٠١، وتذكرة السّبط، ص ١٤، وكنز العمّال، ج ٦، ص ٣٩٠، وكفاية الشنقيطي، ص ٣٥ و ٤٤. راجع الغدير، ج ٣، ص ١١٥.

(٢) المراجعات، ص ١٢٨، نقلاً عن كنز العمّال ومنتخبه.

وهذا ما حقّقه ﷺ بوصاياه البليغـة، ونصوصه المشرقة على وصيِّه أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام. وإليك قبسات منها:

قال ﷺ: «**لكلِّ نبيّ وصيّ ووارث، وإنّ عليّاً وصيِّي ووارثي**»(١).

وقد أوضح هذا الحديث أمرين خطيرين:

تواطؤ الأنبياء على ٱتخاذ الأوصياء والخلفاء، وإعلان وصاية عليّ عليه السلام وٱستخلافه على المسلمين.

ومن حديث عن سلمان الفارسي، قال: «دخلتُ على رسول الله ﷺ وهو في غمرات الموت، فقلت: يا رسول الله هل أوصيت؟ قال: **يا سلمان أتدري مَن الأوصياء؟** قلت: الله ورسوله أعلم، قال: **إنّ آدمُ وصّى شيثَ وكان أفضلَ مَنْ تركه بعده من ولده، ووصّى نوحٌ سامَ، وكان أفضل مَنْ تركه بعده، ووصّى موسى يوشعَ، وكان أفضل مَنْ تركه بعده، وكان وصيّ سليمان آصف برخيا، وكان أفضل مَنْ تركه بعده، وإنِّي وصّيتُ إلى عليّ، هو أفضل مَنْ أترك بعدي**»(٢).

وقال ﷺ: «**إنّ وصيِّي، وموضع سرِّي، وخير مَنْ أترك بعدي، وينجز عِدَتي، ويقضي دَيْني عليّ بن أبي طالب**»(٣).

---

(١) أورده أخطب خوارزم في كتابه المناقب، ص ٥٠، ومحبّ الدّين الطّبري في ذخائر العقبى، ص ٧١، والرِّياض النّضرة، ج ٢، ص ٢٧٩، وابن حجر العسقلاني في لسان الميزان، ج ٤، ص ٤٨٠، والمناوي في كنوز الحقائق، ص ١٣٠. راجع تعليقة الحجّة السيِّد شهاب الدّين على إحقاق الحقّ، ج ٤، ص ٧١ ـ ٧٣.

(٢) المناقب المرتضويّة لمحمّدصالح الحنفي التّرمذي، ص ١٢٨، والكوكب الدرِّي للمؤلِّف نفسه، ص ١٠٥.

(٣) لقد أورد مضمون هذا الحديث: ابن الجوزي في التذكرة، ص ٤٧، ومحبّ الدّين ←

وهذا الحديث برهان قاطع على وصاية النّبيّ ﷺ لعليّ عليه السلام، وٱستخلافه إيّاه، ودليل قويّ على تفوّقه وأفضليّته على جميع المسلمين.

وقال ﷺ: «**أوصي مَنْ آمَنَ بي وصدّقني بولاية عليّ بن أبي طالب، فمَنْ تولّاه فقد تولّاني، ومَنْ تولّاني فقد تولّى الله، ومَنْ أحبّه فقد أحبّني، ومَنْ أحبّني فقد أحبّ الله، ومَنْ أبغضه فقد أبغضني، ومَنْ أبغضني فقد أبغض الله عزّ وجلّ**»(١).

وعن أنس، قال: «قال لي رسول الله ﷺ: **يا أنس! أوّل مَنْ يدخل عليكَ من هذا الباب إمام المتّقين، وسيِّد المسلمين، ويعسوب الدِّين، وخاتم الوصيِّين، وقائد الغرّ المحجّلين.**

قال أنس: فجاء عليّ، فقام إليه رسول الله ﷺ مُسْتَبْشِراً، فاعتنقهُ وقال له: **أنتَ منِّي تُؤدِّي عنِّي، وتُسمعهم صوتي، وتُبيِّن لهم ما ٱختلفوا فيه من بعدي**»(٢).

وتعتبر هاتيك النصوص من أقوى الدلائل والبراهين على إمامة عليّ عليه السلام وخلافته المباشرة بعد الرّسول ﷺ. وهي إلى ذلك أصدق شاهد على ٱفتراء المتجنِّين على الرّسول ﷺ وٱتّهامه بأنّه فارقَ الحياة، ولم يستخلِف وصيّاً وإماماً على المسلمين وتركهم عرضةً للتسيّب والتبعثر والضّلال!!

← الطّبري في الرِّياض النّضرة، ج ٢، ص ١٧٨، والمتّقي الهندي في كنز العمّال، ج ٦، ص ١٥٤، والعضد الأيجي في شرح المواقف، ج ٢، ص ٦١٣، والحافظ نورالدّين الهيثمي في مجمع الزّوائد، ج ٩، ص ١١٣. راجع تعليقة الحجّة النجّفي على إحقاق الحقّ، ج ٤، ص ٧٣ ـ ٨٢.

(١) عن المراجعات للإمام شرف الدّين، ص ٢١.

(٢) أورده أبونعيم الأصبهاني في حلية الأولياء، ج١، ص٦٣، وأخطب خوارزم في كتابه المناقب، ص ٥١، وابن طلحة الشّامي الشّافعي في مطالب السؤول، ص ٢١، وابن أبي الحديد في شرح النّهج، ج ١، ص ٤، وغيرهم. راجع تعليقة الحجّة النّجفي على إحقاق الحقّ، ج ٤، ص ٢٠ ـ ٢٢.

ولسنا بحاجة إلى مناقشة المتحذلقين في تأويل تلك النصوص الواضحة الصّريحة على خلافة عليّ عليه السلام، وإمامته العامّة، وتحريفها عن دلائلها الجليّة فيه، إذ ليس في عهود الأنبياء عليهم السلام والرؤساء ما هو أبلَغ تعبيراً، وأوضح دلالةً وقصداً منها.

وما هي الألفاظ والتعابير الّتي كان من الأجدر بالنّـبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أن يُعرِب بها عن وصايته لعليّ وٱستخلافه إيّاه؟!! وهل كان في وُسْعِهِ ـ وهو اللّسِن البليغ ـ أن يُدلي بأصْرَح وأوْضَح من تلك النصوص؟!!

* * *

٤ ـ حديث الغدير:

وهو من أبرز الأحاديث شهرةً، وأصحّها سنداً، وأوضحها مفاداً، وأكثرها تواتراً في صحاح الفريقين ومصادرهما الوثيقة.

وقد نالَ العناية الكُبرى والإهتمام البالغ من جماهير الحفّاظ المفسّرين وتناقلته أجيالهم وطبقاتهم عبرَ تأريخ الإسلام. وقد رواهُ من أعلام الصّحابة ومشاهيرهم (مائة وعشرون صحابيّاً)، ورواه من ألمع التابعين (أربع وثمانون تابعياً)، ومن أقطاب العلم والأدب (ثلاثمائة وستّون عالماً وأديباً).

وقد أفاض سماحة العلّامة الكبير الحجّة المجاهد الشّيخ عبدالحسين الأميني رحمه الله في البحث عنه على ضوء الكتاب والسنّة وشواهد الأدب والتأريخ في الجزء الأوّل من موسوعته القيّمة، وسفره الجليل الممتع (الغدير)، وإليك نصّ الحديث:

أخرج الطّبراني وغيره بسند مجمع على صحّته عن زيد بن أرقم، قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بغدير خم تحت شجرات، فقال: «**أيّها النّاس! يوشك أن أُدعى فأُجيب، وإنّي مسؤول وإنّكم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟** قالوا، نشهد أنّك قد بلّغت وجاهدت ونصحت، فجزاكَ الله خيراً. فقال: **أليسَ تشهدون أن لا إله إلّا الله،**

وأنّ محمّداً عبده ورسـوله، وأنّ جنّته حقّ، وأنّ ناره حقّ، وأنّ المـوتَ حقّ، وأنّ البعثَ حقّ بعد الموت، وأنّ الساعة آتيةٌ لا ريبَ فيها، وأنّ الله يبعث مَنْ في القبور؟ قالوا: بلى نشهد بذلك. قال: اللّهمّ اشهد. ثمّ قال: أيُّها النّاس! إنّ الله مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمَن كنتُ مولاه فهذا ـ يعني عليّاً ـ مولاه. اللّهمّ والِ مَنْ والاه وعادِ مَنْ عاداه. ثمّ قال: يا أيّها الناس! إنّي فرطكم وإنّكم واردون عليَّ الحـوض، حوض أعرض ممّا بين بُصرىٰ إلى صـنعاء، فيه عدد النّجـوم قدحان من فضّة، وإنّي سائلكم حين تردون عليَّ عن الثّـقلين كيف تخلفوني فيهما، الثّقل الأكبر كتاب الله عزّ وجلّ، سـبب طرفه بيد الله تعالى، وطرفه بأيديكم، فاستمسكوا به لا تضلّوا ولا تُبدِّلوا، وعترتي أهل بيتي، فإنّه قد نبّأني اللّطيف الخبير أنّهما لن ينقضيا حتّى يردا عليَّ الحوض».

ولا أحسـب باحثاً مسـتنيراً متحرِّراً يرتاب في مفاد هذا الحديـث الصّريح، ودلالته الصّارخة على استخلاف عليّ عليه السلام ووصايته العامّة على الأمّة الإسـلامية، كما فهمه ووعته الجماهير الزّاخرة الحاشدة من حضّار مشهد الغدير. واستيقنه العلماء والأدباء والشعراء من بدء إعلام النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم به حتّى العصر الحديث.

وقد تبارى عباقرة الشـعر في نظم مآثره ودلالته نشيداً متناغماً حلو الجرس والإيقاع، يملأ النّفس ويهزّ المشـاعر، وتستعيده الأجيال الصّـاعدة كلّما تطلّعت إلى أمجاد عليّ عليه السلام وفضائله الوهّاجة المشعّة في آفاق الإسلام.

وأيّ دلالة أصدق وأصرح على استخلاف الإمام عليه السلام من هذا النصّ النّبويّ البليغ؟!: «مَنْ كنتُ مولاه فهذا عليٌّ مولاه. اللّهمّ والِ مَنْ والاه، وعادِ مَنْ عاداه...».

ولكنّ رواسب التقليد، والنّعرات الطائفية تحفِّز أصحابها على تجاهل الحـقّ، ومكابرة الواقع رغم وضوحها وجلائها المشرقين.

من ذلك: تأويلهم مفاد المولى وصرفه عن مدلوله الأصيل: وهو الأولى بالتصرّف المرادف للإمام والخليفة إلى مفاهيم أخرى بعيدة وغريبة عن أهداف الحديث، إلى: العمّ، وٱبن العمّ، والمحبّ، والناصر، والحليف ونحوها من المعاني اللّغوية الّتي يأباها فقه اللّغة، وتستنكرها قرائن الحديث الحالية والمقالية.

ونحنُ نناقش هذا الرأي على ضوء الحقائق التالية:

(١) أنّىٰ لسيِّدِ الرُّسـل صلى الله عليه وآله وسلم، وهو المثل الأعلى للحكمة وسداد، الرأي أن يستوقف مسيرة الحجّ المجدّة في قفولها في مفازة الغدير، ورمضائها المحرقة، وهجيرها اللّاهب، ثمّ يقف خطيباً في حشودها ليُعلمهم أنّ عليّاً محبّ لِمَنْ أحبّه وناصرٌ لِمَنْ نصره، أو حليفٌ لِمَنْ حالفه!!

إنّ بداهة العقل لتحيل عليه عليه السلام إعلان تلك الواضحات، وتنزّهه عن هذا الإجراء المناقض لمنطق النّبوّة، وعصمته عن الإسفاف والفضول!!

(٢) ولو ٱستهدف النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بخطبته الغديرية العصماء تلك المعاني المزعومة، فعلامَ جاءت آية التبليغ تستحثّه بعزم وإصرار على تبليغها، وتتوعّده ذلك التوعّد الرّهيب على إرجائه وتسويفه: ﴿**يا أيُّها الرّسُولُ بَلِّغ ما أُنْزِلَ إلَيْكَ من ربِّكَ وإنْ لم تَفْعَلْ فما بَلّغْتَ رِسالتَه**﴾.

وقد أثبتنا في حقل الدلائل القرآنية السالف، نزول هذه الآية المباركة على الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم غداة يوم الغدير من حجّة الوداع.[1]

(٣) ولو ٱستنطقنا نصّ الغدير، وٱستوحينا قرائنه البلاغية، وجدناه ناطقاً مفصحاً عن ٱستخلاف عليّ عليه السلام وتقليده ولاية العهد النّبويّ، ووسام الإمامة العامّة.

---

(١) راجع ص ٦٣ من هذا الكتاب.

حيث ٱستهلّه ﷺ بتقدير تلك الجماهير، وٱستشهادهم على قيامه بأداء الرسالة، وتبليغهم مفاهيم الدعوة الإسلامية، ليوحي إليهم أنّ ما يطالعهم به من نصب الوصيّ وٱستخلافه هو من مقوّمات رسـالته، ومتمّمات دعوته الخالدة، كي لا يتخلّفوا عن ٱمتثال أمره، والإنصياع لتوجيهه.

وعقّب بعد ذلك على إعلامهم بولايتـه العامّة عليهم جمـيعاً، وأنّها كولاية الله تعالى، لِيُمَهِّدَ إلى ٱستخلاف عليّ وتقليده ولاية المؤمنين، وأنّها كولايته عليهم سواءً بسواء: «**مَنْ كُنتُ مولاه فهذا عليٌّ مولاه**».

وراحَ بعد هذا يُبارك عليّاً عليه السلام بدعواته الحارّة المشبوبة بأسمى وأكرم العواطف النّبويّة، المُشْعِرة بحتميّة ولائه والتّرهيب من جفائه ومناوأته: «**اللّهمّ والِ مَنْ والاه، وعادِ مَنْ عاداه**».

فهل يستجيز العقل ـ بعد هذه القرائن البلاغيـة ـ حمل (المولى) على الناصر والمحبّ ؟!!

(٤) احتفاء حضّار الغـدير من مشـايخ قريش وأعلام المهاجرين والأنصار، وٱندفاعهم إلى تهنئة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام على منصبه الروحي، ومركزه القيادي الرفيع، كما يقصّه علينا جماهير الرّواة.

قال المؤرِّخ غياث الدِّين في حبيب السِّيَر في ج ٣، ص ١٤٤، ما معرّبه:

«ثمّ جلس أمير المؤمنـين بأمرٍ من النّـبيّ ﷺ في خيمةٍ تخـصّ به، يزوره الناس، ويهنِّؤونه، وفيهم عمر بن الخطّاب، فقال: بخٍ بخٍ يا ابن أبي طالب!! أصبحتَ مولاي، ومولى كلِّ مؤمنٍ ومؤمنة.

ثمّ أمر النّبيّ أمّهات المؤمنين بالدخول على أمير المؤمنين والتهنئة له»[1].

---

(١) الغدير، ج ١، آخر ص ٢٧١.

وأخرج محمّد بن جرير الطّبري في تفسيره، ج ٣، ص ٤٢٨:

«قال: بعد ذكر حديث الغدير، فلقيهُ عمر بن الخطّاب، فقال: هنيئاً لكَ يا ابن أبي طالب!! أصبحتَ مولاي ومولى كلّ مؤمنٍ ومؤمنة»[(١)].

وقد جاءت تهنئة الخليفتين للإمام في يوم الغدير في ستّين مصدراً من مصادر إخواننا.[(٢)]

وناهيكَ بشهادات الخليفة الثاني (رض) أيّام خلافته بولاية عليّ عليه السلام على كلِّ مؤمنٍ ومؤمنة.

فعن الحافظ الدّارقطني، عن عمر، وقد جاءه أعرابيّان يختصمان، فقال لعليّ: ٱقضِ بينهما، فقال أحدهما: هذا يقضي بيننا؟ فوثبَ إليه عمر وأخذ بتلبيبه، وقال: ويحك ما تدري مَنْ هذا؟! هذا مولاي ومولى كلّ مؤمن، ومَنْ لم يكن مولاه فليس بمؤمن.[(٣)]

وجاء في الفتوحات الإسلامية، ج ٢، ص ٣٠٧:

حكم عليٌّ مرّةً على إعرابيٍّ بحكمٍ، فلم يرضَ بحكمه، فتلبّبه عمر بن الخطّاب، وقال له: ويلك! إنّه مولاك ومولى كلّ مؤمنٍ ومؤمنة.

(٥) ومن القرائن على إيراد (المولى) فيما ذهبنا إليه:

مناشدة أمير المؤمنين عليه السلام حضّار الغدير، ومشاهدي حفله النّبويّ الكريم على رواية ما سمعوه شفاهاً من الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم في ٱستخلافه والنصّ على إمامته،

(١) الغدير، ج ١، ص ٢٧٣.

(٢) راجع الغدير، ج ١، ص ٢٧٢ ـ ٢٨٣.

(٣) الرِّياض النّضرة، ج ٢، ص ١٧٠، وذخائر العقبى للمحبّ الطّبري، ص ٦٨، مناقب الخوارزمي، ص ٩٧، الصّواعق المحرقة، ص ٧٠.

ليستعيد ذكراها العاطرة، وينمّي غرسها المعطاء في وعي الأمّة الإسلامية الّتي جهدت الدوافع السياسية على تجاهلها وطمسها واجتثاثها من الأعماق، وأجرى هذه المناشدة يوم الرّحبة ويوم الجمل ويوم الشورى كما تقصّه المصادر التالية:

أخرج الإمام أحمد في الجزء الأوّل من مسنده، ص ١١٩، عن عبدالرّحمٰن بن أبي ليلى، قال: شهدتُ عليّاً في الرّحبة ينشد الناس، فيقول: أنشد الله مَنْ سمع رسول الله يقول يوم غدير خم: مَنْ كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه، لمّا قام فشهد، ولا يقم إلّا مَنْ قد رآه، قال عبدالرّحمٰن: فقام إثنا عشر بدريّاً كأنّي أنظر إلى أحدهم، فقالوا: نشهد أنّا سمعنا رسول الله ﷺ يقول يوم غدير خم: ألستُ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأزواجي أمّهاتهم، فقلنا: بلى يا رسول الله، قال: فَمَنْ كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه، اللّهمّ والِ مَنْ والاه، وعادِ مَنْ عاداه.

وأخرج الإمام أحمد أيضاً في الجزء الرابع من مسنده، ص ٣٧٠، عن أبي الطّفيل، قال: «جمع عليٌّ الناس في الرّحبة، ثمّ قال لهم: أنشد الله كلّ امرئٍ مسلم سمع رسول الله ﷺ يقول يوم غدير خم ما سمع لمّا قام، فقام ثلاثون من الناس.

قال: وقال أبو نعيم: فقام ناس كثير، فشهدوا حين أخذه بيده، فقال للناس: أتعلمون أنّي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، قالوا: نعم يا رسول الله، قال: **مَنْ كنتُ مولاه فهذا عليٌّ مولاه، اللّهمّ والِ مَنْ والاه، وعادِ مَنْ عاداه...**»(١).

وقد نوّه المحدِّثون والمفسِّرون والمؤرِّخون عن هذه المناشدة في مصادر عديدة، وموارد جمّة.(٢)

والجدير بالذِّكر أنّ الفاصل الزّمني بين يوم الغدير، ومناشدة الرّحبة زهاء (ربع

---

(١) عن المراجعات، ص ١٧٢ و ١٧٣.

(٢) ومَنْ شاء التوسّع فيها، فليراجع الغدير، ج ١، ص ١٦٦ ـ ١٨٤.

قرن)، أفنت الحروب الإسلامية، والطّواعين المبيدة جُلّ حضّار الغدير ومشاهديه، ولم يبقَ منهم حينذاك إلّا نفرٌ يسير.

ومنهم مَنْ تقاعس عن الإدلاء بشهادته بغضاً للإمام وحنقاً عليه، كأنس بن مالك، الّذي لاقى جزاء كتمان شهادته أن برص وجهه برصاً فاضحاً.(١)

وهكذا ٱستنشد الإمام بحديث الغدير يوم الجمل:

روى الخطيب الخوارزمي الحنفي في المناقب، ص ١١٢، بإسناده عن رفاعة، عن أبيه، عن جدِّه، قال: «كنّا مع عليّ يوم الجمل، فبعث إلى طلحة بن عبيدالله التميمي، فأتاه فقال: أنشدتك الله هل سمعت رسول الله يقول: **مَنْ كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه، اللّهمّ والِ مَنْ والاه، وعادِ مَنْ عاداه، وٱخذل مَنْ خذله، وٱنصر مَنْ نصره؟** قال: نعم. قال: **فَلِمَ تقاتلني؟!**

قال: نسيت ولم أذكر.

قال: فانصرف طلحة ولم يردّ جواباً»(٢).

وكان الإمام قد ناشد أصحاب الشورى قبل المناشدتين السابقتين:

قال ابن أبي الحديد في شرح النّهج، ج ٢، ص ٦١:

«ونحنُ نذكر في هذا الموضع ما ٱستفاض في الرّوايات من مناشدة أصحاب الشّورى، وتعديده فضائله وخصائصه الّتي بانَ بها منهم ومن غيرهم.

ثمّ قال لهم: أنشدتكم الله، أفيكم أحد آخى رسول الله ﷺ بينه وبين نفسه

---

(١) راجع تفصيل ذلك في الغدير، ج ١، ص ١٩٢ ـ ١٩٤.

(٢) ذكر ذلك ابن عساكر في تأريخ الشام، ج ٧، ص ٢٣٦، وابن الجوزي في تذكرته، ص ٤٢، وابن حجر في تهذيبه، ج ١، ص ٣٩١، وفي كنز العمّال، ج ٦، ص ٨٣، والسّنوسي في شرح مسلم، ج ٦، ص ٢٣٦. راجع الغدير، ج ١، ص ١٨٦ ـ ١٨٧.

حين آخى بين بعض المسلمين وبعض غيري؟ قالوا: لا، فقال: أفيكم أحد قال له رسول الله: **مَنْ كنتُ مولاه فهذا مولاه غيري؟** قالوا: لا»[1].

ومن طرائف النقول في هذا المجال حديث الرّكبان في الكوفة:

أخرج الإمام أحمد بن حنبل بسنده عن رباح بن الحارث، قال: جاء رهط إلى عليّ بالرّحبة، فقالوا: السّلام عليك يا مولانا. قال: وكيف أكون مولاكم وأنتم عرب؟!

قالوا: سمعنا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول يوم غدير خم: **مَنْ كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه.**

قال رباح: فلمّا مضوا تبعتهم، فسألتُ: مَنْ هؤلاء؟ قالوا: نفر من الأنصار فيهم أبو أيوب الأنصاري.[2]

وقد ٱقتدى أهل البيت عليهم السّلام بأمير المؤمنين عليه السّلام بالإحتجاج بحديث الغدير كالزّهراء والحسن والحسين صلوات الله عليهم ومَنْ شايعهم ودار في فلكهم الرّفيع ممّا يطول عرضه وتعداده في هذه الرسالة. وحسب الباحث أن يستعرض ٱحتجاجاتهم في الجزء الأوّل من الغدير، ص ١٩٦ ـ ١٩٨.

(٦) قصّة الحرث بن النّعمان الفهري:

وهي القصّة الّتي تصوِّر الشعور الجاهلي وتعنّته إزاء إرادة الله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم، كما تجلو واقع المولى أوضح جلاء وأبلغه:

قال الثّعلبي في تفسيره الكشف والبيان:

«إنّ سفيان بن عيينة سُئل عن قوله عزّ وجلّ: ﴿**سألَ سائِلٌ بعذابٍ واقِع**﴾،

---

(١) وقد ذكر الحجّة الأميني مصادر هذه المناشدة في غديره، ج ١، ص ١٦٢.

(٢) راجع مصادر هذه القصّة في الغدير، ج ١، ص ١٨٧ ـ ١٩٠.

فيمَنْ نزلت؟ فقال للسائل: سألتني عن مسألةٍ ما سألني أحد قبلك. حدّثني أبي، عن جعفر بن محمّد، عن آبائه صلوات الله عليهم، قال: لمّا كان رسـول الله بغدير خم، نادى الناس، فاجتمعوا، فأخذ بيد عليّ، فقال: مَنْ كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه. فشاعَ ذلك وطارَ في البلاد، فبلغ ذلك الحرث بن النّعمان الفهري، فأتى رسول الله ﷺ على ناقةٍ له حتّى أتى الأبطح، فنزل عن ناقته فأناخها، فقال: يا محمّد! أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله إلّا الله، وأنّك رسول الله فقبلناه، وأمرتنا أن نُصلّي خمساً فقبلناه، وأمرتنا بالزّكاة فقبلنا، وأمرتنا أن نصـوم شهراً فقبلنا، وأمرتنا بالحجِّ فقبلنا، ثمّ لم ترض بهذا حتّى دفعتَ بضبعي ابن عمّك ففضّلتهُ علينا وقلتَ: مَنْ كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه. فهذا شيء منك أم من الله عزّ وجلّ؟!! فقال: والّذي لا إله إلّا هو، إنّ هذا من الله، فولّى الحرث بن النّعمان يريد راحلتـه وهو يقول: اللّهمّ إنْ كان ما يقـول محمّد حقّاً، فأمطِر علينا حجارةً من السّماء أو آئتنا بعذابٍ أليم. فما وصل إليها حتّى رماهُ الله تعالى بحجر فسقط على هامته، وخرج من دبره وقتله، وأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿**سألَ سائِلٌ بعذابٍ واقِع**﴾»[1].

فهل بعد هذا العرض الزّاخر بصـنوف الآيات والقرائن الحـاليـة والمقاليـة على دلالة (المـولى) فيما آعتقـده الإماميّـة يمكن حملها على الناصر والمحبّ وغيرهما من المفاهيم المزعومة؟!! الّتي تُصوِّر لجاجة المكابر، وتفسيره الهزيل المضحك.

﴿**إنْ يَتّبِعُونَ إلّا الظّنَّ وما تهوىٰ الأنفُسُ، ولقد جاءهُم مِن ربِّهم الهُدى**﴾.

* * *

(١) وردت هذه القصّة في ثلاثين مصدراً من مصادر اخواننا، راجع الغـدير، ج ١، ص ٢٣٩ ـ ٢٤٦.

٥ ـ حديث الثّقلين:

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنِّي تركتُ فيكُم ما إنْ تمسّكتُم به لن تضلّوا بعدي: كتاب الله حبلٌ ممدودٌ من السّماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما» [١].

لقد صوّر هذا الحديث الشريف جلالة العترة الطاهرة من أهل البيت عليهم السلام وعظمة فضائلهم وأمجادهم، حيث قرنهم القرآن الكريم ووصفهم بـ (الثّقلين) والثّقَل لغةً: الشيء النفسى المصون، وناهيك بهذا شرفاً خالداً ومجداً مؤبّداً. وقد صدع النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بهذا الحديث غداة أحسَّ بقُرب وفاته، ودنوِّ أجله، فراحَ ينعى نفسه للملأ الإسلاميّ «يوشك أنْ أُدعىٰ فأُجيب» ـ كما في بعض نسخ الحديث ـ وينذره بأفول فجر النّبوّة وتصرُّمِ عهده الزّاهر المعطاء، وحرمان المسلمين من إلهامه وهداه، وتعرّضهم من بعده لأخطار التسيُّبِ والضّلال.

وطفقَ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وهو في غمرة أساه، وحرصه البالغ على مستقبل أمّته وضمان سعادتها وهداها، يُنَهْنِهُ عن وَجْدِها ولوعتها بفراقه، ويبثّها مفاهيم الطمأنينة والأمن على أمجادها الشامخة، ومكاسبها الإسلامية الضّخمة، أن خلّف لها تراثاً سماويّاً، وكنزاً روحيّاً فيّاضاً بجميع معطيات السّماء، ومفاهيمها الكافلة الموجّهة، وترك لهم قادةً أكفاء مخلصين يهدونهم سُبل السّعادة السّلام: **«إنِّي تاركٌ فيكم ما إنْ تمسّكتُم**

---

(١) أخرج هذا الحديث الشريف جمهور غفير من علماء اخواننا: منهم أحمد بن حنبل في المسند، ج ٣، ص ٢٦، ومسلم في صحيحه، ج ٢، ص ١٢٢، والتّرمذي في صحيحه، ج ٢، ص ٢٠٨، وتفسير ابن كثير، ج ٣، ص ٤٨٦، والنّيسابوري في المستدرك على الصّحيحين، ج ٣، ص ١٠٩ و ١٤٨، والمتّقي الحنفي في كنز العمّال، ج ١، ص ٤٧، والسّيوطي في الدّرّ المنثور، ج ٢، ص ٦٠، والخوارزمي في المناقب، ص ٩٣، وكثيرون يطول تعدادهم. راجع كتاب عليّ وبنوه الأوصياء، للعلّامة الشّيخ نجم الدّين العسكري، ص ١١٧ ـ ٢٣٨.

به لن تضلّوا بعدي: كتاب الله وعترتي ...».

ونسـتنتج من هذه المقارنة بين الكتاب والسنّة مفاهيم سـامية جليلة حـريّة بالتدبّر والإعتبار:

(١) نستنتج منها طهارة العترة، وعصمتها عن جميع المساوئ والمذام، كطهارة القرآن وعصمته على حدٍّ واحد.

ذلك أنّه لو لم تكن العترة منزّهة عن الذّنوب والآثام، لما أمر النّـبيّ ﷺ بالتمسّك بولائهم والإسـتهداء بهم قولاً وعملاً، ولما أناط النّجاة والفـوز باتّباعهم، والضّلال والهلاك في مخالفتهم والإنحـراف عنهم، وبالتالي لما جعلهم أعـدال القـرآن الكريم، وقرناءه عبرَ الحياة وحتّى المعاد، ولو ٱقترفوا المعاصي لافترقوا عن القرآن، وٱفترق عنهم خطّاً ومبدءاً.

(٢) ونستنتج كذلك جلالة فضل العترة، وعطائها الزّاخر وإحاطتها الكاملة الواعية بأسرار الوحي، وحقائق التّنزيل ما قرنها بالقرآن الكريم، وجعلها في نفس مستواه الرّفيع.

(٣) ونستنتج بعد هذا وذاك وجوب التمسّك بالعترة كوجوب التمسّك بالقرآن، وضرورة الإستهداء بهما معاً في مختلف شؤون الحـياة، ونواحي التشريع الإسلامي، فلا يسوغ في منطق الحديث الإقتصار على أحدهما دون قرينة، إذ القرآن هو دستور الإسلام، والعـترة الطاهرة هم تراجمة وحيـه ومفسّرو آياته، وروّاد مثله وأهدافه، والسّلطة العادلة المنفِّذة لأحكامه.

(٤) وأفاد الحديث أنّ ضمان هداية المسلمين وسعادتهم منوط بالتمسّك بالكتاب والعترة، وٱستلهام مثلهما ومبادئهما الكافلة، وضلالهم وشقاؤهم منوطان بمجافاتهما والإنحراف عنهما.

(٥) وأفاد مواكبة العترة للقرآن، وتلازمهما الوثيق الأبدي، وفيه إشعار بانحصار الإمامة في العترة، ووجود إمام معصوم منهم في كلِّ عصر كما جاء في الحديث النّبويّ: «**مَنْ ماتَ ولم يعرف إمام زمانه ماتَ ميتةً جاهليّة**».

قال الإمام الزّرقاني المالكي يحكي في شرح المواهب، ص ٧ ـ ٨، عن العلّامة السمهودي، أنّه قال: «هذا الخبر يُفهم وجود مَنْ يكون أهلاً للتمسّك به من عترته في كلِّ زمن إلى قيام الساعة حتّى يتوجّه الحثّ المذكور على التمسّك به كما أنّ الكتاب كذلك، فلذا كانوا أماناً لأهل الأرض، فإذا ذهبوا ذهب أهل الأرض»[١].

وقد صدع النّبيّ ﷺ بهذا الحديث، وركّز في مواطن عديدة، وظروف مختلفة: يوم الغدير، ويوم عرفة من حجّة الوداع، وعند انصرافه من الطائف، وعلى منبره في المدينة، وحتّى في زحمة مرضه، ومشهد عوّاده وزائريه.

قال ابن حجر الهيثمي في صواعقه، ص ٨٩:

«إعلم أنّ لحديث التمسّك بهما طرقاً كثيرة وردت عن نيّف وعشرين صحابيّاً. قال: وفي تلك الطّرق أنّه قال ذلك بحجّة الوداع بعرفة، وفي أخرى أنّه قال بالمدينة في مرضه، وقد امتلأتْ الحجرة بأصحابه، وفي أخرى أنّه قال ذلك بغدير خم، وفي أخرى أنّه قال ذلك لمّا قام خطيباً بعد انصرافه من الطّائف...».

وبديهيٌّ أنّ المعنيّ بأهل البيت في هذا الحديث هم الأئمّة المعصومون الإثنا عشر صلوات الله عليهم، لتميّزهم وتفرّدهم بمؤهّلات الإمامة وخصائصها السامية دون سائر الهاشميّين لتجرّدهم من العصمة وشرائط الإمامة، واتّصاف بعضهم بالجهل والإنحراف، ما يحيل إقترانهم بالقرآن الكريم.

---

(١) الغدير، ج ٣، ص ٨٠، وكتاب الدِّين الخالص، ج ٣، ص ٥١١ ـ ٥١٤.

وشاء المنحرفون عن أهل البيت عليهم السلام أن يتلاعبوا بنصّ الحديث، ويحرِّفوه عن منطوقه الأصيل، فزعموا أنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: كتاب الله وسنّتي.

وأصدق شاهد على ٱفتعال هذا الدّسّ والتزوير هو: أنّ أكثر أسفار الحديث والتفسير روته بلفظ (وعترتي) فحسب دون تلك العبارة المفتراة، وحسب الباحث أن يتصفّح صحاح إخواننا وتفاسيرهم: كصحيح مسلم، ج٧، ص١٢٢، وصحيح التّرمذي، ج ٢، ص ٢٠٨، ومسند الإمام أحمد بن حنبل، ص ٢٦، وتفسير الرّازي والثّعلبي والنّيسابوري والخازن وغيرها من المصادر الجمّة، المصرِّحة بالعترة، فضلاً عن إجماع الإماميّة عليها.

قال الإمام شرف الدّين:

«والآفة في تحريف هذا الحديث إنّما هي على رأي اخواننا الجماعيِّين من (صالح الطّلحي) لأنّه طالح بلا كلام. قال يحيى: إنّه ليس بشيء ولا يُكتب حديثه. وقال البخاري: منكر الحديث. وقال النِّسائي: متروك. وقال ابن عدي: عامّة ما يرويه لا يتابعه عليه أحد...

ونقل أعلى الله مقامه، عن أئمّة الجرح والتعديل طرفاً من قدحهم فيه»(١).

* * *

٦ ـ حديث السّفينة:

قال صلى الله عليه وآله وسلم: **«إنّما مثلُ أهل بيتي فيكم كمثلِ سفينة نوح، مَنْ ركبها نجا، ومَنْ تخلّف عنها غرق، وإنّما مثلُ أهل بيتي فيكم مثلُ باب حطّة في بني إسرائيل، مَنْ دخله غفر له».**

---

(١) أنظر «إلى المجمع العلمي العربي بدمشق»، للإمام شرف الدّين، ص ١١٥.

وهو من الأحاديث الشهيرة المتواترة فيما يربو على تسعين مصدراً من العامّة فضلاً عن الخاصّة.[1]

يجد الباحث في حقل الإمامة أنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لم يألُ جهداً ولم يدّخر وسعاً في إعلام أمّته بإمامة المعصومين من أهل بيته عليهم السلام والتنويه بفضائلهم ومواهبهم، والحضّ على ولائهم، والسّير على هداهم، معبّراً عن ذلك بأساليبه النّبـويّة البليغة وطرائقه الإعلامية الجذّابة.

فتراهُ تارةً يُعلِن ذلك ويُعرِب عنه بنصوص واضحة صريحة، وأخرى بطرق الكنايـة والتلويح، لتكون أبلغ أثـراً، وأقوى إقناعاً في النّفـوس، على حدِّ الكلمـة المشهورة: «الكناية أبلغ من التصريح».

قرنهم في حديث (الثّقلين) السالف بالقرآن الكريم، إعلاناً عن عصمتهم وحتميّة ولائهم، كما أوضحناه.

وشبّههم في هذا الحديث بسـفينة نوح وباب (حطّة) لما بينهما وبين أهل بيته المعصومين من وجوه الشّبه والتنظير، وهو تشبيه رائع يجسِّد القيم المعنوية السـامية بتشبيهها بالمفاهيم الحسِّيّة المنظورة.

فقد كانت سـفينة نوح سبباً لنجاة المعتصمين بها من غرق الطّوفان وهلاكه المحتوم، وغرق المتخلِّفين عنها وفنائهم في لجحه الطاغية الماحقـة. وكذلك جعل الله تعالى (أهل البيت عليهم السلام) معتصماً وملاذاً وأماناً للمتمسِّكين بولائهم والسائرين على هداهم، من طوفان الفتن والضّلال، ومدِّه الجارف الماحق عبرَ العصور.

---

(١) منها: ذخائر العقبى لمحبّ الدّين الطّبري، ص ٢٠، وكنز العمّال، ج ١، ص ٢٥٠، وصواعق ابن حجر، ص ١١٤، والجامع الصّغير للسّيوطي، ج ٢، ص ١٣٢، وفرائد السّمطين للحمويني، ج ٢، ص ٤٦، والحاكم في المستدرك، ج ٢، ص ٣٤٣، وج ٣، ص ٢١٥٠، وكثيرون غيرهم. راجع كتاب «عليّ وبنوه الأوصياء»، للعلّامة الشيخ نجم الدّين العسكري، ص ٢٣٩ ـ ٢٨١.

وفي ذلك إعلام بإمامتهم وجدارتهم الفائقة بقيادة المسلمين، وريادتهم نحو السّعادة والسّلام، وإشعار بنجاة مواليهم وهلاك المنحرفين عنهم، ولا عجب أن ينال الأئمة المعصومون هذه المكانة المرموقة، والحظوة النّبويّة البالغة، فقد أعدّهم الله وأهّلهم بما أمدّهم من صنوف المعارف الإلهية، وآيات الحكمة والبصيرة، وخصائص الفطنة الخارقة والإلهام المنقطع النظير، ما بوّأهم تلك المنازل الرفيعة، وخوّلهم تلك السلطات الروحية النافذة.

وليس هذا الحديث وحيداً في محتواه، فطالما صدع النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بأشباه ونظائر له تجسّد وتؤكّد ضرورة الإئتام بأهل البيت عليهم السّلام وحتميّة طاعتهم والإقتداء بهم.

من ذلك، قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم: **«في كلِّ خلف من أمّتي عدول من أهل بيتي، ينفون عن هذا الدِّين تحريف الضّالِّين، وانتحال المُبطلين، وتأويل الجاهلين، ألا وإنّ أئمّتكم وفدكم إلى الله، فانظروا مَنْ توفدون»**[1].

وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: **«النّجوم أمانٌ لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمانٌ لأمّتي من الإختلاف، فإذا خالفتها قبيلة من العرب اختلفوا فصار حزب إبليس»**[2].

وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: **«إجعلوا أهل بيتي فيكم مكان الرّأس مِنَ الجسد، ومكان العينين من الرّأس، ولا يهتدي الرّأس إلّا بالعينين»**[3].

---

(١) الصّواعق المحرقة، ص ١٤١، وذخائر العقبى، ص ١٧.

(٢) جاء الحديث في مستدرك الصّحيحين، ج ٣، ص ١٤٩، وفي الصّواعق المحرقة، ص ١٤٠، وكنز العمّال، ج٦، ص١١٦، والمناوي في فيض القدير، ج ٦، ص ٢٩٧، وذخائر العقبى، ص١٧. راجع فضائل الخمسة من الصِّحاح السّتّة للعلّامة السيِّد مرتضى الحسيني الفيروزآبادي، ج ٢، ص ٥٩ ـ ٦٠.

(٣) المراجعات للإمام شرف الدّين، ص ٢٢.

وقال ﷺ : **«مَنْ أحبّ أن يحيا حياتي، ويموت ميتتي، ويدخل الجنّة الّتي وعدني ربِّي، وهي جنّة الخُلد، فليتولّ عليّاً وذرِّيّته من بعده، فإنّهم لن يُخرجوكم من بابِ هُدىٰ، ولن يُدخلوكم باب ضلالة»** (١).

ونحوها من الأحاديث المتواترة الجمّة، وقد عرضنا طائفة منها في شرح آية المودّة في حقل الدلائل القرآنية السالف.

* * *

٧ ـ حديث الإثني عشر خليفة:

قال ﷺ : **«لا يزال الدِّين قائماً حتّى تقوم السّاعة، ويكون عليهم إثنا عشر خليفة كلّهم من قريش»** (٢).

وهذا الحديث نصٌّ جليّ، وبرهان ساطع على إمامة الأئمّة المعصومين الإثني عشر من أهل البيت عليهم السلام، وأنّهم خلفاء الرّسول ﷺ وأوصياؤه عبرَ الحياة.

قال العلّامة القندوزي الحنفي في كتابه ينابيع المودّة، ص ٤٤٦:

(١) أورد هذا الحديث جماعة من أعلام الحفّاظ، كابن جرير في منتخب ذيل المذيل، ص ٨٣، والنّيسابوري في المستدرك، ج ٣، ص ١٢٨، وأبو نعيم في حلية الأولياء، ج ١، ص ٨٦، وابن أبي الحديد في شرح النّهج، ج ٢، ص ٤٤٩، وابن حجر العسقلاني في الإصابة، ج ١، ص ٥٤١، والمتّقي الهندي في كنز العمّال، ج ٦، ص ٢١٧، وآخرون غيرهم. راجع هامش إحقاق الحقّ للحجّة النّجفي، ج ٥، ص ١٠٦ ـ ١١٠.

(٢) أخرجه البخاري في ج ١٩، ص ٨٢٣، ومسلم في صحيحه، ج ٢، ص ١٠٧، والمتّقي الهندي في كنز العمّال، ج ٣، ص ١٩٧، وأحمد بن حنبل في مسنده، ج ١، ص ١٩٥ و ٤٠٦، والسّيوطي في الجامع الصّغير، ج ١، ص ٧٩، وجماعة كثيرون. راجع كتاب عليّ والوصيّة للعلّامة الشريف العسكري، ص ١٤٣ ـ ١٤٧.

«إنّ الأحاديث الدالّة على كون الخلفاء بعده ﷺ إثني عشر قد اشتهرت من طرق كثيرة، وبشرح الزّمان، وتعريف الكون والمكان عُلِمَ أنّ مُراد رسول الله ﷺ من حديثه هذا، الأئمّة الإثني عشر من أهل بيته وعترته.

إذ لا يمكن أن يُحمَل هذا الحديث على الخلفاء بعده من أصحابه لقلّتهم عن إثني عشر.

ولا يمكن أن يُحمَل على الملوك الأمويّة لزيادتهم على ٱثني عشر، ولظلمهم الفاحش، إلّا عمر بن العزيز، ولكونهم غير بني هاشم، لأنّ النّبيّ ﷺ قال: كلّهم من بني هاشم، في رواية عبدالملك، عن جابر. وإخفاء صوته ﷺ في هذا القول يُرجِّح هذه الرّواية، لأنّهم لا يُحسنون خلافة بني هاشم.

ولا يمكن أن يُحمَل على الملوك العبّاسيّة، لزيادتهم على العدد المذكور، ولقلّة رعايتهم الآية: ﴿**قُلْ لا أسألُكُم عليه أجراً إلّا المودّةَ في القُرْبى**﴾، وحديث الكساء، فلابدّ أن يحمل هذا الحديث على الأئمّة الإثني عشر من أهل بيته وعترته ﷺ، لأنّهم كانوا أعلم أهل زمانهم، وأجلّهم، وأورعهم، وأتقاهم، وأعلاهم نسباً، وأفضلهم حسباً، وأكرمهم عند الله، وكانت علومهم عن آبائهم متّصلة بجدّهم ﷺ وبالوراثة اللّدنيّة، كذا عرفهم أهل العلم والتحقيق».

وممّا يؤكّد ٱختصاص هذا الحديث وٱنطباقه على أئمّة أهل البيت عليهم السلام القرائن التالية:

(١) لو ٱستهدف الحديث جميع أمراء قريش وخلفائهم، لكان مخالفاً للواقع، لزيادتهم الوفيرة عن عدد الحديث، ولو عنى بعضهم على سبيل الإجمال، فهو مناقض لمنطوق الحديث وٱختصاص دلالته على الخلفاء الإثني عشر المعنيّين فيه.

(٢) وهذا الحديث نصٌّ جليّ على ٱستخلاف الأئمّة الإثني عشر عليهم السلام وإشعار

واضح باستمرار خلافتهم عبرَ عصور الإسلام وحتّى قيام السـاعة: «**لا يزال الدِّين قائماً حتّى قيام السّاعة، ويكون عليهم إثنا عشر خليفة، كلّهم من قريش**»، وهذا ما تعتقده الإماميّة في أئمّتهم عليهم السلام.

(٣) إخبار عبدالله بن مسعود مَنْ سأله: «**كم يملك هذه الأمّة من خليفة؟**»، فقال محدِّثاً عن الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم: «**إثنا عشر، كعدّة نقباء بني إسرائيل**». وهم بنصّ القرآن إثنا عشر نقيباً: ﴿**ولَقَد أخَذْنا ميثاقَ بني إسرائيل وبعثنا منهم اْثني عشرَ نقيباً**﴾، وهذا برهان على اْنحصار الخلافة في الأئمّة الإثني عشر.[1]

(٤) ورود الأحاديث المتواترة الموضِّحة لحديث الإثني عشر خليفة والمفصّلة لإجماله، والمرتكزة على محتواه، فعن سلمان الفارسي، قال: دخلتُ على النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والحسين على فخذهِ وهو يُقبِّل عينيه ويلثم فاه، ويقول: «**إنّك سيِّد أبو سادة، إنّك إمام بن إمام، وأبو أئمّة، إنّك حجّة واْبن حجّة، وأبو حجج تسعة من صُلبك، تاسعهم قائمهم**»[2].

وعن ابن عبّاس، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنّ أوصيائي وحجج الله على الخلق بعدي لإثنا عشر، أوّلهم أخي، وآخرهم ولدي.**

قيل: يا رسول الله، مَنْ أخوك؟

قال: **عليّ**.

قيل: مَنْ ولدك.

---

(١) جاء ذلك في مستدرك الصّحيحين، ج ٤، ص ٥٠١، وفي مسند أحمد بن حنبل، ج ١، ص ٣٨٩، وص ٤٠٩، والهيثمي في مجمعه، ج ٥، ص ١٩٠، والمتّقي في كنز العمّال، ج ٣، ص ٢٠٥، وغيرهم.

(٢) مقتل الحسين للخوارزمي، ج ١ ـ ١٤٦، وينابيع المودّة للقندوزي، ص ٥٣٤.

قال: **المهديّ الّذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت جوراً وظلماً»**[1].

ونحو ذلك من الأحاديث المتواترة الجمّة المنوِّهة على الأئمّة الإثني عشر من آل محمّد صلوات الله عليهم أجمعين، والمشخِّصة لهم عن سائر الخلق.

(٥) إنّ المتبادر من الخليفة في فجر الإسلام وعهد النّبيّ الزّاهر ﷺ هو مَن ٱستخلفه النّبيّ وعهدَ إليه بالخلافة، دون المستخلَف باختيار الناس وٱنتخابهم، حيث لم يكن المفهوم الثاني معروفاً في الأوساط الإسلامية، وأعراف الأمّة العربية آنذاك.

هذا إلى ٱمتناع الوصاية والإستخلاف على النّبيّ ﷺ وهي محور فلك الإسلام، ومركز الثّقل فيه، لذلك كان المعنيُّ بالخلفاء في هذا الحديث، هم: الأئمّةَ الإثنَي عشر الّذين ٱصطفاهم الرّسول ﷺ وشخّصهم بنصوصه العديدة.

ولا يقدح في خلافتهم ٱغتصاب سلطانهم الروحي، وصدّهم عن ممارسة صلاحيات إمامتهم، فإنّهم خلفاء بحكم مراكزهم السماوية، ومؤهّلاتهم الروحية الخارقة، شأنهم في ذلك شأن الأنبياء المضطهدين الّذين عاقتهم عوامل الجور والتكميم عن تحقيق أهدافهم الرِّسالية، وهم رغم ذلك سفراء الله وحججه على العباد، كالعهود الحالكة الّتي عاشها نبيّنا الأعظم ﷺ في مكّة قبل الهجرة، وعاشها موسى عليه السلام في ظلال الفراعنة الطّغاة، وعاشها زمرة من الأنبياء عليهم السلام ولا أثر في طول تلك العهود أو قصرها ما دام الرّسول متأهِّباً لأداء وظائفه الرِّسالية.

هذا إلى أنّ الأئمّة عليهم السلام رغم الجوّ الإرهابيّ الّذي كانوا يعيشونه، والإضطهاد المرير الّذي كابدوه من الأعداء، كانوا لا يفتأون عن الجهاد في سبيل العقيدة، ونشر المفاهيم الإسلامية، وتصحيح الأحكام المحرّفة عن واقعها الإسلامي ما وسعهم ذلك، ووجدوا سبيلاً إليه، ناهيكَ فيما خلّفوه من تراثٍ علميّ فخم، ورصيد زاخر بأروع

---

(١) ينابيع المودّة، ص ٥٨٤.

المُـثُل والمبادئ، كفيل بهداية البشر وإسعادهم مدى الحياة.

وحَسِبَ المنحرفون عن أهل البيـت عليهم السلام أنّ المُراد بالخـلفاء الإثني عشر هم الخلفاء الصّلحاء، أو الّذين لم تحدث في عهود خلافتهم وسلطانهم الفتن، تحريفاً لمفاد الحديث ومدلوله الصّريح.

وهذا ٱدِّعاء زائف يُفـنِّده منطوق الحديـث، وإعلامـه بتعاقب الخلفاء الإثني عشر، وٱتِّصال سلسلتهم عبرَ الإسـلام، فكيف يُحمَل على المتفرِّقين منهم، هذا إلى استلزام هذا الفرض خلوّ العصور الفاصلة والمتخلِّلة بين أولئك الخلفاء من القـيادة والخلافة، وبعد تصرّم عهودهم ممّا يناقض منطوق الحديث وأبديّة الخلفاء حتّى قيام السّاعة.

وشيء آخر، أنّ الخلافة الصّالحة قصيرة الأمد حسب تحديدها النّبويّ، ونصوص حفّاظهم: «**الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثمّ تكون ملكاً عضوضاً**».

فكيف يُحمَل الحديث على الخلفاء الّذي ٱمتدّ سلطانهم عصوراً وأجيالاً؟! وأمّا الخـلفاء الّذين لم تحدث الفـتن في عهدهم، فإنّهم أضعاف عدد الحديـث، فيستحيل إطلاقه عليهم.

* * *

٨ ـ قبسات من آيات الإمام:

ولو تجاهلـنا تلك النصـوص المتواترة الجليّة على إمامـة عليّ عليه السلام وخلافته المباشرة بعد الرّسـول صلّى الله عليه وآله وسلّم، ورجعـنا إلى مواهبـه الخارقـة، وكفاءاتـه المجليّـة، ومؤهّلاته الشخصية، وجدناه أجدر الصّحابة، وأحقّهم بالخلافة لتألُّقه بينهم وتفوُّقِه عليهم في مختلف ميادين الفضـل، ونواحي الكمال: فهو صـاحب الأمجاد الشـامخة والسوابق الإسـلامية الفـذّة الّتي لا يُضاهيه فيها عَلَمٌ في الإسـلام. وهو الأطروحة

الإسلامية الّتي تجسّدت فيها، وتجلّت عليها عظمة الإسلام ومثله ومعطياته، ونالت أسمى شهادات الفضل، وأرفع الأوسمة النّبويّة الّتي لم ينلها أحدٌ سواه.

وهو الكوكب المشعّ الوهّاج الّذي تجتليه البشرية وتقتبس من سناه مفاهيم الهداية، ومن بطولاته مآثر التضحية والفداء، ومن سيرته مثالية الحقّ والعدل والمساواة، ومن أخلاقه مفاهيم العفّة والأريحية والترفّع عن مغريات الحياة، وأشواقها الخادعة.

وهو الإنسان الكامل الفريد، الّذي مثّل الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم هدياً وسيرةً وفكراً، وصوّر المسلم القرآني تصويراً ناطقاً محسوساً، وحازَ بذك تلك الشهادات النّبويّة الرّفيعة وإجلالها وتكريمها ما بوّأه عرش القلوب وصيّره مناط الإعجاب والإكبار بين أوليائه ومناوئيه.

وإليك قبساتٌ من تلك الشهادات المتواترة بين الفريقين:

قال صلى الله عليه وآله وسلم: **«عليٌّ مع الحقِّ، والحقُّ مع عليّ، ولنْ يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض»**[1].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: **«عليٌّ مع القرآن، والقرآن مع عليّ، لن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض»**[2].

---

(١) ذكره الحافظ أبو بكر البغدادي في تأريخ بغداد، ج ١٤، ص ٣٢١، وقد ورد هذا المضمون في مصادر كثيرة. أورده التّرمذي في صحيحه، ج ٣، ص ١٦٦، والبيهقي في المحاسن والمساوئ، ص ٤١، والنيسابوري في المستدرك، ج ٣، ص ١٢٤، وابن الأثير في جامع الأصول، ج ٩، ص ٤٦٠، والحنفي الهندي في منتخب كنز العمّال المطبوع بهامش المستدرك، ج ٥، ص ٦٢، وقد ورد ذكره في ثلاثة وخمسين مصدراً. راجع تعليق الحجّة النّجفي على إحقاق الحقّ، ج ٥، ص ٦٢٣ ـ ٦٣٨، وراجع الغدير، ج ٣، ص ١٧٧ ـ ١٧٩.

(٢) ذكره النّيسابوري في المستدرك، ج ٣، ص ١٢٤، وقد ورد في المناقب للخوارزمي، ←

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «مَنْ أراد أن ينظر إلى نوحٍ في عزمه ، وإلى آدمَ في علمه ، وإلى إبراهيم في حلمه ، وإلى موسى في فطنته ، وإلى عيسى في زهده ، فلينظر إلى عليٍّ بن أبي طالب»[١].

وعن أنس بن مالك، قال: «كان عند النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم طائر قد طُبِخَ له ، فقال : اللّهمّ آئتني بأحبِّ الناس إليك يأكل معي ، فجاء عليٌّ عليه السلام فأكله معه»[٢].

وعن عبدالله بن بريدة، قال: «سمعتُ أبي يقول : حاصرنا خيبر ، وأخذ اللِّواء أبو بكر ، فانصرف ولم يُفتح له ، ثمّ أخذه عمرُ من الغد ، فرجع ولم يُفتح له ، وأصاب الناس يومئذٍ شدّة وجُهد ، فقال رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لأعطينّ الرّاية غداً إلى رجلٍ يحبُّ الله ورسوله ، ويُحبُّه الله ورسوله ، كرّار غير فرّار ، لا يرجع حتّى يفتح الله له ، فباتَ الناس يتداولون ليلتهم أيّهم يُعطاها . فلمّا أصبح الناس غدوا إلى رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلّهم يرجو أن يُعـطاها ، فقال : أين عليّ بن أبي طالب ؟ فقالوا : إنّه أرمـد العين ، فأرسل إليه فأتى ، فبصق رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم في عينيه ودعا له ، فبرأ فأعطاه الرّاية ، ومضى عليٌّ فلم يرجع حتّى فتح الله على يديه»[٣].

← ص ١٠٧، والكنجي الشّافعي في كفاية الطّالب، ص ٢٥٣، وأورد ذكره الحجّة النّجفي في عشرين مصدراً في تعليقته الآنفة، ج ٥، ص ٦٣٩ ـ ٦٤٥ على إحقاق الحقّ.

(١) المراجعات للإمام شرف الدّين، ص ١٥٧، نقلاً عن مصادر عديدة.

(٢) خرّج هذا الحديث جماعة من الحفّاظ في أسفارهم كالتّرمذي في صحيحه، ج ١٣، ص ١٧٠، والنّسائي في الخصائص، ص ٥، وابن الأثير في أسد الغابـة، ج ٤، ص ٣٠، وابن الجـوزي في التذكرة، ص ٤٤، والكنجي الشّـافعي في كفاية الطّالب، ص ٥٨، وأبو الفـداء في البداية والنّهاية، ج ٧، ص ٣٥١، وآخرون كثيرون.

(٣) لقد ورد هذا الحديـث الشريف في زهاء مائة وتسعة وتسـعين مصـدراً من مصادر ←

حديث ردّ الشّمس:

عن أسماء بنت عميس: «أنّ رسول الله ﷺ صلّى الظّهر بالصّهباء من أرض خيبر، ثمّ أرسل عليّاً في حاجة، فجاء وقد صلّى رسول الله العصر، فوضع رأسه في حجر عليّ ولم يُحرِّكه حتّى غربت الشّمس، فقال رسول الله ﷺ: اللّهمّ إنّ عبدكَ عليّاً ٱحتبس نفسه على نبيِّه، فردّ عليه شرقها.

قالت أسماء: فطلعت الشّمس حتّى رُفعت على الجبال، فقام عليٌّ فتوضّأ وصلّى العصر، ثمّ غابت الشّمس»(١).

هذا وقد رُدّت الشّمس لأمير المؤمنين مرّتين: الأولى في عهد النّبيّ ﷺ وهي الحديث السالف. وأمّا الثانية: فهي ما حكاه نصر بن مزاحم في كتاب (صفِّين)، ص١٥٢، بإسناده عن عبد خير، قال: «كنتُ مع عليّ أسير في أرض بابل، وحضرت الصّلاة صلاة العصر، قال: فجعلنا لا نأتي مكاناً إلّا رأيناهُ أقبح من الآخر. قال: فدعا الله، فرجعت الشّمس كمقدارها من صلاة العصر، قال: فصلّينا العصر ثمّ غابت الشّمس»(٢).

← إخواننا، منها: مسند أحمد بن حنبل، ج ٥، ص ٣٣٣، وصحيح البخاري، ج ٤، ص ٦٠، وصحيح مسلم، ج ٧، ص ١٢١، وخصائص النِّسائي، ص ٦، والسّنن الكبرى للبيهقي، ج ٩، ص ١٠٦، وأسد الغابة لابن الأثير، ج ٤، ص ٢٨، وغيرهم.

(١) لقد ذكر سماحة الحجّة الأميني رحمه الله ثلاثة وأربعين مصدراً من مصادر إخواننا لهذا الحديث. راجع الغدير، ج ٣، ص ١٢٧ ـ ١٤٠.

(٢) الغدير، ج ٣، ص ٣٩٣، وذكرها ابن أبي الحديد في شرح النّهج، ج ١، ص ٢٧٧.

حديث كسر الأصنام:

عن جابر بن عبدالله، قال: «**دخلنا مع النّبيّ ﷺ مكّة، وفي البيت وحوله ثلاثمائة وستون صنماً، فأمر بها رسول الله ﷺ فألقيت كلّها لوجوهها، وكان على البيت صنم طويل يُقال له هُبَل، فنظر النّبيّ ﷺ إلى عليّ وقال له: يا عليّ! تركب عليَّ أو أركب عليك لألقي هُبَل عن ظهر الكعبة، قلتُ: يا رسول الله! بل تركبني، فلمّا جلس على ظهري لم أستطع حمله لثقل الرّسالة، قلت: يا رسول الله! بل أركبك، فضحك ونزل، وطأطأ لي ظهره، وٱستويتُ عليه، فوَٱلذي فلقَ الحبّة، وبرأ النّسمة، لو أردتُ أن أمسِك السّماء لأمسكتها بيدي، فألقيتُ هُبَل عن ظهر الكعبة، فأنزل الله تعالى: ﴿وقُلْ جاءَ الحقّ وزهقَ الباطِل إنّ الباطِلَ كان زهوقا﴾**»[(١)].

حديث المؤاخاة:

آخى النّبيّ ﷺ بين أصحابه مرّتين:

الأولى: كانت في مكّة قبل الهجرة، وكانت بين المهاجرين خاصّة. والثانية: كانت في المدينة المنوّرة بعد الهجرة بخمسة أشهر، وكانت بين المهاجرين والأنصار.

حسبك ما جاء في المؤاخاة الأولى:

حديث ابن أبي أوفى، وقد أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في كتاب مناقب عليّ، وابن عساكر في تأريخه، والبغوي والطّبراني في معجميهما، والبارودي في المعرفة، وابن عدي وغيرهم، والحديث طويل قد اشتمل على كيفيّة المؤاخاة، وفي آخره ما لفظه:

---

(١) ذكر الحجّة الأميني رحمه الله في غديره، ج٧، ص١٠ ـ ١٣، إحدى وأربعين مصدراً لكسر الأصنام من إخواننا.

«فقال عليّ: يا رسـول الله! لقد ذهب روحي، وٱنقطع ظهري، حين رأيتُكَ فعلتَ بأصحابكَ ما فعلتَ غيري، فإن كان هذا من سخطٍ عليَّ فلكَ العُتبى والكرامة، فقال رسول الله ﷺ: والّذي بعثني بالحقِّ، ما أخّرتك إلّا لنفسي، وأنتَ منِّي بمنزلة هارون من موسى، غير أنّه لا نبيّ بعدي، وأنتَ أخي ووارثي.

قال: وما أرثُ منكَ؟

قال: ما ورث الأنبـياء من قبـلي: كتاب ربّهم، وسنّة نبيّهم، وأنتَ معي في قصري في الجنّة، مع فاطمة ٱبنتي، وأنتَ أخي ورفيقي، ثمّ تلا ﷺ: ﴿إخواناً على سُرُرٍ مُتقابِلين﴾».

وقد ذكرنا مصادر هذا الحديث خلال بحث حديث المنزلة، ص؟ ٧٩ من هذا الكتاب.

وحسبك ما جاء في المؤاخاة الثانية:

ما أخرجه الطّبراني في الكبير، عن ابن عبّاس من حديثٍ جاء فيه:

«إنّ رسـول الله ﷺ قال لعليّ: أغَضِبْـتَ عليَّ حين آخيتُ بين المهاجرين والأنصار، ولم أؤاخِ بينكَ وبينَ أحدٍ منهم؟ أما ترضى أن تكون منِّي بمنزلة هارون من موسى، إلّا أنّه ليس بعدي نبيّ» [1].

---

(١) عن المراجعات، ص ١٢٧ ـ ١٢٨، ناقلاً ذلك عن جملة من مصادر اخواننا، كما نقله الحجّة السيِّد شهاب الدّين النّجفي في تعليقه على إحقاق الحقّ عن قرابة مائة مصدر من مصادر إخواننا. راجع ج ٦ من الإحقاق، ص ٤٦٢ ـ ٤٨٦.

بُغْضُ عليّ:

عن ٱبن عبّاس، قال: نظر رسول الله ﷺ إلى عليّ، فقال: «**لا يُحِبُّكَ إلّا مؤمن، ولا يَبْغُضُكَ إلّا منافق**»[١].

وعن جابر بن عبدالله الأنصاري، قال: «**ما كنّا نعرف المنافقين إلّا ببغضٍ ـ أو ببغضهم ـ عليّ بن أبي طالب**»[٢].

وأخرج الحافظ ابن مردويه بسنده عن أنس بن مالك، أنّه قال: «**ما كنّا نعرف الرّجل لغير أبيه، إلّا ببغض عليّ بن بي طالب** رضي الله عنه»[٣].

وأخرج الحافظ الطّبريّ في كتاب الولاية، بإسناده عن عليّ عليه السلام، أنّه قال: «**لا يحبّني ثلاثة: ولد الزّنا، ومنافق، ورجل حملت أمّه في بعض حيضها**»[٤].

وعن أبي بكر الصِّدِّيق، قال: «**رأيتُ رسول الله ﷺ خيّم خيمة وهو متّكئٌ على قوسٍ عربيّة وفي الخيمة عليٌّ وفاطمة والحسن والحسين، فقال: معشر المسلمين! أنا سِلْمٌ لَمَنْ سَالَمَ أهل الخيمة، حربٌ لِمَنْ حاربهم، وليٌّ لِمَنْ والاهم، لا يحبّهم إلّا سعيد الجَدّ، طيِّب المولد، ولا يبغُضُهم إلّا شقيّ الجَدّ، رديء المولد**»[٥].

---

(١) الغدير، نقلاً عن مصادر عديدة من إخواننا. راجع ج ٣، ص ١٨٢ ـ ١٨٧.

(٢) نفس المصدر.

(٣) الغدير، ج ٤، ص ٣٢٢.

(٤) نفس المصدر.

(٥) الغدير، ج ٤، ص ٣٣٣، نقلاً عن الرِّياض النّضرة لمحبّ الدِّين الطّبري، ج ٢، ص ١٨٩.

فضائل الإمام عليّ في يوم القيامة:

أخرج الطّبراني في الأوسط، عن أبي هريرة في حديث قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: كأنّي بكَ يا عليُّ وأنتَ على حوضي تذود عنه الناس، وإنّ عليه لأباريق مثل عدد نجوم السّماء، وإنّي وأنتَ والحسن والحسين وفاطمة وعقيل وجعفر في الجنّة إخواناً على سُرُرٍ متقابلين، أنتَ معي وشيعتكَ في الجنّة»(١).

وأخرج أخطب خوارزم في المناقب، ص ٢٤٤، عن أبي هريرة وجابر، قالا: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: عليّ بن أبي طالب صاحب حوضي يوم القيامة، فيه أكواب كعدد نجوم السّماء، وسعة حوضي ما بين الجابيةِ إلى صنعاء»(٢).

وأخرج الحافظ ابن السمّان في الموافقة عن قيس بن خازم، قال: «إلتق أبو بكر الصِّدّيق وعليّ بن أبي طالب، فتبسّم أبو بكر في وجه عليّ، فقال له: ما لكَ تبسّمتَ ؟! قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: لا يجوز أحدٌ الصِّراط إلّا مَنْ كتبَ له عليٌّ الجواز»(٣).

وأخرج العلّامة محمّدصالح الكشفيّ الحنفيّ التّرمذيّ في المناقب المرتضويّة،

---

(١) الغدير، ج ٢، ص ٣٢٢، نقلاً عن مجمع الزّوائد، ج ٩، ص ١٧٣، وقد ذكر المرحوم الحجّة الأميني رحمه الله، ثمانية مصادر لمضمون سقاية عليّ عليه السلام على حوض الكوثر. الغدير، ج ٢، ص ٢٣٢١ ـ ٣٢٢.

(٢) عن تعليقة الحجّة النجّفي على إحقاق الحقّ، ج ٤، ص ٢٧٠، نقلاً عن كنوز الحقائق للمناوي، ص ٨٩، والقندوزي في ينابيع المودّة، ص ١٣٢، والزّرندي في درر السّمطين، ص ١٢٩، والمتّقي الهندي في كنز العمّال، ج ٦، ص ٣٩٣.

(٣) الغدير، ج ٢، ص ٣٢٣، نقلاً عن الرِّياض النّضرة، ج ٢، ص ١٧٧ و ٢٤٤، والصّواعق المحرقة، ص ٧٥، وإسعاف الرّاغبين، ص ١٦١.

ص ٩١، قال: «**قال النبيّ ﷺ: يا عليُّ! أنتَ قسيمُ الجنةِ والنّار يوم القيامة**»[1].

هذه قبسات خاطفة من فضائل الإمام وأمجاده، اقتصرنا عليها خشية الإطالة، والتوسّع فيها يقتضينا عرضاً مفصّلاً لا تسعهُ هذه الرِّسالة المجملة، وقد عرضنا طرفاً منها في غضون الأبحاث السالفة، وسنعرض فيما يلي جانباً آخر من مآثره وبطولاته الشخصيّة.

ناهيكَ في فضائله أنّه لم يَرِدْ لأحدٍ من الصّحابة ما ورد فيه من آيات الإجلال والتكريم النّبويّين، المتواترة في صحاح الطائفتين.

فقد أخرج الحاكم النّيسابوري في المستدرك، ج ٣، ص ١٠٧، عن أحمد بن حنبل، يقول: «**ما جاء لأحدٍ من أصحاب رسول الله ﷺ من الفضائل ما جاء لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه**»[2].

وعن عبدالله بن أحمد بن حنبل، قال: سمعتُ أبي يقول: «**ما ورد لأحدٍ من الصّحابة من الفضائل بالأسانيد الصِّحاح مثل ما ورد لعليّ عليه السلام**»[3].

قال الإمام السيّد عبدالحسين شرف الدّين رحمه الله، وهو يُعقِّب هذا النّمط من الأحاديث الشريفة:

---

(١) أورد مضمونه جماعة من الحفّاظ: كأخطب خوارزم في كتابه المناقب، ص ٢٣٤، والقندوزي في ينابيع المودّة، ص ٨٤، والصّواعق المحرقة لابن حجر، ص ٧٥، وغيرهم.

(٢) أورد ذلك ابن عبدالبرّ في الإستيعاب، ج ٢، ص ٤٦٦، وأخطب خوارزم في كتابه المناقب، ص ١٩، وابن الأثير في الكامل، ص ٢٠٠، والكنجي الشّافعي في كفاية الطّالب، ص ١٢٥، ومحبّ الدّين الطّبري في الرِّياض النّضرة، ج ٢، ص ٢١٢، وابن حجر العسقلاني في تهذيب التّهذيب، ج ٧، ص ٣٣٩، والسّيوطي في تأريخ الخلفاء، ص ٦٥، وبرهان الدّين الحلبيّ الشّافعي في السّيرة الحلبية، ج ٢، ص ٢٠٧، وآخرون غيرهم.

(٣) مناقب أحمد لابن الجوزي، ص ١٦٣.

إنّ تلك السّـنن قد أعطت عليّاً من المنازل المتعالية ما لا يجوز على الله تعالى وأنبـيائه إعطاؤها إلّا لخـلفائهم وأمنائهم على الدِّين وأهلـه، وإذا لم تكن دالّة على الخلافة بالمطابقـة، فهي كاشفة عنها البتّـة، ودالّة عليها لا محالة بالدلالة الإلتزامية واللّزوم فيها بيِّنٌ بالمعنى الأخصّ، وحاشا سيِّد الأنبياء أن يُعطي تلك المنازل الرفيعة، إلّا لوصيِّه من بعده ووليِّه في عهده...، إلى أن قال رحمه الله:

وأمّا السّنن الواردة في فضائل الخـلفاء الثلاثة، وأهل السوابق من المهاجرين والأنصار، فنحن نؤمن بفضائل أهل السوابق من المهاجرين والأنصار كافّة رضى الله عنهم ورضوا عنه، وقد تدبّرناها فما وجـدناها معارضةً لنصوص عليٍّ ولا صالحـةً لمعارضةِ شيءٍ من سائر خصائصه، نعم يتفرّد خصومُنا برواية أحاديث في الفضائل لم تثبت عندنا، فمعارضتهم إيّانا بها لا تنتظر من غير مكابر متحكِّم...

ألا ترى أنّنا لا نعارض خصـومنا بما ٱنفردنا بروايتـه، ولا نحتجُّ عليهم إلّا بما جاء من طريقهم كحديث الغدير ونحوه، على أنّنا تتبّعنا ما ٱنفرد به القوم من أحاديث الفضائل، فما وجدنا فيه شيئاً من المعارضة، ولا فيه أيّ دلالة على الخلافة»[1].

---

(١) المراجعات، ص ١٦٢ و ١٦٣ ـ ١٦٤.

لماذا تقاعسَ الإمام عليه السلام
عن المطالبةِ بحقِّهِ المشروع ؟!!

قد يعترض البعض: أنّه إذا كان الإمام عليه السلام هو الخليفة الشّرعيّ بحكم القرآن الكريم، والنصوص النّبويّة الناطقة بإمامته وٱستخلافه، فعلامَ سكتَ عن المطالبة بحقِّه المشروع، وٱسترداد عرشه السّليب؟!! وهو البطل المغوار الّذي لايعرف الخوف، ولا يهاب الموت، والزّعيم النافذ الّذي يُعاضده ويفتديه آسادُ بني هاشمٍ وليوثُ بني عبدالمطّلب !!

والجواب عن هذا الإعتراض إنّه:

«وقف عليٌّ عند مُفترَق طريقين، كلّ منهما حرج وكلّ منهما شديد على نفسه:

أحدهما أن يعلن الثورة المسلّحة على الخليفة..

والآخر: أن يسكت وفي العينِ قذى وفي الحلقِ شجى..

إنّ الحاكمين لم يكونوا ينزلون عن مراكزهم بأدنى معارضة، وهم مَنْ عرفناهم حماسة وشدّة في أمر الخلافة. ومعنى هذا أنّهم سيُقابلون ويدافعون عن سلطانهم الجديد. ومن المعقول جدّاً حينئذٍ أن يغتنم سعد بن عبادة الفرصة ليُعلنها حرباً في سبيل أهوائه السياسيّة، لأنّنا نعلم أنّه هدّد الحزب المنتصِر بالثورة عندما طُلِبَ منه البيعة، وقال:

«لا والله حتّى أرميكُم بما في كنانتي وأُخضِّبَ سنان رمحي، وأضربَ بسيفي وأقاتلكم بأهل بيتي ومَنْ أطاعني، ولو ٱجتمع الجنّ والإنس».

وأكبر الظّنّ أنّه تهيّب الإقدام على الثورة ولم يجرأ على أن يكون أوّل شاهرٍ للسيف ضدّ الخلافة القائمة، وإنّما ٱكتفى بالتهديد الشديد الّذي كان بمثابة إعلان الحرب، وأخذ يترقّب تضعضع الأوضاع ليشهر سيفه بين السيوف، فكان حريّاً به أن تثور حماسته ويزول تهيّبه ويضعف الحزب القائم في نظره إذ رأى صوتاً قويّاً يجهر بالثورة فيعيدها جذعة، ويحاول إجلاء المهاجرين من المدينة بالسّيف، كما أعلن ذلك المتكلِّم عن نفسه في مجلس السقيفة.

ولا ننسى بعد ذلك الأمويِّين وتكتّلهم السياسيّ في سبيل الجاه والسلطان وما كان لهم من نفوذ في مكّة في سنواتها الأخيرة، فقد كان أبو سفيان زعيمها في مقاومة الإسلام والحكومة النّبويّة، وكان عتّاب بن أسيد بن أبي العاص بن أُميّة أميرها المُطاع في تلك الساعة. وهذا التقدير يُفسِّر لنا القوّة الّتي تكمن وراء أقوال أبي سفيان حينما كان ساخطاً على أبي بكر وأصحابه إذ قال:

إنِّي لأرى عجاجة لا يُطفيها إلّا الدّم.

وقال عن عليٍّ والعبّاس:

أما والّذي نفسي بيده، لأرفعنّ لهما من أعضادهما.

فالأمويّون كانوا متأهِّبين للثورة، وقد عرف عليٌّ منهم ذلك بوضوح حينما عرضوا عليه أن يتزعّم المعارضة، ولكنّه عرفَ أنّهم ليسوا من الناس الّذين يعتمد على تأييدهم، وإنّما يُريدون الوصول إلى أغراضهم عن طريقه، فرفض طلبهم. وكان من المنتظر حينئذٍ أن يشقوّا عصا الطّاعة إذا رأوا الأحزاب المسلّحة تتناحر، ولم يطمئنّوا على قدرة الحاكمين على ضمان مصالحهم. ومعنى ٱنشقاقهم حينئذٍ إظهارهم

للخروج عن الدِّين وفصل مكّة عن المدينة.

وإذن، فقد كانت الثورة العلويّة في تلك الظروف إعلاناً بمعارضة دمويّة تتبعها معارضات دمويّة ذات أهواء شتّى، وكان فيها تهيئة لظرف قد يغتنمه المشاغبون ثمّ المنافقون.

ولم تكن ظروف المحنة تسمح لعليٍّ بأن يرفع صوته وحده في وجه الحكم القائم، بل لتناحرت ثورات شتّى وتقاتلت مذاهب متعدِّدة الأهداف والأغراض ويضيع بذلك الكيان الإسلامي في اللّحظة الحرجة الّتي يجب أن يلتفّ فيها المسلمون حول قيادة موحّدة، ويركِّزوا قواهم لصدِّ ما كان يترقّب أن تتمخّض عنه الظّروف الدقيقة من فتن وثورات.

إنّ عليّاً الّذي كان على أتمِّ ٱستعداد لتقديم نفسه قرباناً للمبدأ في جميع أدوار حياته منذ أن وُلِدَ في البيت الإلهي وإلى أن قُتِلَ فيه، قد ضحّى بمقامه الطّبيعيّ ومنصبه الإلهي في سبيل المصالح العُليا الّتي جعلهُ رسول الله ﷺ وصيّاً عليها وحارساً لها..

وصمّم الإمام على ترك الثورة، ولكن ماذا يفعل؟ وأيّ أسلوب يتّخذه لموقفه؟ أن يحتجّ على الفئة الحاكمة بنصوص النّبيّ ﷺ وكلماته الّتي أعلنت أنّ عليّاً هو القطب المُعدّ لأن يدور عليه الفلك الإسلامي، والزّعيم الّذي قدّمته السماء إلى أهل الأرض.

تردّد هذا السؤال في نفسه كثيراً، ثمّ وضع له الجواب الّذي تُعيِّنه ظروف محنته وتلزمه به طبيعة الأوضاع القائمة، فسكت إلى حين، ونحنُ نتبيّن أنّ الإعتراض بتلك النصوص المقدّسة، والإحتجاج بها في ساعةٍ ٱرتفع فيها المقياس الزئبقيّ للأفكار المحمومة والأهواء الملتهبة الّتي سيطرت على الحزب الحاكم.

لذلك كان من التقدير المعقول افتراض النتائج السيّئة له، لأنّ أكثر النصوص الّتي صدرت من رسول الله ﷺ في شأن الخلافة لم يكن قد سمعها إلّا مواطنوه في المدينة من مهاجرين وأنصار، فكانت تلك النصوص إذن الأمانة الغالية عند حفدة الطائفة الّتي لا بدّ أن تصل عن طريقهم إلى سائر الناس في دُنيا الإسلام يومئذ وإلى الأجيال المتعاقبة والعصور المتتالية.

ولو ٱحتجّ الإمام على جماعة أهل المدينة بالكلمات الّتي سمعوها من رسول الله ﷺ في شأنه، وأقام منها دليلاً على إمامته وخلافته، لكان الصّدى الطّبيعيّ لذلك أن يُكذِّب الحزبُ الحاكِمُ صدِّيق الأمّة في دعواه، وينكر تلك النصوص الّتي تمحو عن خلافة الشورى لونها الشّرعي، وتُبطِل منها معنى الدِّين.

وقد لا يجد الحقُّ صوتاً قويّاً يرتفع به في قِبال ذلك الإنكار، لأنّ كثيراً من قريش وفي مقدّمتهم الأمويّون كانوا طامحين إلى مجد السلطان ونعيم المُلك، وهم يرون في تقديم الخليفة على أساسٍ من النصِّ النّبويّ تسجيلاً لمذهب الإمامة الإلهٰية، ومتى تقرّرت هذه النظرية في عُرْف الحكم الإسلامي، كان معناها حصر الخلافة في بني هاشم آل محمّدٍ الأكرمين وخروج غيرهم من المعركة خاسراً.

وقد نلمح هذا اللّون من التفكير في قول عمر لابن عبّاس، مُعلّلاً إقصاء عليٍّ عن الأمر: «إنّ قومكم كرهوا أن يجمعوا لكم الخلافة والنّبوّة».

وإذن، فقد كان الإمام يُقدِّر أنّه سوف يدفع الحزب الحاكم إلى إنكار النصوص والإستبسال في هذا الإنكار إذا جاهر بها، ولا يقف إلى جانبه حينئذٍ صفٌّ ينتصر له في دعواه، لأنّ الناس بين مَنْ قادهم الهوى السياسي إلى إنكارٍ عمليٍّ للنّصّ وبين مَنْ يرى أنّ فكرة النّصّ تجعل من الخلافة وقفاً على بني هاشمٍ لا يُنازعهم فيها منازع.

وإذا سجّلت الجماعة الحاكمة وأنصارها إنكاراً للنّصّ واكتفى الباقون بالسّكوت في الأقل، فمعنى هذا أنّ النّصّ يفقد قيمته الواقعيّة وتضيع بذلك مستمسكات الإمامة العلويّة كلّها، ويؤمن العالم الإسلامي الّذي كان بعيداً عن مدينة النّـبيّ ﷺ على إنكار المنكرين لأنّه منطق القوّة الغالب في ذلك الزمان...

ولم يكن للإحتجاج بالنّصّ أثر أوضح من أن تتّخذ السياسة الحاكمة إحتياطاتها وأساليبها الدقيقة لمحو تلك الأحاديث النّبويّة من الذهنيّة الإسلامية، لأنّها تعرف حينئذٍ أنّ فيها قوّة خطر على الخلافة القائمة ومادّة خصبة لثورة المعارضين في كلِّ حين...»(١).

---

(١) راجع تاريخ الكامل، ج ٣، ص ٢٤.

لماذا تخلّفَ النّاسُ

عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ؟!!

وهكذا يتساءل البعض عن سرِّ تخلّف العامّة عن عليٍّ عليه السلام، وعلّة انحرافهم عنه رغم كفاءاته الخارقة، وسوابقه المجلجلة في دنيا الإسلام، واستكماله شرائط الإمامة والخلافة ؟!!

وكيف تنوسيت تلك العهود والنصوص على استخلافه، وحضّها البالغ على ولائه، وتحذيرها الرّهيب عن جفائه والإنحراف عنه ؟!! ما هذا التنكّر والجفاء لرجلٍ كان بالأمس القريب منقذ الإسلام، ومفزَع المسلمين في ساحات الجهاد المقدّس، ومواقف النّضال المشرِّف، كلّما ارتعد الأبطال، ونكص الكماة، وأشرفت راية الإسلام على الإنتكاس، حتّى مجّده هاتف السّماء:

«**لا فتى إلّا عليٌّ، ولا سيفَ إلّا ذو الفقار**».

ومجّده الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم: «**ضربةُ عليٍّ يوم الخندق تعدل عبادة الثّقلين**».

كلّ تلك الإستفهامات الحائرة المستنكرة تتقاضانا أجوبة إقناعية ترضي الضمير، وتقنع الوجدان، وتزيل عنهما الحيرة والإستنكار، وذلك يقتضينا بحثاً واسعاً، وأجوبةً مفصّلة لا تسعه هذه الرِّسالة الموجزة، لذلك أجدني مقسوراً على إجمالها وعرضها عرضاً لامحاً:

١ ـ من الثابت في تأريخ الإسلام أنّ علياً عليه السلام كان المجاهد الأعظم، والفدائيّ الأوّل في صنع تأيخ الإسلام، وبناء كيانه الشامخ وأمجاده الخالدة، فهو الّذي فجع قريشاً، ووترَ العرب بأبطال حروبها الجاهلية، وصناديدها المغاوير، وحطّم رؤوس الشِّرك في الحروب الإسلامية، فأوغر بذلك صدور الموتورين بسيفه وشحنها حقداً بالغاً، وحنقاً مستعراً، دفعهم على التنكّر له والإغضاء عن حقِّه المشروع، وشنّ الحملات الظّالمة عليه، وهذا ما صوّرته فاطمة الزّهراء عليها السلام في خطابها البليغ لنساء المهاجرين والأنصار غداة جئنَ لعيادتها في مرضها الّذي توفِّيت به:

«وما ٱلذي نقموا من أبي الحسن؟!! نقموا منهُ واللهِ نكير سيفه، وقلّة مبالاته بحتفه، وشدّة وطأته، ونكال وقعته، وتنمّره في ذات الله عزّ وجلّ، وتالله لو مالوا عن المحجّة اللّائحة، وزالوا عن قبول الحجّة الواضحة، لردّهم وحملهم عليها، وتالله لو تكافوا عن زمام نبذه إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لاغتلقه ولسار بهم سيراً سُجُحاً، لا يُكلَّم خشاشه، ولا يكلّ سائره، ولا يملّ راكبه، ولأوردهم منهلاً نميراً صافياً وريّاً فضفاضاً، تطفح ضفّتاه، ولا يترنّق جانباه، ولأصدرهم بطاناً، ونصحَ لهم سرّاً وإعلاناً، ولم يكن يتحلّى من الغِنى بطائل، ولا يحظى من الدّنيا بنائلٍ غير ريّ النّاهل، وشبعة الكافل، غير مُتحلٍّ منه بطائل، إلّا تغمر النّاهل، وردعة سَوْرة الساغب، ولَبانَ لهم الزّاهد من الرّاغب، والصّادِق من الكاذِب: ﴿ولَوْ أنّ أهْلَ القُرى آمَنُوا وٱتّقوا لَفَتَحْنا عَلَيْهِم بَرَكاتٍ مِنَ ٱلسّماءِ وٱلأرْضِ ولكِنْ كذّبُوا فأخذْناهُم بما كانوا يَكْسِبُون﴾، ﴿وٱلّذينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَما هُمْ بِمُعْجِزِين﴾.

ألا هلمّ فاستمع، وما عشت أراك الدّهر عجباً، وإن تعجب فعجبٌ قولهم، ليتَ شعري إلى أيِّ لجأ لجأوا، وإلى أيِّ سنادٍ ٱستندوا، وعلى أيِّ ٱعتادٍ ٱعتمدوا،

وبأيِّ عُروةٍ تمسّكوا، وعلى أيِّ ذرِّيّةٍ قدمُوا وٱحتنكُوا، لبئسَ المولى ولبئسَ العشير، وبئسَ للظّالمـينَ بَدَلاً، إستبدلوا واللهِ الذنابىٰ بالقـوادم والعجز بالكاهل، فرغماً لِمَعاطسِ قومٍ يحسبون أنّهم يُحسِنون صنعاً، ألا إنّهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون.

ويحَهُم ﴿أفمَن يهدي إلى الحقِّ أحقّ أن يُتّبع أمّن لا يهدِّي إلّا أن يُهدى، فما لكم كيف تحكمون﴾»[١].

❁ ❁ ❁

٢ ـ وهكذا لعب الحسد دوراً خطيراً في نفوس حسّاد الإمام عليه‌السلام والقاصرين عن شأوه الرّفيع، وفضائله المجليّة وحفّزهم على مجافاته والإزورار عنه.

فقد كان عليه‌السلام سبّاقاً في ميادين الفضائل والمكرمات، مشعّاً وهّاجاً في آفاق الإسلام، ما بهر الأبصار الكليلة وأعشاها عن ضوئه وهداه.

ألم يكن أوّل الرِّجال إسلاماً، وألصقهم بالرّسول نسباً، وأشدّهم تضحيةً وفداءً في نصرته !!

ألم يكن أوفر المسلمين علماً، وأرجحهم حكمةً، وأسماهم خلقاً، وأنصعهم تأريخاً، وأقدرهم على حلِّ مشاكل الحكم ومعضلات الفتيا والقضاء بعد الرّسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم !!

ألم يكن صاحب الأوسمة النّبويّة الفريدة، وشهاداتها الفذّة الّتي لم ينلها أحدٌ غيره في الإسلام كما صوّرته النصوص السالفة.

---

(١) ذكر هذه الخطبة جماعة من الأعلام: الطّبرسي في ٱحتجاجه، والصّدوق في معاني الأخبار، والإربلي في كشف الغمّة، وٱبن أبي الحديد في شرح النّهج.

أليسَ من مهازل الأقدار أن تغمط تلك المآثر والمفاخر في نفوس حسّاده ومناوئيه، وتغدو ذريعةً للتجنّي عليه، والنفرة منه؟!!

فقد سأل أبو زيد النّحوي الخليل بن أحمد: «ما بال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كأنّهم بنو أمٍّ واحدة، وعليّ عليه السلام كأنّه ابن علّة؟!!

قال: تقدّمهم إسلاماً، وبذّهم شرفاً، وفاقهم علماً، ورجحهم حلماً، وكثرهم هدىً، فحسدوه، والناس إلى أمثالهم وأشكالهم أمْيَل»[1].

وقيل لمسلمة بن نميل: «ما لعليٍّ عليه السلام رفضتهُ العامّة، وله في كلِّ خيرٍ ضرسٌ قاطعٌ؟!! فقال: لأنّ ضوء عيونهم يقصر عن نوره، والناس إلى أشكالهم أمْيَل»[2].

وقال الصّحابي الحبر المبجّل أبو الهيثم بن التّيهان لعليٍّ عليه السلام:

«إنّ حسد قريش إيّاكَ على وجهين:

أمّا خيارهم: فتمنّوا أن يكونوا مثلك منافسة في الملأ، وارتفاعَ الدّرجة.

وأمّا شِرارهم: فحسدوا حسداً أثقَلَ القلوب، وأحبطَ الأعمال، وذلك أنّهم رأوا عليكَ نعمةً قدّمها إليكَ الحظّ وأخّرهم عنها الحرمان، فلم يرضوا أن يلحقوا حتّى طلبوا أن يسبقوك، فبعدت والله عليهم الغاية، وقطعت المضمار، فلمّا تقدّمتهم بالسّبق، وعجزوا عن اللّحاق، بلغوا منك ما رأيتَ، وكنتَ والله أحقَّ قريشٍ بشكرِ قريشٍ، نصرتَ نبيّهم حيّاً، وقضيتَ عنه الحقوق ميّتاً، والله ما بغيهم إلّا على أنفسهم، ولا نكثوا إلّا بيعة الله، يدُ اللهِ فوقَ أيديهم فيها. ونحنُ معاشر الأنصار أيدينا وألسنتنا

---

(١) البحار، ج ٨، ص ١٥٧.

(٢) نفس المصدر.

معك، فأيدينا على مَنْ شهد، وألسنتنا على مَنْ غاب»[1].

* * *

٣ ـ والمتخلِّفون بعد هذا عن الإمام فريقان:

الفريق الأوّل: تخلّف عنه وتنكّر له خشية ٱجتماع النّبوّة والإمامة في أهل البيت عليهم السلام، وٱنحصارهما في أسرتهم العريقة، فلا يجد آنذاك الطامعون في الخلافة، والمتنافسون عليها سبيلاً إلى تداولها بينهم، والتناوب على عرشها الرّفيع، فجهدوا ما ٱستطاعوا في صرفها عن الإمام عليه السلام، والإستئثار بها دونه رغم أحقِّيّته بها نصّاً وكفاءةً.

ومن طرائف الأخبار في هذا الموضوع تلك المحاورة البليغة الّتي دارت بين عبدالله بن عبّاس وبين الخليفة الثاني عمر (رض)، كما قصّها ٱبنه عبدالله في خلال قصّته:

«قال عمر: أتدري يا ٱبن عبّاس ما منعَ الناس منكم؟!

قال: لا يا أمير المؤمنين!

قال: لكنِّي أدري.

قال: وما هو يا أمير المؤمنين؟

قال: كرهت قريش أن تجتمع لكم النّبوّة والخلافة فتجحفوا الناس جحفاً، فنظرت قريش لأنفسها فاختارت، ووُفِّقت فأصابت.

فقال ٱبن عبّاس: أيميط أمير المؤمنين عنِّي غضبه فيسمع؟ قال: قُل ما تشاء.

قال: أمّا قول أمير المؤمنين: إنّ قريشاً كرهت، فإنّ الله تعالى قال لقومٍ:

---

(١) البحار، ج ٨، ص ١٥٩.

﴿ذٰلِكَ بِأَنَّهُم كَرِهُوا ما أَنْزَلَ ٱللهُ فأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ﴾ .

وأمّا قولك: إنّا كنّا نجحف، فلو جحفنا بالخلافة جحفنا بالقرابة، ولكنّا قومٌ أخلاقنا مشتقّة من خُلُقِ رسول الله الّذي قال الله فيه: ﴿وإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ، وقال له: ﴿واخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلمُؤْمِنِينَ﴾ .

وأمّا قولك: فإنّ قريشاً ٱختارت، فإنّ الله تعالى يقول: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَيَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ ٱلخِيَرَةُ﴾ . وقد علمتَ يا أمير المؤمنين أنّ الله تعالى ٱختار من خلقه لذلك مَنِ ٱختار، فلو نظرت قريشٌ من حيث نظر الله لوُفِّقت وأصابت.

فقال عمر: على رَسْلِكَ يا ٱبن عبّاس، أبَتْ قلوبكُم يا بني هاشمٍ إلّا غشّاً في أمرِ قريش لا يزول وحقداً عليها لا يحول.

فقال ٱبن عبّاس: مهلاً يا أمير المؤمنين، لا تنسب قلوب بني هاشم إلى الغشِّ، فإنّ قلوبهم من قلبِ رسول الله الّذي طهّرهُ وزكّاه، وهم أهل البيت الّذينَ قال الله لهم: ﴿إنّما يُريدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ ، وأمّا الحقد، فكيف لا يحقد مَنْ غُصِبَ شيؤهُ ويراهُ في يدِ غيره؟!

فقال عمر: أمّا أنتَ يا ٱبن عبّاس! فقد بلغني عنكَ كلامٌ أكرهُ أن أُخبِركَ به فتزول منزلتكَ عندي!

قال: وما هو يا أمير المؤمنين؟ أخْبِرْني فإنْ يَكُ باطلاً فمثلي أماطَ الباطل عن نفسه، وإنْ يَكُ حقّاً فإنّ منزلتي عندكَ لا تزول به!

قال: بَلَغَني أنّكَ لا تزال تقول: أُخِذَ هذا الأمرُ حسداً وظُلماً.

قال: أمّا قولكَ يا أمير المؤمنين «حسداً»، فقد حَسَدَ إبليسُ آدمَ فأخرجهُ من الجنّة، فنحنُ بنو آدم المحسود. وأمّا قولك «ظُلماً»، فأمير المؤمنين يعلم صاحب الحقِّ مَنْ هو؟!

ثمّ قال: يا أمير المؤمنين! ألمْ تحتجّ العرب على العجم بحقِّ رسول الله، وٱحتجّت قريش على سائر العرب بحقِّ رسول الله، فنحنُ أحقُّ برسول الله من سائر قريش ...»[1].

والفريق الثاني المتخلّف عن الإمام: هم الّذين قصرت هممهم وتطلّعاتهم عن الفئة الأولى، وأسفوا إلى محاباة السلطة، ومغانمها المادِّية، ومساوماتها الإنتهازية، وهؤلاء قد أيقنوا أنْ لا مطمع لهم في الإمام عليه السلام ولا سبيل إلى كسب الأَثَرةِ والمحاباة لديه لصلابته البالغة، وجهاده المستبسل في نصرة الحقّ، وإشاعة العدل، وتحقيق المساواة في دنيا الإسلام.

أليسَ هو الّذي لا يحابي ولا يمالئ في عطائه أقرب الناس إليه وأعزّهم عليه وأشرفهم حسباً ونسباً في الإسلام؟!!

أليسَ هو الّذي لا يمتلئ من زهيد الطّعام خشية أن يوجد في ربوع العالم الإسلاميّ مَنْ لا طمعَ له في القرصِ ولا عهدَ له بالشّبع؟!!

أليسَ هو القائل لنفرٍ من عيون أصحابه ومخلصيه حين ناشدوه بتفضيل القرشيِّين وأشراف العرب على الموالي والعجم كيلا يهربوا من عدله إلى ٱستقطاب معاوية وٱستغلاله الماكر:

«أتأمروني أن أطلب النّصر بالجور، لا والله، ما أفعل ما طلعت شمس، ولاحَ في السّماء نجم، والله لو كان مالهم لي لواسيتُ بينهم، وكيف وإنّما هي أموالهم».

أوَليسَ هو المخاطِب لابن عبّاس، فقال وهو يشير إلى نعليه:

---

(١) قصص العرب، لمحمّد أحمد جاد المولى وزميله، ج ٢، ط ٤، ص ٣٦٣ ـ ٣٦٥، نقلاً عن ابن أبي الحديد، ج ٣، ص ١٠٧، وتاريخ الطّبري، ج ٥، ص ٣٠.

«والله لهُما أحبُّ إليَّ من أمركم هذا، إلّا أن أقيمَ حقّاً أو أدفعَ باطلاً».

هذه السياسة القرآنية العادلة، هي الّتي أسخطت النّفعيين والإنتهازيين من طُلّاب المغانم، وصرفتهم عن الإمام عليه السلام، فراحُوا ينشدونها بطرق المساومة الرخيصة!!

قال ابن أبي الحديد في شرح النّهج:

«أأكد الأسباب في تقاعد العرب عن أمير المؤمنين عليه السلام أمر المال، فإنّه لم يكن يُفضِّل شريفاً على مشروفٍ، ولا عربيّاً على أعجميٍّ، ولا يُصانع الرؤساء وأمراء القبائل كما يصنع الملوك، ولا يستميل أحداً إلى نفسه. وكان معاوية بخلاف ذلك، فتركَ النّاسُ عليّاً، والتحقوا بمعاوية، فشكى عليٌّ عليه السلام إلى الأشتر تخاذل أصحابه، وفرار بعضهم إلى معاوية، فقال الأشتر: يا أمير المؤمنين! إنّا قاتلنا أهل البصرة بأهل البصرة وأهل الكوفة، ورأى الناس واحدُ وقد ٱختلفوا بعدُ وتعادَوْا، وضعفت النِّيّة، وقلّ العدد، وأنتَ تأخذهم بالعدلِ، وتعمل فيهم بالحقِّ، وتنصف للوضيع من الشّريف، فليس للشريف عندك فضلٌ ومنزلةٌ، فضجّت طائفة ممّن تبعك من الحقِّ إذ عُمّوا به، وٱغتمّوا من الحقِّ إذ صاروا فيه، ورأوا صنايع معاوية عند أهل الغَناء والشّرف، فتاقَت أنفسُ الناس إلى الدّنيا، وقلَّ مَنْ ليس للدّنيا، وأكثرهم يجتوي الحقّ، ويشتري الباطل، ويؤثر الدّنيا، فإن تبذُلِ المالَ يا أمير المؤمنين تَمِلْ إليكَ أعناق الرِّجال، وتَصْفُ نصيحتهم، ويستخلصْ ودّهم لك يا أمير المؤمنين، وكُبِتَ أعداؤُك، وفُضَّ جَمْعُهُم، وأُوهِنَ كيدُهم، وشُتِّتَ أُمورهم، إنّه بما يعملون خبيرٌ.

فقال عليٌّ عليه السلام: أمّا ما ذكرتَ من عملنا وسيرتنا بالعَدْلِ، فإنّ اللهَ عزّ وجلّ يقول: ﴿**مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ ومَنْ أساءَ فَعَلَيْها، وما رَبُّكَ بِظَلّامٍ للعَبِيدِ**﴾ ... وأمّا ما ذكرتَ من أنّ الحقَّ ثقيلٌ عليهم ففارقوا بذلك، فقد علم الله أنّهم لم يفارقونا من جَوْرٍ، ولا لجأوا إذ فارقونا إلى عَدْلٍ، ولم يلتمسوا إلّا دُنيا زايلة عنهم كأنْ قد

فارقوها وليُسألُنّ يوم القيامةِ ألِلدُّنيا أرادوا أم لله عملوا. وأمّا ما ذكرتَ من بذلِ الأموال، وٱصْطناع الرِّجال، فإنّه لا يسعنا أنْ نؤتي ٱمرءاً أحداً من الفيء أكثر من حقِّه، وقد قال الله سبحانه: ﴿**كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللهِ وَاللهُ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ**﴾. وقد بعثَ اللهُ **محمّداً** ﷺ وحده، وكثّرهُ بعد القلّة، وأعزّ فئته بعد الذّلة، وإنْ يُرِد اللهُ أن يولينا هذا الأمر يُذلِّل لنا صعبه، ويُسهِّل لنا حزنه، وأنا قابل من رأيكَ ما كان للهِ عزّ وجلّ رضىً، وأنتَ مِنْ آمَن الناس عندي، وأنْصَحَهُم لي، وأوْثَقَهُم في نفسي إن شاء الله»[(١)].

* * *

٤ ـ وتبرزُ قصّة سِنِّ الإمام عليه السلام في طليعة ذرائع القوم وحججهم في التخلّف عنه، وإيثار المسنِّين عليه في الإستخلاف. وبديهيٌّ أنّ قيم الكفاءات الشخصية والمؤهّلات الذاتيّة، والطاقات الروحيّة الضّخمة هي فوق قِيَم السِّنّ، ومقاييسه الإعتباريّة، فكَمْ من شابٍّ مكهتل في وعيه وحنكته هو أبعدُ نظراً، وأوسعُ أفقاً، وأسدُّ رأياً من الكهول.

ألَمْ يؤمِّر النّبيُّ ﷺ الفتى اليافع (أسامة بن زيد) على جيش يضمّ عيون الصّحابة، وشيوخ المهاجرين والأنصار؟!!

وهل كان النّبيُّ ﷺ غافلاً عن سنِّ الإمام عليه السلام حين رشّحهُ للإمامة وٱستخلفه على الأمّة الإسلامية بنصوصه الجليّة وعهوده المتعاضدة الجمّة؟!

فما قيمة السِّنّ إزاء تلك النّصوص النّبويّة الناطقة بلسان الوحي الإلهي، والمعبِّرة عن إرادة السماء؟!!

---

(١) البحار، ج ٨، ص ١٥٩.

ومن طرائف النّقول في هذا الموضوع ما جاء عن ٱبن عبّاس، قال:

«كنتُ أسيرُ مع عمرَ بن الخطّاب في ليلةٍ، وعمرُ على بغلٍ وأنا على فرسٍ، فقرأ آيةً فيها ذِكْرُ عليّ بن أبي طالب، فقال: أما والله يا بني عبدالمطّلب! لقد كان عليٌّ فيكم أولى بهذا الأمر منّي ومن أبي بكر.

فقلت: أنتَ تقول ذلك يا أمير المؤمنين! وأنتَ وصاحبكَ وثبتُما وٱنتزعتُما الأمر منّا دون الناس!!

فقال: إليكم يا بني عبدالمطّلب! أما إنّكم أصحاب عمر بن الخطّاب، فتأخّرتُ وتقدّم هنيهةً. فقال: سِرْ لا سرتَ، وقال: أعد عليَّ كلامك.

فقلت: إنّما ذكرتَ شيئاً فرددتُ عليه جوابه ولو سكتَّ سكتنا.

فقال: والله إنّا ما فعلنا الّذي فعلناهُ عن عداوةٍ ولكن ٱستصغرناه، وخشينا أن لا يجتمع عليه العرب وقريش لما قد وترها.

قال: فأردت أن أقول: كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يبعثه فينطح كبشها، فلم يستصغرْهُ، أفتستصغرهُ أنتَ وصاحبك؟!!

فقال: لا جَرَمَ، فكيف ترى والله ما نقطع أمراً دونه، ولا نعمل شيئاً حتّى نستأذنه»(١).

وناهيكَ في تفضيل ذوي الكفاءة الشخصيّة والمواهب الفكريّة على المسنِّين والشّيوخ قصّة إياس:

---

(١) الغدير، ج ١، ص ٣٨٩، عن محاضرات الأدباء للرّاغب، ج ٢، ص ٢١٣، وعن كنز العمّال، ج ٦، ص ٣٩١.

«حكى المسعودي في شرح المقامات أنّ المهديّ لمّا دخل البصرة رأى إياس ابن معاوية وهو صبيّ، وخلفه أربعمائةٍ من العلماء وأصحاب الطّيالسة وإياس يقدمهم، فقال المهديّ لعامله: أما كان فيهم شيخٌ يتقدّمهم غير هذا الحَدِث؟!

ثمّ إنّ المهديّ ٱلتفتَ إليه وقال: كَمْ سنّكَ يا فتى؟ فقال: سنِّي أطال الله عمر الأمير سنّ أُسامة بن زيد بن حارثة لمّا ولّاهُ رسول الله جيشاً فيهم أبو بكر وعمر، فقال له: تقدّم باركَ الله فيك»[1].

---

(١) كشكول البهائي، الطّبع الحجري، ص ٢٠٧.

الإمام عليه السلام

أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب[١] بن عبدالمطّلب بن هاشم بن عبد مناف.

ولادته:

وُلد عليه السلام يوم الجمعة الثالث عشر من رجب بعد عام الفيل بثلاثين سنة، وكانت ولادته في الكعبة المعظّمة، وهي من خصائصه الفريدة الّتي لم ينلها غيره في التاريخ.[٢]

أُمّه:

فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، وكانت من عقيلات النِّساء وفضلياتهنّ، والحائزات على شرف السّبق في الإسلام، والهجرة إلى المدنية المنوّرة، وكانت للرّسول صلى الله عليه وآله وسلم كالأُم الرّؤوم تحيطه برعايتها البالغة، وحنانها الجمّ، وكان هو صلى الله عليه وآله وسلم يبجِّلها ويدعوها (أُمِّي).

---

(١) أبو طالب اسمه عبد مناف وقيل عمران.

(٢) إتّفق المؤرِّخون على ولادته في الكعبة المطهّرة. راجع الغدير للحجّة الحَبر الجليل الشّيخ عبدالحسين الأمينيّ رحمه الله، ج٦، ص ٢٢ ـ ٢٣.

ألقابه وكناه:

ومن أبرز ألقابه: أمير المؤمنين، والمرتضى، وحيدر، والوصيّ.

ومن أبرز كناه: أبو الحسن، وأبو السِّبطين، وأبو تراب.

صورته:

قال واصفُ الإمام عليه السلام وهو يُصوِّر شمائِلَهُ وسماتِهِ ببلاغةٍ فائقةٍ وتصويرٍ دقيق:

«كان ربعة[1] من الرِّجال، أدعج العينين[2]، حسن الوجه كأنّه القمر ليلة البدر حُسناً، ضخم البطن، عريض المنكبين، شثن الكفّين، أغيد[3] كأنّ عنقه إبريق فضّة، أصلَع، كثّ اللِّحية، لمنكبه مشاش[4] كمشاش السّبع الضّاري، لا يبين عضده من ساعده، وقد أُدمجت[5] إدماجاً، إن أمسك بذراع رجلٍ أمسكَ بنفسِهِ، فلم يستطع أن يتنفّس، شديد السّاعد واليَد، إذا مشى إلى الحرب هرول، ثبت الجَنان، قويّ شجاع منصور على مَنْ لاقاه».

نشأته:

كان من عناية الله عزّ وجلّ بالإمام عليه السلام أن حباهُ أعظم الطّاقات والمواهب الجسميّة والفكريّة، ومنحهُ جميع مؤهّلات النّبوغ والتفوّق، وأتاح له الفرص الباعثة

---

(١) ربعة: أي لا طويل ولا قصير.

(٢) الدّعج: شدّة سواد العين مع سعتها.

(٣) الأغيد: المائل العنق، والغيد النّعومة، وٱمرأة غيداء: ناعمة.

(٤) المشاش: رؤوس العظام اللّيِّنة، الواحد مشاشة.

(٥) الإدماج: يُقال أُدمج الشيء في الشيء إذا أدخله فيه، والمراد أنّ عظمَيْ عضده وساعده قد ٱندمجا، وهذه صفة الأسد.

على ٱزدهار مواهبـه، وتصعيد كفاءاته، ليجعل منه رجل الإسلام، وقائده المحـنّك، وإمامه المؤمّل.

لقد جمعت الأقدار بين الرّسول ﷺ والإمام عليه السلام في بيتٍ واحدٍ هو بيت أبي طالب عليه السلام، حيث كان مأوى النّبيّ وملاذه بعد جدِّه عبدالمطّلب. وكان ﷺ ولوعاً بالإمام، عطوفاً عليه، منذ طفولته الغضّة، وٱنبثاق برعمته، «يوجره اللّبن عند شربه، ويُحرِّك مهده عند نومـه، ويُناغيه في يقظتـه، ويحمله على صدره مطـوِّفاً به شِعاب مكّة وأوديتها».

وكلّما ترعرع الإمـام عليه السلام، إزداد النّـبيّ ﷺ حبّاً له وإعجاباً به، وتوسّماً بمواهبه المتألِّقة، ومستقبله الزّاهر.

ولمّا بنى ﷺ بخديجـة عليها السلام، وٱستقلّ بحـياته الزوجيّـة عن دار عمِّه أبي طالب، شاء الله تعالى أن يتيح لعليّ عليه السلام شرف العِشْرة المتواصلة بالنّـبيّ والصّحبة الدائمة له، ليوفِّر له فرص الرِّعاية النّبويّة، وتوجيهها المُبدع الخلّاق، وذلك: «أنّ قريشاً أصابتهم شدّة، وكان أبو طالبٍ ذا عيالٍ، فقال رسول الله ﷺ للعبّاس: إنّ أخاكَ أبا طالبٍ كثيرُ العـيال، وقد أصاب النّاسَ ما ترى، فانطلِق بنا فلنُخفِّف من عياله، فقال العبّاس: نعم، فانطلقا حتّى أتيا أبا طالبٍ فقالا له: إنّا نريد أن نُخفِّف من عيالك، حتّى ينكشف عن الناس ما هم فيه. فقال لهما أبو طالب: إذا تركتما عقيلاً فاصنعا ما شئتما، فأخذ رسول الله ﷺ عليّاً فضمّه إليه، وأخذ العبّاس جعفراً فضمّه إليه، فلم يزل عليٌّ مع النّبيّ ﷺ حتّى بعثه الله عزّ وجلّ، فتابعه، وآمنَ به، وصدّقه»(١).

وكان لهذا الحدث أثر بالغ في ٱزدهار مواهب الإمام عليه السلام وٱكتمال شخصيّته،

---

(١) ذخائر العُقبى لمحبّ الدّين الطّبري، ص ٥٨.

حيث لم يدّخر النّبيّ ﷺ وسعاً خلال هذه الفترة، وطيلة حياته الكريمة في تثقيف الإمام وتوجيهه بمُثُله العُليا، وآدابه النّبويّة، وقد أعربَ الإمام عليه السلام عن أبعاد تلك الرّعاية النّبويّة السامية، فقال:

«وقد تعلمونَ موضعي من رسول الله ﷺ بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة، وضعني في حِجْرِهِ وأنا وليد، يضمّني إلى صدره، ويكنفني في فراشه، ويمسّني جسده، ويُشِمُّني عَرْفَهُ، وكان يمضغ الشيء ثمّ يلقمنيه، وما وجدَ لي كِذْبةً في قَوْلٍ، ولا خطلةً في فِعْلٍ، ولقد قَرَنَ اللهُ به من لَدُنْ أن كان فطيماً أعظم مَلَكٍ من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره، ولقد كنتُ أتّبعهُ اتّباع الفصيل إثرَ أُمِّه، يرفع لي في كلِّ يومٍ من أخلاقه عَلَماً، ويأمرني بالإقتداء به، وقد كان يجاور في كلِّ سنةٍ بحراء، فأراه ولا يراهُ غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذٍ في الإسلام غير رسول الله ﷺ وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرِّسالة، وأشمّ ريحَ النّبوّة»[1].

---

(١) شرح النّهج، ج ٣، ص ٢٥٠.

عظماتُ الإمام وأمجاده

يتطلّع الباحث في حياة الإمام عليه السلام إلى آفاق رحبة مشرقة، تتضوّع بالفضائل، وتشعّ بالبطولات والأمجاد، ويشهد شخصيّة مثاليّـة فريدة تجمّعت فيها أروع المُـثُل الإنسانيّة، وأخلد قيمها ومعطياتها، فلا يملك إزاءها إلّا الخضـوع والإجلال، وكلّما عاودَ التطلّع إليها من جديد أخذتهُ الدّهشـة، وساوره الإنبهار، فيرتدّ متمـثِّلاً قول الشّاعر:

فيمَ ٱقتحامكَ لجّ البحـرِ تركبه   وأنتَ تكفيكَ منه مصّة الوشلِ

يتطلّع الباحث إلى عظمات الإمام عليه السلام وبطولاته، فيراها في سباق وتنافس، فلا يدري أيّها أشدّ تألّقاً، وأسرع سبقاً، أهو في علمه أعلم، أم في شجاعته أشجع، أم في سـخائه وأريحيّته أكرم، أم في عزوفه وترفّعه عن مُغريات الحـياة، وأشواقها الخادعة أعفّ وأزهد، فكلّ منها سبّاق مجلٍّ في مجاله ومضماره، حتّى كأنّ الله عزّ وجلّ أفرغ فيه وأضفى عليـه آيات الجمال والكمال، ومؤهّلات البُروز والتفـوّق، ليصـوغ منه المثل الأعلى للإنسان، ويجعله نموذجاً لملاك السّماء فيالأرض ويجعل من إنسـان الأرض ملاكاً في السّماء!!

لذلك كان لابدّ لي وأنا أحاول التحـدّث عن فضـائل الإمام وبطـولاته، أن أعرضها عرضاً خاطفاً لامحاً يتلاءم وتخطيط هذه الرِّسالة الموجزة، ولايُخرجها عن إطارها المحدود:

١ ـ عظمة الإيمان:

يتفاوت المسـلمون في معارج الإيمان تفاوتاً كبيراً واسـعاً: فمنهم المحلّق فيها، والمتبوّئ القيم السامقة منها، ومنهم المسفّ الهابط، ومنهم بين هذا وذاك، تبعاً لأبعاد وعيهم، وطاقات بصائرهم.

وقد تبوّأ الإمام عليه السلام أسمى قمم الإيمان وأرفع مدارجه بفضل طاقاته الفكريّة الجبّارة، ومواهبه الخارقة المستلهمة من فيض الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم وعطائه الرّوحيّ. فهو الّذي لم يكفر بالله، ولم يسجد لصنم، وسبق الرِّجال طرّاً إلى الإسلام، وحازَ شرف الأوّليّة في اعتناقه، وقد سجّل الحفّاظ والرّواة هذه المنقبة له بأحرفٍ من نور: فعن أبي سعيد الخدريّ، قال: «قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لعليّ ـ وقد ضربَ بين كتفيه ـ: يا عليُّ، لك سبع خصالٍ لا يحاجّك فيهنّ أحدٌ يوم القيامة؛ أنتَ أوّل المؤمنين بالله إيماناً، وأوفاهم بعهد الله، وأقومهم بأمر الله...»(١).

وعن زيد بن أرقم قال: «أوّل مَنْ أسلم مع رسول الله، عليّ بن أبي طالب»(٢).

وعنه أنّه قال: «أوّل مَنْ صلّى مع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عليّ»(٣).

وناهيكَ عن عظمة إيمانه، أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم جعلهُ رمز الإيمان ومثاله الناطق، فقال في غزاة الخـندق عند مـبارزة عليّ لعمرو بن ودٍّ: «**برزَ الإيمان كلُّهُ إلى الشِّرْكِ كُلِّه**»(٤).

---

(١) حلية الأولياء، ج ١، ص ٦٦.

(٢) مسند أحمد، ج ٤، ص٣٦٨، ومستدرك الحاكم، ج ٤، ص٣٣٦، والكامل لابن الأثير، ج ٢، ص ٢٢.

(٣) مجمع الهيثمي، ج ٩، ص ١٠٣، والإستيعاب، ج ٢، ص ٤٥٩. راجع الغدير، ج ٣، ص ٢٢٠ ـ ٢٣٨.

(٤) دلائل الصّدق للحجّة المظفّر رحمه الله، ج ٢، ص ٢٥٩.

وعن عمر بن الخطّاب (رض) أنّه قال: أشهد على رسول الله ﷺ لسمعته وهو يقول: «**لو أنّ السّماوات السّبع، والأرضين السّبع وُضعت في كفّة، ووُضِعَ إيمانُ عليٍّ في كفّةٍ، لرجحَ إيمان عليّ**»(١).

٢ ـ عظمة العِلْم:

لقد كسب الإمام أضخم رصيد علميّ في الإسلام، وحلّق في الأوج الأرفع من العلوم والمعارف، ونال أسمى الدّرجات والشّهادات النّبويّة في ذلك. ولا عجب فهو صاحب الطاقات الفكريّة الهائلة، والذّكاء الخارق، والفطنة المدهشة المتجلّية في خطبه البليغة، وأقواله الحكيمة، السائرة مسير الشّمس، والمشعّة بالنّور والهدى. وهو صاحب الأُذن الواعية الّتي باركتها السماء: ﴿**وَتَعِيَهَا أُذُنٌ واعِيَةٌ**﴾، فقال النّبيّ ﷺ: **سألتُ الله أن يجعلها أُذنكَ يا عليّ**. قال عليّ عليه السلام: **فما نسيتُ بعد هذا شيئاً**.(٢)

وهو الّذي خصّه الرّسول ﷺ بالنصيب الأوفر من التثقيف والتوجيه، وأطلعه على أسرار الوحي، ومفاهيم القرآن وحقائق الإسلام، ما جعلهُ كنز العلوم والمعارف، وموسوعتها الكُبرى في الإسلام، حسبك في ذلك قوله عليه السلام:

«**إنّ رسول الله ﷺ علّمني ألف باب، وكلّ بابٍ يفتح ألف باب، فذلك ألف ألف باب، حتّى علمتُ ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، وعلمتُ علم المنايا،**

(١) ذخائر العُقبى، ص١٠٠، والكنجيّ في الكفاية، ص١٢٩، والصّفوري في نزهة المجالس، ج٢، ص٢٤٠.

(٢) لقد صرّح باختصاص هذه الآية الكريمة بعليّ عليه السلام ونزولها فيه، أعلام المفسّرين والحفّاظ: كالطّبري في تفسيره، ج ٢٩، ص ٣٥، والسّيوطيّ في الدّرّ المنثور، ج ٦، ص ٢٦٠، وكنز العمّال، ج ٦، ص ٣٩٨، ونور الأبصار، ص ٦٩، وآخرون غيرهم.

والبلايا وفصل الخطاب»[1].

من أجل ذلك، أصبح الإمام مصدر العلوم بعد الرّسول ﷺ وينبوعها الثرّ الّذي ينهل منه أعلام الإسلام، وتنتجع عطاءه المذاهب الإسلاميّة وتفزع إليه الأمّة في حلِّ المشاكل العلميّة، ومعضلات الفتيا والقضاء. ناهيكَ أنّه لم يتجرّأ أحد من أقطاب العلم، وقادة الفكر أنْ يُعلِن على رؤوس الأشهاد، ومحضر أعلام الصّحابة قائلاً (سلوني) إلّا عليّ عليه السلام.

فقد جاء في صحيح مسلم: أنّ عليّاً قال على المنبر: **«سلوني قبل أن تفقدوني، سلوني عن كتاب الله عزّ وجلّ، فما من آيةٍ إلّا وأعلم حيث نزلت بحضيض جبلٍ أو سهل أرضٍ، سلوني عن الفِتَن فما من فتنةٍ إلّا وقد علمتُ كبشها ومَنْ يُقتل فيها»**.

وكان يقول: **«سلوني عن طرق السّماء، فإنّي أعرَفُ بها من طرق الأرض»**[2].

وأعظمْ بالشهادات النّبويّة في تفوّقه العلميّ، وتفضيله على عامّة المسلمين في العلم والعرفان. من ذلك قوله ﷺ: **«أنا مدينةُ العِلْمِ وعليٌّ بابُها، فمَنْ أراد العِلْمَ فليأتِ بابه (الباب)»**[3].

---

(١) أخرجه القندوزي في ينابيع المودّة، ص ٧٧، وأخرج مضمونه جماعة من الحفّاظ: أخرجه الزّرندي في درر السّمطين، ص ١١٣، والتفتازاني في شرح المقاصد، ج ٢، ص ٢٢٠، والآمرتسري في أرجح المطالب، ص ١٠٦. راجع هامش إحقاق الحقّ للحجّة السيّد شهاب الدّين النّجفي، ج ٦، ص ٤٠ ـ ٤٣.

(٢) دلائل الصّدق للحجّة المظفّر رحمه الله، ج ٢، ص ٣٤١، وقد ذكر الحجّة الأميني رحمه الله في ج ٦ من غديره صور هذا الحديث ومصادره، ص ١٩٣ ـ ١٩٤.

(٣) ذكر الحجّة الأميني رحمه الله، مائة وثلاثة وأربعون مصدراً من إخواننا لهذا الحديث. راجع الغدير، ج ٦، ص ٦١ ـ ٧٧.

وقوله ﷺ: **«أعلَمُ أمّتي من بعدي عليٌّ بن أبي طالب»**[1].

وقوله ﷺ: **«عليٌّ باب علمي، ومبيِّن لأمّتي ما أُرسِلْتُ به من بعدي»**[2].

وقوله ﷺ: **«عليٌّ خازن علمي»**[3].

وقوله: **«عليٌّ عَيْبَةُ علمي»**[4].

وقوله ﷺ: **«أقضى أمّتي عليٌّ»**[5].

وقوله ﷺ: **«قُسمت الحكمة عشرة أجـزاء، فأعطي عليٌّ تسعة أجـزاء، والناس جزءاً واحداً»**[6].

وهكذا أعلن كبار الصّحابة ومشاهيرهم عن أعلميّة الإمام وتفوّقه العلميّ:

قال عمر (رض) غير مرّة: «لولا عليّ لهلك عمر»[7].

وقال: «اللّهمّ لا تبقني لمعضلةٍ ليس لها ٱبن أبي طالب»[8].

---

(١) ذكره الخوارزمي في المناقب، ص ٤٩، والمتّقي في كنز العمّال، ج ٦، ص ١٥٣.

(٢) كنز العمّال، ج ٦، ص ١٥٦، وكشف الخفاء، ج ١، ص ٢٠٤.

(٣) شرح النّهج لابن أبي الحديد، ج ٢، ص ٤٤٨.

(٤) شرح النّهج لابن أبي الحديد، ج ٢، ص ٤٤٨، وجمع الجوامع للسيوطي، ج ٦، ص ١٥٣، وشرح العزيزي، ج ٢، ص ٤١٧، ومصباح الظّلام، ج ٢، ص ٥٦.

(٥) مصباح البغوي، ج ٢، ص ٢٧٧، والرِّياض النّضرة، ج ٢، ص ١٩٨، ومناقب الخوارزمي، ص ٥٠، وفتح الباري، ج ٨، ص ١٣٦، وبغية الوعاة، ص ٤٤٧.

(٦) حلية الأولياء، ج ١، ص ٦٥، وأسنى المطالب للـجزري، ص ١٤. راجـع الغـدير، ج ٣، ص ٩٦.

(٧) الإستيعاب، ج ٣، ص ٣٩، والرِّياض النّضرة، ج ٢، ص ١٩٤، ومناقب الخوارزمي، ص ٤٨، وتذكرة السِّبط، ص ٨٧، ومطالب السؤول، ص ١٣، وفيض القدير، ج ٤، ص ١٥٧.

(٨) تذكرة السِّبط، ص ٨٧، ومناقب الخوارزمي، ص ٥٨، ومقتل الخوارزمي، ج ١، ص ٤٥.

وقال: «لا أبقاني الله بعدك يا عليّ»[(١)].

وقال: «أعوذ بالله من معضلةٍ ولا أبو الحسن لها»[(٢)].

وقال ابن عبّاس حبر الأمّة: «ما علمي وعلم أصحاب محمّد صلى الله عليه وآله وسلم من علم عليّ رضي الله عنه إلّا كقطرة في سبعة أبحر»[(٣)].

وقال: «والله لقد أعطيَ عليّ بن أبي طالب تسعة أعشار العلم، وأيم الله لقد شارككم في العُشْر العاشِر»[(٤)].

وقال ابن مسعود: «كنّا نتحدّث أنّ أقضى أهل المدينة عليّ»[(٥)].

وقال هشام بن عتيبة في عليّ عليه السلام: «هو أوّل مَنْ صلّى مع رسول الله، وأفقهه في دين الله، وأولاه برسول الله»[(٦)].

وسُئل عطاء: أكان في أصحاب محمّد أحد أعلَم من عليّ؟! قال: لا والله ما أعلمه.[(٧)]

---

(١) الرِّياض النّضرة، ج ٢، ص ١٩٧، ومناقب الخوارزمي، ص ٦٠، وتذكرة السِّبط، ص ٨٨، وفيض القدير، ج ٤، ص ٣٥٧.

(٢) تاريخ ابن كثير، ج ٧، ص ٣٥٩، والفتوحات الإسلامية، ج ٢، ص ٣٠٦.

(٣) الفتوحات الإسلامية لزيني دحلان، ج ٢، ص ٣٣٧.

(٤) الإستيعاب، ج ٣، ص ٤٠، والرِّياض النّضرة، ج ٢، ص ١٩٤، ومطالب السّؤول، ص ٣٠.

(٥) الإستيعاب، ج ٣، ص ٤١، وأسنى المطالب للجزري، ص ١٤، والصّواعق، ص ٧٦.

(٦) كتاب صفّين لنصر بن مزاحم، ص ٤٠٣. راجع الغدير، ج ٣، ص ٩٦ ـ ٩٩.

(٧) الإستيعاب، ج٣، ص٤٠، والرِّياض النّضرة، ج٢، ص١٩٤، والفتوحات الإسلامية، ج ٢، ص ٣٣٧.

وكان معاوية يكتب فيما ينزل به لِيُسْأَلَ له عليّ بن أبي طالب عليه السلام ذلك. فلمّا بلغه قتله، قال: ذهب الفقه والعلم بموت ٱبن أبي طالب، فقال له أخوه عتبة: لا يسمع هذا منك أهل الشّام، فقال له: دعني عنك.[1]

وأبرز آية على أفضليّة الإمام وتفوّقه العلميّ على عامّة المسلمين، ٱفتقارهم جيمعاً إلى علمه، وٱستغناؤه عن علمهم.

ناهيكَ أنّه كان مفزع الخلفاء الثلاثة في حلِّ المعضلات العلميّة، وحسم مشاكل الفتيا والقضاء، وإليك طرفاً ممّا قصّهُ الرّواة من رجوعهم إليه:

عن أنس بن مالك، قال: أقبلَ يهوديّ بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأشار القوم إلى أبي بكر، فوقفَ عليه فقال: أريد أن أسألك عن أشياء لا يعلمها إلّا نبيّ أو وصيُّ نبيّ.

فقال أبو بكر: سَلْ عمّا بدا لك.

فقال اليهودي: أخْبِرْني عمّا ليس لله، وعمّا ليسَ عند الله، وعمّا لا يعلمه الله.

فقال أبو بكر: هذه مسائل الزّنادقة يا يهودي، وهمّ أبو بكر والمسلمون رضي الله عنهم باليهودي.

فقال ٱبن عبّاس رضي الله عنه: ما أنصفتم الرّجل، فقال أبو بكر: أما سمعتَ ما تكلّم به؟! فقال ٱبن عبّاس: إن كان عندكم جوابه، وإلّا فاذهبوا به إلى عليّ رضي الله عنه يجيبه، فإنّي سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لعليّ بن أبي طالب: اللّهمّ ٱهدِ قلبه، وثبّت لسانه.

قال: فقام أبو بكر ومَنْ حضره حتّى أتوا عليّ بن أبي طالب، فاستأذنوا عليه، فقال أبو بكر: يا أبا الحسن! إنّ هذا اليهودي سألني مسائل الزّنادقة.

---

(١) الإستيعاب لابن عبدالبرّ، ج ٢، ص ٤٦٣.

فقال عليٌّ: ما تقول يا يهودي؟

قال: أسألك عن أشياء لا يعلمها إلّا نبيّ أو وصيّ نبيّ.

فقال له: قُلْ. فردّ اليهودي المسائل.

فقال عليّ رضي الله عنه: أمّا ما لا يعلمه الله: فذلك قولكم يا معشر اليهود: إنّ العزير ٱبن الله، واللهُ لا يعلم أنّ له ولداً. وأمّا قولك: أخْبِرْني بما ليس عند الله، فليس عنده ظلمٌ للعباد. وأمّا قولك: أخْبِرْني بما ليس لله، فليسَ له شريك. فقال اليهودي: أشهد أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمّداً رسول الله، وأنّك وصيّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فقال أبو بكر والمسلمون لعليٍّ عليه السلام: يا مُفرِّج الكرب.(١)

* * *

وأخرج الحافظان: العقيلي وٱبن السمّان، عن أبي حزم بن الأسود: أنّ عمر أراد رجم المرأة الّتي ولدت لستّة أشهر، فقال له عليٌّ: إنّ الله تعالى يقول: ﴿**وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثلاثُونَ شَهْراً**﴾، وقال تعالى: ﴿**وَفِصالُهُ في عامَيْنِ**﴾، فالحمل ستّة أشهر، والفِصال في عامين. فترك عمر رجمها، وقال: لولا عليٌّ لهلكَ عُمَر.(٢)

وعن أبي سعيد الخدري، قال: حججنا مع عمر بن الخطّاب (رض)، فلمّا دخل الطّواف ٱستقبلَ الحجر، فقال: إنِّي أعلم أنّك حجرٌ لا تضرُّ ولا تنفع، ولولا أنِّي رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُقبِّلُكَ ما قبّلتك، فقبّله.

فقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: بل يا أميرالمؤمنين، يضرُّ وينفع، ولو علمتَ ذلك من تأويل كتاب الله لعلمتَ أنّه كما أقول، قال الله تعالى: ﴿**وإذْ أخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَني**

(١) الغدير، ج ٧، ص ١٧٨، نقلاً عن المجتنى لابن دُريد، ص ٣٥.

(٢) الغدير، ج ٦، ص ٩٤، نقلاً عن إثني عشر مصدراً من مصادر إخواننا.

آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِم ...﴾، فلمّا أقرّوا أنّه الربّ عزّ وجلّ، وأنّهم العبيد، كتبَ ميثاقهم في رقّ، وألقمهُ في هذا الحجر، وإنّه يُبعَث يوم القيامة وله عينان، ولسان وشفتان، يشهد لمن وافى بالموافاة، فهو أمين الله في هذا الكتاب. فقال عمر: لا أبقاني الله بأرضٍ لستَ فيها يا أبا الحسن.(١)

وإنّ عمر بن الخطّاب سأل رجلاً كيف أنت؟ فقال: ممّن يحبّ الفتنة، ويكره الحقّ، ويشهد على ما لم يَرَه. فأمـرَ به إلى السـجن، فأمرَ عليٌّ بردِّه. فقال: صدق، فقال: كيف صدّقتـه؟ قال: يحـبّ المال والولد، وقد قال الله تعالى: ﴿إنّما أمْوالُكُمْ وأوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، ويكره الموت وهو الحقّ، ويشهد أنّ محمّداً رسـول الله ولم يره. فأمر عمر (رض) بإطلاقه، وقال: الله يعلم حيث يجعل رسالته.(٢)

وٱستدعى عمر ٱمرأةً ليسألها عن أمر وكانت حاملاً، فلشدّة هيبته ألقت ما في بطنها فأجهضت به جنيناً ميّتاً، فاستفتى عمر أكابر الصّحابة في ذلك، فقالوا: لا شيء عليك، إنّمـا أنتَ مؤدّب. فقال له عليٌّ عليه السلام: إن كانوا راقبوك فقد غشّوك، وإن كان هذا جهد رأيهم فقد أخطأوا، عليكَ غرّة يعني عتق رقبة، فرجع عمر والصحابة إلى قوله.(٣)

وإنّ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أُتيَ بأمرأةٍ زنت، فأقرّت، فأمر برجمها، فقال عليّ رضي الله عنه: لعلّ بها عذراً، ثمّ قال لها: ما حَمَلَكِ على الزّنا؟ قالت: كان لي خليط وفي إبله ماء ولبن ولم يكن في إبلي ماء ولا لبن، فظمئتُ فاستسـقيتهُ، فأبى أن يسقيني حتّى أعطيهُ نفسي، فأبَيْتُ عليه ثلاثاً، فلمّا ظمئتُ وظننتُ أنّ نفسي ستخرج أعطيتهُ الّذي

---

(١) الغدير، ج ٦، ص ١٠٣، نقلاً عن عشرة مصادر من إخواننا.
(٢) الغدير، ج ٦، ص ١٠٥، نقلاً عن (الطّرق الحكميّة) لابن القيّم الجوزيّة، ص ٤٦.
(٣) الغدير، ج ٦، ص ١١٩، نقلاً عن خمسة مصادر من إخواننا.

أراد، فسقاني. فقال عليٌّ: الله أكبر، ﴿فَمَنِ ٱضطرّ غير باغٍ ولا عادٍ فلا إثمَ عليه، إنّ اللهَ غَفورٌ رَحيم﴾.(١)

وذُكر عند عمر بن الخطّاب في أيّامه حُليّ الكعبة وكثرته، فقال قوم: لو أخذته فجهّزتَ به جيوش المسلمين كان أعظم للأجر، وما تصنع الكعبة بالحُليّ؟ فهمّ عمر بذلك وسأل عنه أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: إنّ هذا القرآن أنزِلَ على محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، والأموال أربعة: أموال المسلمين فقسّمها بين الورثة في الفرائض، والفيء فقسّمه على مستحقّيه، والخُمس فوضعه الله حيث وضعه، والصّدقات فجعلها الله حيث جعلها، وكان حُليّ الكعبة فيها يومئذٍ فتركه الله على حاله ولم يتركه نسياناً ولم يَخْفَ عنه مكاناً، فأقرّهُ حيث أقرّه الله ورسوله، فقال عمر: لولاك لافتضحنا، وترك الحُليّ بحاله.(٢)

* * *

وأخرج الحافظ العاصمي في كتابه (زين الفتى في شرح سورة هل أتى) من طريق شيخه أبي بكر محمّد بن إسحاق بن محمّشاد يرفعه: أنّ رجلاً أتى عثمان بن عفّان وهو أمير المؤمنين، وبيده جمجمة إنسان ميّت، فقال: إنّكم تزعمون النار تُعرَض على هذا وأنّه يُعذّب في القبر، وأنا قد وضعتُ عليها يَدي فلا أحسّ منها حرارة النار. فسكت عنه عثمان وأرسل إلى عليّ بن أبي طالب المرتضى يستحضره، فلمّا أتاه وهو في ملأٍ من أصحابه، قال للرّجل: أعد المسألة، فأعادها، ثمّ قال عثمان بن عفّان: أجِب الرّجل عنها يا أبا الحسن! فقال عليٌّ: إيتوني بزند وحجر ـ والرّجل السائل والناس ينظرون إليه ـ فأُتِيَ بهما، فأخذهما وقدّح منهما النار، ثمّ قال للرّجل: ضع يدك على الحجر، فوضعها عليه، ثمّ قال: ضع يدك على الزّند، فوضعها عليه، فقال: هل

(١) الغدير، ج ٦، ص ١٢٠، نقلاً عن مصدرين من مصادر إخواننا.
(٢) الغدير، ج ٦، ص ١٧٧، نقلاً عن إثني عشر مصدراً من مصادر إخواننا.

أحسستَ منهما حرارة النار؟ فبهت الرّجل. فقال عثمان: لولا عليّ لهلك عثمان.[1]

* * *

وقد نفذت بصيرة الإمام عليه السلام وٱمتدّ إشعاعه العلميّ إلى أغوار الزّمن، وأحداث المستقبل المجهول، فأنبأ عن وقائع غيبيّة، وكشفَ عن خفايا تأريخية مكتومة في ضمير الغيب إلهاماً من الله عزّ وجلّ، وتلقّياً من الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم.

من ذلك، إخباره باستشهاده واستشهاد ولده الحسين عليه السلام في كربلاء، وإعلامه بما يُصيب أصحابه المخلصين الأبرار من صنوف القتل والتنكيل من أعدائه، وإنباؤه عن فظائع الحكم الأموي، ونهايته المظلمة، ومصيره الخاسر، وعن طغيان مُلك العبّاسيّين، وسطوتهم الجائرة، وٱنقراضهم على يد المغول، ونحو ذلك من الوقائع والأحداث المفصّلة في أسفار حياته الكريمة، والّتي حدثت كما أنبأ عنها عليه السلام.

٣ـ عظمة الشّجاعة:

زخر التأريخ الإسلامي بروائع البطولات والأبطال، وطرائف التضحية والفداء في سبيل العقيدة والمبدأ، وقد سجّل المجاهدون المسلمون أخلد المآثر البطولية في بناء الإسلام، وصنع تأريخه المشرق.

ولو ٱستعرضنا حياة أولئك الصناديد العظماء، وأبعاد جهادهم في تركيز الإسلام، وجدنا عليّاً عليه السلام يتألّق في فلكهم، ويشعّ في آفاقهم، ورأيناهُ أشدّهم عناءً واستبسالاً، وأوفرهم نصيباً في نصرة الإسلام، وتأييد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، حتّى أصبح الحديث عن مواقفه الجهاديّة وبطولاته في الحروب الإسلامية حديثاً مُعاداً مكرّراً لانتشارها في الآفاق، وترديدها على أقلام الكتّاب، وألسنة الخطباء عبرَ العصور.

---

(١) الغدير، ج ٨، ص ٢١٤.

بَيْدَ أنّ أبرز فضائل الإمام عليه السلام الجهاديّة والبطوليّة أنّه كان درع الإسلام ومفزع المسلمين في المعارك الفاصلة بين الإيمان والكفر، وكان حامي راية الإسلام ومنقذها كلّما حاقت بها المخاطر، وأشرفت على الإنتكاس.

فهو البائت على فراش النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ليلة الهجرة، وقد تألّب المشركون على ٱغتياله وقتله على فراشه.

وهو الّذي ٱستأثر بقتل الصناديد الأبطال والكُماة المرهوبين في الوقائع الإسلامية: كبدرٍ، وأحُدٍ، والأحزاب، وخيبر، وحُنين وغيرها.

بطولته في بدر: وهي أشدّ الوقائع خطراً على الإسلام، وقد عبّأ الكفر فيها كلّ طاقاته وكماة أبطاله للقضاء على الإسلام، وكان الجيش الإسلامي قليل العُدّة والعدد لا يزيد عن نيّف وثلاثمائة مقاتل، ومن هنا كان النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وجلاً على مصير الإسلام، والطّلائع الإيمانية الصّاعدة، فدعا الله آنذاك ضارِعاً إليه، مستمدّاً منه النّصر والتأييد: «اللّهمّ أنْجِزْ لي ما وعدتني، اللّهمّ إنْ تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعْبَد في الأرض»، فاستجابَ الله تعالى دعاءه ونصر الإسلام والمسلمين في تلك الحرب الخطيرة الحاسمة، وكان لعليّ حصّة الأسد من قتلى الكفر، وإبادة أبطاله المغاوير، حيث ٱستأثر بنصفهم، وساهم المسلمون في النصف الآخر، وكانوا زهاء سبعين قتيلاً.

بطولته في أحُد: وفي غزوة أحُد، وعندما توالت الضغوط الخطيرة الماحقة على المسلمين، فرّوا هاربين عن الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم، وأفردوه بين الأعداء، ولم يلبث معه إلّا ثلّة قليلة من المخلصين ٱستبسلت في حمايته والذّود عنه. وكان عليٌّ عليه السلام الفدائيّ الأوّل والمنقِذ الأعظم لكيان الإسلام، وحياة رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم. وهو الّذي دمّر كتائب الشِّرك، ودحر جيشه الجرّار، فمجّده هاتف السّماء: «**لا سيفَ إلّا ذو الفقار، ولا فتى**

إلّا عليّ».[1]

بطولته في واقعة الأحزاب: وفيها تألّبت قريش وأشياعها من أحزاب العرب على قتال النّبيّ ﷺ، وزحفت بجيشٍ جرّارٍ نحو المدينة المنوّرة، وطوّقتها من كلّ جانب، وفزع المسلمون من هذا الخطر الدّاهم، وشاعَ الرّعب فيهم، كما صوّر القرآن الكريم حالتهم آنذاك: ﴿**إذْ جاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ ومِنْ أسْفَلَ مِنْكُمْ وإذْ زاغَتِ الأبْصارُ وبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَناجِرَ وتَظُنُّونَ باللهِ ٱلظُّنونا * هُنالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلمُؤْمِنُونَ وزُلْزِلُوا زِلْزالاً شَديداً**﴾.

وممّا ضاعفَ القلق والوَجَل في نفوس المسلمين، أنّ عمرو بن عبد ودّ، فارس الجزيرة وبطلها المغوار، طفقَ يتحدّى الجيش الإسلاميّ بصلفٍ بالغ، وسخريّة لاذعة، ويناشدهم البِراز، فأحجموا عنه خشيةً من بأسه، ورهبةً من صولته، ممّا أوهنَ عزمهم، وحطّم معنويّاتهم. ولم يجرُؤ أحدٌ على قتاله، وقمع طغيانه، وإذلال كبريائه إلّا فارس الإسلام، ومنقذه الكرّار عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وسرعان ما جاء برأسه إلى الرّسول ﷺ، وبقتله ٱنهارت جحافل الكفر، وٱنهزمت فيالقه، وٱرتفعت راية الإسلام خفّاقة بالعزّة النصر على يد الإمام عليه السلام، فأطراهُ النّبيّ ﷺ مُثمّناً بطولته وكفاحه قائلاً: «**لَضَرْبَةُ عليٍّ يوم الخندق أفضل من عبادةِ الثّقلين**».[2]

---

(١) راجع شرح النّهج، ج ٢، ص ٥٦١، وذخائر العقبى، ص ٧٤، وتذكرة الخواص، ص ٢٦.

(٢) العضد الأيجي في المواقف، ص ٦١٧، والتفتازاني في شرح المقاصد، ج ٢، ص ٢٣٠، والكركي في نفحات اللّاهوت، ص ٩١، والقندوزي في اليـنابيع، ص ٩٥، و ١٣٧، وبهجت أفندي في تاريخ آل محمّد، ص ٥٧. راجع هامش إحقاق الحقّ للحجّة السيّد شهاب الدّين النّجفي، ج ٦، ص ٥.

بطولته في خيبر: وهكذا ٱستنصرت عناصر الكفر، وتجسّدت أحقاده في يهود خيبر، وغدت تتحدّى الإسلام والمسلمين، وتطاولهم بحصونها المنيعة، وجيشها الجرّار، ممّا ٱضطرّ الرّسول ﷺ إلى جهادهم، وصدّ عدوانهم، وحسم شغبهم وتآمرهم عليه.

ولمّا ٱستعرت الحرب، وتناجز الفريقان الإسلاميّ واليهوديّ، تجلّى واضحاً أنّ دحر اليهود، وٱختراق حصونهم المنيعة عمليّة شاقّة مرهقة لمنعتها وٱستماتة المدافعين عنها.

وكان عليّ عليه السلام بطل الساعة، وصانع النّصر، ومحقّق الفتح المبين في ذلك الموقف الخطير، كما حكاه الحفّاظ والمؤرّخون: فقد جاء في مسند أحمد وصحيحي مسلم والبخاريّ والجمع بين الصِّحاح الستّة، عن عبدالله بن بريدة، قال: سمعتُ أبي يقول: حاصرنا خيبر وأخذ اللّواء أبو بكر، فانصرف ولم يُفتَح له، ثمّ أخذه عمر من الغد، فرجع ولم يُفتَح له، وأصاب الناس يومئذٍ شدّة وجهد، فقال رسول الله ﷺ: إنِّي دافع الرّاية غداً إلى رجلٍ يحبُّ اللهَ ورسولَهُ، ويُحبُّهُ اللهُ ورسولُه، كرّار غير فرّار، لا يرجع حتّى يفتح الله له. فباتَ الناس يتداولون ليلتهم أيّهم يُعطاها، فلمّا أصبح الناس غدوا إلى رسول الله ﷺ كلّهم يرجو أن يُعطاها، فقال: أين عليّ بن أبي طالب؟ فقالوا: إنّه أرمَد العين، فأرسلَ إليه فأتى، فبصقَ رسول الله ﷺ في عينيه، ودعا له فبرأ، فأعطاهُ الرّاية، ومضى عليٌّ فلم يرجع حتّى فتح الله على يديه.(١)

بطولته في حُنين: وفي هذه الغزاة، كان الجيش الإسلاميّ متأهّباً بأروع وأقوى الوسائل الحربيّة عدداً وعُدّة، وقد بلغوا ٱثني عشر ألف مقاتل، ولكنّهم رغم كثرتهم ولّوا هاربين عن الرّسول ﷺ عندما باغتهم العدوّ في وادي حُنين، وهجم عليهم

---

(١) دلائل الصّدق للحجّة المظفّر رحمه الله، ج ٢، ص ٢٥٤.

من شعابه وحناياه كما وصفهم القرآن الكريم: **﴿وَيَوْمَ حُنينٍ إذْ أعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضاقَتْ عَلَيْكُمُ الأرْضُ بِما رَحُبَتْ ثُمّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِين * ثمّ أنزلَ ٱللّهُ سَكينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وعَلى ٱلمؤْمْنِين...﴾**.

ولم يثبتْ مع النّبيّ ﷺ إلّا عشرة من بني هاشم، كان في طليعتهم عليّ عليه السلام، وبهم ٱنتصر الإسلام، وحُفظت كرامة المسلمين.

حكى المقريزي، عن الفضل بن العبّاس أنّه قال:

«إلتفتَ العبّاس يومئذٍ وقد أقشع الناس عن بكرة أبيهم، فلم يَرَ علـيّاً فيمَن ثبت، فقال: شوهة وبوهة أوَ في مثل هذا الحال يرغب ٱبن أبي طالب بنفسـه عن رسول الله ﷺ ؟؟ وهو صاحبه فيما هو صاحبه!! ـ يعني المواطن المشهودة له ـ، فقلتُ: بعض قولك لابن أخيك! أما تراهُ في الرّهج؟ قال: أشعره ـ أي ٱذكرْ شِعاره ـ لي يا بُنيّ. قلتُ: هو ذو كذا، ذو كذا، ذو البردة، قال: فما تلك البرقة؟ قلتُ: سيفه يرفل بين الأقران. فقال: برّ ٱبن برّ، فداه عمٌّ وخال!! قال: فضربَ عليٌّ أربعين مبارزاً كلّهم يقدّه، حتّى يقدّ أنفه. قال: وكانت ضرباته منكرة»(١).

وقد ٱنجلت الحرب عن سبعين قتيلاً من المشركين، ٱستأثر الإمام عليه السلام بقتل أربعـين منهم، وٱشـترك المجاهدون في الباقين. وهكذا تجد بطـولات الإمام ومآثره الجهاديّة موصوله الحلقات، مجلية في ميادين الشجاعة والشجعان!!

وأبرز خصائص بطولته أنّها مقرونة بأكرم آيات الشّهامة والنُّـبل، والعـطف حتّى على أعدائه ومقاتليه، كما تصوِّره آدابه ووصاياه في الحروب:

«لا تُقاتلوهُم حتّى يبدؤوكم، فإنّكم بحمد الله على حُجّة، وتركـكهم إيّاهم حتّى

(١) إمتاع الأسماع، ص ٤٠٨.

يبدؤوكم حجّة أخرى لكم عليهم، فإذا كانت الهزيمة بإذن الله، فلا تقتلوا مُدْبِراً، ولا تُصيبوا مُعوِراً، ولا تُجهِزوا على جريح، ولا تهيجوا النِّساء بأذى وإنْ شتمنَ أعراضكم وسببنَ أمراءكم، فإنّهنّ ضعيفات القوى والأنفس والعقول، إنْ كنّا لنؤمر بالكفِّ عنهنّ وإنّهنّ لمشركات، وإنْ كان الرّجل ليتناول المرأة في الجاهليّة بالقهر أو الهراوَة، فيعيّر بها وعقبه من بعده»[1].

وأعجب من ذلك، ترفّعه عن أساليب الظّفر اللّئيم، والطّرق الملتوية لتحقيقه، والتعفّف عن المتدرِّعين بعوراتهم عن سيفه البتّار. ففي أحُد خرج كبش الكتيبة طلحة ابن عثمان حاملاً لواء المشركين، وهو يتحدّى المسلمين ويناشدهم البراز، فانبرى له عليٌّ عليه السلام فضربه وقطع رجله، فسقط وٱنكشفت عورته، فناشده الله فتركه يخور بدمه حتّى هلك، فكبّر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: كبش الكتيبة، وكبّر المسلمون بتكبيره، وقال لعليّ: ما منعكَ أن تجهز عليه؟ فقال: ناشدني الله والرّحم، فاستحييتُ منه.

وهكذا أعرضَ عليه السلام عن ألدّ أعدائه والماكرين به عمرو بن العاص، عندما كشفَ عن سوأته ٱتّقاءً من صولته وسيفه المسلّط عليه يوم صفِّين، وفي هذا اليوم سيطر الأعداء على الماء، وحلّؤوه وأصحابه وِرْدَهُ حتّى يهلكوا عطشاً، ولمّا أجلاهم عنه بالسيف، أباح لهم منهله ترفّعاً عن لؤم الظّفر، وخسّة الأعداء.

وفي واقعة الجمل، وبعد ٱنتصاره الباهر فيها، عنى بالسيِّدة عائشة وسيرّها إلى المدينة المنوّرة معزّزة موقّرة، بحماية زمرة من نساء عبد القيس. وظفرَ بعبدِالله بنِ الزّبير ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص، فأطلقهم وصفحَ عنهم رغم مناوأتهم له وتأليبهم على قتاله، ونصحَ أصحابه أن يترفّعوا عن مهاترات أهل الشّام وسبابهم،

---

(١) نهج البلاغة، من وصيّته لعسكره في صفِّين.

فقال: «إنِّي أكره لكم أن تكونوا سبّابين، ولكنّكم لو وصفتُم أعمالهم وذكرتُم حالهم، كانَ أصْوَب في القَوْلِ وأبلَغَ في العُذْر».

هذه لمحات من بطولات الإمام الحربيّة، ومَنْ شاء التوسّع فيها، فليراجع الكتب المفصّلة في تأريخ حياته ومواقفه الجهاديّة.

٤ ـ عظمة السّخاء:

تتفاوت قيم الكرم والكرماء ببواعث أريحيّتهم، وروافد عطائهم، وأهداف جودهم وسخائهم.

فمِنَ الكرماء مَنْ يجود بالعطاء والنوال رغبةً في الثّناء والسّمعة، وهؤلاء يتاجرون بشعارات الكرم والسّخاء كلّما حقّقت لهم جاهاً أو مكانةً، ومن الكرماء مَن يستلب حقوق البؤساء ويبتزّ أموال المستضعفين، ليهبها مُنحاً سخيّة وهبات وفيرة للمترَفين والمُجّان إشباعاً لغرائزه الجامحه وتطلّعاته الرخيصة، وهؤلاء هم سُرّاق المجد وطُغاة اللّصوص.

ومِنَ الكرماء مَن يستهدف بعطائه ربحاً مادّياً أو تخلّصاً من ضرر مخيف يحفّزانه على التكرّم والبذل، وهؤلاء طُلّاب المغانم، وهواة المساومة بالمال.

وكلّ هاتيك البواعث والأهداف ـ وإنْ نالت الإعجاب والثّناء ـ لا تُعتبر مقياساً صادقاً للأريحيّة الحقّ والكرم الأصيل، لتعطّلها من جوهر السّخاء، وقيمه الواعية النّبيلة النابعة من طيبة النّفس، ونُبل الغاية، وشرف الوجدان.

فتخلّص من ذلك، أنّ الكرم الواقعيّ الأصيل في عُرْف الإسلام ومقاييسه الحقّ، هو ما كان مسترفداً من مكاسبه الرائقة النزيهة، ومتّسماً بطابع الإخلاص، ورجاء المثوبة الإلهية والنّعيم الأبديّ.

وكان أمير المؤمنين عليه السلام المثل الأعلى في السّخاء بمفهومه الصّادق ومعناه الرّفيع، تراهُ من خلال سيرته الكريمة وَلُوعاً بالجود والإحسان، وإيثار البؤساء والمعوَزين على نفسه بماله وطعامه حتّى قوته اليوميّ، وبذلكَ نالَ إعجاب السّماء، وتكريمها الخالد.

تصدّق بخاتمه على المسكين وهو راكع في صلاته، فهتفت بأريحيّته السّماء:

﴿إِنَّما وليُّكُمُ ٱللهُ ورَسُوْلُهُ وٱلّذِينَ آمَنُوا ٱلّذِينَ يُقِيمونَ ٱلصّلاةَ ويُؤْتُونَ ٱلزّكاةَ وهُمْ راكِعُون﴾ (١).

وآثرَ هو وأهل بيته الطّاهرون بزادهم وأقواتهم المسكين واليتيم والأسير وهم صيامٌ، وطَوَوْا ثلاثة أيام، فأطراهم الوحي:

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكيناً ويَتيماً وأسيراً * إنّما نُطْعِمُكُم لِـوَجْهِ ٱللهِ لا نُريدُ مِنْكُم جَزاءً ولا شُكُوراً﴾ (٢).

وكان عند الإمام أربعة دراهم، فتصدّق بدرهم ليلاً، وبدرهم نهاراً، وبدرهم سرّاً، وبدرهم علانيةً، فأنزل الله تعالى فيه:

﴿الّذينَ يُنْفِقُونَ أمْوالَهُم باللّيْلِ وٱلنّهارِ سِرّاً وعَلانِيَةً فَلَهُمْ أجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ

---

(١) أوضحنا ٱختصـاص هذه الآية الكريمة بالإمـام عليه السلام ونزولها فيه في حقل الدلائل القرآنية.

(٢) أجمع الإماميّة على نزول هذه الآية الكريمة في أولئك الأطهار، ووافقهم على ذلك جمهور من أعلام غيرهم: كالثّعلبي في تفسير الكشف والبيان والنّيسابوري في أسباب النّزول، ص ٣٣١، وفي تفسيره البسيط، والزّمخشري في الكشّاف، ج ٢، ص ٥١١، والرّازي في تفسـيره، ج ٨، ص ٢٧٦، والسّيوطي في الدّرّ المنثور، ج ٦، ص ٢٩٩. وقد ذكر الحجّة الأميـني رحمه الله أربعة وثلاثين مصدراً من إخواننا في ذلك. راجع الغدير، ج ٣، ص ١٠٧ ـ ١١١.

وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُون ﴾[1].

ولمّا ٱتّسع الفتح الإسلاميّ وزخر فيؤه، بلغت مبرّات الإمام وصدقاته في السّنة أربعين ألف دينار.[2]

وهو القائل: «**تزوّجتُ فاطمة عليها السلام وما كان لي فراش، وصدقتي اليوم لو قُسّمت على بني هاشم لوسعتهم**»[3].

وإليك طرفاً من قصص أريحيّته وسخائه:

فعن الصّادق عليه السلام قال: كان أمير المؤمنين عليه السلام يضرب بالمرّ، ويستخرج الأرضين، وإنّه أعتق ألف مملوك من كدِّ يده.[4]

وذكروا أنّ عبدالله بن أبي محجن قدم على معاوية، فقال: يا أمير المؤمنين! إنّي أتيتك من عند الغبيّ الجبان البخيل ٱبن أبي طالب، فقال معاوية: الله أنتَ تدري ما قلت؟! أمّا قولك: الغبيّ، فوَالله لو أنّ ألسن الناس جُمِعَت فجُعِلت لساناً واحداً لكفاها لسانُ عليٍّ، وأمّا قولك إنّه جبان، فثكلتكَ أمّك! هل رأيتَ أحداً قطّ بارزه إلّا قتله، وأمّا قولك إنّه بخيل، فوَالله لو كان له بيتان أحدهما من تبر والآخر من تبن، لأنفد تبره قبل تبنه. فقال الثقفيّ: فعلامَ تُقاتله إذاً؟! قال: على دم عثمان.[5]

---

(١) وهذه الآية الكريمة كسابقتها صرّحت جملة من مصادر غير الإماميّة بنزولها في عليٍّ عليه السلام: كأسد الغابة، ج ٣، ص ٢٥، والرِّياض النّضرة، ج ٢، ص ٢٠٦، والصّواعق المحرقة، ص ٧٨، والواحدي في أسباب النّزول، ص ٦٤، وذخائر العُقبى، ص ٨٨.

(٢) ورد هذا الخبر في مسند أحمد، ج ١، ص ١٥٩، وأسد الغابة، ج ٤، ص ٢٣، والرِّياض النّضرة، ج ٢، ص ٢٢٧، وغيرها من المصادر.

(٣) سفينة البحار، ج ١، ص ٦٨٠.

(٤) البحار، ج ٩، ص ٥١٦، عن الكافي.

(٥) الإمامة والسياسة لابن قتيبة، ص ٩٧.

وأتى أعرابيٌّ عليّاً ﵁ فسأل شيئاً، فقال: ما أصبح في بيتي شيء فضل عن قوتي، فولّى الأعرابي وهو يقول: والله ليسألنّك الله عن موقفي بين يديك يوم القيامة. فبكى عليٌّ ﵁ بكاءً شديداً، وأمر بردِّه، وقال: يا قنبر آئتني بدرعي الفلانيّة فدفعها إلى الأعرابيّ، وقال: لا تخدعنّ عنها، فطالما كشف بها الكروب عن وجه رسول الله ﷺ. فقال قنبر: يا أمير المؤمنين! كان يجزيه عشرون درهماً، فقال: يا قنبر! والله ما يسرّني أنّ لي زنة الدّنيا ذهباً وفضّةً فتصدّقتُ به وقَبِلَ الله منِّي ذلك، وأنّه يسألني عن موقف هذا بين يديّ.(١)

٥ ـ عظمة الأخلاق:

ورثَ أمير المؤمنين ﵇ من آبائه الصِّيد، وأسرته الهاشميّة العريقة، السّجايا الكريمة والخُلُق الرّفيع من نُبل وإخلاص وأريحيّة وبسالة وطيبة، وضاعفَ من تألّقه وآكتمال شخصيّته تسديد النّبيّ ﷺ له وتوجيهه إيّاه بآداب السّماء ومثاليّة النّبوّة، ما جعلهُ نموذجاً فذّاً ونمطاً فريداً للخُلُق الكريم. تراهُ من خلال تأريخ حياته طَلْقَ المحيّا، متهلِّل الوجه، واسع الصّدر، رحيم القلب، مشبوب العاطفة، فيّاضاً باللّطف والحنان، مُشعاً وهّاجاً بخصائصه المثاليّة وسجاياه الغُرّ، كما صوّره ضرار بن ضمرة بتصويره الرائع البليغ:

«كان والله فينا كأحدنا، يُدنينا إذا أتيناه، ويُجيبنا إذا سألناه، وكان مع دنوّه منّا وقُربنا منه لا نُكلِّمهُ لهيبته، ولا نرفعُ أعيننا لعظمته، فإن تبسّم فعن مثل اللّؤلؤ المنظوم، يُعظِّم أهل الدِّين، ويُحبُّ المساكين، لا يطمع القويّ في باطله، ولا ييأس الفقير من عدله».

---

(١) المستطرَف، ج ٢، ص ٤٦.

وأبرز خصائصه أنّه كان مطبوعاً على الصّراحة والواقعيّة، وٱستنكار أساليب المكر والخداع إزاء أوليائه وأعدائه، وبهذا ٱنحرف الطّامعون والنّهّازون عنه لعجزهم عن ٱستمالته بالملق الكاذب، والثّناء المزيّف: أطراهُ رجل مغموز الودّ، فقال له: «أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك».

ورفض تولّي الخلافة لما ٱشتُرِطَت عليه بالعمل بالكتاب والسُّنّة وسيرة الشّيخين ٱمتناعاً عن الشّرط الثالث، فقال: على الكتاب والسُّنّة وٱجتهادي.

وهكذا كان عليه السلام توّاقاً إلى البساطة في أساليب حياته، ومستلزمات عيشه، لا يأبه بزخارف الدّنيا وأشواقها المُغرية رغم تمكّنه منها وتوفّرها له، فتراهُ زاهداً متقشّفاً في ملبسه، ومطعمه وسكناه، مُبتعداً عن مظاهر التّرف والتأنّق.

قال أحمد بن حنبل: إنّ عليّاً كان يطوف الأسواق مؤتزراً بإزارٍ، مرتدياً برداء ومعه الدرّة كأنّه أعرابيٌّ بدويّ.(١)

وعن الباقر عليه السلام أنّه عليه السلام ٱبتاع ثوبين أحدهما بثلاثة دراهم، والآخر بدرهمين، فقال: يا قنبر! خُذ الّذي بثلاثة، فقال: أنتَ أولى به، تصعد المنبر، وتخطب الناس، فقال: وأنتَ شابّ ولكَ شَرَه الشّباب، وأنا أستحي من ربِّي أن أتفضّل عليك. سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: ألبِسُوهم ممّا تلبسون، وأطْعِموهُم ممّا تأكلون، فلمّا لبس القميص مدّ كمَّ القميص، فأمر بقطعه وٱتّخاذه قلانس للفقراء.(٢)

وعن هارون بن عنترة، عن أبيه، قال: دخلتُ على عليّ بن أبي طالب بالخورنق، وهو يرعد تحت سمل قطيفة، فقلت: يا أمير المؤمنين! إنّ الله قد جعل لكَ

(١) البحار، ج ٩، ص ٥٤٦، عن فضائل أحمد.
(٢) البحار، ج ٩، ص ٥٠٠، عن فضائل أحمد.

ولأهل بيتك في هذا المال، وأنتَ تصنع بنفسك ما تصنع!! فقال: والله ما أرزؤكم من مالكم شيئاً، وإنّها لقطيفتي الّتي خرجتُ بها من منزلي ـ أو قال من المدينة ـ.[1]

وأمّا **طعامه**: فقد كان في غاية البساطة والزّهد. قال ابن أبي الحديد: كان عليٌّ يأتدم إذا ٱئتدم بخلٍّ أو بملحٍ، فإنْ ترقّى عن ذلك فببعض نبات الأرض، فإن ٱرتفع عن ذلك فبقليلٍ من ألْبان الإبل، ولا يأكل اللّحم إلّا قليلاً، ويقول: لا تجعلوا بطونكم مقابر الحيوان، وكان مع ذلك أشدّ النّاس قوّة وأعظمهم يداً....[2]

وقال الباقر عليه السلام: أكل عليٌّ من تمرٍ دَقَلٍ، ثمّ شربَ عليه الماء، ثمّ ضربَ على بطنه وقال: مَنْ أدخلهُ بطنهُ النار فأبعده الله. ثمّ تمثّل:

فإنّكَ مهما تُعطِ بطنكَ سؤلهُ وفرجكَ نالا منتهى الذمّ أجمعا[3]

ودخل رجلٌ من أشراف العرب المسجد بعد صلاة العشاء، وقد تفرّق النّاس عنها، فرأى عليّاً عليه السلام يفطر، فلمّا فرغ من الصّلاة دعاهُ عليٌّ عليه السلام وأعطاهُ شيئاً من طعامه، ولم يكن يعرف عليّاً عليه السلام، فخرج من المسجد وجاء إلى الحسن عليه السلام وتعشّى عنده، فناوله من ألوان الطّعام، فأخذ منه شيئاً، وقال للحسن عليه السلام: إنّ رجلاً فقيراً كان في المسجد يأكل دقيق الشّعير، فإنْ تأذَنْ لي أُعطِهِ هذا الطّعام، فبكى الحسن عليه السلام فقال: هو أبي خليفة المسلمين، وقد ٱختار لنفسه ذلك.[4]

---

(١) فضائل الخمسة من الصِّحاح الستّة، للعلّامة السيِّد مرتضى الفيروزآبادي، ج ٣، ص ١٤، عن حلية الأولياء لأبي نعيم، ج ١، ص ٨٢.

(٢) شرح النّهج، ج ١، ص ١٦.

(٣) فضائل الخمسة من الصِّحاح الستّة، ج ٣، ص ١١، عن كنز العمّال.

(٤) هامش إحقاق الحقّ للحجّة النّجفي، ج ٨، ص ٢٨٣، نقلاً عن ذخيرة الملوك للسيِّد عليّ الهمداني، ص ١٠١.

وجاء في مصباح الأنوار، قال: بلغنا أنّ أمير المؤمنين عليه السلام اشتهى كبداً مشويّة على خبزة ليّنة، فأقام حولاً يشتهيها، ثمّ ذكر ذلك للحسن عليه السلام وهو صائم في يوم من الأيام، فصنعها له، فلمّا أراد أن يفطر قرّبها إليه، فوقف سائل بالباب، فقال: يا بُنيّ احملها إليه، لا نقرأ صحيفتنا غداً: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾.(١)

وأمّا مسكنه: فقد كان في نطاق بيت النّبيّ الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم وعلى نمط بساطته المتواضعة، وفي عهد خلافته لم يصطنع لنفسه داراً، ولم يَبْنِ بَيْتاً، كما وصفهُ الخليفة الأمويّ عمر بن عبدالعزيز، فقال: «ما عَلِمْنا أنّ أحداً من هذه الأمّة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أزهدُ من عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ما وضع لبنةً على لبنةٍ، ولا قصبةً على قصبة»(٢).

ورغم جلالِ شخصه وعظمة فضائله وأمجاده، كان عليه السلام جمّ التواضع، حريصاً على إعزاز رعاياه، وصيانة كراماتهم:

قال الصّادق عليه السلام: خرج أمير المؤمنين عليه السلام على أصحابه وهو راكب، فمشوا خلفه، فالتفتَ إليهم فقال: لكُم حاجة؟ فقالوا: لا يا أمير المؤمنين، ولكنّا نحبُّ أن نمشي معك، فقال لهم: انصرفوا، فإنّ مشي الماشي مع الرّاكب مفسدة للرّاكب ومذلّة للماشي.(٣)

وعن الصّادق، عن أبيه عليهما السلام: أنّ عليّاً صاحَبَ رجلاً ذمّيّاً، فقال له الذِّمّيّ: أينَ تريد يا عبدالله؟ فقال: أريد الكوفة، فلمّا عدلَ الطّريق بالذِّمّي عدلَ معه عليٌّ،

(١) سفينة البحار، ج ٢، ص ٤٥٨.
(٢) تذكرة الخواصّ لابن الجوزي الحنفي، ص ١٠٩.
(٣) البحار، ج ٩، ص ٥٢٠، عن محاسن البرقي.

فقال له الذِّمِّي: ألستَ زعمتَ تريد الكوفة؟ قال: بلى، فقال له الذِّمِّي: فقد تركتَ الطّريق، فقال: قد علمتُ، فقال له: فَلِمَ عدلتَ معي وقد علمتَ ذلك؟! فقال له عليٌّ: هذا من تمام حُسن الصّحبة أن يُشيِّع الرّجلُ صاحبَه هنيئة إذا فارقه، وكذلك أمَرَنا نبيُّنا. فقال له: هكذا، قال: نعم، فقال الذِّمِّي: لا جرمَ إنّما تبعه مَنْ تبعه لأفعاله الكريمة، وأنا أُشهدك أنِّي على دينك، فرجع الذِّمِّي مع عليٍّ، فلمّا عرفه أسلم.[1]

وعن ابن بطّة والفضائل عن أحمد: أنّه اشترى تمراً بالكوفة، فحمله في طرف ردائه، فتبادر الناس إلى حمله، وقالوا: يا أمير المؤمنين! نحنُ نحمله، قال عليه السلام: ربُّ العيالِ أحقُّ بحمله.[2]

ومن سجاياه الغرّ تعشّقه للعبادة وتلذّذه بممارستها تلذّذاً لا نظيرَ له في عالم العُبّاد والنُسّاك، قال ابن أبي الحديد وهو يصف عبادته عليه السلام:

«كان أعبدَ الناس وأكثرهم صلاةً وصوماً، ومنه تعلّم الناس صلاة اللّيل وملازمة الأوراد وقيام النافلة، وما ظنّك برجلٍ يبلغ من محافظته على ورده أن يُبسط له نطعٌ بين الصّفّيْن ليلة الهرير فيُصلِّي عليه ورده والسّهام تقع بين يديه، وتمرُّ بين صماخيه يميناً وشمالاً فلا يرتاع لذلك، ولا يقوم حتّى يفرغ من وظيفته، وما ظنّك برجلٍ كانت جبهته كثفنة البعير لطول سجوده»[3].

وهو الّذي عرّف الناس واقع العبوديّة وهدفها الأرفع، إذ قال: «**إلٰهي ما عبدتُكَ خوفاً من نارِك، ولا طمعاً في جنّتك، ولكن وجدتُكَ أهلاً للعبادةِ فعبدتُك**».

(١) البحار، ج ٩، ص ٥٢٠.
(٢) نفس المصدر.
(٣) شرح النّهج، ج ١، ص ٩.

وقيل لعليّ بن الحسين، وكان الغاية في العبادة، أين عبادتك من عبادة جدّك؟ قال: عبادتي عند عبادة جدِّي كعبادة جدِّي عند عبادة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.[1]

وكان عليه السلام يوماً في حرب صفِّين مشتغلاً بالقتال، وهو مع ذلك بين الصّفّين يراقب الشّمس، فقال له ٱبن عبّاس: يا أمير المؤمنين، ما هذا الفعل؟! قال: أنظر إلى الزّوال حتّى نصلِّي، فقال له ٱبن عبّاس: وهل هذا وقت صلاة؟! إنّ عندنا لشُغلاً بالقتال عن الصّلاة، فقال عليه السلام: على ما نقاتلهم، إنّما نقاتلهم على الصّلاة، قال: ولم يترك صلاة اللّيل حتّى ليلة الهرير.[2]

قال ضرار، وهو يصف مناجاة الإمام وضراعته إلى الله عزّ وجلّ:

«أشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى اللّيل سدوله وغارت نجومه، وقد مثل في محرابه قابضاً على لحيته، يتململ تململ السّليم، ويبكي بكاء الحزين، ويقول: يا دُنيا غرِّي غيري، أبي تعرّضْتِ، أم إليَّ تشوّقْتِ، هيهات هيهات قد باينتكِ ثلاثاً لا رجعةَ فيها، فعُمْرُكِ قصيرٌ، وخَطَرُكِ حقيرٌ، آه آه من قلّة الزّاد، وبُعْدِ السّفر، ووحْشَةِ الطّريق».

٦ ـ عظمة السّياسة:

كان الإمام عليه السلام خبيراً محنّكاً في القضايا السياسيّة ومهمّات الخلافة والحكم، وكانت سياسته ٱنعكاساً لدستور القرآن الكريم وسيرة الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم المرتكزة على دعائم الحقّ والعدل والمساواة، والهادفة إلى إنارة الوعي الإسلامي ونشر الرّخاء والسّلام في دُنيا الإسلام. ولا يستطيع الباحث أن يعرف أبعاد سياسة الإمام

---

(١) نفس المصدر.

(٢) سفينة البحار، ج ٢، ص ٤٤.

وقدرته على حلِّ معضلات الحكم ومشاكل الأحداث إلّا باستجلاء عصره، ونظرته إلى الخلافة وأُسلوب سياسته الحكيمة العادلة.

عصر حكم الإمام:

إضطلع الإمام عليه السلام بمهامّ الحكم الإسلاميّ في ظرفٍ عصيب، وعصرٍ تفاقمت فيه المشاكل وعصفت به أعاصير الفوضى والقلق والتذمّر، وتحزّب الناس فيه فريقين:

فريق ٱستنصرت في نوازع الجاهليّة ورواسبها الدفينة، فغدا يعمل جاهداً على تطوير الخلافة إلى مُلكٍ عضوض متحلِّل من قِيَم الإسلام ومُثُله وأهدافه، وهم الإنتهازيون المنتفعون في عهد عثمان، وإقطاعاته الواسعة وعطاياه الوفيرة من أموال المسلمين.

والفريق الثاني، هم السّاخطون النّاقمون على تسيّب الحكم الإسلامي في ذلك العهد وطغيان الأثرة والمحاباة فيه، والمتحمِّسون إلى إصلاحه وإدارته على ضوء سياسة الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم الّتي عاشها في فجر الإسلام، وهؤلاء هم المحافظون على مبادئ الإسلام، والسائرون على خطِّه.

وكلا الفريقين كان متحفِّزاً إلى تطوير الخلافة حسب رغباته وأشواقه ومتطلّعاً إلى سياسة الخليفة الجديد وأسلوب حكمه. وطبيعيّ أنّ إرضاء الفريقين أو أحدهما أمرٌ شاقّ عسير، لتناقضهما مبدءاً وهدفاً، فما يُرضي الأوّل يُسخِط الثاني ويغيظه، وهكذا العكس.

من أجل ذلك، كان عصر الإمام معتركاً لضروب الصّراعات المبدئيّة، وألوان المشاكل والأزمات الّتي ينوء بحملها وتسويتها أحنك السياسيِّين وأكثرهم تمرّساً وتضلّعاً بأفانين السياسة والحكم. فمحاباة النّفعيِّين يناقض صميم واقعيّة الإمام،

وتمسّكه بدستور الشريعة الإسلاميّة تمسّكاً قويّاً لا هوادة فيه، ولا محيصَ عنه، ويُسخط جمهور المحافظين الحانقين على سياسة عثمان، والثائرين عليه. ومُمالاة الخيِّرين النّزيهين تُغْضِب الإنتهازيين والمنتفعين في عهود الأثرة والمحاباة، وهذا ما حدث فعلاً، حيث أرهقَ هؤلاء الإمام عليه السلام وأعنتوه بألوان التمرّد والعصيان، لتمسّكه بدستور الإسلام، وحرصه البالغ على إشاعة العدل ونشر المساواة بين عامّة المسلمين وطبقاتهم المتفاوتة.

* * *

الخلافة في نظر الإمام عليه السلام:

ليست الخلافة ـ في نظر الإمام ـ وسيلة للزّهو والخيلاء، والتجبّر على العباد، أو ذريعة لاستغلال مركز الحكم، وابتزاز ثروات الأمّة في مصالح الحكم ومآربه الشخصيّة، وإنّما هي سلطة روحيّة تستهدف نصرة الحقّ، وإشاعة العدل، ونشر الحرِّيّة وتحقيق السّلام والرّخاء للأمّة الإسلامية، وتحريرها من أغلال الجور والإستعباد وتصعيد حياتها الفكريّة والمادِّيّة على ضوء الإسلام وتوجيهه الهادف، ولم يكن الإمام عليه السلام ليأبَهَ بالخلافة أقبلت عليه، أو أدبرت عنه، إلّا لاتخاذها وسيلة لتحقيق تلك الأهداف النبيلة.

أوَليس هو القائل لابن عبّاس غداة دخوله عليه بذي قار، فوجده يخصف نعله، فخاطبه وهو يشير إليها: «**والله لَهِيَ أحبُّ إليَّ من إمرتكم، إلّا أنْ أُقيمَ حقّاً أو أدفعَ باطلاً**»(١).

أوَليس هو القائل: «**يا دُنيا إليكِ عنّي أبيَ تعرّضتِ؟! أم إليَّ تشوّقتِ، لا حانَ حينُكِ، هيهات غرِّي غيري، لا حاجةَ ليَ فيكِ، قد طلّقتُكِ ثلاثاً لا رجعةَ فيها،**

(١) البحار، ج ٨، ص ٤٨٠، عن النّهج.

فَعَيْشُكِ قصير، وخَطَرُكِ يسير، وأَمَلُكِ حقير»[1].

لذلك كان عليه السلام المثل الأعلى للحاكم القرآنيّ الّذي مثّل الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم هدياً وسياسةً وعدلاً، وكانت أساليب سياسته فريدة مثاليّة في دُنيا السياسة والخلافة الإسلامية، كما تُصوّرها العناوين التالية:

أ ـ سياسته مع الرعيّة:

وهي سياسة الرّاعي اليقظ الحكيم العطوف على رعاياه الّذي لا يألو جهداً، ولا يدّخر وسعاً في إسعادها، وضمان حقوقها ومصالحها الفرديّة والجماعيّة، وتحقيق عزّتها وكرامتها كما أعربت عنه وصاياه بهم، وسيرته فيهم:

قال عليه السلام في عهده إلى مالك الأشتر:

«وأَشْعِرْ قلبَكَ الرّحمةَ للرّعيّة، والمحبّةَ لهم، واللُّطفَ بهم، ولا تكوننَّ عليهم سَبُعاً ضارياً تغتنم أكْلَهُم، فإنّهُم صنفان: إمّا أخٌ لكَ في الدِّينِ، وإمّا نظيرٌ لكَ في الخَلْق، يفرط منهم الزّلل، وتعرض لهم العِلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الّذي تحبُّ وترضى أن يعطيكَ الله من عفوه وصفحه، فإنّك فوقهم، ووالي الأمر عليك فوقك، والله فوق مَنْ ولاّك، وقد ٱستكفاكَ أمرهم وٱبتلاكَ بهم».

ورغم عطفه البالغ وحنانه الجمّ على كافّة رعاياه، فقد كان يؤثر البؤساء والمحرومين بالقسط الأوفر من عواطفه الفيّاضة وإشفاقه الرّحيم، فأوصى بهم في عهده الآنف:

---

(١) البحار، ج ٩، ص ٥٠٥، عن النّهج.

«ثمّ الله الله في الطّبقة السّفلى من الّذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين، وأهل البؤسى والزّمنى، فإنّ في هذه الطّبقة قانعاً ومعترّاً، وٱحفظ الله ما ٱستحفظك من حقِّه فيهم، وٱجعل لهم قسماً من بيت مالِك، وقسماً من غلّات صوافي الإسلام في كلِّ بلد، فإنّ للأقصى منهم مثل الّذي للأدنى، وكلٌّ قد ٱسْتُرْعيتَ حقّه، فلا يشغلنّك عنهم بطرٌ... وتعهّد أهل اليُتْم، وذوي الرقّة في السِّنِّ ممّن لا حيلة له، ولا ينصب للمسألة نفسه، وذلك على الولاة ثقيل، والحقّ كلّه ثقيل، وقد يخفِّفه الله على أقوام طلبوا العاقبة، فصبّروا أنفسهم، ووثقوا بصدق موعود الله لهم».

وكان عليه السلام المثل الأعلى في مواساة أولئك البؤساء والمعذّبين، ومشاركتهم في جشوبة الطّعام، وخشونة الملبَس، والحرمان من مُتع الحياة ولذائذها، رغم توفّره عليها وتيسّرها له:

«ولو شئتَ لاهتديتَ الطّريق إلى مصفّى هذا العسل، ولُباب هذا القمح، ونسائج هذا القزّ، ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخيّر الأطعمة، ولعلّ بالحجاز أو اليمامة مَنْ لا طمعَ له في القُرْص، ولا عهدَ له بالشّبع، أو أبيتُ مبطاناً وحولي بطونٌ غرثىٰ وأكبادٌ حرّىٰ؟! أو أكون كما قال القائل:

وحَسْبُكَ داءً أن تبيتَ ببطنَةٍ وحولَكَ أكبادٌ تَحِنُّ إلى القدِّ

أأقنعُ من نفسي بأن يُقال: أمير المؤمنين، ولا أُشاركهم في مكاره الدّهر، ولا أكون لهم أُسوةً في خشونة العيش، فما خُلِقْتُ ليشغلني أكل الطّيِّبات كالبهيمة المربوطة همّها علفها، أو المرسلة شغلها تقمّمها، تكترش من أعلافها وتلهو عمّا يُراد بها ...»[1].

---

(١) نهج البلاغة، من كتاب له إلى عثمان بن حنيف.

ويُعتبر عليه السلام المجاهد الأعظم بعد الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم في تحقيق العدل الإجتماعي في الأمّة الإسلامية، وتحريرها من مظالم الجور والأثرة والمحاباة. فالناس في نظرته العادلة سواسية كأسنان المشط لا يتفاضلون إلّا بالتّقوى والعمل الصّالح، تجاوباً مع القرآن الكريم وسيرة النبّيّ صلى الله عليه وآله وسلم، فلا إيثار ولا محاباة لشريف على وضيع، ولا قويّ على ضعيف، وإنّما هم في معيار العدل الإسلامي سواء. وكان عليه السلام شديد الرّغبة والحماس بتوعية المسلمين وتوجيههم بآداب الإسلام ومُثُله الرّفيعة مجنِّداً في سبيل ذلك أضخم طاقاته وإمكاناته، وقد رسم أبلغ دستور للأدب الإجتماعي في وصيّته لابنه الحسن:

«يا بُنيّ ٱجْعَلْ نفسكَ ميزاناً بينكَ وبين غيرك، فأحْبِبْ لغيرِكَ ما تُحِبُّ لنفسِك، وٱكْرَهْ لهُ ما تَكْرَه لها، ولا تَظْلِم كما لا تُحِبُّ أن تُظْلَم، وأحْسِنْ كما تُحِبُّ أن يُحْسَنَ إليك، وٱسْتَقْبِحْ مِن نفسِكَ ما تَسْتَقْبِح مِن غَيرِك، وٱرْضَ من الناسِ بما تَرْضاهُ لهم من نفسِك، ولا تقُلْ ما لا تعلم وإن قلَّ ما تعلم، ولا تقُلْ ما لا تُحِبُّ أن يُقال لك»[1].

ولم يتوانَ عن إسداء النّصح والإرشاد حتّى في الأسواق وعلى ملأ المتابعين فيها: فعن الباقر عليه السلام، قال: كان عليّ عليه السلام كلّ بكرة يطوف في أسواق الكوفة سوقاً سوقاً ومعه الدرّة على عاتقه، فيقف على كلِّ سوق فيُنادي:

«يا معشر التجّار! قدِّموا الإستخارة، وتبرّكوا بالسّهولة، وٱقربوا من المبتاعين، وتزيّنوا بالحلم، وتناهوا عن الكذب واليمين، وتجافوا عن الظّلم، وأنصفوا المظلومين، ولا تقربوا الزّنا، وأوفوا الكيل والميزان، ولا تبْخَسُوا الناسَ أشياءهُم ولا تعثوا في الأرضِ مُفسِدين»، يطوف في جميع أسواق الكوفة فيقول هذا، ثمّ يقول:

---

(١) نهج البلاغة.

تفنى اللّذاذةُ ممّن نالَ صـفوتها   من الحرام ويبـق الإثم والعـارُ
تبق عـواقب سـوءٍ في مـغبّتها   لا خير في لذّةٍ من بعدها نارُ[1]

وما أحوجنا اليوم إلى ٱستلهام دستور الإمام، وٱقتفاء سيرته ومنهاجه، لنستردّ أخلاقنا ومثاليّتنا وتأريخنا الذهبيّ.

* * *

ب ـ سياسته مع الولاة:

وهي السياسـة الواعية الحذرة الخـبيرة بنفسـيّة الولاة ونقاط القوّة والضّعف فيهم، كما يُصوِّرها عهده إلى الأشتر النّخعيّ رضي الله عنه، الّذي يُعتبر أبلغ العهود وأحفلها بآداب الحكم والحاكمين، وواجبات الرّاعي والرّعيّة، فمّا جاء فيه:

«أُنظر في أمـور عُمّالك، فاستعملهم ٱختباراً، ولا تولّهم محاباةً وأثرةً، فإنّهما جماع من شعب الجور والخيانة، وتوخَّ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصّالحة، والقِدَم في الإسـلام المتقدِّمة، فإنّهم أكرم أخلاقاً، وأصحُّ أعراضاً، وأقلّ في المطامع إشرافاً، وأبلغ في عواقب الأمور نظراً، ثمّ أسْبِغ عليهم الأرزاق، فإنّ ذلك قوّةٌ لهم على ٱستصلاح أنفسهم، وغنىً لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحُجّةٌ عليهم إنْ خالفوا أمرَك، أو ثلموا أمانتَك، ثمّ تفقّد أعمالهم وٱبعث العيون من أهلِ الصِّـدقِ والوفاء عليهم، فإنّ تعاهدكَ في السِّرِّ لأمورهم حدوةٌ لهم على ٱستعمال الأمانة والرِّفق بالرّعيّة، وتحفّظ من الأعوان، فإنْ أحدٌ منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك، إكتفيتَ بذلك شاهداً فبسطتَ عليه العقوبة في بدنه، وأخذته بما أصاب من عمله، ثمّ نصبته بمقام المذلّة ووسمته بالخيانة، وقلّدته عار التُّهمة».

---

(١) سفينة البحار، ج ١، ص ١٢١.

فليست الولاية ـ كما يتصوّرها فراعنة الحكم ـ ذريعة للزّهو والتجبّر، وٱسترقاق العباد، وٱبتزاز فيئهم وأقواتهم، وإنّما الوالي المخلص الحقّ هو حارس الأمّة، وحامي حقوقها، وصائن كراماتها، ورائدها المثاليّ.

لذلك كان الإمام عليه السلام يُراقب أعمال الولاة، ويُحاسبهم عليها حساباً دقيقاً، ومَنْ أحسّ منه الإجحاف بالرّعيّة والتفريط في حقوقها وأموالها أنّبَهُ ووبّخهُ وتوعّده بألوان الوعيد، مستهدفاً بذلك تقويم الولاة، وحضّهم على الرِّفق بالرّعيّة، والإشفاق عليهم، وسياستهم بالعدل والإحسان.

من ذلك كتابه إلى زياد:

«وإنِّي أُقسمُ بالله قسماً صادقاً لَإنْ بلغني أنّك خنتَ من فيء المسلمين شيئاً صغيراً أو كبيراً، لأشُدَّنَّ عليكَ شدّةً تدعكَ قليل الوفر، ثقيل الظّهر، ضئيل الأمر، والسّلام» (١).

وكتب إلى الأشعث بن قيس عامل آذربيجان:

«إنّ عملكَ ليس لك بطُعمة، ولكنّه في عُنقكَ أمانة، وأنتَ مسترعىً لِمَنْ فوقك، ليسَ لكَ أن تفتات في رعيّة، ولا تُخاطر إلّا بوثيقة، وفي يدكَ مال من مال الله عزّ وجلّ، وأنتَ من خزّانه حتّى تُسلِّمهُ إليَّ، ولعلِّي أن لا أكون شرّ ولاتك لك، والسّلام» (٢).

وكتب إلى عبدالله بن العبّاس:

«أمّا بعد، فإنّ العبد ليفرَح بالشّيء الّذي لم يكن ليفوته، ويحزن على الشيء

---

(١) نهج البلاغة.

(٢) نهج البلاغة.

الّذي لم يكن ليُصيبه، فلا يكون أفضل ما نلتَ في نفسِكَ من دُنياك بلوغ لذّة أو شفاء غيظ، ولكن إطفاء باطل، أو إحياء حقّ، وليكن سرورك بما قدّمت، وأسفكَ على ما خلفت، وهمّك فيما بعد الموت، والسّلام» (١).

* * *

ج ـ سياسته في تحصيل الخراج وتوزيعه:

والخراج هو أهمّ الموارد الإقتصادية، والرّوافد الماليّة في تموين الأمّة الإسلامية، وإعمار مرافقها العامّة، كما هو الوسيلة الفعّالة في إعاشة البؤساء والمعوَزين وإنقاذهم من شقاء الفاقة ومرارة الحرمان، وضمان الحياة الكريمة لهم.

وليس الخراج ـ كما يتوهّمه المستأثرون ـ مغنماً سائغاً لهم يتقاضونه بأساليب العُنف والإجحاف، وينفقونه حيث شاءت أهواؤهم ومصالحهم الخاصّة، وإنّما هو ملك المسلمين ومصدر معاشهم، وتحقيق مصالحهم العامّة.

لذلك كانت نظرة الإمام عليه السلام أنّ الإهتمام باستصلاح الأرض وعمرانها بوصفها منبع الخير، ومصدر الرّزق، أجدر وألزَم من ٱستجلاب خراجها وهي في حالة جدب وإقتار. فمن وصاياه في عهده السالف:

«ليكن نظركَ في عمارة الأرض أبلَغَ من نظرِكَ في ٱستجلاب الخراج، لأنّ ذلك لا يُدرَك إلّا بالعمارة، ومَنْ طلب الخراج بغير عمارة أخْرَبَ البلاد، وأهلكَ العِباد، ولم يستقِم أمره إلّا قليلاً، فإنْ شكوا ثقلاً أو علّةً أو ٱنقطاع شرب أو بالّةٍ أو إحالة أرض ٱغتمرها غرق، أو أجحف بها عطش، خفّفتَ عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرُهُم، ولا يثقلنّ عليك شيء خفّفتَ به المؤونة عنهم، فإنّه ذخرٌ يعودون به عليك في عمارة

---

(١) نهج البلاغة.

بلادك وتزيين ولايتك مع ٱستجلابك حُسْن ثنائهم، وتبجّحك باستفاضة العدل فيهم ...».

وطالما كان عليه السلام يوصي العُمّال والجُباة برعاية أرباب الخراج، والتسامح معهم، عند إقتارهم وعجزهم عن تسديده، والتحرّج البالغ عن إرهاقهم وبيع ضرورات حياتهم:

«ولا تبيعنّ للنّاسِ في الخراج كسوة شتاء ولا صيف، ولا دابّة يعتملون عليها، ولا عبداً، ولا تضربنّ أحداً سوطاً لمكان درهم ...» (١).

وأين هذه الوصايا الرّحيمة الحكيمة من الضّرائب الفادحة الّتي تفرضها الدّول الإسلامية على رعاياها اليوم، وتستوفيها منهم بالقسْر والإرهاب؟!!

❊ ❊ ❊

د ـ سياسة العطاء:

وكان عليه السلام يسير على سنّة العدل والمساواة في عطائه، وتوزيعه الخراج دون تمايز أو تفريق بين طبقات المجتمع الإسلامي وفئاته المتفاوتة شرفاً وفضلاً، إقتداءً بالرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وجرياً على سننه في العطاء. ناهيكَ في سياسته العادلة أنّه عزل الولاة الّذين ٱغتنموا أقوات المسلمين وبذّروها في مُتعهم ولذائذهم، وٱنتزع القطائع المستغلّة في عهد عثمان من أيدي المستأثرين بها، وقسّمها على شرعة العدل والمساواة.

وقد سجّل التأريخ طرائف عدله بأحرف من نور:

فعن أبي الهيثم بن التّيهان، وعبدالله بن أبي رافع: أنّ طلحة والزّبير جاءا إلى

---

(١) نهج البلاغة.

أمير المؤمنين عليه السلام وقالا: أليسَ كذلك كان يعطينا عمر، قال: فما كان يعطيكما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: فسكتا، قال: أليسَ كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقسِّم بالسويّة بين المسلمين؟ قالا: نعم، قال: فسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أولى بالإتِّباع عندكم أم سنّة عمر. قالا: سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. يا أمير المؤمنين! لنا سابقة وعناء وقرابة، قال: سابقتكما أسبَق أم سابقتي؟! قالا: سابقتك، قال: قرابتكما أم قرابتي؟ قالا: قرابتك، قال: فعناؤكما أعظم من عنائي؟ قالا: عناؤك، قال: فوَالله ما أنا وأجيري هذا إلّا بمنزلةٍ واحدة، وأومأ بيده إلى الأجير»(١).

وكان عليه السلام يستنكر أشدّ الإستنكار ٱستغلال أموال الأمّة في ٱستمالة الرؤساء والوجهاء واستقطابهم، فقال للمشيرين عليه بتفضيل قريش وأشراف العرب في العطاء على الموالي والعجم، خشية تسلّلهم إلى معاوية:

«أتأمرونني أن أطلب النّصر بالجور؟!! لا والله ما أفعل ما طلعت شمسٌ ولاحَ في السّماء نجم، والله لو كان ماهم مالي لواسيتُ بينهم، وكيف وإنّما هي أموالهم»(٢).

وكان عليه السلام ـ وهو خليفة المسلمين ـ لا يتميّز عن سائر رعاياه في نصيبه من بيت المال، وعاشَ حياته زاهداً مواسياً لهم.

قال الأحنف بن قيس:

«دخلتُ على عليٍّ ليلة عند إفطاره، فقال لي: قُمْ فتعشَّ مع الحسن والحسين. ثمّ قام إلى الصّلاة، فلمّا فرغ، دعا بجراب مختوم بخاتمه، فأخرج منه شعيراً مطحوناً ثمّ ختمه. فقلتُ: يا أمير المؤمين! لم أعهدكَ بخيلاً، فكيفَ ختمتَ على هذا الشعير؟!! فقال: لم أختمهُ بُخلاً، ولكن خفتُ أن يبسّه الحسن والحسين بسمن أو أهالة، فقلتُ:

---

(١) البحار، ج ٩، ص ٥٣٥.

(٢) البحار، ج ٩، ص ٥٣٣، بتصرّف وتلخيص.

أحرامٌ هو؟ قال: لا، ولكن على أئمّة الحقِّ أن يتأسّوا بأضعف رعيّتهم حالاً في الأكل واللِّباس، ولا يتميّزون عليهم بشيءٍ لا يقدرون عليه، ليراهم الفقير فيرضى عن الله تعالى بما هو فيه، ويراهم الغنيّ فيزداد شكراً وتواضعاً»[1].

وجاءه ٱبن النباج، فقال: يا أمير المؤمنين أمتلأ بيت مال المسلمين من صفراء وبيضاء، فقال: الله أكبر، فقام متوكّئاً على ٱبن النباج حتّى قام على بيت مال المسلمين، فقال: هذا جناي وخياره فيه، وكلُّ جانٍ يده إلى فيه. يا ٱبن النباج! عليَّ بأشياع الكوفة، قال: فنوديَ في الناس وأعطى ما في بيت مال المسلمين وهو يقول: يا صفراء ويا بيضاء غرِّي غيري، حتّى ما بقيَ منه دينار ولا درهم، ثمّ أمر بنضحه، وصلّى فيه ركعتين.

وهو القائل: «**والله لَأنْ أبيتَ عَلى حَسَكِ السَّعْدانِ مُسهّداً، أو أُجَرَّ بالأغلالِ مُصفّداً، أحبُّ إليَّ من أنْ ألقى الله ورسولَهُ يومَ القيامةِ ظالماً لبعضِ العباد، وغاصباً لشيءٍ من الحُطام، وكيف أظلمُ أحداً لنفسٍ يُسْرِعُ إلى البِلى قفولُها، ويطولُ في الثّرى حلولُها**»[2].

وقد عرضتُ طرفاً من مآثر زهده في عظمة أخلاقه الكريمة.

* * *

هـ ـ سياسته في الحرب:

كان الإمام مُحبّاً للسِّلم، شغوفاً به، داعياً إليه، ويستنكر الحرب استنكاراً بالغاً لما تُسبِّبه من ضروب الفزع والدّمار، وسفك الدماء، وٱستذلال الكرامات، فهو

(١) تذكرة الخواصّ لابن الجوزي الحنفي، ص ١١٠.

(٢) نهج البلاغة.

لا يُعلن حرباً، ولا يشهر سلاحاً على مقاتليه إلّا بعد نصحهم، وإنذارهم ومحاولة ردعهم عن القتال، عسى أن يثوبوا إلى رُشدهم، ويفيئوا إلى ظلال الحقِّ والعدل وبرد السكينة والسّلام. وقد تمسّك بهذا المبدأ، ودرج عليه في جميع الوقائع والحروب الّتي ٱضطرّه العدوّ فيها إلى القتال، وهذا من آيات أريحيّته وعطفه البالغ حتّى على أعدائه ومحاربيه، فإذا تمادى العدوّ في غيِّه وأصرّ على باطله، وٱغتصبه على الحرب ٱغتصاباً، سارعَ الإمام عليه السلام آنذاك مكتمل الحجّة والعدّة مستبسلاً في ذات الله، متفانياً في نصرة الحقّ وإقامة العدل، وتعزيز الإسلام، لا تأخذه في الله لومةُ لائم.

وكان عليه السلام شديد العناية بالجيش الإسلاميّ، ويعتبره: «**حصون الرّعيّة، وعزّ الدِّين، وسبل الأمن**»، ويعمل جاهداً على رفع معنويّاته، وتوجيهه بآداب الفروسيّة، والمُثُل الإسلامية في الحرب الّتي لم تبلغ شأوها الحضارات العالميّة القديمة والحديثة، فمن وصيّته لعسكره بصفِّين:

«لا تُقاتِلوهم حتّى يبدأوكم، فإنّكم بحمد الله على حجّة، وترككم إيّاهم حتّى يبدأوكم حجّة أخرى لكم عليهم، فإذا كانت الهزيمة بإذن الله تعالى فلا تقتلوا مُدبراً، ولا تُصيبوا معولاً، ولا تُجهِزوا على جريح، ولا تهيجوا النِّساء بأذىً وإن شتمنَ أعراضكم، وسببنَ أمراءكم، فإنّهنّ ضعيفات القوى والأنفس والعقول، إنْ كنّا لنؤمر بالكفِّ عنهنّ وإنَّهُنَّ لمشركات»[1].

ومن توجيهاته العسكريّة في تنظيم حركة الجيش، وتدريبه على أفضل السّبل والوسائل الكفيلة بحمايته من غِرّة العدوّ وهجومه المفاجئ، وهي من أبلَغ الوصايا المعتبرة في ذلك العصر:

---

(١) نهج البلاغة.

«إنّ مقدّمة القوم عيونكم، وعيونهم المقدّمة طلايعهم، فإذا أنتَ خرجتَ من بلادك ودنوتَ من عدوِّكَ فلا تسأم من توجيه الطّلايع في كلِّ ناحية، وفي بعض الشِّعاب والشّجر، وفي كلِّ جانب، حتّى لا يغترّكم عدوّكم ويكون لكم كميناً، ولا تُسيِّر الكتائب والقبائل من لدن الصّباح إلى المساء إلّا على تعبئة، فإن دهمكم أمرٌ، أو غشيكم مكروهٌ كنتُم قد تقدّمتم في التعبئة، وإذا نزلتم بعدوٍّ أو نزل بكم فليكن معسكركم في إقبال الشراف، أو في سفاح الجبال وأثناء الأنهار كيما تكون مقاتلتكم من وجهٍ واحدٍ أو ٱثنين، وٱجعلوا رقباء في صياصي الجبال، وبأعلى الشراف، وبمناكب الأنهار يرتوون لكم لئلّا يأتيكم عدوّ من مكانِ مخافةٍ أو أمن، وإذا نزلتم فانزلوا جميعاً، وإذا رحلتم فارحلوا جميعاً، وإذا غشيكم اللّيل فنزلتم فحفّوا عسكركم بالرِّماح والترسة، وٱجعلوا رماتكم يلُون ترستكم كيلا تُصاب لكم غرّة، ولا تُلفِ لكم غفلة، وٱحرس عسكركَ بنفسِك، وإيّاك أنْ ترقدَ إلى أن تصبح إلّا غراراً أو مضمضة، ثمّ ليكن شأنك ودأبك حتّى تنتهي إلى عدوِّك، وعليك بالتؤدّةِ في حربِك، وإيّاك والعجلة إلّا أن تُمكِّنكَ فرصة، وإيّاك أن تُقاتل إلّا أن يبدأوك أو يأتيك أمري، والسّلام عليكم ورحمة الله»[(١)].

ولرغبته المُلحّة في السِّلم، وحرصه البالغ على حماية الأرواح والكرامات من الهدر والإبتذال، كان يوصي ولاته وقادة جيشه بالإستجابة إلى الصُّلح المُشرِّف إذا ما ناشده العدوّ ورغبَ فيه:

«ولا تدفعنَّ صُلحاً دعاكَ إليه عدوّك للهِ فيه رضىً، فإنّ في الصُّلحِ دَعةً لجنودِك، وراحةً من همومِك، وأمناً لبلادِك، ولكن الحذر كلّ الحذر من عدوِّك بعد صلحه، فإنّ العدوّ ربّما قارب ليتغفّل، فخذ بالحزم، وٱتّهم في ذلك حُسْن الظّنِّ، وإن

(١) البحار، ج ٨، ص ٦٣٧.

عقدتَ بينك وبين عدوّك عقدة أو ألبستهُ منك ذمّة فحِطْ عهدك بالوفاء، وٱرع ذمّتك بالأمانة، وٱجعل نفسك جنّة دون ما أعطيت، فإنّه ليس من فرائض الله شيءٌ للناس أشدّ عليه ٱجتماعاً ـ مع تفرّق أهوائهم وتشتّت آرائهم ـ من تعظيم الوفاء بالعهود».

ومن أروع آيات مروءته في الحرب، وأخلاقه الرّفيعة في معاملة مقاتليه، أنّه كان لا ينفكّ عن مثاليّته الفذّة وهو في عزّ نصره وأوج ظفره بهم، وقد أشرنا إلى طرفٍ خاطفٍ من تلك الآيات الباهرة في (عظمة شجاعته عليه السلام).

وعلى هذا النّسق المثاليّ الفريد، درجَ الإمام عليه السلام في سياسته الحربيّة وغيرها من حقول السياسة وصورها المشرقة المستلهَمة من وحي القرآن الكريم وسيرة الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم.

* * *

مجمل سياسة الإمام:

قد يتوهّم البعض أنّ الإمام عليه السلام لا يتحلّى بالحنكة السياسية، والحذق في إدارة الحكم الإسلامي، وحلّ مشاكله وأزماته الخطيرة لبلبلة الوضع السياسي في عهده الكريم، وشيوع الفتن والإضطراب فيه، ولنظرة أولئك في تقييم مواهب العظماء وكفاءاتهم بمقاييس الظّفر والإخفاق في ميادين السّجال والصّراع، دون تبصّرٍ وٱعتبارٍ بالمصادفات والظّروف المؤاتية أو المعاكسة، والأساليب الكريمة أو اللّئيمة المتّبعة في إحراز الظّفر وتحقيق النّصر.

والحقّ إنّ الإمام كان ذا بصيرةٍ نافذةٍ، وحذقٍ بالغٍ في القضايا السياسية وتصريفها تصريفاً منطقيّاً حكيماً، ولم يكن خصومهُ أبعدَ نظراً وأصوبَ رأياً منه، بَيْدَ أنّ عوامل الخذلان الّتي ٱنتابت الإمام وأعفت مناوئيه هي الّتي أوهمت تفوّقهم عليه،

وسبقهم إيّاه في مضمار السياسة والحكم، وفيما يلي عرض لامح لأبرز الأسباب والعوامل الّتي أدّت إلى ٱضطراب الوضع السياسي عند الإمام عليه السلام وٱستقراره لدى معاوية وٱندفاعه بضروب التحدّي والتجنّي على أمير المؤمنين عليه السلام:

١ ـ تمسّك الإمام بدستور الإسلام:

لقد تمسّك الإمام وحرص حرصاً بالغاً على تطبيق الإسلام حرفيّاً في سياسة الأمّة الإسلامية ومختلف شؤونها وحقوقها الفكريّة والمادّيّة الدينيّة والمدنيّة، فكان يتحرّج أشدّ التحرّج عن دعم خلافته وتركيز سلطانه بما يُخالف ذلك الدستور، ويناقض مُثُله وآدابه كالكذب والخداع والغدر وقتل الأبرياء، وٱستلاب الأموال ونحوها من المخالفات.

وكان معاوية متحلِّلاً من كلِّ ذلك، لا يتورّع عن ٱقتراف أبشع الجرائم وأفظع الآثام في نيل السّلطة وكسب الحكم ما وسعه من مخالفات الدِّين والضّمير. فالإمام عليه السلام ومعاوية ضدّان متناقضان مبدءاً وهدفاً وشعوراً، ففي الأوّل تتجسّد مثاليّة الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم ومبادئ القرآن الكريم، وأهداف الشّريعة الإسلامية، يلازمها وتلازمُهُ مُلازمة الظلّ لصاحبه، كما وصفه النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «**عليٌّ مع الحقِّ والحقّ مع عليّ**»، «**عليٌّ مع القرآن والقرآن مع عليّ**»[1]، وفي الثاني تتجسّد مفاهيم الجاهليّة ودوافعها الأثيمة من المكر والغدر والمساومة على الدِّين والضّمير والتهالك على السلطة كما صوّرته أقواله وسيرته المتحلِّلة.

من ذلك ما حكاهُ مطرف بن المغيرة، قال:

«وفدتُ مع أبي المغيرة إلى معاوية، فكان أبي يأتيه يتحدّث عنده، ثمّ ينصرف

---

(١) سبق أن ذكرنا مصادر هٰذين الحديثين وتواترهما بين الفريقين في الأبحاث السالفة.

إليَّ فيذكر معاوية ويذكر عقله ويعجب ممّا يرى منه، إذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء، فرأيته مغتّماً فانتظرته ساعة وظننتُ أنّه لشيءٍ حدث فينا أو في عملنا، فقلتُ له: ما لي أراك مغتّماً منذ اللّيلة؟ قال: يا بنيّ! إنّي جئتُ من عندِ أخبث الناس، قلتُ له: وما ذاك؟ قال: قلتُ له وقد خلوتُ به: إنّك قد بلغتَ مُناك يا أمير المؤمنين! فلو أظهرتَ عدلاً، وبسطتَ خيراً، فإنّك قد كبرتَ، ولو نظرتَ إلى إخوتكَ من بني هاشم فوصلتَ أرحامهم، فوَالله ما عندهم اليوم شيءٌ تخافه، فقال لي: هيهات هيهات، مَلَكَ أخو تيم، فعدل وفعل ما فعل، فوَالله ما غدا أن هلك فهلك ذكره إلّا أن يقول قائل أبو بكر. ثمّ ملك أخو عديّ، فاجتهد وشمّر عشر سنين، فوَالله ما غدا أن هلك فهلك ذكره، إلّا أن يقول قائل عمر. ثمّ ملك أخونا عثمان، فملك رجلٌ لم يكن أحدٌ في مثل نسبه، فعمل ما عمل وعُمِلَ به، فوَالله ما غدا أن هلك فهلك ذكره. وإنّ أخا هاشم يُصرخ به في كلِّ يوم خمس مرّات: أشهد أنّ محمّداً رسول الله، فأيّ عملٍ يبقى مع هذا لا أُمّ لك، والله إلّا دفناً دفناً»[١].

أوَليسَ هو صاحب هذه القولة النّكراء: «والله ما قاتلتكم لتُصلّوا ولا لتصوموا، ولا لتحجّوا، ولا لتُزكّوا، إنّكم لتفعلون ذلك، وإنّما قاتلتكم لأتأمّر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم له كارهون»[٢].

وهكذا يجد الباحث في سيرة معاوية ضروب الشّواهد والدلائل على تحلّله من قِيَم الدِّين والأخلاق، واقترافه أبشع الجرائم والمنكَرات، فهو الّذي أشاعَ سبّ أمير المؤمنين عليه‌السلام ولعنه على المنابر دهراً مديداً، وهو الّذي اغتال سيِّد شباب أهل الجنّة الحسن بن عليّ عليه‌السلام بالسّمِّ، وقتلَ أعلام الصّحابة من شيعة الإمام ومحبِّيه، وهو

---

(١) الغدير، ج ١٠، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤، عن مروج الذّهب، ج ٢، ص ٣٤١.

(٢) هذه جملة من خطبة خطبها بالنّخيلة على قول ابن أبي الحديد، ج ٤، ص ١٦، وقيل بالكوفة على قول اليعقوبي، ج ٢، ص ١٩٢، والإرشاد، ص ١٧٠.

الّذي أمّر السفّاكين والمجرمين على رِقاب المسلمين فاستعبدوهم، وٱستباحوا دماءهم وأموالهم وكراماتهم: كزياد بن أبيه وبسر بن أُطأة وأضرابهما من الطّغاة، وهو الّذي رشا الحفّاظ من ذوي المركّبات الناقصة والعاهات النفسيّة على ٱختلاف الأحاديث النّبويّة وتزويرها وفقَ مصالحه السياسية، ومآربه الدنيئة (١)، وهو الّذي ٱستخلف ٱبنه الوغد يزيد، فاجترم في سنوات ملكه الثلاث أفظع الجنايات والجرائم: قَتْل الحسين، وهدم الكعبة، وإباحة المدينة المنوّرة لجيشه المسعور (٢).

هذا هو واقع معاوية، وتلك هي شواهد تحلّله من ضوابط الإسلام وقوانين شرعه. وحسبنا في التعرّف على واقع معاوية، ما جاء عن النّبيّ ﷺ فيه:

فعن عبدالله بن عمر، قال: خرج رسول الله من فجّ، فنظر إلى أبي سفيان وهو راكب، ومعاوية وأخوه أحدهما قائد والآخر سائق، فلمّا نظرَ إليهم رسول الله، قال: اللّهمّ ٱلعَنْ القائد والسائق والرّاكب، قلنا: أنتَ سمعتَ رسول الله ﷺ ؟ قال: نعم، وإلّا فصُمّتا أُذناي كما عُميتا عيناي. (٣)

وأخرج الحافظ البلاذري في الجزء الأوّل من تأريخه الكبير، عن عبدالله بن عمرو بن العاص، قال:

كنتُ جالساً عند النّبيّ ﷺ ، فقال: يطلع عليكم من هذا الفجّ رجلٌ يموت يوم يموت على غير ملّتي. قال: وتركتُ أبي يلبس ثيابه فخشيتُ أن يطلع، فطلع معاوية. (٤)

---

(١) راجع الغدير، ج ١١، ص ٧٤ ـ ٨٨.

(٢) أنظر جرائم معاوية في كتاب الغدير، ج ١١، ص ١٦ ـ ٧٤.

(٣) الغدير، ج ١٠، ص ١٣٩، عن كتاب صفّين ط مصر، ص ٢٤٧.

(٤) الغدير، ج ١٠، ص ١٤١، وجاء نصّ الحديث في تأريخ الطّبري، ج ١١، ص ٣٥٧.

وأخرج البلاذري في تأريخه الآنف الذِّكر، عن الحسن البصري، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه، فتركوا أمره فلم يفلحوا ولم ينجحوا.(١)

وبهذه النفسيّة الجاحدة والشعور الجاهلي، توصّل إلى الحكم، وتولّاه قسْراً وإرهاباً، فحسبه المغفّلون بطلاً سياسيّاً عملاقاً متفوِّقاً على الإمام بحنكته السياسيّة وأصالة رأيه وما هو كذلك، وهذا ما عناهُ الإمام عليه السلام:

«**والله ما معاوية بأدهى منِّي، ولكنّه يغدر ويفجر، ولولا كراهيّة الغدر لكنتُ من أدهى الناس**»، وقوله: عليه السلام: «**لولا الدِّين والتُّقى لكنتُ أدهى العرب**».

وقد صوّر الأستاذ العقّاد في كتابه (عبقريّة الإمام) سياسته تصويراً منطقيّاً مُرْضياً، فقال:

«فلم تكن المسألة خلافاً بين عليّ ومعاوية على شيءٍ واحد ينحسم فيه النِّزاع بانتصار هذا أو ذاك، ولكنّها كانت خلافاً بين نظامين متقابلين، وعالمين متنافسين، أحدهما يتمرّد ولا يستقرّ، والآخر يقبل الحكومة كما ٱستجدّت، ويميل فيها إلى البقاء والإستقرار. أو هي كانت صراعاً بين الخلافة الدينيّة كما تمثّلت في عليّ بن أبي طالب، والدولة الدنيويّة كما تمثّلت في معاوية بن أبي سفيان.

وليس موضع الحسم فيها أنْ ينتصر عليٌّ فيحكم في مكان معاوية، أو ينتصر معاوية فيحكم في مكان عليّ. بل موضع الحسم فيها مبادئ الحكم كيف تكون إذا تغلّب واحد منها على خصمه؟ أتكون مبادئ الخلافة الدينيّة، أو مبادئ الدولة الدنيويّة؟ أتكون مبادئ الورَع والزّهادة أو مبادئ الحياة على أساس الثّروة الجديدة كما توزّعت بين الأمصار، وتفرّقت بين السّراة والأجناد والأعوان؟

---

(١) الغدير، ج ١٠، ص ١٤٣، أنظر رجال سند الحديث من ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

فلو أنّ عليّاً ملكَ الشّام ومصر والعراق والحجاز، وجرى في سياستها على سنّة أصحابه من الحفّاظ والقرّاء ومُنكري البذخ والإسراف، لبقيت المشكلة حيث كانت، ولن تغني هزيمة معاوية إلّا ريثما يتجرّد للدولة منازع آخر يحاول الغلبة من حيث فشل.

ولو أنّ معاوية ملكَ المدينـة إلى جانب مكّـة، وجرى في سياستها على سـنّة الحفّاظ والقرّاء لما أرضاهم ولا ٱنقاد له أحدٌ من أشياعه، فالحسم حقّ الحسم هنا إنّما هو تغليب مبادئ الملك أو مبادئ الخلافة...»[1].

وقال الأستاذ جورج جرداق في كتابه (الإمام عليّ)، ج ٤، فصل معاوية وخلفاؤه:

«والّذي يُمْعِن النّظر في سياسة معاوية، يهوله هذا المقدار من قوى الشرّ والإحتيال الّتي تألّف منها أسلوبه في أخذ النّاس. فالنّهب والترويع والتقتيل من سياسة معاوية المدروسة:

منها الوعد والوعيد، ومنها الفتك بالأحرار، ومنها ٱصطناع الخَوَنة، ومنها تمثيل السّماء أرضاً، والأرض سماءً، ومنها الإحتيال على كلّ قيمة إنسانيّة، ومنها مساومة أصحاب الضّمائر السود، ومنها الإستئناس بمعونة السفّاحين... ولا يكون معاوية إلّا كذلك، بحُكْم تولّده من أبي سفيان وهند آكلة الأكباد».

* * *

٢ ـ تقاعس العراقيّين عن نصرة الإمام عليه السلام:

وقد ٱبتُليَ عليه السلام بجُنْدٍ وأشياعٍ مطبوعين على الشِّقاق والنِّفاق، والتمرّد والعصيان، فكانوا بذلك أشـدّ إرهاقاً له، وفتّاً في عضده من أعدائه ومقاتليه، وكانت جحافل معاوية مجبولة على الخضـوع المطلق له، والتـفاني في تركيز حكمه، ودعم سـلطانه الجائر. ويُعتبر هذا الأمر من أقوى العوامل في إرباك سياسة الإمام وخذلانه، وٱتّساق

---

(١) عبقريّة الإمام عليّ للعقّاد، ص ٨٣ ـ ٨٤ (طبع سلسلة إقرأ).

سياسة معاوية، وٱستتباب الأمر له. وطالما شكى الإمام عليه السلام وٱستشعر اللّوعة والأسى من تقاعس العراقيّين عن جهاد العدوّ رغم فتكه بهم، وتألّبه عليهم، وأعربَ عن شكواه بأقواله الملتاعة وخطبه الحماسيّة المثيرة، فمن خطبةٍ له عليه السلام يستحثّ فيها أصحابه على الجهاد:

«ألا وإنِّي قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، سرّاً وإعلاناً، وقلتُ لكم ٱغزوهم قبل أنْ يغزوكم، فوَ اللهِ ما غُزِيَ قومٌ في عقرِ دارهِم إلّا ذُلّوا، فتواكلتم وتخاذلتم حتّى شُنّتِ الغارات عليكم ومُلكت عليكم الأوطان... فيا عجباً ـ والله ـ يُميتُ القلب، ويجلب الهمّ من ٱجتماع هؤلاء القوم على باطلهم، وتفرّقكم عن حقِّكم، فقُبحاً وترحاً حين صرتم غرضاً يُرمى، ويُغار عليكم ولا تغيرون، وتُغْزَوْنَ ولا تَغْزُون، ويُعْصى الله فيكم وترضون. فإذا أمَرْتُكُم بالسّير إليهم في أيّام الحرِّ، قُلتم هذه حمارّة القيظ أمْهِلْنا يُسَبّخْ عنّا الحرّ، وإذا أمَرْتُكُم بالسّير إليهم في الشِّتاء، قُلتم هذه صبارة القُرّ، أمْهِلْنا ينسلخُ عنّا البَرْد، كلّ هذا فراراً عن الحرِّ والبرد، فإذا كنتُم من الحرِّ تفرّون فأنتُم واللهِ من السيفِ أفرّ، يا أشباه الرِّجال ولا رجال، حلوم الأطفال وعقول ربّات الحِجال، لودَدْتُ أنِّي لم أعرفكم معرفةً، واللهِ جرّت ندماً، وأعقبت ذمّاً، قاتلكم الله، لقد ملأتُم قلبي قَيْحاً، وشحنتُم صدري غيظاً، وجرّعتموني نُغَبَ التهمام أنفاساً، وأفسدتُم عليَّ رأيي بالعصيان والخذلان حتّى قالت قريش: إنّ ٱبن أبي طالبٍ رجلٌ شجاعٌ، ولكن لا عِلْمَ له بالحرب. للهِ أبوهم!! وهل أحدٌ منهم أشدُّ مراساً، وأقدمُ فيها مقاماً منِّي؟! لقد نهضتُ فيها وما بلغتُ العشرين، وها أنا قد ذرّفتُ على السِّتِّين، ولكنّه لا رأيَ لمَنْ لا يُطاع!!»[1].

وقال عليه السلام: «لَوَدَدْتُ واللهِ لو أنّ معاوية صارَفني بكم صرفَ الدِّينار بالدّرهم، فأخذَ منِّي عشرةً منكُم وأعطاني رجلاً واحداً منهم»[2].

(١) نهج البلاغة.

(٢) نهج البلاغة.

وقال عليه السلام: **«أما والله لَوَدَدْتُ أنّ الله أخرجني من بين أظهركم، وقبضني إلى رحمته من بينكم»**.

قال الأستاذ العقّاد في كتابه (عبقريّة الإمام):

«إنّ هزيمة معاوية كانت مرجّحة ـ بل مؤكّدة ـ لو أنّه وُضِعَ في موضع عليّ، وٱبتُلِيَ بالأسباب الّتي ٱبتُلِيَ بها، فالبلاء كلّه في خبث الأجناد وشدّة خلالهم... ولو أنّ معاوية كُتِبَ عليه أن يُحارِب جنداً مطيعاً بجندٍ عصاةٍ لما طمع في حظٍّ أوفق من حظِّ عليٍّ في ذلك الصِّراع المتفاوت بين الخصمين، ولو ٱستعانَ بكلِّ ما أُعين به من رشوة الأنصار وكيد الخصوم، بل لعلّه كان يخفق حيث أفلح قرنه على قدر ما بينهما من فارق في الشّجاعة والسّابقة الدينيّة»[1].

* * *

٣ ـ معاكسة الأحداث والمصادفات للإمام عليه السلام:

وكان لتلك المعاكسات أثرها الخطير الفعّال في ٱضطراب الأمور في عهد الإمام عليه السلام، واستتبابها لمعاوية. فلو لم تحدث فتنة الجمل في البصرة، ولم تطرأ خدعة التحكيم في صفِّين، ولو نجا الإمام عليه السلام من فتك ٱبن مُلجم كما نجا معاوية وٱبن العاص، ولو لم يُفجَع الإمام بأعزّ قادته وصفوة أصحابه ومخلصيه كمالك الأشتر ومحمّد بن أبي بكر وعمّار بن ياسر وأضراب هؤلاء العظماء، لاستوسقت له شؤون الخلافة وٱستتبّت أمورها، ولتفادى معاناة تلك المآسي الفادحة والمشاكل المرهقة الّتي أربكت سياسته وأقضّت مضجعه.

* * *

٤ ـ الأوتار الجاهليّة:

وتلعب الأوتار الجاهليّة وأحقادها الدفينة دوراً خطيراً في خذلان الإمام عليه السلام

(١) عبقريّة الإمام، ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

ومناصرة أعدائه نكايةً به وثأراً منه، فهو الّذي فجع قريشاً ووترها بأعزّ أبطالها وكماتها في الحروب الإسلاميّة، وهو الّذي دمّر حصون الشّرك، وأباد فيالق المشركين «فحفظ أقاربُهم له هذه التِرات بعد دخولهم في الإسلام، وزادهم حقداً أنّهم لا يملكون الثأر منه لقتلاهم من الكفّار، وقد علم الإمام هذا من قريش عندما يئس من مودّتها، وٱبتُليَ بالصّريح والدّخيل من كيـدها، فقال: (ما لي ولقريش؟ أما والله لقد قتلتهم كافرين ولأقتلنّهم مفتونين).

ولو أنّ قريشاً وادَعَتْهُ في سرِّها وجهرها، ووقفت بينه وبين منافسيه على الخلافة لا تصدّه عنها، ولا تدفعهم إليها، لكانت تلك عقبـةً وأيَّ عقبـة، فأمّا وهي تُجاريـه بعصبيّتها، وتُحاربه بذحولها، فتلك هي العقبة الّتي لا يُذلِّلها إلّا بحزبٍ أقوى من حزب قريش بعد وفاة النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يكن حزب قطّ أقوى يومئذٍ من قريش في أرجاء الدولة الإسلامية بأسرها»[1].

وهذا ما لخّصه إمام الحنابلة أحمد بن حنـبل فيما رواه عن ابنـه عبدالله، قال: سـألتُ أبي عن عليّ ومعاوية، فقال: «إعلم أنّ عليّاً كان كثير الأعـداء، **ففتش** له أعداؤه عيباً فلم يجدوا، فجاؤوا إلى رجلٍ قد حاربه وقاتله فأطروه كيداً منهم لعليّ»[2].

* * *

٥ ـ صلابة الإمام عليه السلام في تحقيق العدل ونشر المساواة في المجتمع الإسلامي:

وهي من أبرز الأسباب والدوافع على مجافاة الإمام عليه السلام والجنوح إلى معاوية طمعاً في مغرياته المادِّية وعطائه على شرعة المساومة وٱبتياع الضّمائر.

---

(١) عبقريّة الإمام للأستاذ العقّاد، ص ١٢٩.

(٢) الغدير، ج ١١، ص ٧٤، نقلاً عن تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص ١٣٣، وفتح الباري ص ٨٣، والصّواعق ص ٧٦.

قال ابن أبي الحديد في شرح النّهج:

«أأكد الأسباب في تقاعدالعرب عن أمير المؤمنين عليه السلام أمر المال، فإنّه لم يكن يُفضِّل شريفاً على مشروف، ولا عربيّاً على أعجميّ، ولا يُصانع الرّؤساء وأمراء القبائل كما يصنع الملوك، ولا يستميل أحداً إلى نفسه، وكان معاوية بخلاف ذلك، فترك الناسُ عليّاً عليه السلام والتحقوا بمعاوية ...».

❊ ❊ ❊

٦ ـ خدر الشّعور الدّيني في عصر الإمام:

لقد رأى وسمع أعلام الصّحابة وجماهير الأمّة الإسلامية مبلغ اعتزاز النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بعليّ عليه السلام وتوقيره له، وتكريمه إيّاه بأرفع الأوسمة والنصوص الناطقة باستخلافه وإمامته العامّة على المسلمين كحديث الدّار، وحديث الوصيّة، وحديث الغدير، ونحوها من النصوص المتواترة الكثيرة الّتي عرضناها في حقول الإمامة. عرفها المسلمون ووعوها حقّ الوعي، ولكنّهم تناسوها، وتصامّوا عن ندائها النّبويّ الأقدس، ومن ثمّ انحرفوا عن الإمام عليه السلام وتنكّبوا نهجه السّويّ، وما ذاك إلّا لخدر الشعور الإسلامي الّذي أُصيبت به الأمّة الإسلاميّة بعد فَقْدِ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وتصرّم عهده الزّاهر، وتأثّرها بالأهواء والدِّعايات المُضلِّلة عن أهل البيت عليهم السلام. وهذا ما عناهُ القرآن الكريم: ﴿**وما مُحَمّدٌ إلاّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أفإنْ ماتَ أوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أعْقابِكُم...**﴾. وكيف يتجاهل المسلمون جلالة الإمام وكفاءاته المجليّة وأمجاده الشامخة وسوابقه المدوِّية في دُنيا الإسلام، وقرابته القريبة من النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ومنزلته السامية عنده وحظوته البالغة لديه، وتنويهه المركّز المتواصل على موالاته والسّير على هُداه؟!!

كيف يحدث ذلك لو لم يكن هناك تخطيط مرسوم، وتواطؤ مُبيّت على إقصائه عن مركز الخلافة، وخذلانه ذلك الخذلان الفظيع الكاشف عن تسيّب وخدر الشعور الإسلاميين؟!!

٧ـ عظمة البلاغة:

ومن خصائص الإمام عليه السلام وعظماته وأمجاده، تفوّقه في أفانين البلاغة وتفرّده بأروع وأبلغ أساليب البيان، في سموّ المعنى وعذوبة اللّفظ، وحلاوة الجرس، وفخامة الأسلوب، وسحر الجاذبيّة، وقوّة التأثير، ما جعل كلامه «دون كلام الخالق، وفوق كلام المخلوق». ولم يعرف تاريخ العرب جاهليّةً وإسلاماً بليغاً تناشد الأدباء والخطباء خطبه وأقواله عبرَ العصور كأمير المؤمنين عليه السلام. ناهيكَ عن بيانه أنّه «هو مشاركة الحسّ السّمعيّ للعقل بحيث يحوِّل لك المعاني إلى أنغام هي في حدِّ ذاتها المعاني الكاملة كما تشاء الطّبيعة الحيّة وتُريد، وهو من مشاركة الحسّ النظريّ للعقل بحيث يحوِّل لك المعاني إلى لوحات فنِّيّة لها خطوطها وأشكالها وألوآنها، فإذا بكَ من ذلك في عـالم زاخر بروائع الفنّ تتمازج به صور وموسيقى، ولو هدّد الفساد والمفسدين لتفجّر براكين لها أضواء وأصوات، ولو ٱنبسط في منطق لخاطبَ العقول والمشاعر فأقفل كلّ باب على كلِّ حجّة غير ما ينبسط فيه، ولو دعا إلى تأمُّل لرافقَ فيك منشأ الحسّ وأصل التفكير، فساقكَ إلى ما تريده سَوْقاً، ووصلك بالكَـوْن وصْلاً، ووحّد فيك القـوى للإكتشاف توحيداً، وهو لو راعاك لأدركتَ حنان الأب ومنطق الأبوّة، وصدق الوفاء الإنسانيّ، وحرارة المحبّـة الّتي تبدأ ولا تنتهي! أمّا إذا تحدّث إليكَ عن بهاء الوجود، وجمالات الخَلْق، وكمالات الكون، فإنّما يكتب على قلبك بمداد من نور النّجوم!»[1].

وإليكَ نماذج من طرائف أقواله وجوامع كلمه:

فعن الصّادق، عن آبائه عليهم السلام، قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**كانت الفقهاء والحكماء إذا كاتب بعضهم بعضاً، كتبوا بثلاث ليس معهنّ رابعة: مَنْ كانت الآخرة همّه كفاه الله همّه من الدّنيا، ومَنْ أصلحَ سريرته أصلحَ الله علانيته، ومَنْ أصلحَ فيما**

---

(١) صوت العدالة الإنسانية لجورج جرداق، ص ٢٩.

بينه وبين الله عزّ وجلّ، أصلحَ الله له فيما بينه وبين الناس»[١].

وسُئل الصّادق عليه السلام: الملائكة أفضل أم بنو آدم، فقال: «قال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: إنّ الله عزّ وجلّ ركّب في الملائكة عقلاً بلا شهوة، وركّب في البهائم شهوة بلا عقل، وركّب في بني ادم كليهما، فمَنْ غلبَ عقلُهُ شهوتَهُ فهو خيرٌ من الملائكة، ومَنْ غلبتْ شهوتُهُ عقلَهُ فهو شرٌّ من البهائم»[٢].

وقال عليه السلام: «جُمعَ الخير كلّه في ثلاثِ خصال: النّظر والسّكوت والكلام، فكلُّ نظرٍ ليس فيه ٱعتبار فهو سهو، وكلُّ سكوتٍ ليس فيه فكرة فهو غفلة، وكلُّ كلامٍ ليس في ذِكْر فهو لغو، فطوبى لِمَنْ كان نظره عبرة، وسكوته فكرة، وكلامه ذِكْراً»[٣].

وقال عليه السلام لبنيه: «يا بَنيّ: إيّاكم ومعاداة الرِّجال، فإنّهم لا يخلون من ضربين: من عاقل يمكر بكم، أو جاهل يُعجِّل عليكم، والكلام ذَكَرٌ والجواب أُنثى، فإذا ٱجتمع الزّوجان فلا بدّ من النتاج، ثمّ أنشأ يقول:

سليم العرض من حذر الجوابا ... ومَنْ دارى الرِّجال فقد أصابا
ومَنْ هابَ الرِّجال تهيّبوه ... ومَنْ حقرَ الرِّجال فلن يُهابا»[٤]

وقال عليه السلام: «ثلاثُ خِصالٍ يُجتلَب بهنّ المحبّة: الإنصاف في المعاشرة، والمواساة في الشِّدّة، والإنطواء والرّجوع إلى قلبٍ سليمٍ»[٥].

---

(١) البحار، م١٤، ج٢، ص٢٠٤، نقلاً عن الخصال والأمالي وثواب الأعمال للصّدوق رحمه الله.
(٢) علل الشّرائع للشيخ الصّدوق رحمه الله.
(٣) البحار.
(٤) الخصال للشّيخ الصّدوق رحمه الله.
(٥) البحار.

وقال عليه السلام لابنه الحسن: «يا بُنيّ! ألا أُعلّمكَ خِصالاً أربع تستغني بها عن الطِّبّ، فقال: بلى يا أمير المؤمنين! قال: لا تجلس على الطّعام إلّا وأنتَ جائع، ولا تقم عن الطّعام إلّا وأنتَ تشتهيه، وجوِّدِ المضغ، وإذا نِمْتَ فاعرض نفسك على الخلاء، فإذا آستعملتَ هذا آستغنيتَ عن الطِّبِّ» (١).

وقال عليه السلام: «إنّ الله تباركَ وتعالى أخفى أربعةً في أربعةٍ: أخفى رضاه في طاعته، فلا تستصغرنّ شيئاً من طاعته، فربّما وافقَ رضاه وأنتَ لا تعلم، وأخفى سخطه في معصيته، فلا تستصغرنّ شيئاً من معصيته، فربّما وافقَ سخطه وأنتَ لا تعلم، وأخفى إجابته في دعوته، فلا تستصغرنّ شيئاً من دعائه، فربّمّا وافقَ إجابته وأنتَ تعلم، وأخفى وليّهُ في عباده، فلا تستصغرنّ عبداً من عبيد الله، فربّمّا يكون وليّه وأنتَ لا تعلم» (٢).

«وقيل لأمير المؤمنين عليه السلام: ما الإستعداد للموت؟ قال: أداء الفرائض، وآجتناب المحارم، والإشتمال على المكارم، ثمّ لا يُبالي أوَقَعَ على الموتِ أم وقعَ الموت عليه» (٣).

وقال عليه السلام: «أمّا بعد، فإنّ الّذي في يديك من الدّنيا قد كان له أهلٌ قبلك وهو صائرٌ إلى أهلٍ بعدك، وإنّما أنتَ جامعٌ لأحد رجلين: رجل عملَ فيما جمعته بطاعة الله فسعد بما شقيتَ به، ورجل عمل فيه بمعصية الله فشقيَ بما جمعت له، وليس أحدُ هٰذينِ أهلاً أن تؤثره على نفسك وتحمل له على ظهرك، فارجُ لِمَنْ مضى رحمة الله ولِمَنْ بقي رزق الله» (٤).

---

(١) الخصال للشّيخ الصّدوق رحمه الله.
(٢) الخصال للشّيخ الصّدوق رحمه الله.
(٣) أمالي الشّيخ الصّدوق رحمه الله.
(٤) نهج البلاغة.

وقال عليه السلام: «إنّما الدّنيا فناءٌ وعناءٌ، وغِيَرٌ وعِبَرٌ، فمِن فنائها: أنّكَ ترى الدّهرَ موتراً قوسه، مفوِّقاً نَبله، لا تُخطئ سهامه، ولا يشفى جراحه، يرمي الصّحيح بالسّقم، والحيَّ بالموت. ومن عنائها: أنّ المرء يجمع ما لا يأكل، ويبني ما لا يسكن، ثمّ يخرج إلى الله لا مالاً حمل ولا بناءً نقل. ومن غِيَرِها: إنّك ترى المغبوط مرحوماً، والمرحوم مغبوطاً، ليس بينهم إلّا نعيمٌ زلّ، وبؤس نزل. ومن عِبَرِها: أنّ المرء يشرف على أمله فيتخطّفه أجله، فلا أمل مدروك، ولا مؤمَّل متروك»[1].

ومن وصيّةٍ لابنه الحسن عليهما السلام: «أحْيِ قبلكَ بالموعظة، وأمِتْهُ بالزّهادة، وقوِّهِ باليقين، ونوِّرهُ بالحكمة، وذلِّلهُ بذكرِ الموت، وقرِّرهُ بالفناء، وبصِّرهُ فجائع الدُّنيا، وحذِّرهُ صولة الدّهر وفُحشَ تقلّب اللّيالي والأيّام، وٱعرِضْ عليه أخبار الماضين، وذكِّرهُ بما أصابَ مَنْ كانَ قبلكَ من الأوّلين، وسِرْ في ديارهم وآثارهم، فانظر فيما فعلوا وعمّا ٱنتقلوا وأين حلّوا ونزلوا، فإنّك تجدهم قد ٱنتقلوا عن الأحبّة، وحلّوا ديار الغُرْبة، وكأنّك عن قليل قد صرتَ كأحدهم، فأصْلِحْ مثواك ولا تبع آخِرَتكَ بدُنياك».

ومن وصيّته السّالفة، قال عليه السلام: «يا بُنيّ ٱجْعَلْ نفسَكَ ميزاناً فيما بَينكَ وبين غَيرِك، فأحْبِبْ لغيرِكَ ما تُحبُّ لنفسِك، وٱكْرَه لَهُ ما تَكْرَه لها، ولا تظلِمْ كما لا تُحبُّ أن تُظْلَم، وأحْسِن كما تُحِبُّ أن يُحْسَنَ إليكَ، وٱسْتَقْبِحْ من نفسِكَ ما تَسْتَقْبِحْ من غيرِك، وٱرْضَ مِنَ ٱلناسِ بما ترضاهُ لهُمْ مِن نفسِك، ولا تقُلْ ما لا تَعْلَم وإنْ قلَّ ما تَعْلَم، ولا تقُلْ ما لا تُحِبُّ أن يُقال لك».

وقال عليه السلام في وصيّته السّالفة: «وٱعْلَمْ أنّ مَنْ كانت مطيّتهُ اللّيل والنّهار فإنّه يُسارُ به وإن كان واقفاً ويقطع المسافة وإن كان مُقيماً وادعاً، وٱعْلَمْ يقيناً أنّكَ لن تبلغ

---

(١) سفينة البحار، ج ١، ص ٤٦٧.

أمَلَك ولن تعدو أجَلَك، وأنّكَ في سبيلِ مَنْ كانَ قبلَك، فخفِّض في الطّلبِ وأجمِلْ في المُكْتَسَب، فإنّهُ رُبّ طلبٍ قد جرّ إلى حَرَب، فليسَ كلُّ طالبٍ بمرزوق، ولا كلّ مُجْمَلٍ بمحروم، وأكرِم نفسكَ عن كلِّ دنيّةٍ وإنْ ساقتكَ إلى الرّغائب، فإنّكَ لن تعتاض بما تبذل من نفسك عوضاً، ولا تكن عبد غيرك وقد جعلكَ اللهُ حرّاً، وما خيرُ خيرٍ لا يُنال إلّا بِشَرٍّ، ويُسْرٍ لا يُنال إلّا بِعُسْرٍ».

وقال عليه السلام من وصيّته السّالفة لابنه: «ساهِل الدّهر ما ذلّ لك قعوده، ولا تُخاطِر بشيءٍ رجاءَ أكثرَ منه، وإيّاكَ أن تجمح بكَ مطيّة اللّجاج، إحمل نفسكَ من أخيكَ عند صرمه على الصِّلة، وعند صدوده على اللّطف والمقاربة، وعند جموده على البذل، وعند تباعده على الدنوّ، وعند شدّته على اللِّين، وعند جرمه على العذر حتّى كأنّك له عبدٌ وكأنّهُ ذو نعمةٍ عليك، وإيّاك أن تضع ذلك في غير موضعه، أو أن تفعلهُ بغيرِ أهله، لا تتخذنّ عدوَّ صديقكَ صديقاً فتُعاديَ صديقك، وامْحض أخاك النّصيحة حسنةً كانت أو قبيحةً، وتجرّع الغيظ فإنّي لم أرَ جرعةً أحلى منها عاقبةً ولا ألذّ مغبّةً، ولِنْ لمَنْ غالظكَ فإنّه يُوشِكُ أن يلين لك، وخُذ على عدوّك بالفضل فإنّه أحلى الظّفرين وإنْ أردتَ قطيعة أخيكَ فاستبقِ له من نفسِك بقيّةً يرجع إليها إن بدا له ذلك يوماً ما، ومَنْ ظنَّ بكَ خيراً فصدِّقْ ظنّه، ولا تُضيِّعنّ حقّ أخيكَ اتّكالاً على ما بينك وبينه، فإنّه ليس لكَ بأخٍ مَنْ أضعتَ حقّه، ولا يكُن أهلُكَ أشق الخلق بك، ولا ترغبنّ فيمَن زهدَ عنكَ، ولا يكوننّ أخوكَ على مُقاطعتكَ أقوى منكَ على صلته، ولا تكوننّ على الإساءة أقوى منكَ على الإحسان، ولا يكبرنَّ عليكَ ظلم مَنْ ظلمك، فإنّه يسعى في مضرّته ونفعك، وليس جزاء مَنْ سرّكَ أن تسوءَهُ».

وقال عليه السلام في وصيّته السّالفة: «مَنْ أمنَ الزّمان خانه، ومَنْ أعظمهُ أهانه، ليسَ كلّ مَنْ رمى أصاب، إذا تغيّر السّلطان تغيّر الزّمان، سَلْ عن الرّفيق قبل الطّريق، وعن الجار قبل الدّار، إيّاك أن تذكر من الكلام ما كانَ مُضْحِكاً وإنْ

حكيتَ ذلك عن غيرِك ، وإيّاكَ ومشاورةَ النِّساءِ فإنّ رأيهنَّ إلى أفَنٍ وعزمهنّ إلى وَهَنٍ ، وٱكففْ عليهنّ من أبصارهنّ بحجابك إيّاهنّ ، فإنّ شدّة الحجاب أبقى عليهنّ وليس خروجهنّ بأشدّ من إدخالك مَنْ لا يوثق به عليهنّ ، وإن ٱستطعتَ ألّا يعرفنَ غيرك فافعل ، ولا تُملِّك المرأة من أمرها ما جاوزَ نفسها ، فإنّ المرأة ريحانة وليست بقهرمانة ، ولا تَعْدُ بكرامتها نفسها ولا تطمعها في أن تشفع بغيرها ، وإيّاكَ والتغاير في غير موضع غَيْرَةٍ ، فإنّ ذلك يدعو الصّحيحة إلى السّقم والبريئة إلى الرّيب ، وٱجْعَلْ لكلِّ إنسانٍ من خدمِكَ عملاً تأخذهُ به ، فإنّهُ أحرى أنْ لا يتواكلوا في خِدمتك ، وأكْرِمْ عشيرتكَ فإنّهم جناحك الّذي به تطير ، وأصلكَ الّذي إليه تصير ، ويدكَ الّتي بها تصول ، أستودِع الله دينك ودُنياك ، وأسألهُ خير القضاء لك في العاجلة والآجلة والدّنيا والآخرة» .

وقال عليه السلام من كلمةٍ له : «أُوصيكم بخمسٍ لو ضربتُم إليها آباط الإبل لكانت لذلك أهلاً : لا يرجونّ أحدٌ منكم إلّا ربّه ، ولا يخافنّ إلّا ذنبه ، ولا يستحينّ أحدٌ إذا سُئِلَ عمّا لا يعلم أن يقول لا أعلم ، ولا يستحينّ أحدٌ إذا لم يعلم الشيء أن يتعلّمه ، وعليكم بالصّبر فإنّ الصّبرَ من الإيمان كالرّأس من الجسد ، ولا خيرَ في جسدٍ لا رأس معه ، ولا في إيمان لا صبرَ معه» .

ومن حِكَمِه القِصار :

قال عليه السلام : «كُنْ في الفتنةِ كابن اللّبون ، لا ظهرٌ فيُرْكَب ولا ضَرْعٌ فيُحْلَب» .

وقال عليه السلام : «إذا أقبلت الدّنيا على أحدٍ أعارتهُ محاسن غيره ، وإذا أدبرت عنهُ سلبتُه محاسن نفسه» .

وقال عليه السلام : «خالِطُوا الناس مخالطةً إن متُّم بكوا عليكم ، وإن عِشْتُم حنّوا إليكم» .

وقال عليه السلام: «قيمةُ كلّ آمرئٍ ما يُحْسِنُه».

وقال عليه السلام: «توقَّوا البَرْدَ في أوَّلِهِ وتلقّوهُ في آخرهِ، فإنّه يفعل بالأبدان كفعلهِ في الأشجار، أوّلهُ يحرق وآخره يورق».

وقال عليه السلام: «كَمْ من أكلةٍ منعت أكلات».

وقال عليه السلام: «آلةُ الرِّياسة سَعَةُ الصّدْر».

وقال عليه السلام: «البشاشةُ حبالة المودّة».

وقال عليه السلام: «إذا هِبْتَ أمراً فقع فيه، فإنّ شدّة توقّيه أعظم ممّا تخاف منه».

وقال عليه السلام: «إذا لم تكُن حليماً فتحلّمْ، فإنّه قلّ مَنْ تشبّه بقومٍ إلّا أوشكَ أن يكون منهم».

وقال عليه السلام: «الحدّة ضرب من الجنون، لأنّ صاحبها يندم، فإنْ لم يندم فجنونه مستحكم».

وقال عليه السلام: «قليلٌ تدومُ عليه، أرْجى من كثيرٍ مملول».

وقال عليه السلام: «أحْبِبْ حبيبكَ هوناً ما، عسى أن يكونَ بغيضَكَ يوماً ما، وأبغضْ بغضيك هوناً ما، عسى أن يكون حبيبكَ يوماً ما».

وقال عليه السلام: «إنْ صبرتَ جرى عليكَ القَدَرُ وأنتَ مأجور، وإنْ جزعتَ جرى عليكَ القَدَرُ وأنتَ مأزور».

وقال عليه السلام: «كفى بالأجَلِ حارِساً».

وقال عليه السلام: «كفاكَ أدباً لنفسِكَ آجتناب ما تكرهه من غيرِك».

وقال عليه السلام: «عجبتُ للبخيل يستعجل الفقر الّذي منهُ هرب، ويفوته الغنى الّذي إيّاهُ طلب، فيعيشُ في الدّنيا عيش الفقراء، ويُحاسَب في الآخرة حساب الأغنياء».

وقال عليه السلام: «**ليجتمع في قلبِكَ الإفتقار إلى الناس والإستغناء عنهم، يكون ٱفتقاركَ إليهم في لينِ كَلامِك وحُسْن بشْرك، ويكون ٱستغناؤك عنهم في نزاهة عرضك وبقاء عزّك**».

وقال عليه السلام: «**أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع**».

* * *

٨ـ عظمة الزّوجة والأولاد:

زواج الإمام: لقد كان من عناية الله بأمير المؤمنين عليه السلام ونعمائه الجزيلة عليه أن حباهُ أشرف الزّوجات وسيِّدة النِّساء (فاطمة الزّهراء عليها السلام)، فحاز بذلك شرف مصاهرة الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى شرف قُرباه منه، وحظوته البالغة عنده. وقد آثرهُ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بهذه المصاهرة المشرِّفة على سراة الصّحابة، وأعلام قريش المتطلّعين إلى شرف مصاهرته والإنتساب إليه.

فعن الصّادق، عن آبائه عليهم السلام: «أنّ أبا بكر (رض) أتى النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: يا رسول الله! زوِّجني فاطمة، فأعرضَ عنه، فأتاهُ عمر، فقال مثل ذلك، فأعرضَ عنه، فأتيا عبدالرّحمٰن بن عوف فقالا: أنتَ أكثر قريش مالاً، فلو أتيتَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فخطبتَ إليه فاطمة، زادكَ الله مالاً إلى مالِك، وشرفاً إلى شرفِك، فأتى النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال له ذلك، فأعرض عنه، فأتاهما فقال: قد نزل بي مثل الّذي نزل بكما، فأتيا عليّ ابن أبي طالب وهو يسقي نخلات له، فقالا: قد عرفنا قرابتكَ من رسول الله، وقِدَمِك في الإسلام، فلو أتيتَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فخطبتَ إليه فاطمة لزادَكَ الله فضلاً إلى فضلِك، وشرفاً إلى شرفِك، فقال: قد نبّهتماني، فانطلق فتوضّأ ثمّ ٱغتسلَ ولبس كساءً قطريّاً وصلّى ركعتين، ثمّ أتى النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: يا رسول الله! زوِّجني فاطمة، قال صلى الله عليه وآله وسلم: إذا زوّجتكها فماذا تُصْدِقها؟ قال: أصدِقْها سيفي وفرسي ودِرْعي وناضحي،

قال: أمّا ناضحكَ وسيفكَ وفرسكَ فلا غناء بكَ عنها تُقاتل المشركين. وأمّا دِرْعُكَ فشأنكَ بها، فانطلقَ عليٌّ وباعَ درعه بأربعمائة وثمانين درهماً قطريّة، فصبّها بين يدي النّبيّ ﷺ، فلم يسأله عن عددها، ولا هو أخبره، فأخذ منها رسول الله ﷺ قبضة فدفعها إلى المقداد بن الأسود، فقال: إبتَعْ من هذا ما تُجهِّز به فاطمة، وأكْثِرْ لها من الطِّيب، فانطلقَ المقداد فاشترى رحى وقِربةً، ووسادة من أدم، وحصيراً قطريّاً، فجاء به فوضعهُ بين يَدَي النّبيّ ﷺ، وأسماء بنت عميس معه. فقالت: يا رسول الله! خطبَ إليكَ ذوو الأسنان والأموال من قريش ولم تزوِّجْهم، فزوّجْتها هذا الغُلام، فقال: يا أسماء! إنّكِ ستتزوّجين بهذا الغُلام وتلدينَ له غُلاماً...

فلمّا كان اللّيل، قال لسلمان: ٱئتني ببغلتي الشّهباء، فأتاه بها، فحمل عليها فاطمة عليها السلام، فكان سلمان يقودها، ورسول الله يقوم بها، فبينا هو كذلك إذ سمعَ حسّاً خلف ظهره، فالتفتَ فإذا جبرائيل وميكائيل وإسرافيل في جمعٍ كثيرٍ من الملائكة عليهم السلام، فقال: يا جبرئيل ما أنزلكم؟ قال: نزلنا نزُفُّ فاطمة عليها السلام إلى زوجها، فكبّر جبرائيل، ثمّ كبّر ميكائيل، ثمّ كبّر إسرافيل، ثمّ كبّرت الملائكة، ثمّ كبّر النّبيّ صلواتُ الله عليهم أجمعين، ثمّ كبّر سلمان الفارسي، فصار التكبير خلف العرايس سُنّة من تلك اللّيلة، فجاء فأدخَلها على عليّ عليه السلام، فأجلسها إلى جنبه على الحصير القطريّ، ثمّ قال: يا عليّ! هذه بنتي فَمَنْ أكرمها فقد أكرمني، ومَنْ أهانها فقد أهانني، ثمّ قال: اللّهمّ بارِك لَهُما وعليهِما، وٱجْعَلْ منهما ذرِّيّةً طيِّبةً، إنّكَ سميعُ الدّعاء، ثمّ وثبَ فتعلّقت وبكت، فقال لها: ما يُبكيكِ، فلقد زوّجتُكِ أعظمهُم حِلْماً، وأكثرهُم عِلْماً»(١).

وكان زواجهما عليهما السلام ليلة الخميس إحدى وعشرين من المحرّم سنة ثلاث من الهجرة، وورد أنّه عليه السلام تزوّجها في شهر رمضان، وبنى بها في ذي الحجّة في السنة الثانية من الهجرة.

---

(١) كشف الغمّة للأربلي، ط حجر ١١١.

وقد ٱحتفت السّماء بزواج عليٍّ وفاطمة كما ٱحتفى به أشرف أهل الأرض رسول الله ﷺ وأهل بيته الطّاهرون.

فقد أورد ٱبن حجر في صواعقه:

«أنّ النّبيّ ﷺ خرجَ على أصحابه ذات يوم ووجهه مشرِق كدائرة القمر، فسأله عبدالرّحمٰن بن عوف عن ذلك، فقال: بشارة أتتني من ربِّي في أخي وٱبن عمِّي وٱبنتي، بأنّ الله زوّج عليّاً من فاطمة، وأمرَ رضوان خازن الجنان، فهزّ شجرة طوبى، فحملت رقاقاً يعني صكاكاً بعدد محبِّي أهل بيتي، وأنشأ تحتها ملائكة من نور، دفع إلى كلِّ مَلَكٍ صكّاً، فإذا ٱستوت القيامة بأهلها نادت الملائكة في الخلائق فلا يبقى محبٌّ لأهل البيت إلّا ودفعتْ إليه صكّاً فيه فكاكه من النار، فصار أخي وٱبن عمِّي وٱبنتي فكاك رقاب رجالٍ ونساءٍ من أمّتي من النار»(١).

وهكذا شاء الله تعالى أن يُضاعِف آلاءه ونعماءه على عليّ عليه السلام، فخصّه فيما خصّه من صنوف الفضائل والمفاخر، أن جعل ذرِّيّة النّبيّ ﷺ في صُلبه ومن نسله.

فعن ٱبن عبّاس رضي الله عنه، قال: كنتُ أنا والعبّاس جالسين عند رسول الله ﷺ، إذ دخلَ عليّ بن أبي طالب، فسلّم فردّ عليه رسول الله ﷺ السّلام، وقام إليه، وعانقه، وقبّل بين عينيه، وأجلسهُ عن يمينه. فقال العبّاس: يا رسول الله! أتحبُّ هذا؟ فقال رسول الله ﷺ: «**يا عمّ! والله لله أشدُّ حُبّاً له منّي، إنّ الله جعل ذرِّيّة كلّ نبيّ في صُلبه، وجعل ذرِّيّتي في صُلْبِ هذا**»(٢).

---

(١) أخرجه الخطيب في تأريخه، ج ٤، ص ٢١٠، وٱبن الأثير في أسد الغابة، ج ١، ص ٢٠٦، وٱبن حجر في الصّواعق، ص ١٠٣، والصّفوري في نزهة المجالس، ج ٢، ص ٢٢٥، والحضرمي في رشفة الصّادي، ص ٢٨، وغيرهم. راجع الغدير، ج ٢، ص ٣١٦ ـ ٣١٧.

(٢) ذخائر العقبى لمحبّ الدّين الطّبري، ص ٦٧، وكفاية الطّالب، ص ٢٥.

قال الأربلي رحمه الله وهو يُعقِّب على وجود أسماء بنت عميس في زفاف فاطمة عليها السلام: قد تظاهرت الرّوايات أنّ أسماء بنت عميس حضرت زفاف فاطمة، وأسماء كانت مهاجرة بأرض الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب عليه السلام، ولم تعد هي ولا زوجها إلّا يوم فتح خيبر وذلك في سنة ستٍّ من الهجرة، ولم تشهد الزّفاف، لأنّه كان في ذي الحجّة من سنة ٱثنتين، والّتي شهدت الزّفاف سلمى بنت عميس أختها، وهي زوجة حمزة بن عبدالمطّلب عليه السلام. وكانت أسماء أشهر من أختها عند الرّواة، فرووا عنها، أو سها راوٍ عنها فتبعوه».

وقد فرغتُ من تأليف هذه الرِّسالة في يوم الإثنين ٢٧ ـ ج ٢ ـ ١٣٩٢ هـ، راجياً من الله عزّ وجلّ أن يجعلها خالصةً لوجهه الكريم، وأنْ يتقبّلها بقبولٍ حسن، وينفعي بها يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلّا مَنْ أتى الله بقلبٍ سليم، وآخر دعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربّ العالمين.

أصــول العقــيدة

الجزء الرّابع

في المـعاد

بقلم

السّيّد مهدي الصّــدر

بسم الله الرّحمٰن الرّحيم

﴿يا أَيُّها ٱلنّاسُ إن كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِنَ ٱلبَعْثِ فإنّا خَلَقْناكُم مِن تُرابٍ ثُمّ مِن نُطْفَةٍ ثُمّ مِن عَلَقَةٍ ثُمّ مِن مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ في ٱلأَرْحامِ ما نَشاءُ إلى أجَلٍ مُسمًّى ثُمّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمّ لَتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ومِنكُم مَن يُتَوَفَّى ومِنكُم مَن يُرَدُّ إلى أرْذَلِ ٱلعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وتَرى ٱلأَرْضَ هامِدَةً فإذا أنزَلْنا عَلَيها ٱلماءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذلِكَ بِأَنَّ ٱللهَ هُوَ ٱلحَقُّ وأنّهُ يُحْيِي ٱلمَوْتى وأنّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ ٱلسّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيها وأَنَّ ٱللهَ يَبْعَثُ مَن في ٱلقُبُور﴾. (الحجّ / ٥ ـ ٧)

«يا بَني عبدالمطّلب! إنّ الرّائد لا يكذب أهله، والّذي بعثني بالحقِّ لتموتنّ كما تنامون، ولتُبعثنّ كما تستيقظون، وما بعد الموت دار إلّا جنّة أو نار، وخلق جميع الخلق وبعثهم على الله عزّ وجلّ كخلقِ نفسٍ واحدة وبعثها، قال الله تعالى: ﴿وما خَلْقُكُمْ ولا بَعْثُكُمْ إلّا كَنَفْسٍ واحِدَة﴾». الرّسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم

المقـدّمة

بسم الله الرّحمٰن الرّحيم

يُعتبر المعاد من أصول الدِّين الإسلامي، ومبادئه الأصيلة الّتي هتفت به رسالات السماء وأطبقت عليه الشرائع الإلٰهية، واتّخذتهُ بأسرها وسيلة بنّاءة في ترغيب العباد وترهيبهم ووعدهم ووعيدهم، لتوجِّههم وجهة الخير والصّلاح، وتزجرهم عن الشّرِّ والفساد، بما تشـوِّقهم إليه من مباهج الآخرة، ونعـيمها الخالد، أو تُحـذِّرهم به من أهوالها المفزعة وعذابها الأليم، تحقيقاً لأهداف السماء، ومُثُلها العُليا في تهذيب البشر، وإسعادهم ديناً ودنيا.

ومن هنا كان المعاد من ضرورات العقيدة الإسلامية ومفاهيمها الرائدة الّـتي يجب اعتـقادها والإيمان بها، ويُعتبر إنكارها جحوداً وكفراً. وحيث كان موضـوع المعاد دقيقاً غيبياً، لاترقى الى آفاقه غالب الأذهان والأفكار، فقد جهدتُ ما استطعتُ في جلاء حقائقه وعرض مفاهيمه بأسلوب واضح مركّز، يُرضي الخاصّة ولا يعنت العامّة، متفادياً غموض المـصـطلحات العلمية وجفاف البراهين الفلسـفية، تيسـيراً لطلّاب العقيدة، وتوفيراً لأوقاتهم وجهودهم في استطلاع هذا الكتاب.

واستهللتُ أبحاثه بنشأة فكرة المعاد، ومراحلها وأطوارها عبر العصور القديمة، والحضارات الغابـرة، والشرائع السـماوية الثلاث: الإسـلام والمسـيحية واليهـودية، وشرحتُ حتميّة المعاد على ضوء العقل ومعاييره الثابتة وإلهامه المُبدِع، وجلوتُ واقع

المعاد على ضوء العلم الحديث واكتشافاته الخلّابة، بغية تقريبه إلى الأذهان، وتيسير تصوّره والتصديق به. ثمّ بحثتهُ على ضوء القرآن الكريم وآياته المُلهِمة، ومنطقه السماوي الرفيع. وبحثتهُ كذلك على ضوء أحاديث أهل البيت عليهم السلام المُعبِّرة عن أسمى وأصدق حقائق المعاد، وعرضتُ أبحاث المعاد متسلسلة متعاقبة حسب مراحلها وأحداثها في ذلك اليوم الموعود، مستمدّة من واقع الفكر الإسلامي، وعقائده الحقّ، الّتي تُقنع العقل والقلب، وتُرضي الشعور والوجدان.

ورجائي من لطف الله تعالى أن يتقبّل منِّي هذا الجهد المتواضع، ويمنّ عليَّ بعفوه الشامل ورحمته الواسعة ونعيمه الخالد. وأن يجعل هذا الكتاب رائد هدى، وداعية رشاد، يُعزِّز العقيدة في نفوس المسلمين، ويشحنها بطاقاته الروحية، ويُذكي وعيهم الديني، إنّه وليّ التوفيق.

العراق ـ الكاظمية

مهدي السّيّد علي الصّدر

تعريف المعاد:

المعاد لغة هو: المرجع والمصير إلى زمان العود أو مكانه.

واصطلاحاً هو: بعث الأجسام البشرية بعد وفاتها وتلاشيها، واستعادة وضعها الطبيعي الّذي عاشتهُ في الحياة الدنيا، لمكافأتها على ما أسلفتهُ من الطاعات والمبرّات أو المعاصي والآثام.

وللمعاد أسماء تشفّ عن مغزاه: فهو يوم البعث، ويوم الحشر، ويوم القيامة، ويوم الدِّين...

معطيات المعاد

والمعاد ـ فضلاً عن بالغ أهمّيته وضرورة اعتقاده في عالم الشرائع والأديان السماوية ـ حافل بأسمى وأروع الخصائص والمعطيات: المعطى المعنوي، المعطى النفسي، المعطى الأخلاقي والمعطى الإجتماعي.. الّتي فاءت على المؤمنين بأكرم العطاء.

المعطى المعنوي:

لقد ثمّن القرآن المعاد، وأولاه المزيد من الدّعم والإسناد، واعتبره من دعائم العقيدة الإسلامية ومبادئها الجوهرية الأصيلة.

ناهيكَ في قيمه وسموّ عطائه المعنوي: أنّ الله عزّ وجلّ فرض اعتقاده على العباد، وحتم الإيمان به، كما فرض الإيمان بألوهيّته، وقدر جحوده وإنكاره كجحودها وإنكارها سواء بسواء، إذ هما من ضرورات الإسلام، وعناصر عقيدته المتكاملة.

﴿مَنْ آمَنَ باللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أجْرُهُم﴾. (البقرة / ٦٢)

﴿ولكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ باللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ﴾. (البقرة / ١٧٧)

﴿وَأنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ أعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً ألِيماً﴾. (الإسراء / ١٠)

﴿قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ باللهِ ولا باليَوْمِ الآخِرِ﴾. (التّوبة / ٢٩)

ولا ريب: أنّ الإستجابة الصادقة لهذه الآيات الكريمة وتنفيذها شعوراً وسلوكاً، باعث فاعل على تكامل المؤمن روحيّاً ومادّياً، وسعادته ديناً ودنيا.

والإيمان بالمعاد ـ إلى ذلك ـ من الحوافز الملحّة في تعزيز الدِّين، وتصعيد هيبته، ونفوذ سلطانه على العقول النيِّرة، والمشاعر النبيلة، لاحتوائه على مفاهيم الترغيب والترهيب، والخوف والرّجاء، والثّواب والعقاب الإلهي، الّتي تذرّعت به الأديان السماوية في توجيه أربابها وجهة الإيمان والرّشاد، وردعها عن الكفر والضّلال.

فالمعاد بإلهامه المُبدع، وتلقيناته الهادفة المركّزة، يملأ القلوب والنفوس المؤمنة بنور الوعي والمعرفة، ويصعِّد طاقاتها الإيجابية البنّاءة، فيُشعرها بالمصير النهائي المحتوم، وأنّها في معادها المرتقب مرهونة بأعمالها، ومسؤولة عنها، ومكافأة عليها جزاءً وِفاقاً على ما أسلفت في الدنيا من أعمال الخير أو الشّرّ، أو طاعة أو عصيان لله عزّ وجلّ.

انظر كيف صوّر القرآن الكريم ذلك الواقع الخطير تصويراً مثيراً رائعاً، يهزّ المشاعر ويوقظ الضمائر الراقدة:

﴿ كُلُّ ٱمرئٍ بما كَسَبَ رَهين ﴾. (الطّور / ٢١)

﴿ فاليَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ولا تُجْزَوْنَ إلاّ ما كُنتُمْ تَعْمَلُون ﴾. (يس / ٥٤)

﴿ فَمَنِ ٱتّبعَ هُداي فلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقى * ومَنْ أعْرَضَ عَن ذِكْرِي فإنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشِرُهُ يَوْمَ ٱلقِيامَةِ أعْمى ﴾. (طه / ١٢٣ ـ ١٢٤)

﴿ أفَمَن كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُون ﴾. (السّجدة / ١٨)

وعلى ضوء هذه الآيات الكريمة، وتوجيهها الرّائد، يؤهِّل المؤمن نفسه تأهيلاً واعياً، يحقِّق له أمان العزّة والمنعة والسّلام في الدّنيا، ويضمن له السّعادة الأبدية والنّعيم الخالد في الآخرة.

من أجل ذلك: كان المؤمنون إيماناً راسخاً هم أعظم الناس جهاداً وتضحية

في سبيل الله وأوفرهم صبراً وصموداً على مواجهة الأزمات والملمّات، وأكثرهم بذلاً وعطاءً في البرِّ والإحسان.

وقد تميّز المسلمون في فجر الإسلام بهذه المنقبة الفريدة، واشتهروا في بطولاتهم في المعارك الإسلامية، فحقّقوا أعظم وأروع الفتوحات، وتبوّؤا هامة التاريخ، وسادوا الأمم قروناً وأجيالاً.

ولمّا تناسوا حوافز الإيمان، وسادَتْهُم نوازعُ الأثرة والأطماع والأهواء، فتقاعسوا عن نصرة الحقّ والعدل والواجب المقدّس، عراهم الوهنُ والتخلّف، وعاشوا التسيّب والضّياع وباؤا بالخيبة والإخفاق.

المعطى النفسي للمعاد:

فهو يبهج النفوس المؤمنة، ويملؤها سكينة وسلاماً، بما يعدها من أماني الآخرة وآمالها المسرّة، ويبعثها على التطلّع والتشّوق إلى حياتها السعيدة ونعيمها المثالي الخالد، ويذكي أشواقها الواهة اللّهوفة إلى لقاء الأحبّاء والأعزّاء الّذين فارقوهم وارتحلوا عنهم إلى العالم الأخروي. ويشحن النفوس الواعية بفيض غامر وطاقات ضخمة من الصّبر والصّمود على تحمّل أعباء الحياة، ومواجهة مشاكلها وأزماتها المضنية، وينهنه عن النفوس الملتاعة والقلوب الكسيرة بمآسي الظّلم وجرائم الظّالمين، إيماناً بذلك اليوم الموعود الّذي يشيع فيه الحقّ، ويسود فيه العدل، وتندك فيه قيم الباطل والجور وينصف فيه المظلوم، ويبوء الظّالم بالخزي والعذاب.

تعيش النفوس المؤمنة تلك المباهج النفسية الممتعة، والآمال العريضة السارّة، آمنة مطمئنّة إلى مصيرها المشرق الوضّاء، وحياتها الآخروية السعيدة.

وتعيش النفوس الكافرة بالمَعادِ القنوطَ والحرمانَ من تلك الأماني والأشواق،

وتحيى حياة البهائم والأنعام.

من أجل ذلك، تفاقمت وتصاعدت الأمراض النفسية وأحداث الجرائم ومآسي الجنون والإنتحار في أرقى الأمم حضارة وسلطاناً، وأوفرها متعاً ورخاءً، لكفرها بالمعاد، ويأسها من تطلّعاته وآماله، وغدت فريسة الضغوط النفسية، وانفجاراتها المدمِّرة وكوارثها الرهيبة.

قال (ديل كارينجي) في كتابه «دع القلق وابدأ الحياة»:

«تدلّ الإحصاءات في أمريكا على أنّه في كلّ خمس وثلاثين دقيقة يقع حادث انتحار، وفي كلّ مائة وعشرين ثانية يُصاب شخص بالجنون، ومعظم حوادث الإنتحار، وكثيراً من حالات الجنون على الأرجح يمكن أن يقطع دابرها إذا أصاب هؤلاء الناس شيئاً من الأمان والإطمئنان وسكينة النفس الّتي يجلبها الدِّين وتجلبها الصّلاة».

وهكذا أكّد الباحثون الإجتماعيون بأنّ: «علماء الأمراض العقلية لا يجدون اليوم سلاحاً أمضى، وأبعد فاعلية لعلاج مرضاهم من الدِّين والإيمان بالله، والتطلّع إلى رحمة السماء.. والتشبّث بالرعاية الإلهٰية، والإلتجاء إلى قوّة الخالق الهائلة عندما يتّضح عجز كلّ قوّة سواه!!

ولقد بدأت التجربة في مستشفى بولاية نيويورك، وهو مستشفى خاص بمرتكبي الجرائم من المصابين بالأمراض العقلية.

بدأت التجربة بإدخال الدِّين كوسيلة جديدة للعلاج بجانب الصّدمات الكهربائية لخلايا المخّ، والعقاقير المسكِّنة والمهدِّئة للأعصاب.

وكانت النتيجة رائعة.. أنّ أولئك الّذين تعذّر شفاؤهم، بل فقدوا الأمل فيه،

انتقلوا من عالم المجانين إلى عـالم العقلاء. أولئـك الّذين ارتكبوا أفظع الجـرائم وهم مسلوبو الإرادة، باتوا يسيطرون على إرادتهم وتفكيرهم وتصرّفاتهم. ويذرفون الدّمع ندماً، وكلّهم أمل في رحمة السّماء ومغفرة الله»[١].

المعطى الأخلاقي للمعاد:

وللمعاد آثاره الإيجابية الفاعلة، وعطاؤه الأخلاقي السـخي، وذلك بتصـعيد القيم والمثل الروحية والأخلاقية في نفوس المؤمنـين بالمعاد، وإشعارهم باطّلاع الله تعالى عليهم، وإحاطته الشـاملة بجميع أعمالهـم وأقوالهـم، وأسرارهم ودخائلهـم، وإعلامهم برقابته لهم، ومحاسـبته إيّاهم، ومكافأتهم العادلة على محاسن أو مساوئ أعمالهم، بهدف ترغيبهم في ثواب الآخرة، وترهيبهم من عقابها الأليم.

ومتى امتلأت النفوس المؤمنـة بتلك الأحاسيس والمشاعر، عرجت إلى أوج الفضائل وتحلّت بأكرم الأخلاق، وجنّدت طاقاتهـا في طاعة الله ورضوانه، والتوقّي من مخالفته وسخطه، ولو كانوا في غيبة عن الرّقباء، وغفلة من الحرّاس.

﴿فأمّا مَن طَغَى * وآثَرَ ٱلحَياةَ ٱلدُّنْيا * فإنّ ٱلجَحِيمَ هِيَ ٱلمأوى * وأمّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ ونَهى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلهَوى * فإنَّ ٱلجَنَّةَ هِيَ ٱلمأوى﴾. (النّازعات/ ٣٨ ـ ٤٢)

وإذا وهنت تلك النفـوس، واعتراها الضّعف البشري، وانزلقـت في مـهاوي الآثام والمـنكرات، شعرت بوخز الضمير، وتقريع الوجدان، وبادرت إلى التوبة إلى الله جلّ جلاله، توجّساً من سخطه وعقابه يوم الجزاء.

راود أعرابيّ امرأةً، ولمّا همّ بها، ذكر معاده فاستعصم، وقام عنها وهو يقول:

---

(١) العقائد الإسلامية، للأستاذ السيد سابق، ص ٨٩.

«إنّ مَنْ باعَ جنّة عرضها السّماوات والأرض بشهوةٍ عابرةٍ لَهُوَ جاهل غبيّ».

ويُحدِّثنا الرّواة: «أنّ رسول الله رأى شابّاً في المسـجد، مصفرّ الوجه، نحـيف الجسم، فقال له ﷺ: كيف أصبحتَ يا فلان؟

قال: أصبحتُ يا رسول الله موقناً.

فقال له: فما حقيقة يقينك؟

فقال: إنّ يقيـني ـ يا رسـول الله ـ هو الّذي أحـزنني، وأسهرَ ليـلي، وأظمأ هواجري، فعزفت نفسي عن الدّنيـا وما فيها، حتّى كأنِّي أنظـر إلى عرش ربِّي وقد نُصِبَ للحسـاب، وحشر الخـلائق لذلك وأنا فيهم، وكأنِّي أنظـر إلى أهل الجنّـة يتنعّمون في الجنّة ويتعارفون، على الأرائك مُتّكئون، وكأنِّي أنظر إلى أهل النار وهم فيها معذّبون مصطرخون، وكأنِّي الآن أستمع زفير النار يدور في مسامعي.

فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: هذا عبد نوّر الله قلبه بالإيمان...»[(١)].

وحين يتجاهل الإنسان تبعة المعاد ومسؤوليّته الكبرى، تعتلّ أخلاقه وينحرف سلوكه وتلتاث سـيرته، وتسترقّه نوازع التردِّي والفساد، كما تجسِّده أخلاق الأمم المتحضِّرة الّتي لا تأبه بالمعاد، ولا تقيم لها وزناً.

فقد قرّر كندي في تصريحه الخطير سنة ١٩٦٢: «إنّ مستقبل أمريكا في خطر، لأنّ شبابها مائع غارق في الشهوات، لا يقدِّر المسؤولية المُلقاة على عاتقه»[(٢)].

وصرّح خروشوف سنة ١٩٦٢: «بأنّ مستقبل روسيا في خطر، وأنّ شباب

---

(١) أخلاق أهل البيت، ص ١٨٢، بتصرّف.

(٢) جاهليّة القرن العشرين، للأستاذ محمّد قطب، ص ١٩٧.

روسيا لا يؤتَمَن على مستقبلها، لأنّه مائع منحل غارق في الشّهوات»[١].

وجاءت الأنبـاء من أوروبا وأمريكا تقول: «إنّ مؤتمرات علميّـة تُعقد هناك للنّظر في انحراف الشّباب، وتقرّر ـ في جدٍّ صارمٍ لا هزل فيه ـ أنّ الأمر خطير حقّاً.. وأنّ الجيل الناشئ الّذي سيتولّى غداً قيادة الأمر.. جيل منحرف هابط، لا يؤتَمَن على المستقبل، وأنّ الدول الغربية بالبوار»[٢].

المعطى الإجتماعي للمعاد:

وهكذا سرت تلقينات المعاد، وإلهامه الموجّه، من صعيد الفـرد المسـلم إلى المجتمع الإسلامي، وأوحت إلى فئاته وعناصره الخيِّرة الواعية أن تكون مثلاً عالياً، ونمطاً فريداً، في التعايش السلمي، والتكافل الإجتماعي، ورعاية المصالح المشـتركة، والتواصي بالحقّ، والتناصر على العدل.

فهم في التشريع الإسلامي أسرة واحدة، يسعدها ويشقيها ما يسعد أفرادها ويشقيهم، دستورها: ﴿**مُحَمَّدٌ رَسُولُ ٱللهِ وَٱلّذِينَ مَعَهُ أَشِدّاء على الكُفّارِ رُحماء بينهُم**﴾ (الفتح / ٢٩)، ورائدها: قول الرسـول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم: «**مَنْ أصبحَ لا يهتمّ بأمـور المسلمين فليس بمسلم**»[٣]، وهويّة هذا المجـتمع قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**المؤمـن مَنْ أمنـهُ الناس على أموالهم ودمائهم، والمسلم مَنْ سلمَ المسلمون من يده ولسانه، والمهاجر مَنْ هجر السّيِّئات**»[٤].

---

(١) المصدر السابق، ص ١٩٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٠٠.

(٣) الوافي، ج ٣، ص ٩٩، عن الكافي.

(٤) الوافي، ج ١٤، ص٤٨، عن الفقيه.

بهذه المشاعر النبيلة، والآداب الإجتماعية الرائدة، يعيش المجتمع السّلام والرّخاء وتسوده السكينة والطمأنينة، ويُظلّله التلاحم والإنسجام.

وذلك استجابة لأمر الله تعالى، وتحقيقاً لدستوره الهادف الحكيم، ورغبة في ثوابه الجزيل، وفرقاً من عقابه، يوم الجزاء.

وبإغفالها وتجاهلها يعيش المجتمع حياة الغاب، وشريعة الذئاب.

حسبنا ما تتّسم به الدول الكبرى من ضروب التناكر والتناحر، والتنافس على الأطماع الإستعمارية، والتسابق بالأسلحة النووية الماحقة المبيدة للنوع البشري، لكفرها بالمعاد، واستخفافها بوعده ووعيده، وثوابه وعقابه.

قال الدكتور (الكسيس كاريل) في كتابه «الإنسان ذلك المجهول»:

«إنّ الجماعات والأمم الّتي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نموّ وتقدّم، هي على وجه الدقّة الجماعات والأمم الآخذة في الضّعف، والّتي ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها، ولكنّها لا تُدرك ذلك، إذ ليس هناك ما يحميها من الظّروف العدائية الّتي شيّدها العلم حولها».

وقال (اكريسي موريسون) رئيس أكاديمية نيويورك سابقاً:

«لسوف تقضي هذه الحضارة بدون العقيدة والدِّين. سوف يتحوّل النظام إلى فوضى. سوف ينعدم التوازن، وضبط النّفس، والتمسّك. سوف يتفشّى الشّرّ في كلِّ مكان. إنّها لحاجة ملحّة أن نقوِّي من صلتنا وعلاقتنا بالله»(١).

---

(١) الإسلام يتحدّى، للأستاذ وحيد الدِّين خان، ص ١٨٨.

فكرة المعاد

استشعر الإنسان البدائي منذ فجر التاريخ، وعبرَ آماده السحيقة فكرة المعاد. واستلهمها بفطرته الواعية، ومنطقه الملهم، حيث راعه الموت وأفزعه وهو يتخطّف أحبّاءه وأعزّاءه، فلا يملك حمايتهم من سطوته، ولا يستطيع إنقاذهم من براثنه، ولا يملك أسراؤه الفرار منه، أو التخلّف عنه، فتساقطوا صرعى في حومته، وساروا مرغمين على حدائه، في موكب صامت كئيب جثثاً هامدة، وقد كانوا بالأمس القريب بهجة الناظر، وسلوة الفؤاد وزهرة الحياة. هاله ذلك المنظر وأشجاه، وطفقَ يندبهم ويبكيهم بأسى ولوعة، وراح ـ وهو في غمرة أساه ـ يفكّر في مصيره المحتوم، وينتظر دوره المرتقب من سطوة الموت وسلطانه القاهر. واختلجت في نفسه هواجس محزنة فيمَن سبقوه إلى تلك المرحلة الأبدية، أيفارقهم ويفارقونه فراقاً سرمديّاً لا لقاء بعده، أم هو الفراق الموقوت الّذي يكون بعده اللّقاء في شوط آخر عبرَ حياة خالدة، يجتمع فيها شملهم، ويحيون فيها حياة رغيدة هانئة ؟!!

تفاعلت في نفسه تلك المشاعر، فهداه فكره الواله الوثّاب وعقله الملهم إلى ضرورة المعاد، وحتميّة الحياة الآخرة فيه، فآمنَ به، ووجدَ فيه العزاء والسلوان.

ومن الطبيعي أن يتفاوت البشر في تصوّر المعاد واستجلاء أسراره الغيبية، لتفاوت وعيهم وإدراكهم، واختلاف عقائدهم وثقافاتهم.

فقد تصوّرته الأمم القديمة الّتي لم تهتد بنور السماء وإلهامها الخلّاق، تصوّراً غبياً لا يعكس واقعه الحقّ ومفاهيمه الأصيلة، وتخبّطت في تصوّره ضروب الأوهام

والخرافات، وفيما يلي عرض خاطف لوجهات نظر أبرز الحضارات القديمة والأمم الغابرة في المعاد.

المعاد في نظر الفراعنة:

«اعتقد الفراعنة أن لا يكتب الخلود إلّا لأولئك الأخيار، الّذين لم يرتكبوا الآثام ولم يفعلوا الشّرّ.. هؤلاء الّذين يجدهم «أوزير» مبرئين من جميع الذنوب، يسمح لهم بأن يعيشوا مخلّدين في «حقل الفيضان السعيد»، أي الحدائق السماوية، حيث توجد الوفرة والأمن والدوام.

إنّ هذه الحقول الفردوسية لايمكن الوصول إليها إلاّ باستخدام صاحب (المعبر) وهو شيخ طاعن في السِّن ـ هو أوزير ـ الّذي لا يقبل في قاربه إلّا الرِّجال والنِّساء الّذين لم يرتكبوا في حياتهم آثاماً.

ومعنى هذا أنّ البعث ليس عامّاً، وإنّما هو من نصيب الأخيار وحدهم، أمّا الأشرار فيُتركون حيث هم في قبورهم يجوعون ويظمأون ويُطعمون التماسيح البشعة، ولا يخرجون من قبورهم أبداً.

و«أوزير» هو الّذي يحاسب الموتى، ويزن قلب كلّ مَنْ يريد الركوب في قاربه في كفّه ميزان تقابله في الكفّة الأخرى ريشة! لتأكّد من صدق قوله!.. والّذين ينجون في هذا الإمتحان يدخلون الحدائق السماوية، أمّا الّذين لا ينجحون فيحكم عليهم أن يبقوا أبد الدّهر في قبورهم في جوع وفي ظمأ تنهشهم التماسيح البشعة، ولا يخرجون من قبورهم ليروا الشمس، وليس أوزير وحده هو الّذي يتولّى حساب الناس يوم الحساب، وإنّما حوله عدد من القضاة و«المحلّفين» يقضون معه في براءة الإنسان أو إدانته!

فليس بالأعمال الصالحة وحدها يدخل الناس حدائق السماوات!! إذ لو صحّ

هذا لبطل عمل الكهنة أو لضاع سلطانهم على قلوب الناس وعلى جيوبهم.

فقد ألقى الكهنة في قلوب الناس أنّ هناك طرقاً ماهرة لاجتياز الامتحان أمام «أوزير» وأنّ لكلِّ إنسان أن يتعلّم هذه الطّرق ما شاء لقاء أجر معلوم، ومن هذه الطّرق أن يهيّأ القبر بما يحتاجه من طعام وشراب وبمَن يستطيع الإستعانة بهم من الخدم بشرط أن يكون ذلك بمعرفة الكاهن وعلى حسب النظام الّذي يضعه، والطّقوس الّتي يؤدِّيها، وبغير هذا لا يكون للطّعام ولا للشّراب أثره المطلوب!

ومن تلك الطّرق أيضاً أن يملأ القبر بالطلاسم والصور الّتي تحبّها الآلهة من أسماك ونسور وأفاع وجعارين.. فإذا ما بارك الكاهن هذه الأشياء حسب طقوس يؤدِّيها، أخافت كلّ معتد على الميِّت، وقضت على كلِّ شرّ.

وكان خيراً من هذه الطّرق كلّها أن يحمل الميِّت معه «كتاب الموتى»، وهو: قراطيس ملفوفة أودع فيها الكهنة أدعية وصلوات وتعاويذ من شأنها أن تهدِّئ من غضب «أوزير» بل وأن تخدعه...»[1].

المعاد في نظر قدماء الفُرس:

«وقضيّة البعث في الدِّيانة «الزّرادشتية» قضيّة واضحة لأنّها جوهر العقيدة «الزّرادشتية»، ومركز الثّقل فيها.

وتقوم هذه العقيدة على أساس أنّ الإنسان له رسالة على هذه الأرض، وأنّه إذا أدّى هذه الرِّسالة على وجهها كُتب له الخلود، وانضمّ إلى عالم الملائكة في الملأ الأعلى.. أمّا إذا قصّر في أداء رسالته، فإنّه يبقى في عالم الظّلام أبد الآبدين.

(١) الله.. والإنسان، للأستاذ عبدالكريم الخطيب، نقلاً عن قصّة الحضارة، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

هناك معركة بين الخير والشّرّ، بين النّور والظّلام، بين «أهورا مزدا» و«أهرمان» .. ومدّة هذه المعركة إثنا عشر ألف عام، هي عمر الإنسان على هذه الأرض.. والحرب سجال بين المتقاتلين ينتصر هذا مرّة، وينتصر ذلك مرّة في دورات متعاقبة، كلّ دورة مدّتها ثلاثة آلاف من الأعوام، والدورة النهائية يكون النصر فيها للخير للنّور لـ «أهورا مزدا»...

إنّ قوى الشّرّ ستُغْلَب آخر الأمر، ويكون مصيرها الفناء بعد أن يمرّ العالم بأربعة عهود، طول كلّ منها ثلاثة آلاف عام، يسيطر عليه فيها على التوالي أهورا مزدا وأهرمان، وحينئذ ينتصر الحقّ في كلِّ مكان وينعدم الشّرّ. ثمّ ينضمّ الصّالحون إلى «أهورا مزدا» في الجنّة، ويسقط الخبيثون في هوّة الظّلمة، يطعمون فيها أبد الدّهر سمّاً زعافاً.

ولم تكن العقيدة «الزّرادشتية» تعنى بالجسد بعد موته.. إنّه لم يكن إلّا شبحاً تجسّدت فيه الرّوح، فإذا ما أدّت الرّوح دورها فيه فليعد إلى التّراب لأنّه من التّراب.

ومن هنا كان من تعاليم «زرادشت» ألّا يُدفن الموتى أو يُحرقوا كما كان يفعل اليونان بل يجب أن تُلقى أجسادهم إلى الكلاب أو الطّيور الجارحة»[1].

المعاد في نظر الهنود القدماء:

«والّذي يغلب على الديانات الهندية جميعها في أمر البعث هو: إنكار البعث الشخصي على الصورة المعروفة في الديانات السماوية.. فلم يكن في ديانات الهند القديمة كلّها نظر إلى البعث الجسدي، ومن هنا نشأت عقيدة حرق الأجسام بعد موتها.

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٣٠ ـ ٢٣٢، باختصار.

على أنّ الإنسان إذا ماتَ فلن تُطوى صفحته إلى الأبد، بل إنّ روحه تنتقل في حيوانات أخرى وتلبس صوراً وأجساداً لا تنتهي.. متى بلي جسده لبست جسداً!

العقاب والثواب ليسا جنّة ولا ناراً، وإنّما هما في الجسد الّذي تنتقل إليه الرّوح بعد مفارقتها الجسد الّذي كانت تلبسه.. فإن كانت أعمالها رديئة في الجسد الّذي فارقته، لبست جسداً لحيوان خسيس، وإذا تمّ عقابها بقدر جرمها، طهرت وانتقلت من جسم ذلك الحيوان إلى حيوان أرقى.. وهكذا تنقلب في دورات لا تنتهي»[1].

المعاد في نظرات أخرى:

وهكذا عاشت الأمم الكافرة ضروب الأوهام والخرافات في تصوّر المعاد، وتخبّطت في تخيّله تخبّطاً مخجلاً:

«يضع الساموديون والإستراليون الغربيون والداماريون وغيرهم من شعوب استراليا مع الميِّت كلّ ما يمتلكه لينتفع به بعد موته.

ومن المتوحِّشين مَنْ غلا غلوّاً كبيراً في هذه العقائد، حتّى أنّهم ليضعون مع الميِّت نساءه وعبيده وبعض خاصّة أصحابه ليأنس بهم في الآخرة.

وفي مكسيكا من أمريكا كانوا يذبحون مع كبيرهم كاهناً ليقوم له بالخدمة الدينية في العالم الآخر.

وهنود «دفيرابار» متى أشرف السيِّد لديهم على الموت يعمدون إلى قتل جميع عبيده ليهيِّئوا له محلّاً في عالم الآخرة، حتّى إذا انتهى إليه وجده مُعدّاً له. وروي أنّه

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٣٥.

متى مات ملك البيرو، كانوا يضحّون له خدمه وسراريه المخصيّات ممّن يبلغ عددهم أحياناً ألف نسمة»[1].

المعاد وعرب الجاهليّة:

أمّا الأمّة العربيــة الّتي لم تُعاصر الأنبـياء، ولم تواكب رسالاتهم، ولم تستلهم هداهم، فقد كانت تعيش الجهل والتخلّف الفكري والرّوحي، اسـتعبدها الضّــلال، واستوطنتها الأوهام والخرافات، فلم تكن تعي فكرة المعاد، أو تهضم واقعه الغيبي، واعتــبرتهُ من ضروب المحال، باســتثناء ثلّة قليلة منهم آمنـت بالمعاد إيماناً ساذجاً مشوباً بالتطرّف والشّذوذ أحياناً، كسائر الأمم المتخلّفة ثقافة وعرفاناً. نعم كان فيهم أفراد عباقرة نابهون استلهموا بعقولهم النيِّرة، وتراثهم الرّوحي الموروث فكرة المعاد، كأجداد النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، إذ كانوا مؤمنين بفطرتهم السليمة، وموقنين بالحشر والمعاد: كقسّ بن ساعدة الأيادي، وزيد بن عمر بن نفيل، وعلّاف بن شهاب التّيمي، وزهير ابن أبي سلمى، وعبدالله القضــاعي، وأضرابهم الّذين عرفـوا بقوّة الوعي والذّكاء، ونوّهت عنهم الأسفار التاريخية.

لقد نضجت فكرة المعاد في ظلال الشرائع السماوية، وذكت وتسامت عن تلك الأساطير والأوهام الّتي تخيّلتها أذهان الأمم النائية المتخلِّفة عن وحي السماء وإلهامها المبدع، وأصبحت فكرة المؤمنين بالمعاد نقيّة الصّور، واضحة المعالم، سليمة الأصول، وإن تفاضلت الشرائع في تبيانها وجلاء أسرارها، نظراً لتفاوت مسـتوياتها الفكرية واختلاف ذهنيات أبنائها في تفهّم تلك الحقائق الغيبية.

---

(١) دائرة المعارف، الأستاذ محمّد فريد وجدي، المجلّد الأوّل، ص ٩٠ ـ ٩٤.

المعاد والشرائع السماوية

المعاد والشريعة اليهودية:

أشارت اليهودية إلى فكرة المعاد بشكل غائم لزهد أتباعها بالمفاهيم الرّوحية وتهالكهم على زخارف الحياة وأشواقها كما وصفهم بذلك «ول ديورانت»:

«إنّ اليهود قلّما كانوا يشيرون إلى حياة أخرى بعد الموت، ولم يرد في دينهم شيء من الخلود.. وكان ثوابهم وعقابهم مقصورَين على الحياة الدنيا»[1].

من أجل ذلك، تركّز الوعد والوعيد والترغيب والترهيب في هذه الشريعة على المآرب الدنيوية:

«يا إسرائيل إن عملت بوصايا إلهك بورِكتَ في قريتك، بورِكتَ في حقلك، بورِكَ ثمار كرومك، ووكد بعيرك... وإن خالفتَ تنقلب بركاتك لعنات ويبدِّدك في جميع الأمم، ويعطيك قلباً فزعاً، ووجع العين، ورماك بالنيط، وتكون مرعوباً باللّيل والنّهار»[2].

ومن هنا أوردت الشريعة اليهودية تلميحات خاطفة عن المعاد:

فقد جاء في الإصحاح الرابع والعشرين من كتاب أشعيا وفيه إعلام عن يوم:

---

(١) قصّة الحضارة، ج ٢، ص ٣٤٠.

(٢) أبو الفرج العبري في تاريخه مختصر أخبار الدول، ص ٣٢.

«يطالب فيه الرّبّ جند العلاء في العلاء، ويجمعون جمعاً كأسارى في سجن.. ويخجل القمر وتخزى الشمس، لأنّ ربّ الجنود قد ملك في جبل صهيون وفي أورشليم».

وجاء في سفر دانيال:

«إنّ كثيراً من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون: هؤلاء إلى الحياة الأبدية، وهؤلاء إلى العار والإزدراء الأبدي» (دانيال ١٢: ٢ ـ ٣).

وجاء في الإصحاح الخامس والعشرين من سفر «أشعياء»:

«يضع ربّ الجنود لجميع الشعوب في هذا الجبل وليمة سمائن: وليمة خمر على دردي سمائن ممخة: دردي مصفّى ويفنى في هذا الجبل وجه النّقاب. النّقاب الّذي على كلّ الشعوب والغطاء المغطّى به على كلّ الأمم، يبلغ الموت إلى الأبد، ويمسح السيِّد الرّبّ الدّموع من كلِّ الوجوه».

وجاء في سفر التثنية في الإصحاح ١٦/٨:

«الّذي أطعمكَ في البريّة المنّ الّذي لم يعرفه آباؤك لكي يذلّك ويجرِّبك لكي يحسن إليك في آخرتك».

وورد في سفر التثنية كذلك ٢٨/٣٢ و ٢٩:

«إنّهم أمّة عديمة الرّأي ولا بصيرة لهم. لو عقلوا لفطنوا بهذه وتأمّلوا آخرتهم».

وجاء في سفر التثنية كذلك ١٩/٣٢ و ٢٠:

«فرأى الرّبّ ورذل من الغيظ بنيه وبناته وقال: احجب وجهي عنهم وانظر ماذا تكون آخرتهم، إنّهم جيل متقلّب أولاد لا أمانة فيهم».

المعاد والشريعة المسيحية:

لقد كانت هذه الشريعة امتداداً لشريعة موسى عليه السلام، ومتمِّمة لمبادئها وآدابها، بيدَ أنّ السيِّد المسيح عليه السلام جاهدَ جهاداً مستبسلاً في تخفيف حدّة الجشع الاذي ّسترق بني إسرائيل، وعني بتهذيب نفوسهم، وتصعيد وجدانهم بالقيم الرّوحية ومُثُلها الرفيعة:

«لا تقدرون أن تخدموا الله والمال. لذلك أقول لكم: لا تهتمّوا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون، ولا لأجسادكم بما تلبسون، أليست الحياة أفضل من الطّعام، والجسد أفضل من اللِّباس، إلى قوله عليه السلام: ولكن اطلبوا ملكوت الله وبرِّه وهذه تزاد لكم» (متّى: الإصحاح ٦: ٢٥ ـ ٣٣).

وقد تجلّت في هذه الشريعة واقعية المعاد ومفهوم الثواب والعقاب فيه، بأسلوب أوضح وأصرح من سالفتها، كما تصوِّره النصوص الإنجيلية التالية:

«ولكن أقول لكم إنّ كلّ كلمة بطالة يتكلّم بها الناس سوف يعطون عنها حساباً يوم الدِّين. لأنّك بكلامك تتبرّر، وبكلامك تُدان». (متّى ١٢: ٢٦ ـ ٢٧).

«إنّ مرور جمل من ثقب ابرة، أيسر من أن يدخل غنيّ إلى ملكوت الله» (متّى ١٩).

«إنِّي لستُ شارباً من ابنة هذه الكرمة حتّى أشربها معكم تارةً أخرى في ملكوت السماوات» (متّى: الإصحاح ٢٦ آية ٢٩).

«ستأكلون وتشربون على مائدة أبي» (يوحنّا: الإصحاح ٢٢ آية ٣٠).

«ما أكثر الغرف والمساكن عند أبي» (يوحنّا: الإصحاح ١٤ آية ٢).

«وأنا أقول لك أيضاً: أنت بطرس، وعلى هذه الصخرة ابنِ كنيستي، وأبواب

الجحيم لن تقوى عليها، وأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات» (متّى: الإصحاح ١٦).

المعاد في الشريعة الإسلامية:

ولمّا انبثق فجر الإسلام وأطلّ برسالته الخالدة على البشر، أوضح واقع المعاد وشرح مفاهيمه شرحاً وافياً لا نظير له في الكتب السماوية السالفة، وصوّرها تصويراً بليغاً رائعاً يستهوي العقول والقلوب، وناقش منكري المعاد، وأبطل مزاعمهم وفنّد آراءهم بأساليبه العلمية، ممّا أمدّ المسلمين بثروة فكرية ضخمة، وكنوز روحيّة مِعطاء لا تملكها جميع الشرائع والأديان. كما نفصّله في حقل المعاد والقرآن الكريم.

وهكذا تجلّت من هذا العرض الخاطف فكرة المعاد الّتي ما زالت ولم تزل مسيطرة منذ فجر التاريخ وعبرَ أطواره على عقول البشر ومداركهم سواءً المؤمنون منهم أو الكافرون وإن اختلفوا في صدق التصوّر وإدراك الواقع الأصيل.

المعاد والعقل

من أبرز خصائص الإنسان وأجلّ مواهبه، طاقاته الفكرية الضخمة، وغريزته الإستطلاعية المولعة باستكشاف الأسرار والحقائق الّتي تكتنف حياته، وتمسّها من قُرْب أو بُعْد.

فهو وثّاب الفكر، نافذ البصيرة، توّاق إلى إحراز المزيد من المكاسب العلمية، واستغلالها فيما يحقّق طموحه الأدبيّ والمادّي.

وهكذا أدرك الإنسان بوعيه اللّامح، وبصيرته النفّاذة، ومنطقه السديد: حتميّة المعاد، وضرورته الملحّة في عالم الإنسان، فآمنَ به، واعتقدهُ بقناعة ويُسْر، فكان ذلك من أجل مكاسبه العلمية، وعطائه الفكري الفيّاض.

فليس المعاد ـ كما يتصوّره القاصرون ـ من المستحيلات العقلية الّتي يرفضها العقل، كاجتماع النقيضين ـ الوجود والعدم ـ أو ارتفاعهما في آنٍ واحد، وإنّما هو من الممكنات الّتي وعاها العقل، وفرض حتميّتها من واقع الحياة. وإنّما أنكره القاصرون لغرابته عليهم، وبُعده عن الفهم وأعرافهم، وشتّان بين المستحيل عقلاً، وبين الممتنع عادة وألفاً. فكم استنكرَ الناس وشجبوا حقائق ومفاهيم حسبوها محالاً بحكم عاداتهم وأنظارهم المحدودة، ثمّ آمنوا بها واستيقنتها أنفسهم كارتياد القَمَر، أو سماع الأصوات البعيدة، أو مشاهدة الصور المبثوثة عبرَ الفضاء، أو تفجير الذرّة، ونحوها من المكتشفات الحديثة الّتي كانت محالاً في حسبان العُرْف، وأصبحت واقعاً محسوساً،

وحيث اتّضح ذلك فحريّ بنا أن نستلهم العقل ونستهدي بحججه في تقرير المعاد وحتميّة وقوعه.

(١) إنّ الله عزّ وجلّ لم يخلق الإنسان عبثاً، ولم يتركه سدىً دون غاية سامية وحكمة هادفة، وهو الّذي شرّفه بأجلِّ الخصائص وأكرم المواهب الّتي فاقَ بها سائر الخلق، وبذّ بها جميع الكائنات. وليس من الحكمة أن يكون مصير الإنسان ـ بعد هذه الحياة العاجلة القصيرة ـ مصيراً ضائعاً خاسراً كمصير الأزهار والحشرات سرعان ما يغتالها الموت، ويسحقها الدثور والفناء، وافتراض ذلك مناقض لحكمة خلق الإنسان وإبداعه، ومُزرٍ بكرامته، وباعث على حرمانه من أهداف رحلته الصاعدة، وتكامله المنشود في الحياة الأبدية السعيدة، لذلك كان المعاد ضرورة حتميّة تحقِّق تكامل الإنسان وأهدافه وأمانيه في الخلود، وتُبرِّر الغاية المنشودة من خلقه وإبداعه.

(٢) إنّ الله تعالى هو المثل الأعلى في العدل والنزاهة عن الظّلم، ومن مستلزمات عدله، ومقتضيات ألوهيّته الرحيمة أن يكافئ العباد حسب عقائدهم الحقّ أو الباطلة، وأعمالهم الحسنة أو السيّئة، وسلوكهم المستقيم أو المنحرف، ويجازيهم بما يستحقّونه من صنوف التكريم والإنعام أو الإهانة والعذاب، وحيث كان الأمر كذلك، علمنا أنّ من واجب العدل الإلٰهي التفريق والتمييز بين المؤمن والكافر، والتّقيّ والفاجر، والمحسن والمسيء، والمظلوم والظّالم، إذ المساواة بين الفريقين ظلم صارخ لا يليق بعدل الله تعالى وجلال ألوهيّته.

وكيف تجوز المساواة بين المجدِّين في طاعة الله ومرضاته، وبين المنهمكين على عصيانه وسخطه؟!! وكيف يساوي العدل الحكيم بين مَنْ عاشَ حياته مجرماً سفّاكاً لم ينله العقاب، وبين مَنْ عاشَ مظلوماً مهتَضَماً لم ينتصف من ظالمه؟!!

من أجل ذلك، فقد حتم العقل والوجـدان وجود دار أخرى بعد هذه الدار، وحياة آجلة بعد هذه الحياة، يتحقّق فيها العدل الإلهي، ويتناصف فيها العباد، وينال كلّ منهم ما يستحقّه من الثّواب أو العقاب.

(٣) إنّ الله عزّ وجلّ أمرَ العباد وكلّفهم بضروب العبادات والفرائض الروحية والمادِّية: كالصّلاة والصِّيام والحجّ والزّكاة والجهاد... ووعد المطيعـين والمتعبِّدين من عباده بجزيل لطفه وإنعامه. وتوعّد العُصاة والمخالفين لأمره بالسخط والعقاب.

وبديهيّ أنّ امتثال تلك الأوامر والتكاليف وتنفيـذها يتطلّب جهوداً جسيمة ومادِّية ضخمة، يستحقّ المطيـعون عليها حسن الجزاء وكرم المكافأة من المولى عزّ وجلّ، كما يستحقّ العصاة والمتمرِّدون السخط والعقاب منه.

ولولا حتميّة الجزاء والمكافأة لبطل الوعد والوعيد، والثّواب والعقاب، وغدت جميع الواجبات والفرائض جهداً ضائعاً، وعملاً مرهقاً دون جدوى وعطاء.

وهذا ـ دون ريـب ـ مناقض لمنطـق العقـل والشّرع. ومن هنا أدرك العقـل الواعي حتميّة المـعاد وضرورته الملحّة، لينال المطيعون فيه ثمار جهدهم وطاعتهم، ويلاقي العُصاة والمتمرِّدون جزاء عصيانهم وتمرّدهم.

﴿أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوون﴾. (السجدة / ١٨)

(٤) شـاءت حكمة الله تعـالى أن يبتلي عـباده ويمحِّـصهم بالأرزاء والمكاره، اختباراً لواقع إيمانهم وأبعاد طاعتهم، ومبلغ رضاهم أو سخطهم على قدره وقضائه:

﴿أحَسِبَ ٱلنّاسُ أن يُتْرَكُوا أن يَقُولُوا آمَنّا وهُمْ لا يُفْتَنُون * وَلَقَد فَتَنّا ٱلّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللهُ ٱلّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلكاذِبِين﴾. (العنكبوت / ٢ ـ ٣)

وبهذا تفاوتت وتفاضلت حظوظ الناس ومستوياتهم في مدارج الحياة وأشواقها،

فعاشَ بعضهم سعيداً منعماً بالصحّة والثّراء والجاه العريض، وقرّة عين من الأزواج والبنين، وعاش البعض الآخر بائساً شقيّاً محروماً من كلِّ ذلك.

ويأبى المنطق والوجدان مساواة هٰذين الفريقين المتناقضين سعادة وشقاء في معيار التقييم والتكريم.

وهذا ما يحتِّم الحياة الآخرة، لينال البؤساء المؤمنون فيها جزاء صبرهم وعنائهم، فيسعدون آنذاك في ظلال رحمة الله الوارفة، وفردوسه الرفيع، وينالون من شرف زلفاه، وكرم آلائه وألطافه ما يعوّضهم عن شقائهم وحرمانهم في الحياة الدنيا.

وليس من الضروري أن يكون الجزاء والمكافأة مقصورين على الحياة الدنيا فحسب، حيث أنّها دار عمل وتكليف واختبار لا يستحقّ المكلّف فيها أجراً، إلّا بعد تصرّمها، وانتهاء فترة التكليف والإختبار فيها، وذلك منوط بالإرتحال إلى العالم الأخروي.

(٥) لقد درج العقلاء وتواطأوا على التسليم والإذعان بالحقائق العلمية الثابتة ومقرّرات العلماء الأكفاء، وإن لم يحيطوا بها خبراً، إذ ليس في مقدور العالم أن يتحقّق منها بتجاربه الشخصية وممارساته العلمية الخاصة لتعذّر ذلك وتعسّره عليه.

ومن هنا كان محتماً على العاقل الحصيف «أن يسلِّم تسليماً بما قام به رجال العلوم الّذين سبقوه من أعمال، وما وصلوا إليه من نتائج:

من ذلك مثلاً: إنّ عدد مَنْ قاموا بتحديد سرعة الضوء يُعدّ قليلاً جدّاً، ومع ذلك فإنّ كلّ الناس يسلِّمون بسرعته المعروفة، ولا يساورهم شكّ في أمرها. وكذلك الحال فيما يتّصل بتركيب الذرّة، وفيما يتعلّق بالأجرام السماوية وأحجامها وأبعادها».

وعلى ضوء هذا الواقع، وضماناً لسعادة الإنسان في الحياة الآخرة: وجب

الإيمان بالمعاد، والتسليم به لإجماع الأنبياء والمرسلين عبرَ رسالاتهم وعصورهم عليه وهم ـ دون ريب ـ معصومون عن الإختلاق، ومنزّهون عن جميع المساوئ والآثام، فإنكار المعاد ـ والحالة هذه ـ تكذيب لهم، وتحدٍّ صارخ لمبادئهم وشرائعهم وهم قادة الفكر، وهداة الإنسانية.

وبالتالي هو استهتار بقيم السماء ومعايير العقل، يزجّ المنكر في مهاوي الضّلال والشّقاء والهلاك الأبديّ.

المعاد والعلم الحديث

لا يستطيع الباحث أن يعرف واقع المعاد، ويكتشف مفاهيمه الغيبية الغامضة على ضوء العلم الحديث ومعاييره الحسِّية المادِّية، لقصور العلم وعجزه عن استجلائها وارتياد مجاهلها الواسعة الخطيرة.

لقد عجز العلم عن استطلاع جملة من القضايا المادِّية، وإدراك أسرارها وكنهها رغم واقعها الحسِّي، فأنّى له أن يُدرِك المفاهيم الميتافيزيقية وألغازها الخفيّة، وكلّما يستطيعه الباحث العلمي في هذا الموضوع الغيبي هو: تقريب المعاد إلى الذهنية المستنيرة الواعية، وتيسير تصوّره والتسليم به عن طريق الاكتشافات العلمية الّتي من شأنها أن تلقي ضوءاً على المعاد، وتوحي بإمكانه.

ولا بدّ للباحث في هذا الحقل من دراسة القضايا الروحية التالية، ذات الأهمية الكبرى في هذا البحث، وهي:

(أ) وجود الرّوح.

(ب) إبداع الرّوح.

(ج) خلود الرّوح.

(د) إمكان البعث والحشر.

(هـ) الأمثال العلمية المقرّبة للمعاد.

(ح) شواهد علمية حيّة من البعث في عالم النّبات والحيوان والإنسان.

(أ) وجود الرّوح:

أجمعت الأمم قديماً وحديثاً على وجود الرّوح والإيمان بها، حتّى شاعَ اسمـها وذكرها على جميع الألسن واللّغات، وأدركت بفطنتها قوّة تستوطن الكائنات الحيّة، وتمدّها بعوامل النموّ والإزدهار، رغم خفائها عن الحواس ومغايرتها للواقع المادِّي، فإذا ما انسلخت من الأحياء، صيّرتها أجساداً هامدة لا حراكَ فيها ولا حياة، ورغم توفّر الشـواهد والدلائل الثبـوتية لها، فإنّها مجهـولة الواقع، لن يعرف البشر ـ عبرَ تاريخهم ـ كنهها ومغزاها الأصيل، وارتدّوا عن استجلاء سرّها خائبين، لذلك كانت الرّوح أدقّ وأخفى أسرار الكون وألغازه.

وقد جهد هواة الأبحاث الروحية من أعلام الغرب ومفكّريهم في دراسة الرّوح، واكتشاف لغزها العصيّ المكتوم، واستنفروا كلّ طاقاتهم وإمكاناتهم الفكرية والمادِّية في سـبيل ذلك، وعادوا ـ بعد الجهود المضنية، والأبحاث الدائبة المتواصلة في آفاق الرّوح ـ خائبين خاسرين.

﴿يَسْألونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُل ٱلرُّوحُ مِنْ أمْرِ رَبِّي وما أُوتِيتُم مِنَ ٱلعِلْمِ إلاّ قَلِيلاً﴾.
(الإسراء / ٨٥)

وكلّ الّذي توصّلوا إليه، وتمخّضـت أبحـاثهـم عنه هو: استشـفاف الظّـواهر والقرائن المثبّتة لوجود الرّوح وخلودها في العالم الأخروي.

وإليك نموذجاً من الشواهد العلمية على وجود الرّوح:

أوّلاً: التنويم المغناطيسي:

وهو فنّ يمارسه العارفون به، يستخدم المنوِّم فيه شخصاً وسيطاً لإجراء عملية التنويم عليه، ويزاول فيه أعمالاً فنِّية توقعه في سبات عميق، ثمّ يسأله عمّا بدا له من

ضروب التساؤلات، فيُخبره آنذاك الوسيط المنوّم عمّا سأله من مختلف الوقائع والأحداث الّتي يستحيل عليه إدراكها والإخبار عنها في حالة اليقظة والإنتباه.

وهذا ما يؤكِّد وجود روح مغايرة لجسده المادِّي المخدّر بالنوم، وهي الّتي تستطلع الأشياء من آفاقها العلوية الرحيبة، وتفضي بها على لسانه.

ثانياً: الأحلام البهيجة أو الكئيبة:

وكثيراً ما يرى الحالم في منامه الرؤى والأحلام البهيجة السارّة، وتبدو عليه ـ وهو في غمرة سباته، وتعطّل مشاعره ـ مظاهر الغبطة والفرح والإبتهاج.

ويرى الرؤى الكئيبة المحزنة، وتبدو عليه الكآبة والفزع من جرائها، وواضح أنّ الحالم لم يشهد تلك الرؤى بحواس يقظة وإدراك واع، لتعطّل حواسّه ومداركه بالنوم، وإنّما شهدها بروحه الطليقة من الجسد، والسارحة في مسارح الأحلام.

ثالثاً: ضحك الطّفل وبكاؤه:

يُرى الطفل في الأشهر الأولى من ميلاده ضاحكاً تارةً وباكياً أخرى، وبديهي أنّه في حالتي الضّحك والبكاء لا يملك القدرة على التفكير، ولا يستطيع التركيز على المناظر السارّة أو المحزنة لطفولته المبكِّرة، ووهن طاقته الفكرية.

وهذا ما يُشعِر أنّ روح الطّفل البريء هي الّتي تشهد في مسارحها وآفاقها مثيرات الضّحك والبكاء، وكلّما نما الطّفل انحجبت روحه عن تطلّعاتها ومشاهداتها الغيبية وتقاصرت عن إدراكها.

رابعاً: مناجاة المحتضرين:

وهكذا يرى المحتضرون ـ وهم في سكرات الموت، وغمرة الذهول، وجمود

الوعي ـ يناجون أرواح أحبابهم وأعزّائهم، الّذين ارتحلوا عنهم إلى العالم الأخروي، فتفتر ثغور المحتضرين فرحاً واغتباطاً بمرآهم، وتبدو عليهم سمات الابتهاج والانشراح.

وذلك برهان على تجاوب الأرواح ومناجاتها خارج نطاق الحواس المادِّية، إلى كثير من الشواهد العلمية على وجود الرّوح الغنيّ بشهرته عن الإثبات.

(ب) إبداع الرّوح:

يعتقد الإلهيون اعتقاداً جازماً أنّ الله عزّ وجلّ هو مبدع الرّوح وخالقها بقدرته، وأنّه يستحيل على غيره تعالى إيجادها وإبداعها.

وقد أنكر المادِّيون هذا الواقع الرّوحي، زاعمين أنّ الرّوح هي حصيلة اجتماع العناصر المادِّية، ووليدة تفاعلاتها، ومتى تجزّأت تلك العناصر وانفرط عقدها، فارقتها الرّوح وتلاشت فناءً وعدماً.

وهذا ادِّعاء زائف يُفنِّده العلم والوجدان، إذ لا يحتم اجتماع العناصر المادِّية وتفاعلها انبثاق الحياة منها، وانبعاث الرّوح منها. وكم اجتمعت العناصر وتركّبت ولم تنبثق منها الحياة. أرأيتَ لو جُمعت عناصر جسم الإنسان ومحتوياته المادِّية، وصيغت على صورته ومثاله، أفيحتّم ذلك انبثاق الحياة فيها؟!! كحتمية تأثير العلّة في المعلول. فلماذا يحدث موت الفجأة الّذي يغتال ضحاياه ويخترم حياتهم، وهم في صحّة جيِّدة وجسم سليم، متكامل العناصر والأجزاء، لا يعوزه إلّا انطفاء الرّوح فيه.

حسبنا اعتراف العلماء المحدثين ومقرّراتهم العلمية في إبطال زعم المادِّيين، قال الدكتور (رسل تشارلز لونست)، الأستاذ بجامعة فرانكفورت بألمانيا، وعضو الأكاديمية العلمية بـ «أنديانا»:

«إنّ جميع الجهود الّتي بُذلت للحصول على المادّة الحيّة من غير الحيّة قد باءت بخذلان وفشل ذريعين»[١].

وهكذا أعلن (الكسندر أوبارين) رئيس معهد الكيمياء الحيوية في روسيا بعد أن ظلّ يبحث (٣٧) عاماً في أصل الحياة عمّا إذا كان من الممكن إيجاد الخلية الأولى عن طريق تفاعل كيميائي:

«إن الحياة لا يمكن أن تبدأ من العدم، أو تتوالد من التفاعل الكيميائي، وأنّ العلم لا يمكن أن يخوض فيما وراء حدود المادّة»[٢].

وقد أثبت العلم الحديث بأساليبه التجريبية، واختباراته الواسعة في تشريح الإنسان:

«بأنّ جسمه يتركّب من خلايا يبلغ متوسِّطها ١٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ خلية تقريباً، وهذه الخلايا تتحطّم وتفنى في كلِّ آن، والغذاء يعوِّض أجسامنا عن تلك الخلايا الّتي نفقدها كلّ يوم.

فإذا كانت الرّوح مظهراً من مظاهر الجسم فقط، وجبَ أن تطرأ عليها التغييرات بمجرّد حدوث التغييرات على الجسم تماماً، كما تتأثّر ماكينة بأكملها بمجرّد أن ينكسر أحد تروسها، وكما تتأثّر آلة الموسيقى بتكسّر وتر واحد من أوتارها.

ولكن هذا لا يحدث فيما يتعلّق بالرّوح. فالرّوح إذن شيء آخر غير الجسم ولها وجودها المستقل»[٣].

---

(١) الله يتجلّى في عصر العلم، ص ٧٩.

(٢) اليقينات الكونية، للدكتور محمّد سعيد البوطي، ص ١٠٥، نقلاً عن وكالة الأنباء السوفيتية (تاس) سنة ١٩٥٩.

(٣) الدِّين في مواجهة العلم، للأستاذ وحيدالدِّين خان، ص ٥٤ و ٥٦.

هذا إلى أنّ من المسلّمات الّتي أجمع عليها كلّ العلماء: أنّ الجسم خاضع لقوانين الزمان والمكان (البُعْد) وكل مظاهر الجسم تقع في نطاق هذه الحدود. فلو كانت الروح مظهراً من مظاهر الجسم لكان من الواجب أن تخضع هذه الرّوح لقوانين الزّمان والمكان مثل خضوع الجسم لها.

وحيث أنّ التجربة تثبت قطعياً أنّ هذا غير صحيح بالنسبة للرّوح، فإنّ الّذي لا بدّ من قبوله هو: أنّ للرّوح وجوداً آخر غير وجود الجسم، مختلف من نوعيّته ومنفصل في وجوده»[1].

وفيما عرضنا، كان في إسقاط خرافة المادِّيين، وسخف تعليلهم في منشأ الحياة.

وقال الأستاذ محمّد فريد وجدي، تحت عنوان: «إثبات الرّوح بالمباحث النفسية»:

«قد بلغ هذا من العمر أكثر من سبعين سنة، وهو يزداد رسوخاً، وتزداد مشاهداته وضوحاً، حتّى أصبح من الحقائق الّتي لا يصحّ الإمتراء فيها. وقد تألّفت لها في كلِّ عواصم البلاد المتمدِّنة الجمعيات. ومنها ما يُعدّ بعشرات السنين».

ثمّ قال: «وقد سُئلت الأرواح عن حجج ومستندات ضائعة فعيّنت مواطنها، وسُئلت عن تفاصيل حوادث وفيات مجهولة فأنبأت عنها، وسُئلت عن مقادير ديون فقدّرتها وعيّنت الدائنين وما لكلّ منهم بالضّبط، وسُئلت أسئلة فلكيّة عويصة فأعلمت بأمور لم تُكشَف إلّا بعد سنين عديدة.

كلّ هذه الأمور مقرّرة ممحِّصة أكثر من تمحيص الأمور الفيزيولوجية»[2].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) على أطلال المذهب المادِّي، ج ٢، ص ٨٩.

(ج) خلود الرّوح:

اتّفق المتكلِّمون المسلمون على بقاء الرّوح وخلودها، وأنّها تعيش في عالمها الأخروي مباهج السعادة والنعيم، أو مآسي الشقاء والعذاب، تبعاً لإيمان أربابها واستقامتهم، أو كفرهم وانحرافهم.

ووافقهم على ذلك جمهور من الفلاسفة، وأرباب الأديان السماوية، وهذا ما تؤكِّده البراهين العقلية والنقلية.

أمّا البراهين النقلية: فسنعرضها في الأبحاث التالية في عالم البرزخ.

وأمّا البراهين العقلية: فسنجملها فيما يلي:

(١) إنّ جسم الإنسان مركّب من خلايا تبلغ آلاف (الملیارات)، وهي لا تنفكّ عن عملية الاضمحلال والتجدّد المستمرّين عبرَ حياة الإنسان كما أوضحناه في البحث السالف.

ورغم ذلك، نشهد مظاهر الرّوح وآثارها ثابتة في الجسم، لا تريم عنه، ولا تتأثّر بعمليات الهدم والبناء في خلاياه. فتجلّى بذلك أنّ للرّوح وجوداً مستقلّاً عن الجسد، وأنّه لا تلازم بين فنائه وفنائها بعد الوفاة.

(٢) إنّ افتراض فناء الرّوح منوط بأمرين:

أوّلاً: أن تكون مركّبة من عناصر وأجزاء مؤتلفة، توجد بوجودها وتفنى بانفراطها واضمحلالها.

ثانياً: أن تكون عرضاً قائماً بغيره يزول بزوال ما قام به، وينعدم بانعدامه.

وحيث كانت النفس جوهراً بسيطاً خلواً من سمات المركّبات والأعراض، فهي عصيّة على الفناء والزّوال.

(٣) وهكذا يحكم العقل بامتناع فناء الرّوح بفناء الجسد، ولا يمكن تصوّره إلّا بافتراض التلازم المنطقي الوثيق في الوجود أو السبب بين الرّوح والجسد، كأن يكون الأوّل ملازماً لوجود الثاني، أو سبباً فاعلاً في حدوثه، وذلك منتفٍ بوضوح.

فليست هناك ملازمة بين تواجد البدن وتواجد الرّوح، فطالما وجد الأوّل خلواً من الرّوح ومجرّداً عنه، كالأجسام الميّتة.

وليست بينهما إحدى العلل السببية الأربعة: المادّية والصورية والفاعلية والغائية.

فنخلص من ذلك إلى انتفاء التلازم المنطقي بين فناء الرّوح وفناء البدن.

وهكذا اكتشف أساتذة الغرب الباحثون في الدراسات الروحية بقاء الرّوح وخلودها بعد الوفاة، واستيقنوا ذلك بعد جهود علمية مضنية، وأبحاث مكثّفة، وتجارب واسعة في آفاق الرّوح ومجاهلها الرّحبة، وطفقوا يُعلنون للملأ حصيلة أبحاثهم ونتائج دراساتهم في هذا الموضوع.

واستعراض أدلّتهم وبراهينهم في خلود الرّوح يستلزم بحثاً مسهباً لا تستوعبه هذه الرّسالة المجملة، ولا تنسجم وموضوعها المحدّد، وحسبنا أن نعرض طرفاً لامحاً من شهاداتهم ومقرّراتهم في هذا المجال:

قال العلّامة الشهير (جان فينو) مدير المجلّة العالمية تحت عنوان «فتح علمي ـ الرّوح الخالدة»:

«إنّه لتعوزنا مجلّدات عديدة لأجل تدوين أدلّة البقاء بعد الموت المسجّلة في المجامع الضخمة لجمعيات المباحث النفسية الّتي تأسّست في كلِّ مكان، ومن المؤلّفات الصادرة عن علماء مشهورين شهرة عامّة»[١].

---

(١) على أطلال المذهب المادّي، ج ٣، ص ٣٢.

وقال الأستاذ محمّد فريد وجدي:

«إنّ الموت كما ثبت علمياً لا يرفع الإنسان طفرة من حالة كان فيها على الأرض إلى حالة أخرى لا نسبة بينهما. بل هو انتقال بسيط من حياة كان فيها الإنسان يحمل جسداً كثيفاً إلى حياة أخرى يحمل فيها جسداً لطيفاً خاضعاً للقوانين الطبيعية، على نسبة الفرق بين تركيب الجسدين. فيبقى الميِّت في الوجود معنا على ما كان عليه على الأرض من الحالتين النفسية والعقلية، إلّا أنّه يرانا ويسمعنا ولكنّا لا نراه ولا نسمعه. ولا عجب في ذلك، فنحن لا نرى الأثير وهو مادّة، ولا نرى أشعّة رونتجن والكهرباء والحرارة المغناطيسية وهي مواد أثيرية في حالة حركة، ومؤثِّرة فينا أعظم تأثير.

ولكن يرى الميِّت أمثاله من الّذين انتقلوا إلى مثل حالته، فيجتمعون به، ويعيشون معه على النظام المقرّر في ذلك العالم الملطّف...»[1].

وقال المفكِّر الهندي وحيدالدِّين خان:

«أثبتت البحوث الروحية الحياة بعد الموت على المستوى التجريبي والعملي. إنّ الأمر الّذي يدفعنا إلى إبداء مزيد من الإعجاب بهذه البحوث هو: أنّها لا تثبت بقاءً محضاً لروح ما، بل إنّها تثبت أيضاً بقاء الشخصيات الّتي كنّا نعرفها بذاتها قبل أن تموت...

وقد انتشرت الآن معاهد كثيرة في مختلف بلدان العالم، وأثبتت هذه المعاهد بعد بحوثها وتجاربها الواسعة النطاق، أنّ الشخصية الإنسانية تواصل بقاءها بعد فناء الجسد المادِّي في صورة غريبة.

ونُقل عن البروفسور (دوكاس)، وقد وصفه بأنّه كان لا يؤمن بالحياة بعد

(١) نفس المصدر، ج ٢، ص ١٥٧.

الموت كعقيدة دينية، وإنّما وجد أثناء بحوثه شواهد كثيرة اضطرّ ـ على أثرها ـ أن يؤمن بالحياة الآخرة مجرّدة عن قضايا الدِّين.

وقال الدكتور (دوكاس) أستاذ الفلسفة بجامعة بروان:

«ويتّضح من هذا أنّ عقيدة بقاء الحياة بعد الموت ـ الّتي يؤمن بها الكثيرون منّا كعقيدة دينية ـ ليس من الممكن أن تكون واقعاً فحسب، وإنّما لعلّها هي الوحيدة من عقائد الدِّين الكثيرة الّتي يمكن إثباتها بالدليل التجريبي...»[1].

وقال (هانن سوافر) وهو من أكبر رجال الصحافة في انجلترا، وصاحب المؤلّفات الروحية الهامّة:

«لقد ثبت لي بصفة قاطعة، وبعد تجارب مرهقة طويلة، أنّ الحياة لا تنتهي عند القبر، وأنّ هذه الدّنيا بكلِّ ما فيها من مصاعب ومتاعب ما هي إلّا روضة أطفال تُهَيِّئُنا لمهمّة أكثر روعة واكتمالاً في عالم آخر»[2].

(د) إمكان البعث والحشر:

ليس المعاد ـ كما يحسبه المشكِّكون فيه ـ من المستحيلات الّتي يستنكرها العقل ويحيلها الوجدان كاجتماع الضدّين ـ النّور والظّلام ـ وارتفاعهما في آنٍ واحد، بل هو من الممكنات الّتي آمنَ بها العقل وارتضاها الوجدان، وفرضا واقعها المحتوم.

وإنّما أنكره المنكرون لغرابته عليهم، وخفائه وبُعده عن الفهم وأعرافهم، وشتّان بين المستحيل عقلاً ووجداناً، وبين المستغرب عادةً وألفاً. فكم استنكر الناس بعض الحقائق العلمية وجحدوا واقعها الحسِّي باعتبارها محالاً ممتنعاً، لجهلهم بها واستغراب

(١) الإسلام يتحدّى، لوحيد الدِّين خان، ص ١٠٣ ـ ١٠٦، باختصار.

(٢) طريق إلى الله، للأستاذ عبدالرّزاق نوفل، ص ٩٦.

أعرافهم منها، وسرعان ما صدّقوها وآمنـوا بها: كارتياد القمَـر، وسماع الأصوات المذاعة، ومشاهدة الصور المـبثوثة عبرَ الفضـاء، وتفجير الذرّة، والطائرات النفّاثة، ونحوها من المختَرَعات الّتي كانت محالاً في حسبانهم، وأصبحت واقعاً محسوساً، كما أوضحناه في حقل المعاد والعقل.

لقد أثبت العلم الحديـث: أنّ أجسـام البشر تؤول بعد تحلّلها واندراسها إلى عناصرها ومكوّناتها الترابية الّتي خُلِقَت منها ثمّ عادت إليها، وهي: «عناصر التراب المعروفة: الكربون، الفسفور، الكالسيوم، الحديد، النحاس...».

فعلامَ يستنكر المشكِّكون في المعاد حشر الأجسام وقد تواجدت في رواسبها الترابية جميع العناصر المكوِّنة والقائمة بها.

وبديهي أنّ خلق الإنسان وإبداعه أشدّ غرابة، وأدقّ صنعاً، وأصعب تحقيقاً من حشره واسـتعادة كيانـه، والقـادر على الأصـعب هو قادر على الأيسر بداهـة ووجداناً.

أرأيـت كيـف يصرف المخـترع جهوداً جـبّارة، ويكرِّس حياتـه في البحـث والتنقيب، وإجراء التجارب والإختيارات المضنية في سبيل تحقيق اكتشافه واختراعه. ومتى أحرز الظّفر والنّجاح في تصميم مخترعه، وإبرازه للعيان هانَ عليه، وتيسّر له صنع الأعداد الجمّة منه، ويغدو صنعها آنذاك إلينا ميسوراً، لا يُكلِّفه جهود اكتشافه وتكوينه الأوّلين.

من أجل ذلك، لم يكن بعث الإنسان وحشره في المعاد أغرب وأعسر من إبداعه الأوّل. فعلامَ يستنكره المشكِّكون ؟!!

والمشكِّكون في المعاد فريقان: فريق كافر، وفريق مؤمن.

فالأوّل: ليس من الحكمة مطالبته بالإيمان بالحشر، أو مناقشته فيه لإلحاده وجحوده بالخلاق العظيم المبدئ والمعيد.

وأمّا الفريق المؤمن الراسخ الإيمان، فإنّه يعتقد اعتقاداً جازماً بأنّ الله على كلِّ شيء قدير، وأنّه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء:

﴿إنّما أمْرُهُ إذا أرادَ شَيْئاً أن يَقُولَ لهُ كُن فيَكُون﴾. (يّس / ٨٢)

ويعتقد كذلك علمه تعالى وإحاطته بجميع الأشياء دقيقها وكبيرها، ظاهرها وخافيها:

﴿وعندهُ مفاتحُ ٱلغَيْبِ لا يَعْلَمُها إلّا هُو وَيَعْلَمُ ما في ٱلبَرِّ وٱلبَحْرِ وما تَسقطُ مِن وَرَقَةٍ إلّا يَعْلَمُها ولا حَبَّةٍ في ظُلُماتِ الأرْضِ ولا رَطَبٍ ولا يابِسٍ إلّا في كِتابٍ مُبِين﴾. (الأنعام / ٥٩)

ويستنتج المؤمن من تلك المقدّمتين: يُسر البعث على الله عزّ وجلّ لقدرته على جمع عناصر الأبدان المبعوثة أنّى كانت من أرجاء البرِّ والبحر، واستعادة كيانها من جديد:

﴿أفَعَيِينا بالخَلْقِ ٱلأوَّلِ بَلْ هُمْ في لَبْسٍ مِن خَلْقٍ جَديد﴾. (ق / ١٥)

(هـ) الأمثال العلمية المقرّبة للمعاد:

عرفنا في مستهلّ هذا البحث قصور العلم الحديث وعجزه عن استطلاع المعاد واكتشاف أسراره الغيبية، وكلّما يستطيعه الباحث في هذا الحقل العلمي استلهام العلم، واستيحاء آياته وشواهده في تقريب المعاد إلى الأذهان، بحيث تتمثّله وتستشعره بقناعة ويُسر عن طريق الشواهد العلمية وعرض الأشباه والنظائر المكتشفة والموضِّحة لمغزى المعاد، وإليك نموذجاً منها:

(١) كان الإعتقاد السائد في العصور الغابرة أنّ الأحاديث والأصوات تتلاشى في خضمّ الأثير، وتضمحل في أغواره السحيقة، فكانت الأعراف تستنكر وتحيل ابتعاثها والتقاطها من آفاقها العلوية. ولمّا اكتشفت أجهزة الإرسال والإستقبال الصوتية أنهار ذلك الإعتقاد، وتجلّى لعامّة الناس أنّ الأصوات لا تفنى، وأنّها متواجدة في مسارحها من الأثير، ومحتفظة بجميع نبراتها ومشخّصاتها الصوتية، وأنّ من أبسط الأشياء وأيسرها محاولة بعثها واستعادتها عن طريق (الراديو) رغم تبدّدها وتلابسها بأشتات اللّغات، وملايين الأصوات والنّغمات.

وقد تحقّق هذا الواقع الحيّ بعد أن كان محالاً ممتنعاً في عُرْف الناس والفهم. وهكذا استطاع العلم بعث الصور المُذاعة، واستعادتها وعكسها على أجهزة التلفزيون مطبوعة بجميع سمات ومواصفات أربابها الأصلية، رغم خفائها وانطماسها في لجج الفضاء.

ونستنتج ممّا قرّرناه أمرين خطيرين:

أوّلاً ـ إنّ استبعاد الأعراف وإحالتها للأشياء العجيبة المستغربة لا يكون برهاناً عقلياً على امتناعها واستحالتها، إذ شتّان ما بين المستحيل عقلاً ومنطقاً، وبين المستحيل عادةً وألفاً.

ثانياً ـ يُسر البعث على الله عزّ وجلّ، وأنّه إذا استطاع الإنسان رغم ضعفه وقصوره الذاتي أن يحشر الأصوات والصور، ويبعثها حيّة مِلْءَ الأسماع والأبصار، فكيف يستبعد حشر الخلائق على الله تعالى، واستعادة أجسامها بعد تلاشيها في الأرض، وهي محفوظة في مطاويها، لا تغرب عنه ذرّة واحدة منها، وهو الخلّاق العظيم.

(٢) الذّاكرة: وهي أعظم المواهب الإلهية، وأجلّها عطاءً وفضلاً على الإنسان وخصائصه الفكرية والعقلية، وأبلغها إلهاماً وإيحاءً في يُسر المعاد، وتقريبه إلى

الأذهان، فمن عجائب الذاكرة وخصائصها المدهشة: قدراتها الهائلة، وطاقاتها الضخمة على الخزن والإستيعاب. فإنّها تلم وتستوعب أشتات العلوم والفنون، وألوان الأصوات واللّغات، ومختلف الخطب والقصائد، وأنواع الأسماء والوجوه، وشتّى المناظر والروائح والطّعوم، وضروب الوقائع والأحداث. وقد قدّر بعض الباحثين المحدثين أبعاد الذاكرة، وقدراتها وطاقاتها على الخزن والإستيعاب بأنّها تكتنز وتستوعب (٩٠) مليون مجلّد مفعم بأشتات المفاهيم والمعلومات.[١]

تختزن الذاكرة كلّ ذلك. لتسعف الإنسان وتمدّه بما شاء من رصيدها المذخور، وكنوزها الثرّة المعطاء، وتستعيده عند الطّلب واضحاً جليّاً، وتبعثه حيّاً ماثلاً في ساحات الفكر والوجدان، رغم انغماره وتراكمه وتداخل عناصره.

وفي ذلك عبرة بالغة وبرهان على يُسر المعاد وبساطته على الله عزّ وجلّ، إذ القادر على إنشاء الذاكرة وإبداعها، وهي موهبة واحدة من مواهبه الكثر، وآية واحدة من آيات قدرته الجبّارة. هو قادر على حشر الإنسان ونشره يوم القيامة من جديد.

(٣) تمكّن العلماء من تحويل المادّة إلى طاقة، وتحويل الطّاقة إلى مادّة، وهذا من أدقِّ الاكتشافات الحديثة وأخطرها في عالم الحضارة ودنيا الإنسان، فالغرام الواحد من المادّة يمكن تحويله إلى طاقة تعدل (٢٢) مليون مليون سعرة حرارية، وملعقة من الزئبق يمكن تحويلها إلى طاقة ضخمة تستطيع تسيير قطار كبير مطوّفة به حول الكرة الأرضية سبع مرّات.

وهكذا استطاع العلماء تطوير العناصر، وتغيير واقعها إلى واقع آخر:

«حيث أحالوا الراديوم إلى هليوم وإلى رصاص، وطوّروا اليورانيوم إلى رادون

---

(١) الطبّ محراب الإيمان، للدكتور خالص جلبي.

وإلى بزموت، والنتروجين إلى أوكسجين وإلى كـاربون، والنـحاس إلى زنك ثمّ إلى نيكل، وكثّفوا الصوديوم إلى مغنيسـيوم. من صغير العناصر إلى كبيرها، ومن كبير العناصر إلى صغيرها».

وإذا استطاع العلماء تحقيق هذه المنجزات العلمية المدهشة، فكيف يستبعد على خالق الكـون ومنظِّمه ومدبِّره الخلّاق العظيم القدير، حشر البشر وبعـثهم وتطوير عناصر أجسامهم الترابية إلى واقعهم الأوّل الّذي عاشوه في الحياة الدنيا، وأرواحهم ـ كما علمنا ـ خالدة، وذرّات أبدانهم محفـوظة في الأرض، يعلمها مَنْ لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء؟!!

(و) شواهد علميّة حيّة من البعث في عالم النّبات والحيوان والإنسان:

(١) بعث النّبات:

من الثابت أنّ النّبات يموت، وتتلاشى عناصره النباتية، ويستحيل بالتعفّن أو الإحتراق إلى موادّه الأوّلية الّتي كانت كامنة في حنايا الأرض، والّتي نما وازدهر من رصيدها المكنون.

ثمّ تجري عليه سنن الله تعالى الكونية، وتبعثه من جديد وتنشِئُهُ من نفس تلك المواد، ويرتدّ ثانيـة إلى الانحلال والدثور، والبعث والحياة، في أدوار متعاقبـة عبرَ العصور والآماد.

«فالنّبات يبدأ حياته بذرّة أو نواة توضع في الأرض، وتُسقى بالماء، فينفـلق منها جُذير يمتدّ إلى أسفل، وسُويق يمتدّ إلى أعلى حاملاً وريقتين خضراوين، وعلى الجُذير والورقتين يتوقّف تغذّي النّبات.

فالجُذير يمتصّ الماء وما فيه من أملاح ذائبـة في الأرض، والوريقات تمتصّ

الأوكسجين وثاني أوكسيد الكربون، وتهضم ذلك كلّه، وتحوِّله إلى مواد صالحة لتمثيل خلايا النّبات وتحويلها إلى الأجزاء النّباتية الّتي يقتضيها نموّها وازدهارها، ثمّ إلى أزهار وحبّ وثمار، وهذا هو المسمّى بالتمثيل الخضري..

ثمّ يموت النّبات فيحترق أو يتعفّن، ويتحوّل إلى ثاني أوكسيد الكربون، فيما يتحوّل إليه ويصعد إلى الجوّ، فيتغذّى به النّبات مرّة أخرى بواسطة التمثيل الخضري، وهكذا دواليك.

فلو لم يتجدّد ثاني أوكسيد الكربون في الهواء بعمليات التنفّس والتعفّن والإحتراق، لوقفت حياة النّبات في نحو ثلث قرن، ووقفت بوقوفها كلّ الحياة.

فانظر إلى عجيب صنع الله كيف جعل الموت سبباً للحياة، وكيف خلق الحياة من نواتج التعفّن والتحلّل بعد الموت، فالشجر كلّه خشبه وثمره، والزّرع كلّه ورقه وحبّه، يخلقه الله سبحانه مرّة بعد أخرى من نفس المواد الّتي خُلِقَ منها أوّلاً والّتي يعود إليها.

وجميع نماء الشجر ومادّته إنّما هو آت من مواد أوّلية هي نواتج تعفّن الشجر بعد موته أو احتراقه، أي من مواد تشبه ذلك العظم الرميم الشّبه القوي الّذي يستبعد المنكر الجاحد أن يحييه الله مرّة أخرى.

فظاهرة بعث النّبات تشبه تمام الشّبه ظاهرة البعث للإنسان، فيُقال لمنكر البعث إنّ الّذي يبعث الشجرة بعد أن فنت، ويخلقها مرّة أخرى، من نواتج تعفّنها أو احتراقها، قادر على أن يبعث الإنسان بعد موته، ويخلقه مرّة أخرى من نواتج تعفّنه وتحوّله إلى عظم رميم»[1].

---

(١) سنن الله الكونية، للأستاذ محمّد الغمراوي، ص ٢١٣ ـ ٢٢١، بتصرّف.

(٢) بعث الحيوان:

وهكذا يُبعث الحيوان، بيدَ أنّ الفارق بين بعثه وبعث النّبات أنّ الثاني يُبعث بعثاً مباشراً من رواسب عناصره الأوّلية، ويُبعث الحيوان ويُستعاد عن طريق النّبات، وتبيان ذلك:

«إذا انطفأت شعلة الحياة في الحيوان، عمدت البكتريا الّتي يعجّ بها الفضاء على تفسيخه وتحليله إلى عناصره الترابية الأوّلية، فيمتصّ النّبات تلك العناصر ويبني بها كيانه، فترى المواد الّتي كانت لحماً ودماً وعصباً وأذناً وعيناً.. قد استحالت إلى واقع نباتي وصارت جذراً وساقاً وورقاً وزهراً، فيعمد الحيوان إلى أكلها، وتستحيل في جوفه إلى مثل بدنه وأعضائه، وتغدو لحماً ودماً وأعصاباً ونحوها من الأعضاء، ثمّ ينفق الحيوان ويصير تُراباً، وهكذا دواليك، يستحيل الجماد نباتاً، ويصير النّبات حيواناً، ويعود الحيوان بعد تفسّخه إلى الأرض الموات»[1].

ويضرب العلماء أمثالاً مقتبسة من تجاربهم العلمية في بعث الحيوان واستعادة حياته:

«لقد قام البروفسور (ويلسون)، أستاذ علم الحيوان بإجراء تجربة بديعة.. مزّق فيها الإسفنج فتافيت صغيرة، ثمّ طحنه وهرسه وعصره في قماش دقيق الثقوب، أدقّ من ثقوب المنخل.. ومن النخالة الّتي سقطت بعد هذا التمزيق والهرس والطّحن الرّهيب، استطاع الإسفنج أن يتخلّق من جديد من كلّ نقطة ومن كلّ ذرّة، وينمو إلى صورته السويّة، وكأن لا شيء حدث».

وقد «عثر على جراثيم تحت جليد القطب الشمالي نائمة في أكياسها منذ أكثر من (١٣) ألف عام، وعُثر في تراب منجم أخيراً على جراثيم يعود تاريخها إلى أكثر من

---

(١) لماذا أؤمن بالله، لهلال علي هلال، القسم الثاني، ص ٢٥، بتصرّف.

مليون عام.. وقد أمكن زرع هذه الجراثيم من جديد وإعادتها إلى الحياة»[1].

وهكذا «أصبح معروفاً الآن أنّ المحافل الطبّيّة استطاعت وبنجاح تام تجميد بعض الأنسجة البيولوجية مثل الدم، والخلايا المنوية والعظام، وإعادتها إلى حالتها الأولى.

كما تمكّن بعض الأطباء من إعادة الحياة إلى نوع من الجرذان وبعض القوارض الّتي جمدت تجميداً جزئياً، واستطاعت (كلى) الكلاب أداء وظائفها بعد تجميدها وإعادتها إلى الحياة»[2].

(٣) بعث الخلايا في الإنسان:

لقد كشف العلم عمّا يحدث في كيان الإنسان وخلايا جسده من صور الموت والبعث، والهدم والبناء، ما جعله يستبدل جسماً آخر غير جسمه الأوّل كلّ عشر سنين، حتّى كأن من عمر ثمانين سنة قد بعث ثمان مرّات من حيث لا يشعر الإنسان ولا يبدو عليه ذلك.

«ففي كلّ ثانية واحدة يستبدل الجسم ما يقرب من مليونين إلى ثلاثة ملايين من الخلايا الدموية، حيث تستهلك هذه الخلايا وتموت ويعوِّض الجسم عدداً مماثلاً من خلايا جديدة، وكذلك الحال في الخلايا الأخرى غير الدموية، عشرات المئات من الملايين من الخلايا تهلك كلّ ثانية، ولا بدّ من خلق البديل لها، وكلّ أجهزة الجسم وطبقاته تتغيّر بصفة منتظمة ودورية»[3].

---

(١) لغز الحياة، للدكتور مصطفى محمود، ص ٤ و ١٥.

(٢) ملحق جريدة الجمهورية، العدد ٦٧، الخميس ١٩٧٨/٧/٢٧.

(٣) يوم القيامة، لعبدالرزّاق نوفل، ص ٦٢ ـ ٦٣.

وتعتبر هذه الشواهد العلمية الحسِّية من البعث الحي في عالم النّبات والحيوان والإنسان، برهاناً ساطعاً على يُسر المعاد وإمكانه، وبساطة تصوّره وتصديقه.

المعاد والقرآن الكريم

لقد ركّز القرآن الكريم على المعاد تركيزاً متواصلاً، ونوّه عنه في أغلب سوره ومعظم آياته إبرازاً لواقعه، وتعميقاً لمفهومه في وجدان الأمّة كي لا تستنكره العقول وتعتبره ضرباً من المحال.

وأنّ من أبرز خصائص القرآن وجلالة معطياته أنّـه الكـتاب السماوي الفـذّ الّذي جلا واقع المعاد، وفصّل حقائقه، وصوّر مشاهده تصويراً بليغاً جذّاباً، وأبرزه ماثلاً شاخصاً للعقول والأفكار، تستشعره النفوس المؤمنة بقناعة ويُسر.

«وإنّما اهتمّ القرآن الكريم هذا الإهتمام باليوم الآخر لأسباب:

(١) إنّ الإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان، وجزء من أجزاء العقيدة. لأنّ الإيمان بالله يحقِّق المعرفة بالمصدر الأوّل الّذي صدر عنه الكون، والإيمان باليوم الآخر يحقِّق المعرفة بالمصير الّذي ينتهي إليه هذا الوجود.

وعلى ضوء المعرفة بالمصدر والمصـير يمكن للإنسان أن يُحدِّد هدفه، ويرسم غايته، ويتّخذ من الوسائل والذرائع ما يوصله إلى الهدف، ويبلغ به الغاية.

ومتى فقد الإنسان هذه المعرفة، فإنّ حياته سوف تبقى حياة لا هدف لها، ولا غاية منها. وحينئذ يفقد الإنسان سموّه الروحي، وفضائله العُليا، ويعيش كما تعيش الأنعام، تسيِّرها غرائزها الطبيعية، واستعداداتها الفطرية، وهذا هو الإنحطاط الروحي المدمِّر لشخصيّة الإنسان.

(٢) إنّ الإيمان باليوم الآخر يجعل لحياتنا غاية سامية، وهدفاً أعلى، وهذه الغاية هي: فعل الخيرات وترك المنكرات، والتحلِّي بالفضائل، والتخلِّي عن الرذائل الضارّة بالأبدان والأديان، والعقول والأعراض، والأموال..

ولابدّ من تقوية الوازع النفسي الّذي يرغب في الخير، ويصدّ عن الشرّ، ولا يقوى الوازع إلّا بكثرة التذكير، والتفنّن في التصوير، وضرب الأمثال المتنوِّعة، حتّى تعمّق جذوره، ويقوى تأثيره ويحقِّق الغاية منه، فيرجع المنكر عن إنكاره، ويصحِّح المخطئ خطأه، ويُحدِّد كلّ إنسان هدفه الأعلى كي لا يضلّ الطريق، أو تتعثّر به الخُطى»[١].

من أجل ذلك، عاش المسلمون الواعون أجواء المعاد الروحية حياة الرغبة والرهبة والخوف والرجاء، يتشوّقون مباهج نعيمه ومسرّات فردوسه، ويرهبون أهوال مواقفه وآلام جحيمه، وعرجوا بذلك إلى قمم الوعي الروحي.

وحيث كانت النزعة الغالبة على البشر استنكار ما خالف الفهم وعرفهم، وسما عن إدراكهم، لذلك أنكروا المعاد واعتبروه محالاً، وقد عالج القرآن الكريم هذه الظاهرة الفكرية المتخلِّفة علاجاً حكيماً شافياً، وأخذ يستثير وعيهم، ويلفت أنظارهم، ويحكم عقولهم ووجدانهم، فيما يعرضه عليهم من آيات المعاد، وبراهينه المثيرة الأخّاذة، ليستجيبوا إلى تفهّم المعاد تفهّماً واعياً مُدركاً.

وعُنِيَ عناية بالغة بمناقشة الشّبه والشّكوك المثارة حول المعاد، ففنّدها وأبرز فسادها بأسلوب علمي هادف، وحجج منطقية، وآيات حسِّية وجدانية تملأ النفس وتُقنع العقل والضمير.

---

(١) العقائد الإسلامية، للأستاذ السيد سابق، ص ٢٥٨ ـ ٢٦٥، بتصرّف واختصار.

برهن القرآن على حتمية المعاد وضرورته الملحّة في دنيا البشرية وواقع الحياة، وأثبته بحججه وبراهينه الإلزامية، وإليك طرفاً منها:

١ ـ برهان الجزاء العادل:

يعيش البشر في هذه الحياة أنماطاً مختلفة، وفئات متناقضة: فمن مؤمن وكافر، وتقيّ وفاجر، ومحسن ومسيء، ومظلوم وظالم. وليس من العدل والإنصاف مساواة هؤلاء في التقييم والتكريم، لما في ذلك من خرق وانتهاك للقيم الإنسانية الأصيلة، وأشواقها الملحّة إلى العدل والإنصاف.

وتحقيق الجزاء العادل بين تلك الفئات في هذه الحياة العاجلة أمر ترفضه سياسة السماء الّتي اتّخذت من عنصر الإختيار أساساً للمسؤولية، ولولا ذلك لما استحقّ المطيع آنذاك ثواباً، ولا العاصي عقاباً، لاقتسارهما على الطاعة والعصيان.

وتأبى رحمة السماء معاجلة البشر بالعقاب والنّكال على اجتراح المعاصي والآثام، لاستلزام ذلك دمارهم وهلاكهم العاجلين، لضعف مناعتهم الروحية، ووهن الوازع الديني فيهم.

﴿ولو يُؤاخِذ ٱللهُ ٱلناسَ بما كَسَبُوا ما تَرَكَ على ظَهْرِها من دابّةٍ ولكن يؤخِّرهُم إلى أجَلٍ مُسمّى﴾. (فاطر / ٤٥)

ومن هنا عاش أفواج من الأخيار الشقاء والحرمان والإضطهاد، وعاشت زمر من الكفّار والفجّار الترف والرّخاء، ومارست الآثام والعدوان، دون مؤاخذة وعقاب.

لذلك كان المعاد ضرورة حتميّة لتحقيق العدل الإلهي بين البشر، الّذي عزّ تحقيقه في هذه الحياة، وضمان الجزاء العادل لهم جميعاً، ولولاه لانهارت قِيَم الحقّ والعدل، وتحطّمت مقاييس الصّلاح والفساد.

قال تعالى: ﴿إنّ ٱلسّاعةَ آتيةٌ أكادُ أخفيها لتُجزى كلّ نفسٍ بما تسعى﴾.
(طه / ١٥)

وقال سبحانه: ﴿واتّقوا يوماً ترجعونَ فيه إلى ٱللهِ ثمّ تُوفّى كلّ نفسٍ ما كَسَبَت وهُم لا يُظْلَمُون﴾. (البقرة / ٢٨١)

وقال عزّ وجلّ: ﴿لِيَجْزي ٱلّذينَ أساؤوا بما عَمِلُوا، ويَجْزِيَ ٱلّذينَ أحْسَنُوا بالحُسْنى﴾. (النّجم / ٣١)

٢ ـ برهان خلق الإنسان:

وهنا يناقش القرآن الكريم منكري البعث، محتجّاً عليهم ببرهان حيّ، ودليل وجدانيّ ماثل في كيانهم، ومقتبس من وجودهم:

ذلك: أنّ القادر على خلق الإنسان وإبداعه بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً، هو قادر على حشره وإعادة هيكله بعد انهدامه وانفراط عناصره، ومن البديهيّ أنّ الصّنع الأوّل أشدّ غرابة، وأدقّ صنعاً، وأصعب تحقيقاً من الصّنع الثاني، والقادر على الأصعب هو قادر على الأيسر بداهةً ووجداناً.

﴿وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِي ٱلعِظامَ وهيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيها ٱلّذي أنْشأها أوّلَ مرّةٍ وهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيم﴾. (يّس / ٧٨ ـ ٧٩)

﴿وقالُوا أإذا كُنّا عِظاماً ورُفاتاً أإنّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَديداً * قُلْ كُونُوا حِجارَةً أوْ حَدِيداً * أوْ خَلْقاً مِمّا يَكْبُرُ في صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنا قُلِ ٱلّذِي فَطَرَكُمْ أوّلَ مَرّةٍ﴾. (الإسراء / ٤٩ ـ ٥١)

ويمضي القرآن في التعقيب والتركيز على هذا البرهان، مستعرضاً عجائب نشأة

الإنسان ومراحل أطواره في عالم الجـنين، وابتداعه من نطفة دقيقة لا تُدركها العـين المجرّدة إلى إنسان كامل.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنا ٱلإنْسانَ مِن سُلالَةٍ مِن طِينٍ * ثُمّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً في قَرارٍ مَكينٍ * ثُمّ خَلَقْنا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَة فَخَلَقْنا ٱلعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنا ٱلمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنا ٱلعِظامَ لَحْماً ثُمّ أنْشأناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللهُ أحْسَنُ ٱلخالِقِين * ثُمّ إنّكُم بعدَ ذلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمّ إنّكُم يومَ ٱلقِيامَةِ تُبْعَثُون﴾. (المؤمنون / ١٢ ـ ١٦)

فالجنين يستهلّ حياته الأولى باقتران نطفة الرّجل ببويضة الأنثى، وباقترانهما يدخل الجنين في طوره الأوّل، ثمّ سرعان ما تنقسم البيضة الملقّحة إلى خليّتين فأربع فثمان، وهكذا تتكاثر حتّى تغدو ملايين الخلايا، لتكوّن المواد الأوّلية لصياغة الجنين وتكوينه، ومنها يقطع مراحل التطوّر شهراً بعد شهر، حتّى يتكامل خلقه ونمـوّه في الشهر التاسع، ويصبح مؤهّلاً للخروج إلى عالم النور.

وأنّى تأمّلتَ خلق الجنـين، وجدتَ آيات القدرة والإبداع تطالعـكَ في جميع خصائصه وجوانبه.

من ذلك إنّ الله عزّ وجلّ ابتدعهُ من نطفة دقيقة لا تُدركها العين المجرّدة، بحيث لو جمعت نطف البشر الأحياء في العالم كلّه لوسعتهم جوزة صغيرة.

ثمّ أودع في كلِّ نطفة سماتها البدنيّة وخصائصها الموروثة، ممّا سبّب اختلاف البشر صوراً وأجناسـاً، نتيجة اختـلاف صفاتهم الموروثـة، فكيف اختلفوا البـشر وتمايزوا؟!! وكلّهم من نطفة واحدة لا يتميّز بعضها عن بعض.

وكيف احتشدت عوامل الوراثة في نطف الملايـين من البشر، فحفظـت لكلِّ إنسان سماته الخاصّة وخلاله الموروثة.

وكيف اتّحدت خلايا الجنين في جوهرها ومادّتها، واختلفت في أطوارها ونتائجها؟! فاستحال بعضها لحماً، وبعضها أعصاباً، وبعضها أوردةً وشرايين، وغدا بعضها عيناً باصرة، أو لساناً ناطقاً، أو أذناً واعية، وكلّها من مادّة واحدة.

وطوراً آخر، نوّه القرآن الكريم عن (بنان الإنسان)، مشيراً إلى دقّة صنعه، وضبط معالمه ومشخّصاته الّتي لا يتشابه اثنان منها في جميع البشر، ما جعله آية على يُسر المعاد وبساطته على الله عزّ وجلّ.

﴿أيَحْسَبُ الإنْسانُ أن لَن نَجْمَعَ عِظامَهُ * بَلَى قادِرِينَ على أن نُسَوِّي بَنانَه﴾.

(القيامة / ٣ ـ ٤)

٣ ـ برهان خلق السّماوات والأرض:

وفي هذا البرهان يلفت القرآن الكريم الأنظار والأذهان إلى مظاهر قدرة الله عزّ وجلّ وعظمة إبداعه في خلق السماوات والأرض، لتكون آية وجدانية مشرقة على يُسر البعث وبساطته على الله تعالى: أليسَ خلقهما أعظم صنعاً، وأجلّ إبداعاً، وأعسر إنشاءً وتكويناً من حشر الموتى ونشرهم يوم القيامة، وإذا كان الأمر كذلك، فهل يستبعد عليه البعث؟!!

﴿أوَلَم يَرَوا أنّ ٱللهَ ٱلّذي خَلَقَ ٱلسّمٰواتِ والأرْضَ ولم يَعِيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلَى أن يُحْيِي ٱلمَوْتى بَلَى إنّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير﴾. (الأحقاف / ٣٣)

﴿أوَلَيْسَ الّذي خَلَقَ ٱلسّمٰواتِ وٱلأرْضَ بِقادِرٍ على أن يَخْلقَ مِثْلهُم بَلى وهُوَ ٱلخلّاقُ ٱلعَلِيم * إنّما أمْرُهُ إذا أرادَ شَيْئاً أن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون﴾. (يس / ٨١)

٤ ـ برهان إحياء الأرض:

ولّما كاد المعاد أمراً غيبيّاً خافياً على أفهام البشر، بعيداً عن الفهم وأعرافهم،

فقد عرضَ القرآن صوراً ومشاهد حسِّية طبيعية تمثّلت فيها أدوار البعـث، وتحقّقت فيها مفاهيم النشر، ونبضت فيها الحياة بعد أن كانت مواتاً، ليجعلها برهاناً حيّاً على إمكان المعاد ويُسر تصـديقه، فبينا ترى الأرض خاشـعة هامدة قد سادها سكون الموت، وضلّلتها وحشة الإقفار والبلى، فإذا جاءها الغيث، وأنعشها بروائـه، دبّت فيها الحـياة، وسرت في أرجائها عوامل الخصب والإزدهار، وغدت زاهيـة بالخير والجمال.

وهكذا تُبعث أجساد البشر وتسري في أعضائها الحياة بعد أن عراها الموت، وطحنها البلى رفاتاً بالية وعظاماً رميمة.

﴿ومِنْ آياتِهِ أنّكَ تَرى ٱلأرْضَ خاشِعَةً فإذا أنْزَلْنا عَلَيها ٱلماءَ ٱهْتَزّتْ وَرَبَتْ إنّ ٱلّذي أحْياها لَمُحْيِي ٱلمَوْتى إنّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير﴾. (فُصِّلت / ٣٩)

﴿وَتَرى ٱلأرْضَ هامِدَةً فإذا أنْزَلْنا عَلَيها ٱلماءَ ٱهتزّتْ وَرَبَتْ وأنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذلِكَ بأنَّ ٱللهَ هُوَ ٱلحَقُّ وأنّهُ يُحْيِي ٱلمَوْتى وأنّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وأنَّ ٱلسّاعةَ آتيةٌ لا رَيْبَ فِيها وأنَّ ٱللهَ يَبْعَثُ مَنْ في القُبُور﴾. (الحجّ / ٥ ـ ٧)

البعث في نماذج حيّة

وبعد أن عرض القرآن الكريم طرفاً ممتعاً من آيات البعث وحججه الصارخة، وعرض نماذج حيّة من البعث الدنيوي، ومشاهد مثيرة منه، جرت فصولها وأدوارها على مسرح هذه الحياة، وفي عصور وأمم غابرة، ردّد التاريخ أصداءها، وحكى رواياتها الوثيقة، فكانت صوراً مصغّرة من البعث الأخروي.

(١) قصّة إبراهيم الخليل عليه السلام:

الّتي حكاها القرآن الكريم: ﴿وإذ قال إبراهيم ربِّ أرِني كَيْفَ تُحْيِي ٱلمَوْتى قالَ أوَلَمْ تُؤْمِن قالَ بَلَى ولكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قالَ فَخُذْ أرْبَعَةً مِنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يأتِينَكَ سَعْياً وٱعْلَمْ أنَّ ٱللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

(البقرة/ ٢٦٠)

وقد أورد الشيخ الأجلّ عليّ بن إبراهيم القمّي رحمه الله شرح هذه الآية في تفسيره الشهير عن أبي عبدالله عليه السلام:

«إنّ إبراهيم نظر إلى جيفةٍ على ساحل البحر، تأكلها سباع البرّ وسباع البحر، ثمّ يثبُ السباع بعضها على بعض فيأكل بعضها بعضاً.

فتعجّب إبراهيم فقال: ﴿رَبِّ أرِني كَيْفَ تُحْيِي ٱلمَوْتى﴾ ؟!!

فقال الله: ﴿أوَلَمْ تُؤْمِن﴾ ؟!!

قال: ﴿بَلَى ولكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.

قال: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يأْتِينَكَ سَعْياً وٱعْلَمْ أنَّ ٱللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

فأخذ إبراهيم صلوات الله عليه: الطاووس، والدِّيك، والحمام، والغراب. وفرّقها على عشرة جبال، ثمّ أخذ مناقيرهنّ ثمّ دعاهنّ، فقال: أجبنني بإذن الله تعالى، فكانَ يجتمع ويأتلف لحم كلّ واحد وعظمه إلى رأسه، وطارت إلى إبراهيم، فعند ذلك قال إبراهيم: إنّ الله عزيز حكيم»[1].

(٢) قصّة أرميا:

﴿أوْ كَالّذي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلَى عُروشِها قالَ أنّى يُحْيِي هذهِ ٱللهُ بَعْدَ مَوْتِها فأماتَهُ ٱللهُ مائَةَ عامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قالَ كَمْ لَبِثْتَ قالَ لَبِثْتُ يَوْماً أوْ بَعْضَ يَوْمٍ قالَ بَل لَبِثْتَ مائَةَ عامٍ فانظُرْ إلى طَعامِكَ وشَرابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وٱنظُرْ إلى حِمارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنّاسِ وٱنظُرْ إلى ٱلعِظامِ كَيْفَ نُنشِزُها ثُمَّ نَكْسُوها لَحْماً فَلَمّا تَبَيَّنَ لَهُ قالَ أعْلَمُ أنَّ ٱللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. (البقرة/ ٢٥٩)

أورد القمّي في تفسيره، عن أبي عبدالله عليه السلام، أنّه قال:

«لمّا قتل بخت نصر ما قتلَ من بني إسرائيل، خرج أرميا[2] على حمار، ومعه تين قد تزوده، وشيء من عصير، فنظر إلى سباع البرّ وسباع البحر وسباع الجوّ تأكل تلك الجيف، ففكّر في نفسه ساعة ثمّ قال:

---

(١) البحار، م٣، ص١٩٩.

(٢) وقيل عزير.

أنّى يُحيي هؤلاء وقد أكلَتْهم السِّباع؟!!

فأماتهُ الله مكانـه مائة عام، ثمّ بعـثه ـ أحـياه ـ فلمّا رحم الله بني إسرائيل، وأهلك بخـت نصر، ردّ بني إسرائيل إلى الدّنيا، وكان عزير هرب ودخل في عـين وغاب فيها، وبقيَ أرميا ميّتاً مائة سنة، ثمّ أحياه الله، فأوّل ما أحيا منه عينيه، في مثل غرقِئ البيض[1]، فنظر.

فأوحى الله إليه: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾؟!

قال: ﴿لَبِثْتُ يوماً﴾ ثمّ نظر إلى الشمس قد ارتفعت، فقال: ﴿أوْ بَعْضَ يَوْم﴾.

فقال الله تبارك وتعالى: ﴿بَل لَبِثْتَ مائَـةَ عامٍ فانظُرْ إلى طَعامِـكَ وشَرابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ـ لم يتغيّر ـ وانظُرْ إلى حِمارِكَ، وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنّاسِ، وانظُرْ إلى العِظامِ كَيْفَ نُنشِزُها ثُمَّ نَكْسُوها لَحْماً﴾.

فجعل ينظر إلى العظام البالية المنفطرة تجتمع إليه، وإلى اللّحم الّذي قد أكلتهُ السِّباع يتألّف إلى العظام من هاهنا وهاهنا، ويلتزق بها حتّى قام وقام حماره، فقال: ﴿أعْلَمُ أنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾»[2].

(٣) قصّة الهاربين من الطّاعون:

﴿ألَمْ تَرَ إلَى الّذيـنَ خَرَجُوا مِن ديارِهِم وهُم ألوفٌ حَذَرَ المَـوْتِ فقالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أحْياهُم﴾. (البقرة/ ٢٤٣)

أورد القمّي في تفسيره فقال:

---

(١) غرقِئ البيض: أي بياض البيض.

(٢) البحار، م٣، ص١٩٨.

«وقع الطاعون بالشام في بعض الكور، فخرج منه خلق كثير كما حكى الله تعالى هرباً من الطاعون، فساروا إلى مفازة فماتوا في ليلة واحدة كلّهم، فبقوا حتّى كانت عظامهم يمرّ بها المارّ فينحيها برجله عن الطريق، ثمّ أحياهم الله، وردّهم إلى منازلهم، فبقوا دهراً طويلاً، ثمّ ماتوا وتدافنوا»[1].

(٤) قصّة أصحاب الكهف:

﴿أمْ حَسِبْتَ أنَّ أصْحابَ ٱلكَهْفِ وٱلرَّقِيمِ كانُوا مِن آياتِنا عَجَباً * إذْ أوَى ٱلفِتْيَةُ إلى ٱلكَهْفِ فَقالُوا رَبَّنا آتِنا مِن لَدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئ لَنا مِنْ أمْرِنا رَشَداً * فَضَرَبْنا عَلى آذانِهِمْ في ٱلكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً * ثُمَّ بَعَثْناهُم ... (إلى قوله تعالى) وكَذَلِكَ أعْثَرْنا عَلَيْهِم لِيَعْلَمُوا أنَّ وَعْدَ ٱللهِ حَقٌّ وأنَّ ٱلسّاعَةَ لا رَيْبَ فِيها﴾. (الكهف/ ٩ ـ ١٢ و ٢١)

أورد عليّ بن إبراهيم في تفسيره ما مجمله:

«إنّ أصحاب الكهف كانوا في زمن ملك جبّار عات، وكان يدعو أهل مملكته إلى عبادة الأصنام، وكانوا هؤلاء قوم مؤمنين، فخرجوا من المدينة هرباً من دين الملك، فلمّا أمسوا دخلوا ذلك الكهف، فألقى الله عليهم النّعاس، كما قال تبارك وتعالى: ﴿فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِم في ٱلكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً﴾، فناموا حتّى أهلك الله ذلك الملك وأهل مملكته وذهب ذلك الزّمان، وجاء زمان آخر وقوم آخرون، ثمّ انتبهوا وعلموا أنّهم نائمين هذا الزّمن الطّويل (والّذي يُقدّر بثلاثمائة وتسع سنين) وأنّهم آية للنّاس، وأنّ وعد الله حقّ في البعث والساعة»[2].

---

(١) البحار، م ٥، ص ٣١٤.

(٢) البحار، م ٥، ص ٤٢٩.

(٥) إحياء عيسى عليه السلام للأموات:

قال تعالى حاكياً عنه: ﴿إِنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْئَةِ ٱلطَّيْرِ فأَنفُخُ فيهِ فيَكُونُ طَيْراً بإذْنِ ٱللهِ وأُبْرِئُ ٱلأكْمَهَ وٱلأبْرَصَ وأُحْيِي ٱلمَوْتى بإذْنِ اللهِ﴾.

(آل عمران / ٤٩)

كان من معاجز عيسى عليه السلام وآيات نبوّته إحياء الموتى ـ كما نطق بذلك القرآن الكريم ـ وكان ذلك بإذن الله ونافذ إرادته. وإذا استطاع السيِّد المسيح عليه السلام إحياء الموتى بإذن الله عزّ وجلّ، فكيف يُستبعَد على الله عزّ وجلّ أن يُحيي سائر الأموات ويبعثهم من جديد؟!!

ونستنتج من تلك البراهين القرآنية حقيقة خطيرة هامّة وهي:

أنّ القرآن الكريم قد عرضَ مشاهد حسِّية، وصوراً حيّة من البعث على مسرح هذه الحياة.

وواضح أنّ حدوث البعث وتحقّقه في ظروف خاصّة، وأزمان معيّنة، يجعل حدوثه ـ بإذن الله ـ جائزاً ممكناً في سائر الظّروف والأزمان.

وهذا ما يؤكِّد يُسر الحشر والنّشر على الخلّاق القدير يوم القيامة.

﴿ما خَلْقُكُمْ ولاَ بَعْثُكُمْ إلاّ كَنَفْسٍ واحِدَةٍ﴾. (لقمان / ٢٨)

المعاد وأهل البيت عليهم السلام

لقد تناغمت أحاديث أهل البيت عليهم السلام مع القرآن الكريم في المعاد وتركيز واقعه، وتقريبه إلى الأذهان، فكانت قبساً من نوره، وفيضاً من نبعه، ونفحةً من أريجه الفوّاح.

وقد اتّسمت بسموّ المنطق، وروعة البلاغة، وقوّة الإقناع، وإليك نماذج منها:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«يا بني عبدالمطّلب! إنّ الرائد لا يكذب أهله، والّذي بعثني بالحقّ لتموتنّ كما تنامون، ولتُبعثنّ كما تستيقظون، وما بعد الموت دار إلّا جنّة أو نار، وخلق جميع الخلق وبعثهم على الله عزّ وجلّ كخلق نفس واحدة وبعثها، قال الله تعالى: ﴿**ما خَلْقُكُمْ ولاَ بَعْثُكُمْ إلاّ كَنَفْسٍ واحِدَةٍ**﴾»(١).

وروى الطبرسي، عن هشام بن الحكم، أنّه قال الزنديق للصادق عليه السلام:

«أنّى للرّوح بالبعث، والبدن قد بلي، والأعضاء قد تفرّقت، فعضو في بلدة تأكله سباعها، وعضو بأخرى تمزّقه هوامها، وعضو قد صار تُراباً بُني به مع الطّين حائطاً؟!!

(١) الدّرر الموسوية في العقائد الجعفرية، للسيِّد الجد المغفور له آية الله السيد حسن الصّدر، ص ٨٥.

قال: إنّ الّذي أنشأهُ من غير شيء، وصوّره على غير مثال كان سبق إليه، قادرٌ أن يعيده كما بدأه.

قال: أوْضِح لي ذلك.

قال: إنّ الرّوح مقيمة في مكانها، روح المحسن في ضياء وفسحة، وروح المسيء في ضيق وظلمة، والبدن يصير تُراباً منه خلق، وما تقذف به السِّباع والهوام من أجوافها ممّا أكلتهُ ومزّقته، كلّ ذلك في التّراب محفوظ عند مَنْ لا يعزب عنه مثقال ذرّةٍ في ظلمات الأرض، ويعلم عدد الأشياء ووزنها.

وإنّ تُراب الروحانيّين بمنزلة الذّهب في التّراب، فإذا كان حين البعث مطرت الأرض، فتربو[1]، ثمّ تمخص مخض السقاء، فيصير تراب البشر كمصير الذّهب من التّراب إذا غُسِلَ بالماء، والزّبد من اللّبن إذا مخض، فيجتمع تُراب كلّ قالب فيُنقل بإذن الله إلى حيث الرّوح، فتعود الصّور كهيئتها، وتلج الرّوح فيها، فإذا قد استوى لا ينكر من نفسه شيئاً...»[2].

وقال ابن أبي العوجاء ـ وكان ملحداً ـ:

«ما تقول في هذه الآية: ﴿**كُلّما نَضِجَتْ جُلودُهُم بدّلناهُم جُلوداً غيرَها**﴾، هَبْ هذهِ الجلود عصت فعُذِّبت، فما ذنب الغير؟!!

قال أبو عبدالله عليه السلام: ويحك، هي هي، وهي غيرها.

قال: أعقلني هذا القول.

فقال له: أرأيتَ لو أنّ رجلاً عمد إلى لبنة فكسرها، ثمّ صبّ عليها الماء وجبلها،

---

(١) أي تنمو.

(٢) البحار، م٣، ص ١٩٩.

ثمّ ردّها إلى هيئتها الأولى، ألم تكن هي هي وهي غيرها.

فقال: بلى، أمتع الله بك»[(١)].

وفي الكافي، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال:

«سُئل عن الميِّت يبلى جسده؟ قال: نعم، حتّى لا يبقى لحم ولا عظم إلّا طينته الّتي خُلِقَ منها، فإنّها لا تبلى، تبقى في القبر مستديرة حتّى يُخْلَق منها كما خُلِقَ أوّل مرّة»[(٢)].

وقال عليّ بن الحسين عليهما السلام:

«العجب كلّ العجب لِمَنْ أنكرَ الموت وهو يرى مَنْ يموت كلّ يوم وليلة!! والعجب كلّ العجب لِمَنْ أنكرَ النّشأة الأخرى وهو يرى الأولى»[(٣)].

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لجبرئيل:

«يا جبرئيل! أرني كيف يبعث الله تبارك وتعالى العباد يوم القيامة؟

قال: نعم، فخرج إلى مقبرة بني أسد، فأتى قبراً، فقال له: اخرج بإذن الله، فخرج رجل ينفض رأسه من التّراب، وهو يقول: وا لهفاه ـ واللّهف هو الثّبور ـ ثمّ قال: ادخل فدخل.

ثمّ قصد به إلى قبر آخر، فقال: اخرج بإذن الله، فخرج شاب ينفض رأسه من التّراب وهو يقول: أشهد أن لا إله إلّا الله وحدهُ لا شريكَ له، وأشهد أنّ محمّداً عبدهُ ورسوله، وأشهد أنّ السّاعةَ آتية لا ريبَ فيها، وأنّ الله يبعث مَنْ في القبور.

---

(١) البحار، م٣، ص ٢٠٠.

(٢) البحار، م٣، ص ٢٠١.

(٣) البحار، م٣، ص ٢٠٠.

ثمّ قال: هكذا يُبعثون يوم القيامة»[1].

ورُوي عن النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم:

«أنّه وقف على قليب بدر، فقال للمشركين الّذين قُتلوا يومئذٍ وقد أُلقوا في البئر: لقد كنتم جيران سوء لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أخرجتموه من منزله وطردتموه، ثمّ اجتمعتم عليه فحاربتموه. فقد وجدتُ ما وعدني ربِّي حقّاً، فهل وجدتم ما وعدكم ربّكم حقّاً؟

فقال له عمر: يا رسول الله! ما خطابك لهام قد صديت؟!!

فقال له: مه يا ابن الخطّاب! فوَالله ما أنتَ بأسمع منهم، وما بينهم وبين أن تأخذهم الملائكة بمقامع الحديد إلّا أن أعرض بوجهي هكذا عنهم»[2].

واقع الحشر:

اختلف الباحثون الكلاميون في واقع البعث والحشر، وأوضاع المبعوثين والمحشورين في القيامة إلى أقوال ثلاثة:

(أ) إنّ الحشر مختصّ بالأنفس والأرواح، وهو مذهب جمهرة من الفلاسفة، لزعمهم أنّ الأرواح هي مناط التلذّذ والتألّم، ومحور التكريم والإمتهان، وهي الحرِّية بالحشر والمكافأة.

(ب) إنّ الحشر مقصور على الأبدان فحسب.

---

(١) البحار، م٣، ص٢٠٠، عن قرب الإسناد. وقريب منه عن تفسير القمّي وعن بصائر الدّرجات.

(٢) شرح عقائد الصّدوق، للشيّخ المفيد عليه السلام، ص ١٨٩.

(ج) إنّ الحشر مزدوج من الأبدان والأرواح، ويجب حشرهما معاً، لاقتران الأجسام والأرواح واشتراكهما في ممارسات الطّاعات أو المعاصي، وهذا ما يحتّم بعثهما واستعادتهما معاً، لينالا جزاءهما من مباهج النعيم أو آلام العذاب. ولا ريب في بطلان القول الأوّل، إذ ليس في مقدور الأرواح ـ وهي في حالة انفرادها وتحرّرها من الأبدان ـ ممارسة أيّ نشاط وعمل طاعة كان أو عصياناً، ولا تستطيع مزاولة ذلك إلّا باقترانها وازدواجها مع الأبدان.

فالأرواح ـ في وجه الشّبه ـ كالوقود يُحرّك الأجهزة الآلية ويديرها لتحقيق منافعها المنشودة.

فإذا ما انتزع منها، وانفرد عنها، غدا عاجزاً عن تحريكها وتسييرها بداهة ووجداناً.

من أجل ذلك، كان القول بحشر الأرواح المجرّدة ومكافأتها يوم القيامة، ادّعاءً زائفاً، لا يعضده برهان علمي سليم، ولا يسنده نصّ سماوي أو نبوي.

والقوال الثاني، أوضح زيفاً وبطلاناً من الأوّل، إذ الأبدان العاطلة من الأرواح، والمجدبة من إشراقها وعطائها وإلهامها: كالجمادات الّتي لا تملك الإحساس والإدراك ولا تشعر بمباهج النعيم ولذائذه ومسرّاته، أو مآسي العذاب وآلامه وأهواله، فكيف يصحّ حشرها ـ مجرّدة من الأرواح ـ للجزاء والمكافأة؟!!

والقول الثالث هو الصائب السديد، الّذي نوّه القرآن الكريم عنه، وقرّرتهُ السنّة المتواترة واختاره المحقّقون من أقطاب العلم، وقادة الفكر الإسلامي، لاقتران الأجسام والأرواح وإسهامها في ممارسات الطاعات أو المعاصي، واكتساب الحسنات أو السيّئات.

لقد أفصح القرآن الكريم عن مشاركة الأبدان والأرواح في الإستمتاع والتلذّذ

بلذائذ الجنّــة ومباهجها وأشواقها، وتضوّرهما وتألّمها معاً من آلام النار والعـذاب وأهوالها الرهيبة، فقال عزّ وجلّ:

﴿فيها ما تَشْتَهيهِ الأنْفُس وتلذّ الأعْيُن﴾. (الزّخرف / ٧١)

وقال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِم وُلْدانٌ مُخَلّدُونَ * بأكوابٍ وأباريقَ وكأسٍ مِن معينٍ * لا يُصدّعُونَ عَنْها ولا يُنزِفُون * وفاكِهَةٍ ممّا يَتَخَيّرُونَ * ولَحْمِ طَيْرٍ ممّا يَشْتَهُون * وحُورٌ عِينٌ * كأمثالِ ٱللُّؤْلُؤ ٱلمَكْنُون * جَزاءً بما كانُوا يَعْمَلُون﴾.

(الواقعة / ١٧ ـ ٢٤)

وقال تعالى: ﴿اليَـوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أفْواهِهِم وتُكَلِّمُـنا أيديهِم وتَشْهَدُ أرْجُلُهُم بما كانُوا يَكْسِبُون﴾. (يّس / ٦٥)

وقال سبحانه: ﴿كُلّما نَضِجَتْ جُلُودُهم بَدّلْناهُم جُلُوداً غيرها﴾. (النِّساء / ٥٦)

وهكذا صرّحت الأحاديـث والروايات المتـواترة بالمـعاد والحشر الجسـمي والرّوحي معاً، وصوّرتهُ النصوص الّتي عرضناها في حقل المعاد وأهل البيـت عليهم السلام، وفي الفصول السالفة واللّاحقة من هذا الكتاب.

من أجل ذلك، كان الإيمان بالمعاد الجسماني والرّوحاني من ضرورات الإسلام، الّتي يجب اعتقادها والإذعان بها، ويُعتبر إنكارها كفراً وضلالاً.

فلسفة المعاد الجسمي والرّوحي:

وفضلاً عن دلائل الكتاب والسنّة على واقع المعاد ومغزاه الأصيل، ومفهومه الّذي أوضحناه، فقد استلهم العقل المستنير حكمته، واستجلى صوابه، وراقه حسنه وجماله للوجوه التالية:

(**أ**) من الحقائق البديهية شعور الإنسان بتآلف الأجسام والأرواح البشرية وترابطهما الوثيق عبرَ الحياة. ولقوّة هذا التآلف والترابط، يعبِّر الإنسان عن ذاته بـ «أنا»، مشيراً إلى كيانه المشتمل على الجسم والرّوح، دون تمييز وتفريق بين هٰذين العنصرين.

من أجل ذلك، كان التناغم والتعاطف بين الأجسام والأرواح واضحاً قويّاً، وكان ما يمتع الأولى ويلذّها يبهج الثانية ويسعدها، وكذلك العكس.

وكان للأزمات النفسية وآلامها انعكاساتها السلبية على الأجسام.

وهذا ما يحتِّم المعاد الجسمي والرّوحي لينال فيه المؤمنون أجمل وأكمل مفاهيم النّعيم المادِّي والرّوحي، وينال فيه الكافرون آلام العذاب الجسمي والنّفسي.

(**ب**) لكل من الجسم والرّوح أشواقه ومآربه، فأشواق الجسم هي: المآرب المادِّية الباعثة على صحّته وازدهاره، ووفرة نشاطه: كالطّعام والشّراب والكساء والسكن ونحوها من رغائب الحياة. وأشواق الرّوح هي الرّغائب الّتي تتعشّقها وتصبو إليها: كالعلم والأخلاق الكريمة، وحبّ الخير والجمال، وتقديس الحقّ والعدل، وتوخِّي الحرِّية والكرامة، وتنشدان السعادة والسلام. وأمّا حرمان الجسم من أشواقه ومآربه، فهو باعث على هزاله وانهيار صحّته. وحرمان الرّوح من رغائبها داع إلى الحيرة والقلق والشّقاء.

من أجل ذلك، وجب أن يكون المعاد جسمانياً وروحانياً ضماناً لسعادة الجسم والنّفس، وتكامل نعيمهما المادِّي والرّوحي.

(**ج**) من أهم غايات المعاد وأسمى أهدافه، إنجاز الوعد والوعيد الإلٰهيين، وتحقيق الجزاء العادل للعباد يوم القيامة.

وبديهي أنّ الإنسان يمارس أعمال الخير أو الشرّ، وأفعال الطّاعة أو العصيان بجسمه وروحه معاً. لذلك وجبَ حشرهما مقترنين لينالا جزاءهما من الثّواب أو العقاب.

(د) لا يتحقّق بعث الإنسان يوم القيامة إلّا بحشره جسداً وروحاً، واستعادة وضعه الطبيعي كاملاً غير منقوص.

إذ حشر الجسد بمفرده خلواً من الرّوح يجعله جماداً لا يحسّ لذائذ النعيم وآلام العذاب. وحشر الرّوح بمفردها يجعلها شبحاً هائماً لا يتذوّق حلاوة الثّواب ومرارة العقاب.

وهذا ما يحتّم تحقّق المعاد جسداً وروحاً، ليستمتع المحشور بالنعيم المادِّي والرّوحي وينال السعادة الجسدية والنفسية.

مِمّ تُحشر الأجسام في المعاد؟

اختلف المتكلِّمون في منطق الأجسام المحشورة ومصدرها الأوّل.

أتُحشر بعد الإنعدام والفناء الكلِّي؟ أو تُبعَث من عناصرها الترابية المخزونة في الأرض؟

فاختار فريق منهم الرأي الأوّل، واختار فريق آخر الرأي الثاني.

ولا ريبَ في رجحان الثاني على الأوّل لدلائل الكتاب والسنّة عليه، وهو ما اختاره أغلب الباحثين والمتكلِّمين من الإمامية.

قال تعالى: ﴿مِنْها خَلَقْناكُمْ وفيها نُعيدُكُم ومِنْها نُخْرِجُكُم تارةً أخرى﴾. (طه/ ٥٥)

وقال تعالى: ﴿قالَ فِيها تَحْيُونَ وفِيها تَمُوتُونَ ومِنْها تُخْرَجُون﴾. (الأعراف/ ٢٥)

وقال سبحانه: ﴿واللهُ أنبتَكُم مِنَ الأرْضِ نباتاً ثُمّ يُعيدكُم فيها ويُخْرِجُكُم إخْراجاً﴾. (نوح / ١٧)

وقال عزّ وجلّ: ﴿يخرجُونَ مِنَ الأجْداثِ كأنّهُم جرادٌ مُنْتَشِر﴾. (القمر / ٧)

وهكذا صرّحت أقوال أهل البيت عليهم السلام ببعث الأجساد من رواسب ذرّاتها الترابية، فقد ورد في الكافي والفقيه عن الصادق عليه السلام: أنّه سُئل عن الميِّت هل يبلى جسده؟

قال: «نعم، حتّى لا يبقى له لحم ولا عظم، إلّا طينته الّتي خُلِقَ منها، فإنّها لا تبلى، بل تبقى في القبر مستديرة، حتّى يُخْلَق منها كما خُلِقَ أوّل مرّة»[١].

وقد أوردنا آنفاً في حقل (المعاد وأهل البيت عليهم السلام) أخباراً تؤكّد مضمون هذه الرواية، تفادينا عرضها في هذا الموضوع خشية التكرار.

---

(١) الوافي، ج ١٣، ص ١٠٩.

شُبهة الآكل والمأكول

وتعتبر هذه الشبهة أخطر شبهات منكري المعاد.

وفحواها: أنّ الإنسان قد يموت حرقاً ويستحيل قتاماً ورماداً تجتاحه الرِّيح، أو تأكله السِّباع ويصبح جزءاً مهضوماً في أبدانها، أو يستحيل بالتحلّل إلى نبتة في حقل أو لبنة في جدار أو إناء من فخار.

هذا إلى ما ينتاب خلايا جسمه من عوامل الهدم والبناء، ما تجعله خلال شيخوخته مغايراً لسنيِّ شبابه وكهولته.

فكيف يُحشر الإنسان ويُبعث حيّاً من جديد، وقد تلاشى جسمه واستحال إلى عنصر حيواني أو جزء نباتي أو مادّة مندكّة في أوساط نظائرها الكثر؟!!

وكيف يُثاب ويُعاقب في المعاد، وقد تكيّفت خلايا بدنه وتغايرت عمّا كانت عليه في حالات الطاعات أو المعاصي؟!!

وهذه الشبهة رغم زخرفها واهية لا تصمد على النقد والتفنيد:

فقد أجمع العقلاء والحكماء أنّ تشخيص الإنسان وتمييزه عن أفراد جنسه منوط بطابعه الصوري، وسماته الشكلية، دون واقعه المادِّي، وماهيّته الأصيلة وخلاياه المستبدلة، ولولا ذلك لتشابه البشر ولم يتميّز بعضهم عن بعض لاتحاد عناصرهم ومكوّنات أبدانهم.

ومن الثابت أنّ ذلك الطابع، وتلك السمات المشخّصة للإنسان تلازمه ملازمة الظلّ لصاحبه لا تُبارحه ولا تنفكّ عنه، رغم تطوّراته الجسـدية، وطروء الأعراض المختلفة عليه: كالصحّة والمرض، والسمن والهزال، لتمـيّزه بقسماته الثابتـة، وملامحـه الأصيلة.

وبرهان ذلك: أنّ من اقترف الجناية العُظمى إبّان شبابه وفرّ هارباً من العقاب، فإنّه يُعتبر مجرماً في عهد كهولته أو شيخوخته، مستحقّاً للتأديب، لتميّزه بجميع السمات المشخِّصة له عن غيره، والمميِّزة له عمّن سواه، ولا يستنكر الشّرع والعُرْف مؤاخذاته بأنّه تأديب لغير الجاني، ومؤاخذته لسواه. وهو يعلم أنّه ذلك الجاني الّذي يقترف الجناية في غابر حياته. وإن تغايرت خلايا كيانه وتبدّلت خلال عشرات السنين.

حسبك في ذلك ما قرّرتهُ أبحاث علم النفس الحديث، وأكّدتهُ بصورة قاطعة:

«إنّ الوجود الإنساني لا تنحصر حقيقـته في ذلك الجسم المادِّي الّذي يخضع لعمليات التحطّم والإحتكاك والفناء، بل هو شيء آخر، غير هذا كلّه، وهو لا يفنى، بل يبقى مستقلّاً ولا يزول»[(١)].

ومن هنا كانت سمات كلّ إنسان، وخصائصه محفوظة في سجلّ الغيب، لا تُمحى ولا تلتبس بغـيرها، كما لا تفنى الصـور المذاعة عبرَ الفضـاء رغم تلاشيها في طيّات الأثير، وتشابكها بآلاف الصور.

والله عزّ وجلّ ينشر الإنسان ويعيده بجسمه وصورته إلى هيئته الأولى متّسماً بجميع صفاته ومشخّصاته، فإذا هو لا ينكر من نفسه شيئاً، كما أوضح ذلك الإمـام الصادق في جواب الزنديق الّذي أثار (شبهة الآكل والمأكول)، فقال:

---

(١) الإسلام يتحدّى، للأستاذ وحيدالدِّين خان، ص ١٠٢.

«أنّى للرّوح بالبعث والبدن قد بلى، والأعضاء قد تفرّقت، فعضو في بلدة تأكله سباعها، وعضو بأخرى تمزِّقه هوامها، وعضو قد صار تُراباً بُني مع الطِّين حائطاً؟!!

قال عليه السلام: إنّ الّذي أنشأه من غير شيء، وصوّره على غير مثال، كان سبق إليه قادر أن يعيده كما بدأه.

قال: أوْضِح لي ذلك.

قال عليه السلام: إنّ الرّوح مقيمة في مكانها، روح المحسن في ضياء وفسحة، وروح المسيء في ضيق وظلمة، والبدن يصير تُراباً منه خلق، وما تقذف به السِّباع والهوام من أجوافها ممّا أكلته ومزّقته كلّ ذلك في التّراب محفوظ عند مَنْ لا يعزب عنه مثقال ذرّة في ظلمات الأرض، ويعلم عدد الأشياء ووزنها، وأنّ تُراب الروحانيّين بمنزلة الذّهب في التّراب.

فإذا كان حين البعث مطرت الأرض فتربو، ثمّ تمخّض مخض السقاء، فيصير تُراب البشر كمصير الذّهب من التّراب إذ غُسِلَ بالماء، أو الزّبد من اللّبن إذا مخض، فيجتمع تُراب كلّ قالب فيُنـقل بإذن الله تعالى إلى حيث الرّوح، فتعود الصّور بإذن المصوِّر كهيئتها، وتلج الرّوح فيها، فإذا قد ٱستوى لا ينكر من نفسه شيئاً»(١).

ونقض بعض متكلِّمي الإمامية «شبهة الآكل والمأكول» وفنّدها بالأسلوب التالي:

إنّ في جسم الإنسان أجزاء فضلية، وأجزاء أصلية.

فالأولى: هي الّتي يعتريها الدثور والإضمحلال.

والثانية: هي الأصيلة الباقية عبرَ حياة الإنسان وبعد وفاته وتلاشي جسمه لا

---

(١) البحار، م ٣، ص ١٩٩.

تعتريها أعراض التبدّل والتغيّر، والزيادة والنّقص. وهي ملاك البعث ومنطلقه الأوّل، ومناط الثواب والعقاب في المعاد. والله عزّ وجلّ عليم خبير بالأجزاء الأصلية والفضلية في جسم الآكل والمأكول، فيجمع الأجزاء الأصلية من جسم هذا وذاك، ويلمّ أشتاتها المبعثرة والمتباينة هنا وهناك، ويُعيدها إلى حالتها السويّة من جديد.

أقول: وقد اكتشف العلم الحديث أنّ خلايا الجهاز العصبي لا تجري عليها عمليات الهدم والبناء، والإضمحلال والتجدّد الجارية في سائر جسم الإنسان، والملازمة له عبرَ حياته.

من أجل ذلك أسموها الخلايا النبيلة أو الثمينة، وهذا ما يقرب مفهوم الأجزاء الأصلية السالفة، وتميّزها عن الأجزاء الفضلية.

والجدير بالذكر: أنّ الواجب على المكلّف، الإيمان بالمعاد على ضوء القرآن الكريم وأحاديث أهل البيت عليهم السلام دون تعمّق وتوسّع في واقعه، ودون استطلاع مفاهيمه الفلسفية الّتي قد تزجّ المّكلّف في متاهات الضّلال والإنحراف.

المصير المحتوم

حتميّة الموت:

الموت هو النهاية الطبيعية، والمصير المحتوم لجميع الأحياء وكافّة العباد، لا يعفى منه ملك مقرّب، ولا نبيّ مرسل، ولا عالم ولا جاهل، ولا شريف ولا وضيع، وكلّهم عرضة للموت والهلاك.

فكم زهت الحياة، وازدهرت بأجيال البشر نشأوا في أكنافها، ودرجوا في ربوعها، واستمتعوا بألوان المتع والمباهج، حتّى اغتالهم الموت، وصرعهم المنون، وزجّهم في حنايا الأرض وأجداثها الرهيبة، وأصبحوا خبراً بعد عيان.

وتعاقبت بعدهم أجيال على مسرح الحياة، وغدت تمثّل نفس الأدوار والفصول الّتي مثّلها آباؤهم من قبل، حتّى اختفت عن المسرح، وأسدلت دونها الأستار، ولاقت مصيرها المحتوم، وهكذا دواليك.

﴿أَلَمْ يرَوا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُم مِنَ ٱلقُرونِ أنّهم إليهِم لا يرجعُون﴾. (يس/ ٣١)

وقد صوّر القرآن الكريم حتميّة الموت وقضاءه المبرم الّذي لا محيص عنه ولا مفرّ منه تصويراً بليغاً ناطقاً بالواقع الرهيب.

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ ٱلمَوْتِ﴾. (الأنبياء/ ٣٥)

وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَليها فانٍ * ويبقى وجهُ ربّكَ ذو ٱلجَلالِ وٱلإكرام﴾.

(الرّحمٰن/ ٢٦ ـ ٢٧)

وقال تعالى: ﴿أينما تكُونوا يُدرككُم المَوتُ ولو كُنتُم في بروجٍ مُشيّدة﴾.
(النِّساء/ ٧٨)

وقال تعالى: ﴿إنّكَ مَيِّتٌ وإنّهُم مَيّتُون﴾. (الزّمر/ ٣٠)

وقال تعالى: ﴿وَما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِن قَبْلِكَ ٱلخُلْدَ أفإن مِتَّ فَهُم ٱلخالِدُون﴾.
(الأنبياء/ ٣٤)

وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّـةٍ أجَلٌ فإذا جاءَ أجَلُهُم لا يَسْـتأخِرُونَ سـاعَةً ولا يَسْتَقْدِمُون﴾. (الأعراف/ ٣٤)

وهكذا صوّره أهل البيت عليهم السلام:

قال أمير المـؤمنين عليه السلام: «ولولا أنّ أحداً يجد إلى البقاء سُلّماً أو لدفع الموت سبيلاً، لكان ذلك سليمان بن داوود، الّذي سُخِّرَ لهُ ملكُ الجنِّ والإنسِ مع النّبـوّة وعظيم الزّلفة، فلمّا ٱستوفى طعمته وٱستكمل مدّته رمته قسي الفناء بنبالِ المـوت، وأصبحت الدِّيارُ منه خاليـةً والمساكنُ معطّلةً، وورثها قوم آخرون، وإنّ لكم في القرون السالفة لعبرة. أينَ العمالقة وأبناء العمالقة؟! أينَ الفراعنة وأبناء الفراعنة؟! ... أينَ الّذين ساروا بالجيـوش، وهزموا بالألوف، وعسكروا العساكر، ومدّنوا المدائن؟!»[1].

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: جاء جبرئيل إلى النّـبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال: «يا محمّد عِش ما شئت فإنّك ميِّـت، وأحبب مَنْ شئت فإنّك مفارقه، وٱعمل ما شئت فإنّك ملاقيه»[2].

---

(١) نهج البلاغة.

(٢) الوافي، ج ١٣، ص ٢٨، عن الكافي.

وقيل للحسن بن عليّ عليهما السلام: **«ما بالنا نكره الموت ولا نحبّه ؟!**

فقال عليه السلام: **إنّكم أخربتم آخرتكم، وعمّرتم دنياكم،، فأنتم تكرهون النّقلة من العمران إلى الخراب»**[1].

وقيل لأمير المؤمنين عليه السلام: **«ما الإستعداد للموت ؟**

فقال: أداء الفرائض، واجتناب المحارم، والإشتمال على المكارم، ثمّ لا يبالي أوَقَع على الموت أو وقع الموت عليه»[2].

وقال أبو العتاهية:

بين عيني كلّ حيٍّ ... علم الموت يلوح
كلّنا في غفلةٍ والموت ... يغدو ويروح
نح على نفسك يا مسكين ... إن كنتَ تنوح
لتموتنّ وإن عمّرت ... ما عمّر نوح

وما أروع هذه الأبيات:

لاتأمن الموت في طرف ولا نفس ... وإن تستّرت بالأبواب والحرس
وٱعلم بأنّ سهام الموت نافذة ... في كلِّ مدرعٍ منها ومترس
ترجو النّجاة ولم تسلك مسالكها ... إنّ السفينة لاتجري على اليبس

وما أحسن قول الشاعر:

دقّات قلب المرء قائلة له ... إنّ الحياة دقائق وثوانِ

---

(١) البحار، م٣، ص١٢٧، عن معاني الأخبار، وص ١٢٩، عن الدرّة الباهرة.

(٢) المصدر السابق.

حكمة الموت:

من الثابت أنّ أفعال الله تعالى معلّلة بالحكم والمصالح، لأنّه المثل الأعلى للحكمة والصّواب، والتنزّه عن العبث واللّهو.

فلماذا قدّر الله عزّ وجلّ الموت على العباد وفرضه عليهم، وما الغاية منه؟

وسنجلو في النقاط التالية فلسفة ذلك:

(١) إنّ الحياة الخالدة، والبقاء السرمدي من خصائص واجب الوجود، وصفاته الكمالية الّتي يستحيل تحقّقها في البشر وسائر الممكنات، لما جبلت عليه، واتّصفت به من عوامل الموت والهلاك: كالمرض والهرم والوهن والإنحلال.

من أجل ذلك، كان الموت حتماً مقضيّاً على الخلائق لا مفرّ منه.

(٢) إنّ تكامل الإنسان، وتحقّق غايات خلقه، وأهداف رسالته في الحياة منوط برحلته الصاعدة، ونهاية مطافها العلوي في الآخرة، حيث يجد فيها الحياة الخالدة، والنعيم الأبديّ، ولولا ذلك لكان أشقى الكائنات وأخسرها مصيراً.

فالإنسان في دنياه كالفرخ في البيضة، فكما أنّ تكامل الفرخ، وتحقّق غايات خلقه منوط فانفلاق البيضة عنه، وخروجه منها إلى عالم النور، كذلك لا يتحقّق تكامل الإنسان وأهداف خلقه إلّا بمغادرة هذه الحياة الفانية المحدودة، وعروجه إلى عالم الخلد، وجنانه الواسعة الفسيحة.

(٣) ولولا ارتحال الأجيال السالفة، لضاقت الأرض الرّحبة الواسعة عن استيعاب الأجيال اللّاحقة المتوافدة عليها، وغصّت شاهقة بحشودها الزّاخرة، وعجزت عن إمدادهم بلوازم العيش وضرورات الحياة، ما يدفع البشرية على الصّراع والتناحر في سبيل مآربهم، وتحقيق أشواقهم فيها، أضعاف ما تعيشه اليوم من مآسي المعارك والحروب.

وقد قال رسول الله ﷺ: «**لولا ثلاثة في ابن آدم ما طأطأ رأسه شيء: المرض، والموت، والفقر. وكلّهنّ فيه وإنّهُ معهنّ لوثّاب**».

(٤) وتنشأ عن خلود البشر في الحياة مشكلة عاطفية خطيرة: وهي مسؤولية الأبناء، وحتمية كفالتهم ورعايتهم للآباء والأجداد الّذين أنهكهم الهرم وأحالتهم الشيخوخة أجساماً هزيلة منهارة، لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضرّاً، وذلك ما يعنت الأبناء، ويوقعهم في عسر وحرج بالغين.

(٥) وتبرز بعد هذا مآسي البؤساء والمعذّبين في الحياة بمآسي الأمراض والأوجاع، ما جعلهم أشلاء طريحة تكابد أسر المرض، وغصص الألم، ومرارة العيش، ما صيّر الحياة سجناً لهم، يتمنّون مبارحته، ويتلهّفون على مغادرته والترحبّ من ضيقه وكربه، وكم يعظم شقاؤهم، وتتفاقم آلامهم النفسية والجسمية لو كانوا خالدين في الأرض لا يأملون الخلاص والنّجاة من أسرها الفادح.

وصف الموت:

من الصعب وصف سكرات الموت، وحالات المحتضرين عند السياق، وتصوير مشاعرهم واستجلاء رؤاهم الغيبية المحجوبة عن غيرهم، ولا يستطيع وصف ذلك وصفاً دقيقاً معبِّراً إلّا مَنْ مارسَ تلك الحالة، واجتاز لحظتها الحاسمة.

نعم استطاع الباحثون في شؤون المشرفين على الموت، واستكشاف أحاسيسهم ومتاعبهم أن يستنتجوا عبرَ اختيارات ومشاهدات جمّة، طرفاً من تلك الحالات والمشاعر.

«واتّفقت أبحاثهم فيما يعتري الإنسان في لحظات انتقاله بما ملخّصه:

يبدأ المحتضِر بفقد الإحساس بالألم، إذ أنّ الحياة تدخل في دور الغيبوبة،

ولذلك لا يمكن القـول بأنّ لدى المحتـضِر من الشـعور ما يمكن وصفه.. تبدأ الروح تنفصل عن الأطراف السفلى، فيحاول أن يُحرِّك قدميه فلا يستطيع، بل ولا يمكنه أن يحسّ بها، ثمّ تنفصل الروح عن يديه فيفقد الإحساس بهما، والقدرة على تحريكهما. ويمرّ بخاطره في هذا الوقت تفكير سريع فيما ينتظره إذ رأى فعلاً شبح الموت، فينتفض لذلك جسمه بشدّة، ويحسّ بالظمأ فيجفّ حلقه، ويحسّ بما يشبه الرّعدة.

الرّوح تنفصل من جزء إلى آخر، ولا يظلّ على حالته سوى قلبه الّذي ينبض نبضاً خافتاً آلياً، والمخّ الّذي ما زال يتّصل بالرّوح اتصـالاً تامّاً.. ولكن على إدراك غير إدراكه، إذ انخفضت كمّيات الدم فيه، وبالتالي انخفض مسـتواه الفكري، بدأت الرّوح تتغلّب على الجسـد تغلّباً تامّاً، فعرفت أنّها باقيـة بعد المـوت.. الرّوح ترى أرواحاً ولكنّها تظنّ أنّها أحياء لأنّها فعلاً ما زالت ترى الأحياء، ووضوح كلّ من هٰذين إنّما يتناسب مع درجة خروج الرّوح.. فإن كانت الرّوح انفصلت إلى أكثر من نصف قوّتها، رأت الأرواح أوضح ممّا ترى الأحياء، وإن كان العكس رأت الأحياء أوضح.

ولذلك فإنّ المحتضِر كثيراً ما يتحدّث مع الموتى أو يناديهم أو يبتسم لهم، وما الحديث أو النداء أو الإبتسام إلّا ترجمة لدرجة اتصال الرّوح بالجسم أو انفصالها.

ففي الإبتسام تكون رؤية الأرواح غير واضحة تماماً..

وفي النداء تكون أكثر وضوحاً، إنّما هي على بُعْد.

أمّا في الحديث فتكون واضحة وقريبة، ومن ثمّ فقد قربت لحظة الإنتقال.

ثمّ تنفصل الرّوح عن أبراج الفهم، ثمّ الذّاكرة ثمّ المخّ كلّه، وتندفع الرّوح هائمة إلى عالمها الواسع والأرحب إلى الحياة الأخرى، ويكون الإنتقال قد تمّ»[١].

---

(١) الحياة الأخرى، للأستاذ عبدالرزّاق نوفل، ص ٨٠ ـ ٨٢، بتصرّف.

وقد صوّر أهل البيت عليهم السلام حالات المشرفين على الموت تصويراً دقيقاً بليغاً، وشرحوا واقعه الرهيب شرحاً محبّباً إلى نفوس المؤمنين، وهي أشدّ ما تكون فزعاً منه.

قيل لمحمّد بن عليّ الباقر: ما الموت؟

قال: **«هو النّوم الّذي يأتيكم كلّ ليلة، إلّا أنّه طويل مدّته لا ينتبه منه إلى يوم القيامة، فمنهم مَنْ رأى في نومه من أصناف الفرح ما لا يقادر قدره، ومنهم مَنْ رأى في نومه من أصناف الأهوال ما لا يقادر قدره»** (١).

وقيل للصادق عليه السلام: صِف لنا الموت.

فقال: **«هو للمؤمن كأطيب ريح يشمّه فينعس لطيبه، فينقطع التعب والألم كلّه عنه، وللكافر كلدغِ الإفاعي، وكلسع العقارب وأشدّ»** (٢).

وقيل لموسى بن جعفر عليه السلام: كيف الموت؟

فقال: **«الموت هو المصفاة يصفّي المؤمنين من ذنوبهم، فيكون آخر ألم يصيبهم كفّارة آخر وزر بقيَ عليهم. ويصفّي الكافرين من حسناتهم، فيكون آخر لذّة أو راحة تلحقهم هو آخر ثواب حسنة تكون لهم ...»** (٣).

وعن أبي جعفر الجواد، عن آبائه عليهم السلام، قال:

قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: صِف لنا الموت، فقال:

---

(١) عن حقّ اليقين، للمرحوم آية الله السيِّد عبدالله شبّر، ج ٢، ص ٥٦، ورواها صاحب البحار، م ٣، ص ١٣٤، عن معاني الأخبار.

(٢) المصدر السابق.

(٣) البحار، م ٣، ص ١٣٤، عن معاني الأخبار للشّيخ الصّدوق رحمه الله.

«على الخبير سقطتم، هو أحد ثلاثة أمور:

يردّ عليه بشارة بنعيم الأبد.

وأمّا بشارة بعذاب الأبد.

وأمّا تحزين وتهويل، وأمره مبهم، لا يُدرى من أيِّ الفِرَق هو.

فأمّا ولينا المطيع فهو: المبشّر بنعيم الأبد.

وأمّا عدوّنا المخالف فهو: المبشّر بعذاب الأبد.

وأمّا المبهم أمره، الّذي لا يدري ما حاله وهو: المؤمن المسرف على نفسه، لا يدري ما يؤول إليه حاله، يأتيه الخبر مبهماً مخوّفاً، ثمّ لن يسوِّيه الله عزّ وجلّ بأعدائنا، لكن يخرجه من النار بشفاعتنا. فاعملوا وأطيعوا، ولا تستصغروا عقوبة الله، فإنّ من المسرفين مَنْ لا تلحقه شفاعتنا إلّا بعد عذاب ثلاثمائة ألف سنة»[1].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في وصف المأخوذين على الغرّة:

«نزل بهم ما كانوا يجهلون، وجاءهم من فراق الدّنيا ما كانوا يأمنون، وقدموا من الأخرة على ما كانوا يوعدون، فغير موصوف ما نزل بهم!!

اجتمعت عليهم سكرة الموت، وحسرة الفوت، ففترت لها أطرافهم، وتغيّرت لها ألوانهم، ثمّ ازداد الموت منهم ولوجاً، فحيل بين أحدهم وبين منطقه، وأنّه لبين أهله، ينظر ببصره ويسمع بإذنه، على صحّة من عقله، وبقاء من لبِّه، يفكِّر فيمَ أفنى عمره، وفيمَ أذهب دهره، ويتذكّر أموالاً جمعها أغمض في مطالبها، وأخذها من مصرحاتها ومشبهاتها، قد لزمته تبعات جمعها، وأشرف على فراقها، تبق لمَن وراءه

---

(١) المصدر السابق كذلك.

ينعمون بها، فيكون المهنأ لغيره والعِبْءُ على ظهره»[1].

ومن مظاهر عناية الله تعالى بالمؤمن، وعطفه السامي عليه، أنّه لا يقتسره على الموت اقتساراً عنيفاً، وإنّما يستدرجه إليه بالترغيب والتشويق، ما يجعله محبّباً إليه، مُفضّلاً عنده على زخارف الدنيا الفانية، ويؤثره عليها رغبة واختياراً.

وقال الصادق عليه السلام: **«ما يخرج مؤمن عن الدنيا إلّا برضا. وذلك: أنّ الله تبارك وتعالى يكشف له الغطاء حتّى ينظر إلى مكانه من الجنّة، وما أعدّ له فيها. وتُنصب له الدنيا كأحسن ما كانت، ثمّ يُخيّر فيختار ما عند الله عزّ وجلّ، ويقول: ما أصنع بالدّنيا وبلائها، فلقِّنوا موتاكم كلمات الفرج»**[2].

وعن أبي حمزة، قال: سمعتُ أبا جعفر عليه السلام يقول: **«إنّ آية المؤمن إذا حضرهُ الموت، أن يبياضَّ وجهه أشدّ من بياض لونه، وترشح جبينه، ويسيل من عينيه كهيئة الدموع، فيكون ذلك خروج نفسه ...»**[3].

قال الشيخ المفيد أعلى الله مقامه في كلام له: **«وفعل الله الموت بالأحياء لينقلهم من دار العمل والإمتحان إلى دار الجزاء والمكافأة، وليس يميت الله عبداً من عبيده إلّا وإماتته أصلح له من بقائه، ولا يحييه إلّا وحياته أصلح من موته، وكلّما يفعله الله تعالى بخلقه فهو أصلح وأصوب في التدبير.**

وقد يمتحن الله تعالى كثيراً من خلقه بالآلام الشديدة قبل الموت، ويعفي آخرين من ذلك، وقد يكون الألم المتقدِّم للموت ضرباً من العقوبة لَمن حلّ به، ويكون استصلاحاً له ولغيره، ويعقبه نفع عظيم وعوض كثير.

---

(١) سفينة البحار، ج ٢، ص ٥٥٢.

(٢) الوافي، ج ١٣، ص ٣٦، عن الفقيه.

(٣) الوافي، ج ١٣، ص ٣٨، عن الكافي والفقيه.

وليس كلّ مَنْ صعب عليه خروج نفسه كان بذلك معاقباً، ولا كلّ مَنْ سهل عليه الأمر في ذلك كان به مكرماً مثاباً، وقد ورد بأنّ الآلام الّتي تتقدّم الموت تكون كفّارة لذنوب المؤمنين، وتكون عقاباً للكافرين، وتكون الرّاحة قبل الموت استدراجاً للكافرين، وضرباً من ثواب المؤمنين...

والموت على كلِّ حال أحد بشارات المؤمن، إذ كان أوّل طرقه إلى محلّ النعيم، وهو أوّل شدّة تلحق الكافر من شدائد العذاب، وأوّل طرقه إلى حلول العقاب...»[1].

ملك الموت:

ومن متمّمات هذا البحث ومفاهيمه الّتي يجدر اعتقادها والإقرار بها (ملك الموت)، وأنّه الموكل من قِبَل الله عزّ وجلّ بقبض أرواح العباد:

﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ ٱلمَوْتِ ٱلّذي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمّ إلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

(السّجدة / ١١)

وقد تغايرت الآيات الكريمة في نسبة قبض الأرواح:

فتارةً عزته إلى الله تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأنفُسَ حينَ موتها﴾. (الزّمر / ٤٢)

وأخرى نسبته إلى الملائكة: ﴿حتّى إذا جاءَ أحدهُم ٱلمَوْتُ توفّتهُ رُسُلُنا وهُم لا يفرطون﴾. (الأنعام / ٦١)

وثالثة إلى ملك الموت: ﴿قُلْ يَتَوفّاكُم مَلَكُ ٱلمَوْتِ ٱلذي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمّ إلى رَبِّكُم تُرْجَعُون﴾. (السجدة / ١١)

وقد يموت في الساعة الواحدة في أرجاء الأرض وأقطارها الفسيحة جمع غفير

---

(١) تصحيح الإعتقاد، للشيخ المفيد، (٥) ص ١٩١ ـ ١٩٢.

من البشر، فكيف تُقبَض أرواح هؤلاء؟!

وقد شرح الإمام الصادق عليه السلام مغزى ذلك التغاير، فقال: **«إنّ الله تبارك وتعالى جعل لملَك الموت أعواناً من الملائكة يقبضون الأرواح بمنزلة صاحب الشرطة له أعوان من الإنس في حوائجه، فتتوفّاهم الملائكة، ويتوفّاهم ملَك الموت مع ما يقبض هو، ويتوفّاه الله عزّ وجلّ من ملَك الموت»**[1].

وقال الصادق عليه السلام: **«قيل لملَك الموت كيف تقبض الأرواح وبعضها في المغرب وبعضها في المشرق؟ فقال: أدعوها فتجيبني.**

قال: وقال ملَك الموت: إنّ الدّنيا بين يَدَيّ كالقصعة بين يَدَي أحدكم، يتناول منها ما شاء. والدّنيا عندي كالدرّهم في كفِّ أحدكم يقلبه كيف شاء»[2].

وسُئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: كيف يتوفّى ملَك الموت المؤمن؟

فقال: **«إنّ ملَك الموت ليقف من المؤمن عند موته موقف العبد من المولى، فيقوم هو وأصحابه لا يدنو منه حتّى يبدأ بالتسليم ويُبشِّره بالجنّة»**[3].

وقد أوضح أهل البيت عليهم السلام أبعاد صلاحيّة ملَك الموت ومبلغ سلطته في قبض الأرواح.

قيل لأبي عبدالله عليه السلام: **يعلم ملَك الموت بقبض مَنْ يقبض؟**

قال: **«لا، إنّما هي صكاك تنزل من السماء، اقبض نفس فلان بن فلان»**[4].

---

(١) البحار، م ٣، ص ١١٣، عن الفقيه.
(٢) الوافي، ج ١٣، ص ٤٠، عن الفقيه للشيخ الصّدوق رحمه الله.
(٣) البحار، م ٣، ص ١٣٨، عن الفقيه للصّدوق رحمه الله.
(٤) البحار، م ٣، ص ١٣١، عن الكافي.

وعن أبي عبدالله، قال: «**دخل رسول الله** ﷺ **على رجل من أصحابه وهو يجود بنفسه، فقال: يا ملَك الموت ارفق بصاحبي فإنّه مؤمن.**

فقال: أبْشِر يا محمّد، فإنِّي بكلِّ مؤمن رفيق، واْعلم يا محمّد أنِّي أقبض روح ابن آدم فيجزع أهله، فأقوم في ناحية من دارهم، فأقول: ما هذا الجزع؟!

فوَ الله ما تعجّلناه قبل أجله، وما كان لنا في قبضه من ذنب، فإن تحتسبوه وتصبروا تؤجروا، وإن تجزعوا تأثموا وتؤزروا، واْعلموا أنّ لنا فيكم عودة، فالحذر الحذر، إنّه ليس في شرقها ولا غربها أهل بيت مدرٍ ولا وبرٍ إلّا وأنا أتصفّحهم في كلِّ يومٍ خمس مرّات، ولأنا أعلم بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم، ولو أردتُ قبض روح بعوضة ما قدرتُ عليها حتّى يأمرني ربِّي بها.

فقال رسول الله ﷺ: **إنّما يتصفّحهم في مواقيت الصّلاة، فإن كان ممّن يواظب عليها عند مواقيتها لقّنه شهادة أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمّداً رسول الله، ونحّى عنه ملك الموت إبليس**»(١).

المساءلة في القبر:

وهي من القضايا الثابتة، الّتي قررّتها النصوص المتواترة وتسالم عليها جمهور المتكلِّمين.

قال الشيخ المفيد أعلى الله مقامه: «جاءت الآثار الصحيحة عن النّبيّ ﷺ إنّ الملائكة تنزل على المقبورين فتسألهم عن أديانهم، وألفاظ الأخبار بذلك متقاربة، فمنها: أنّ ملَكين لله تعالى يُقال لهما ناكر ونكير ـ وفي بعض الأخبار إسمهما مبشّر

(١) المصدر السابق.

وبشير ـ ينزلان على الميِّت فيسألانه عن ربِّه، ونبيِّه، ودينه، فإن أجاب بالحقِّ سلّموه إلى ملائكة النعيم، وإن ارتجّ عليه سلّموه إلى ملائكة العذاب...

والغرض من نزول الملَكين ومساءلتها، أنّ الله تعالى يوكل بالعبد بعد موته ملائكة النعيم وملائكة العذاب، وليس للملائكة طريق إلى علم ما يستحقّه العبد إلّا بإعلام الله تعالى لهم.

والملَكان اللّذان ينزلان على العبد، أحدهما من ملائكة النعيم، والآخر من ملائكة العذاب.

فإذا هبطا لِما وُكِّلا به استفهما حال العبد بالمسألة، فإن أجاب بما يستحقّ به النعيم، قام بذلك ملَك النعيم، وعرج عنه ملك العذاب، وإن ظهرت فيه علامة استحقاقه العذاب وكلَ به ملَك العذاب، وعرج عنه ملَك النعيم»[1].

وقال أبو عبدالله عليه السلام: **«إذا وُضِعَ الميِّت في قبره، مَثُلَ له شخص فقال له: يا هذا كنّا ثلاثة: كان رزقك فانقطع بانقطاع أجلك، وكان أهلك فخلّوك وانصرفوا عنك، وكنت عملك فبقيت معك. أما أنِّي كنتُ أهون الثلاثة عليك»**[2].

وروى الصدوق في الأمالي، عن سعيد بن المسيب، قال: **«كان عليّ بن الحسين يعِظ الناس ويزهِّدهم في الدّنيا ويُرغِّبهم في الآخرة بهذا الكلام في كلِّ جمعة في مسجد الرّسول، وحفظ عنه وكتب، كان يقول:**

أيّها الناس! اتّقوا الله واعلموا أنّكم إليه تُرجعون، فتجد كلّ نفسٍ ما عملت في هذه الدّنيا من خيرٍ مُحضراً وما عملت من سوءٍ تودُّ لو أنّ بينها وبينه أمداً بعيداً، ويُحذِّركم الله نفسه.

---

(١) تصحيح الإعتقاد، ص ١٩٣، بتصرّف.

(٢) الوافي، ج ١٣، ص ٩٤، عن الكافي.

ويحك ابن آدم الغافل وليس بمغفولٍ عنه. ابن آدم: إنّ أجْلَكَ أسرع شيء إليك، وقد أقبلَ نحوكَ حثيثاً يطلبك، ويوشكُ أن يُدركك، وكأن قد أوفيتَ أجلك، وقبض الملَك روحك وصرت إلى منزل وحيداً فريداً، فردّ إليكَ فيه روحكَ، واقتحم عليكَ فيه ملَكان منكر ونكير، لمساءلتك وشديد امتحانك. ألا وأنّ أوّل ما يسألانك عن ربِّك الّذي كُنتَ تعبدهُ، وعن نبيِّكَ الّذي أُرسِلَ إليكَ، وعن دينكَ الّذي كُنتَ تدين به، وعن كتابكَ الّذي كُنتَ تتلوه، وعن إمامكَ الّذي كنتَ تتولّاه، ثمّ عن عُمرك فيما أفنيته، ومالِكَ من أين اكتسبته وفيما أتلفته، فخُذ حذرك وٱنظر نفسك، وأعد الجواب قبل الإمتحان والمسألة والإختبار، فإن تكُ مؤمناً تقيّاً عارفاً بدينك، متّبعاً للصّادقين، موالياً لأولياء الله، لقّاكَ الله حجّتك، وأنطقَ لسانكَ بالصّواب، فأحسنتَ الجواب، فبُشِّرتَ بالجنّةِ والرِّضوان من الله، والخيرات الحِسان، وٱسْتُقْبِلْتَ بالرّوح والرّيحان. وإن لم تكن كذلك، تلجلج لسانك، ودُحِضَت حجّتك، وعُميتَ عن الجواب، وبُشِّرْتَ بالنار، واستقبلتكَ ملائكة العذاب بنُزُلٍ من حميمٍ وتصلية جحيم»[1].

---

(١) حقّ اليقين، ج ٢، ص ٨٠.

عالَم البرزخ

وهو العـالم الّذي تعيشـه الأرواح بعد المـوت وقبل القـيامة، ويُعتبر المرحلة الأولى من رحلة البشرية وركبها الصاعد إلى الحـياة الأخروية، والمشهد الأوّل من مشاهد السعادة أو الشقاء والنعيم أو العذاب بعد الوفاة.

وفي هذا الموضوع مطالب مهمّة:

(١) خلود الرّوح:

عرفنا في (حقل المعاد والعلم) كيف اكتشف الباحثـون في الحقول الروحيـة بقاء الرّوح وخلودها، وتوصّلوا إلى ذلك وبرهنوا عليه بأساليبهم العلمية الحديثـة، وأبحاثهم وتجاربهم الحسِّية ما جعله واقعاً ثابتاً لا ريب فيه.

ولئن اكتشفوا هذا الأمر الخطير في العصر الحديث، فقد أعلنه القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرناً ونوّه عنه بآيات عديدة، نعرض طرفاً منها:

(أ) ﴿**ولا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ في سَبيلِ ٱللهِ أمْواتٌ بَلْ أحْياءٌ ولكن لا تَشْعُرُونَ**﴾.

(البقرة/ ١٥٤)

وفحوى الأية: لا تتصوّروا ولا تعتقدوا الموت والفناء فيمَن قُتِلَ في سبيل الله، فإنّهم أحياء مكرمون منعمون، ولكنّكم لا تشعرون بحياتهم ونعيمهم لعجز حواسكم ومشاعركم عن إدراك ذلك.

وفي الآيـة دلالة واضـحة على خلود الرّوح في العـالم البرزخي، وهو العـالم المتوسِّط بين الموت والقيامة، الّذي يعيش فيه الميِّت منعّماً أو معذّباً حتّى قيام الساعة.

(ب) ونظير هذه الآية الكريمة دلالة ومغزى، قوله تعالى: ﴿ولا تَحْسَبَنَّ ٱلّذينَ قُتِلُوا في سَبيلِ ٱللهِ أمْواتاً بل أحْياءٌ عندَ رَبِّهِم يُرْزَقُون * فَرِحِينَ بما آتاهُمُ ٱللهُ مِنْ فَضْلِهِ ويَسْتَبْشِرُونَ بالّذِينَ لَم يَلْحَقُوا بِهِم مِن خَلْفِهِم ألّا خَوْفٌ عَلَيْهِم ولا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

(آل عمران/ ١٦٩ ـ ١٧٠)

وفحـوى قوله تعالى: ﴿فَرِحِينَ بما آتاهُـمُ ٱللهُ مِنْ فَضْـلِهِ﴾، أنّهم فرحـون مغتبطون بما شاهدوا وأحرزوا من ضروب النِّعم الإلٰهية، والمباهج الروحية والمادِّية، ما جعلهم ينشدون النجاة والبُشرى لَمَن ارتحلوا عنهم وخلفوهم من المؤمنين: ﴿ألّا خَوْفٌ عَلَيْهِم ولا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

ونستنتج من الآية أمرين:

أوّلاً ـ أنّ هؤلاء المقـتولين في سبيل الله على صلة روحية وثيقـة، وتجاوب روحي مع مَنْ خلفوهم من خيار المؤمنين.

ثانياً ـ أنّ استبشـارهم وطلب النّجاة والسـعادة لَمَن ارتحلوا عنهم لا يتحـقّقان إلّا بعد إحرازهم واغتـباطهم بنعـماء الله تعالى، وآلائه عليهم، في عالمهم البرزخي. وسياق الآية الكريـة وتضافر الرّوايات المتواترة يشـعران باشـتراك عامّة المؤمنـين بالسّـعادة والنّعيم في الحـياة البرزخيـة، وليست مختصّـة بشهداء بدر، وغيرهم من المستشهدين في سبيل الله.

(ج) ﴿يا أيّتُها ٱلنّفْسُ ٱلمُطْمَئِنّةُ * ٱرْجِعي إلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيّةً * فادْخُلي في عِبادِي * وٱدْخُلِي جَنّتِي﴾. (الفجر / ٢٧ ـ ٣٠)

وفي هذه الآية دلالة صارخة على بقاء الرّوح وخلودها، حيث أمرت بالرّجوع إلى ربّها راضية بثـوابه ونعيمه، ومرضيّة عنده بما قدّمته من طاعات ومبرّات، ولو كانت الرّوح فانية ومنعدمة لما صحّ خطابها وأمرها بالرّجوع إلى الله عزّ وجلّ.

(د) ﴿**حَتّى إذا جاءَ أَحَدَهُمُ ٱلمَوْتُ قالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فيما تَرَكْتُ كَلّا إنّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها ومِن وَرائِهِم بَرْزَخٌ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾.

(المؤمنون/ ٩٩ ـ ١٠٠)

وهذه الآية دالّة على خلود الرّوح في عالم البرزخ: ﴿**ومِن وَرائِهِم بَرْزَخٌ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾، إلى نظائر هذه الآيات الكريمة الدالّة على خلود الرّوح سعيدة أو شقيّة فيه.

وهكذا صرّحت أحاديث أهل البيت عليهم السلام ببقاء الرّوح وخلودها بعد الوفاة، وأنّها تعيش في العـالم البرزخي منعّمـة أو معـذّبة، نظراً لإيمان صـاحبها أو كفـره، واستقامته أو انحرافه.

قال النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «**خُلِقْتُم للبقاء لا للفناء**»، وفي حديث آخر: «**خُلِقْتُم للأبد، وإنّما تُنْقَلُونَ من دارٍ إلى دار**»[1].

وروى الطبرسي في الإحتجاج، عن الصادق عليه السلام، في جملة سؤالات وجّهها للإمام عليه السلام، قال الزنديق: أيتلاشى الرّوح بعد خروجه عن قالبه أم هو باق؟ قال: «**بل هو باق إلى وقتٍ يُنْفَخُ في الصّور**»[2].

وفي الصّحيح، عن أبي بصير، عن الصادق عليه السلام، قال: «**قال لي: يا أبا محمّد!**

(١) حقّ اليقين، للمرحوم آية الله السيِّد عبدالله شبّر، ج ٢، ص ٥٥.

(٢) نفس المصدر، ج ٢، ص ٤٩.

إنّ الميِّــت منكم على هذا الأمر شهيد، قلت: وإن ماتَ على فراشه، قال: وإن ماتَ على فراشه، حيّ عند ربِّه يُرزَق»(1).

وقد رُوي عن الصادق عليه السلام أنّه سُئل عمّن ماتَ في هذه الدّار، أين تكــون روحه؟

فقال عليه السلام في خلال حديــث له: «فالمؤمن ينتقل من جسده إلى مثل جسده في الصّورة، فيحلّ في جنّات من جنّات الدّنيا، يتنعّم فيها إلى يوم المآب. والكافر تنتقل روحه من جسده إلى مثله بعينه، ويجعل في نار، فيُعذّب بها إلى يوم القيامة»(2).

وعن حبّة العــربيّ، قال: «خرجتُ مع أمير المؤمنــين عليه السلام إلى الظّهر، فوقف بوادي السلام كأنّه مخاطب لأقوام، فقمتُ بقيامه حتّى أعييتُ، ثمّ جلستُ حتّى مللتُ، ثمّ قمتُ حتّى نالني مثل ما نالني أوّلاً، ثمّ جلستُ حتّى مللتُ، ثمّ قمتُ وجمــعتُ ردائي، فقلت: يا أمير المؤمنــين! قد أشفقتُ عليكَ من طول القيام فراحة ساعة، وطرحتُ الرِّداء ليجلس عليه، فقال: يا حبّة! إن هو إلاّ محادثة مؤمن أو مؤانسته.

قال، قلت: يا أمير المؤمنين وإنّهم لكذلك؟!

قال: نعم، ولو كُشِفَ لكَ لرأيتهم حلقاً حلقاً محتبين يتحادثون.

فقلت: أجسام أم أرواح؟

فقال: بل أرواح، وما من مؤمنٍ يموتُ في بقعةٍ من بقاعِ الأرضِ إلاّ قيلَ لروحه ٱلحقي بوادي السلام، وإنّها لبُقعة من جنّة عدن»(3).

---

(1) نفس المصدر، ج ٢، ص ٦٦.
(2) نفس المصدر، ج ٢، ص ٧٢.
(3) الوافي، ج ١٣، ص ٩٨، عن الكافي.

وسنعرض خلال الفصول التالية نصوصاً عديدة أخرى تؤكّد بقاء الرّوح وخلودها.[1]

وقال العلّامة المجلسي أعلى الله مقامه: «إعلم أنّ الّذي ظهرَ من الآيات الكثيرة والأخبار المستفيضة والبراهين القاطعة هو أنّ النفس باقية بعد الموت إمّا معذّبة إن كانَ ممّن محض الكفر، أو منعّمة إن كان ممّن محض الإيمان، أو يلهي عنه إن كان من المستضعفين...

ثمّ تتعلّق الرّوح بالأجساد المثالية اللّطيفة الشبيهة بأجسام الجنّ والملائكة، المضاهية في الصّورة للأبدان الأصلية، فينعّم ويعذّب فيها...

وبذلك يستقيم جميع ما ورد في ثواب القبر وعذابه، واتّساع القبر وضيقه، وحركة الرّوح وطيرانه في الهواء، وزيارته لأهله، فالمراد بالقبر في أكثر الأخبار ما يكون الرّوح فيه في عالم البرزخ»[2].

(٢) تجسّد الأرواح:

عرفنا بقاء الأرواح وخلودها بعد مفارقة الأبدان، وهنا نودّ أن نعرف الصورة والهيئة الّتي تتقمّصها وتعيشها في العالم البرزخي.

لقد نوّهت الأحاديث والروايات، وقرّر أعلام العلم، وقادة الفكر الإمامي:

أنّ غالب الأرواح تتقمّص في حياتها البرزخية أجساماً شفّافة ـ كأجسام الملائكة ـ، تعكس صور أصحابها وسماتهم الأصلية، وتعيش منعّمة أو معذّبة حتّى يوم القيامة، فإذا حانَ ذلك اليوم الموعود، حشرها الله عزّ جلّ واستعاد هيآتها

---

(١) يراجع ما عرضناه من النصوص السالفة في (حقل المعاد وأهل البيت).

(٢) البحار، م٣، ص١٦٨، باختصار.

وأبدانها الأولى للجزاء والمكافأة.

فعن أبي بصير، قال: سألتُ أبا عبدالله عليه السلام عن أرواح المؤمنين؟

فقال: «**في الجنّة على صور أبدانهم، لو رأيتهم لقُلتَ فلان**»[1].

وقال عليه السلام: «**إنّ الأرواح في صفة الأجساد في شجرة الجنّة تتعارف وتتساءل، فإذا قدمت الرّوح على الأرواح تقول: دعوها فإنّها قد أقبلت من هولٍ عظيم، ثمّ يسألونها ما فعل فلان وما فعل فلان، فإن قالت لهم: تركتهُ حيّاً ارتجوه، وإن قالت لهم: قد هلك، قالوا: هوى هوى!!**»[2].

قال الشيخ المفيد أعلى الله مقامه: «إنّ الأرواح بعد موت الأجساد على ضربين: منها ينقل إلى الثواب والعقاب، ومنها ما يبطل فلا يشعر بثواب ولا عقاب».

وقد رُوي عن الصادق عليه السلام ما ذكرناه في هذا المعنى وبيّنّاه، فسُئل عمّن مات في هذه الدّار، أين تكون روحه؟

فقال: «**مَنْ ماتَ وهو ماحض للإيمان محضاً، أو ماحض للكفر محضاً، نقلت روحه من هيكله إلى مثله في الصورة، وجوزي بأعماله إلى يوم القيامة، فإذا بعث الله مَنْ في القبور أنشأ جسمه، وردّ روحه إلى جسده، وحشره ليوفيه أعماله.**

فالمؤمن ينتقل من جسده إلى مثل جسده في الصورة، فيُجعل في جنّات من جنان الله يتنعّم فيها إلى يوم المآب.

والكافر ينتقل روحه من جسده إلى مثله بعينه، ويُجعل في نار، فيُعذّب بها إلى يوم القيامة ...

---

(١) الوافي، ج ١٣، ص ٩٩، عن التّهذيب.

(٢) الوافي، ج ١٣، ص ٩٨، عن الكافي والفقيه.

والضّرب الآخر مَنْ يلهى عنه، ويعدم نفسه عند فساد جسمه، فلا يشعر بشيء حتّى يُبعث، وهو: مَنْ لم يمحض الإيمان محضاً، ولا الكفر محضاً»[١].

وقال الشيخ البهائي ﰿ، وهو يقرِّر مغايرة تجسّد الأرواح ومناقضته للتناسخ: «قد يتوهّم أنّ القول بتعلّق الأرواح بعد مفارقة أبدانها العنصرية بأشباح أخر، قول بالتناسخ، وهذا توهّم سخيف، لأنّ التناسخ الّذي أطبق المسلمون على بطلانه هو تعلّق الأرواح بعد خراب أجسادها بأجسام أخرى في هذا العالم.

أمّا القول بتعلّقها في عالم آخر بأبدان مثالية مدّة البرزخ إلى أن تقوم قيامتها الكبرى فتعود إلى أبدانها الأوّلية بإذن مُبدعها، فليس من التناسخ في شيء»[٢].

الجسد الأثيري:

لقد بحث أعلام الغرب الروحيون تجسّد الأرواح في العالم البرزخي، ودرسوه على ضوء مقاييسهم المادِّية وبراهينهم الحسِّية، وفيما يلي جملاً مقتطفة من بحث مفصّل في هذا الموضوع:

«أجمع باحثو العلم الروحي في كلّ البيئات على أنّه يوجد لكلِّ كائن حي إنساناً كان أم حيواناً جسد غير مادِّي، يُطلق عليه وصف أثيري أو كوكبي.

وهذا الجسد اللّامادِّي يلازم الجنين في بطن أمِّه، ثمّ ينمو الجسد المادِّي، ويتشكّل بشكله ويتخلّله تخلّل الماء العود الرّطب، ويشغل معه نفس الحيِّز من الفراغ. وهذا الجسد الأثيري يُعدّ من أخطر الحقائق الّتي كشف عنها علم الرّوح الحديث... والسائد الآن في البحوث الروحية هو:

---

(١) تصحيح الإعتقاد، للشيخ المفيد ﰿ، ص ١٨٦ ـ ١٨٧.

(٢) البحار، م٧، ص ٧٠١، باختصار وتصرّف.

إنّ كلّ عضو في الجسد المادِّي له مقابل في الجسد الأثيري يشبهُ تماماً من حيث الشِّكل، ويؤدِّي نفس وظائفه، وعند سقوط الجسد المادِّي بالموت، يبقى الجسد الأثيري متمتِّعاً بالقدرة التامّة على الإحساس المستمد من الرّوح الشعلة القدسية للإنسان.

ومن خصائص هذا الجسد الأثيري أو الروحي أنّه لا يهرم مهما هرم الجسد المادِّي، وهو غير قابل للبتر، فإذا ما بُتر ذراع إنسان حي في حادث، فإنّ الّذي يُبتَر هو ذراعه المادِّي فقط، أمّا الذِّراع الأثيري فيظلّ رغم بتر مقابله في مكانه، يؤدِّي وظائفه كاملة في حالة الوفاة.

وهذا الجسد الأثيري هو الّذي يحمل حواس الإنسان وشخصيّته وعقله، ولذا فإنّ العلم الروحي يُبيِّن أنّ سكّان عالم الأثير بالوجود عن طريق أجسادهم الأثيرية بصورة أكثر وضوحاً وانطلاقاً ممّا نشعر نحن عن طريق أجسادنا المادِّية»[1].

موطن الأرواح في البرزخ:

وهكذا أنبأتنا الآثار المتواترة: أنّ أرواح المؤمنين تستوطن رياض الجنّة البرزخية، وتعيش مباهجها ولذائذها ومسرّاتها الفاتنة الأخّاذة، مغتبطة بلقاء أحبابها وأعزّائها، ومستمتعة بأحاديثهم الشيّقة، وأسمارهم الممتعة.

وتعيش أرواح الكفّار منازل الشقاء وسوء المآب.

ولذلك كان البرزخ المرحلة الأولى من السعادة والنعيم الأخرويين للمؤمنين الأخيار، وبداية الشقاء والعذاب للكفّار والمجرمين.

---

(١) الإنسان روح لا جسد، للدكتور رؤوف عبيد، ج١، ص٦٠٣ـ٦٢٢، نُقل باختصار.

فعن أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: سألتهُ عن أرواح المؤمنين، فقال:

«في حجرات الجنّة، يأكلون من طعامها ويشربون من شرابها، ويقولون: ربّنا أقم لنا الساعة، وأنجز لنا ما وعدتنا، وألحق آخرنا بأوّلنا» (١).

وعن أبي بصير، عنه عليه السلام، قال: سألتهُ عن أرواح المشركين، فقال:

«في النار يُعذّبون، يقولون: ربّنا لا تقم لنا الساعة، ولا تنجز ما وعدتنا، ولا تلحق آخرنا بأوّلنا» (٢).

وقد أوردنا في العنوانين السالفين نصوصاً أخرى تنوِّه عن هذا المضمون.

والجدير بالذِّكر: أنّ الجنّة البرزخية هي من جنان الدّنيا، وليست بجنّة الخُلد، حيث أنّ الأولى يأوى إليها المؤمنون في فترة البرزخ وظرفها المحدود، والثانية: يتبوّأونها في القيامة الكبرى، ويخلدون بنعيمها الأبدي.

وآية ذلك قوله تعالى في وصف المنعمين في الجنّة البرزخية: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُم فيها بُكْرَةً وعَشِيّاً﴾.

ومن الواضح أنّ البُكرة والعشيّ يحدثان من تعاقب اللّيل والنّهار في الحياة البرزخية، قبل يوم القيامة.

أمّا الجنّة العظمى في القيامة، فليس فيها نهار ولا ليل، لقوله تعالى: ﴿لا يَرَوْنَ فيها شَمْساً ولا زَمْهَرِيراً﴾.

وهكذا وصف عزّ وجلّ المعذّبين بالنار البرزخية، فقال: ﴿النّار يُعْرَضُونَ

---

(١) الوافي، ج ١٣، ص ٩٩، عن الكافي.

(٢) المصدر السابق.

عليها غدوّاً وعشيّاً ويوم تقوم الساعة ...﴾، والغدوّ والعشيّ لا يحدثان في القيامة، وإنّما يحدثان في الدّنيا.

وجاء في سياق حديث للإمام الصّادق عليه السلام: «**فالمؤمن ينتقل من جسده إلى مثل جسده في الصورة، فيجعل في جنّات من جنان الدّنيا، يتنعّم فيها إلى يوم المآب. والكافر ينتقل روحه من جسده إلى مثله بعينه، ويُجعل في نار، فيُعذّب بها إلى يوم القيامة**»[1].

وعن الحسين بن بشّار، قال: سألتُ أبا عبدالله عليه السلام عن جنّة آدم، فقال: «**جنّة من جنان الدّنيا تطلع فيها الشّمس والقمر، ولو كانت من جنان الخُلد ما خرج منها أبداً**»[2].

---

(١) البحار، م٣، ص١٦٣، عن أوائل المقالات للشيخ المفيد رحمه الله.

(٢) نفس المصدر، ص١٧٢، عن علل الشرائع والكافي وتفسير عليّ بن ابراهيم القمّي.

التجاوب الرّوحي بين الأموات والأحياء

ورغم الهوّة الواسعة السحيقة، والحواجز الكثيفة بين عالم الأحياء وعالم الأموات، ورغم انقطاع العلائق والصِّلات المادِّية بين الفريقين، فإنّ أرواح الموتى تتطلّع برغبة ملحّة وشوق بالغ إلى شؤون وأحوال مَنْ فارقوهم وارتحلوا عنهم من أهل وأبناء وأحباب، فتسرّ بسرورهم، وتبتهج بسلامتهم ورخاء حياتهم، وتحزن لبؤسهم وضرّائهم، وتشاركهم مشاركة وجدانية في الحالتين.

وقد جسّد أهل البيت عليهم السلام هذا الواقع الغيبي، وصوّروه تصويراً بليغاً نتبيّنه من خلال العناوين التالية:

(١) زيارة الميِّت لأهله:

عن إسحاق بن عمّار، عن أبي الحسن الأوّل عليه السلام، قال: «**سألته عن الميِّت يزور أهله؟ قال: نعم. فقلت: في كم يزور؟ فقال: في الجمعة، وفي الشهر، وفي السنة على قدر منزلته. فقلت: في أيّ صورة يأتيهم؟ فقال: في صورة طائر لطيف يسقط على جدرهم، ويُشرف عليهم، فإن رآهم بخير فرح، وإن رآهم بشرٍّ وحاجة حزن واغتمّ**»[1].

---

(١) الوافي، ج ١٣، ص ٩٧ ـ ٩٨، عن الكافي.

وقال الصادق عليه السلام: **«إنّ المؤمن ليزور أهله فيرى ما يحبّ، ويستر عنه ما يكره، وإنّ الكافر ليزور أهله فيرى ما يكره، ويستر عنه ما يحبّ. قال: ومنهم مَنْ يزور كلّ جمعة، ومنهم مَنْ يزور على قدر عمله»** [١].

وقد مرّ في محتوى الرواية السالفة في (تجسّد الأرواح) المرويّة عن الصادق عليه السلام أنّ أرواح المؤمنين في الجنّة البرزخية تتعارف وتتساءل وتستحفي السؤال عن أعزائها وأحبّائها من روح جديدة وفدت عليهم والتحقت بهم. فيسألونها: ما فعل فلان وما فعل فلان؟ فإن أنبأتهم عن حياته رجوا لحاقه بهم، وإن أنبأتهم عن وفاته، قالوا أسفاً وحزناً: هوى هوى، أي صار إلى العذاب.

(٢) ما ينفع المؤمن بعد وفاته:

وهكذا يغتبط الأموات ويستمتعون بما يسدي الأحياء إليهم من صنوف الخيرات والمبرّات، كالإستغفار لهم، والترحّم عليهم، والتصدّق عنهم، وأداء ما في ذممهم من ديون مادِّية أو عبادية، فإنّهم شديدو التطلّع والتلهّف إلى بِرّ الأحياء وعطائهم.

فقد ورد في سياق حديث للصادق عليه السلام: **«إنّ الميِّت ليفرح بالترحّم عليه، والإستغفار له، كما يفرح الحيّ بالهديّة تُهدى إليه»** [٢].

وقال عليه السلام: **«مَنْ عمل من المسلمين عن ميِّت عملاً صالحاً أضعف له أجره، ونفع الله به الميِّت»** [٣].

---

(١) الوافي، ج ١٣، ص ٩٧، عن الكافي.

(٢) الوافي، ج ١٣، ص ٩١، عن الفقيه.

(٣) المصدر السابق.

وقال عليه السلام: «ليس يتبع الرّجل بعد موته من الأجر إلّا ثلاث خصال: صدقة أجراها في حياته، وهي تجري بعد موته. وسنّة هدى سنّها، فهي يعمل بها بعد موته. أو ولد صالح يدعو له»[1].

وروى العلّامة المجلسي رحمه الله، فقال: «كان أبو الحسن موسى عليه السلام في دار أبيه، فتحوّل منها بعياله، فقلت له: (الرّاوي) جُعلت فداك، أتحوّلتَ عن دار أبيك؟

فقال: إنّي أحببتُ أو أوسّع على عيال أبي، وأنّهم كانوا في ضيق، فأحببتُ أن أوسّع عليهم، حتّى يعلم أبي أنّي وسّعتُ على عياله.

فقلت: جُعلت فداك، هذا للإمام خاصّة أو للمؤمنين؟

قال: هذا للإمام وللمؤمنين. ما من مؤمن إلّا وهو يلمّ بأهله كلّ جمعة، فإن رأى خيراً حمد الله عزّ وجلّ، وإن رأى غير ذلك استرجع»[2].

(٣) زيارة القبور:

ويبدو التجاوب الروحي بين الأموات والأحياء واضحاً جليّاً في ابتهاج الموتى واستئناسهم بزوّار قبورهم وانتفاعهم بما يُتلى على أجداثهم من القرآن الكريم، واستيحاشهم من انصراف الزائرين عنهم.

عن أبي عبدالله عليه السلام قال، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «زوروا موتاكم، فإنّهم يفرحون بزيارتكم، وليطلب أحدكم حاجته عند قبر أبيه أو قبر أمّه بما يدعو لهما»[3].

وقال الرّضا عليه السلام: «ما من عبدٍ زارَ قبر مؤمنٍ فقرأ عليه إنّا أنزلناهُ في ليلة

---

(١) الوافي، ج ١٣، ص ٩٠، عن الكافي والتّهذيب.

(٢) البحار، ج ٣، ص ١٦٤.

(٣) الوافي، ج ١٣، ص ٨٩، عن الكافي.

القدر سبع مرّات إلّا غفر الله له ولصاحب القبر»[1].

وقال الراوي: **«قلتُ لأبي عبدالله: الموتى نزورهم؟ فقال: نعم. فقلت: فيعلمون بنا إذا أتيناهم. فقال: إي والله، إنّهم ليعلمون بكم، ويفرحون بكم، ويستأنسون إليكم...»**[2].

وعن إسحاق بن عمّار، عن أبي الحسن عليه السلام، قال: قلتُ له: المؤمن يعلم مَنْ يزور قبره؟ قال: **«نعم، ولا يزال مستئنساً به ما دام عند قبره، فإذا ما قام وانصرف عن قبره دخله من انصرافه عن قبره وحشة»**[3].

وقد عبّرت هذه النصوص الشريفة تعبيراً صارخاً عن تطلّعات أرواح الموتى وتجاوبها مع الأحياء وانتفاعهم بما يسدونه إليهم من ألوان البرِّ والعطاء.

وهكذا صرّح الباحثون المحدثون في الحقول الروحية بالتجاوب الروحي بين الأحياء والأموات، فقال أحدهم:

«أجمعت الدراسات الروحية على أنّ مَنْ نسمِّيهم «موتى» هم قريبون منّا وعلى صلة دائمة بنا، فهم يشاطروننا أفراحنا وأتراحنا، ويرغبون بكلِّ السّبل في الإتّصال بنا لتخفيف أحزاننا، وإعطائنا أخبارهم، وهم يعلمون تماماً أخبارنا، ويباركون خطوات الخير الّتي قد نخطوها، كما يتألّمون لأخطائنا. فهم في النهاية يسعدون بسعادتنا، ويشقون بشقائنا»[4].

---

(١) الوافي، ج ١٣، ص ٨٩، عن الفقيه.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الوافي، ج ١٣، ص ٩٠، عن الكافي.

(٤) الإنسان روح لا جسد، للدكتور رؤوف عبيد، ج ٢، ص ٦٨١.

عالم القيامة

القـيامة:

ليس في مقدور الإنسان أن يستطلع أهوال يوم القيامة ويُدرك أحداثه الرهيبة، لعجزه عن إدراك القضايا الغيبية، واستجلاء أسرارها الغامضة، والسبيل الوحيد إلى اكتشاف ذلك هو القرآن الكريم، والإستهداء بأضوائه على استشفاف تلك الحقائق.

وقد أولى القرآن الكريم ذلك اليوم العليم عناية كبرى واهتماماً بالغاً، فنوّه عنه زهاء سبعين مرّة، وعرض عبرَ سوره الكريمة صوراً مثيرة أخّاذة من مواقفه وأهواله، ووصف حالات المتّقين والمجرمين فيه وصفاً يهزّ الوجدان ويستثير المشاعر، ويحفِّزها على التأهّب لمواجهة أخطاره، وضمانة السلام فيه.

وسنعرض في الأبحاث التالية طرفاً من وقائع القيامة ومشاهدها الخطيرة:

(١) تحديد يومها الموعود:

من أماني المؤمنين وأشواقهم الملحّة معرفة موعد يوم القيامة، وتحديد يومها المجهول، بيدَ أنّهم عاجزون عن اكتشاف هذا السِّرّ الغامض الّذي استأثر الله تعالى بعلمه، وأخفاه عن جميع العباد حتّى الأنبياء عليهم السلام.

﴿يَسْأَلونَكَ عنِ ٱلسّاعةِ أيّان مُرْساها قُلْ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إلّا هُوَ، ثَقُلَتْ فِي ٱلسّمٰواتِ والأرْضِ، لا تأتِيكُمْ إلّا بَغْتَةً ...﴾. (الأعراف / ١٨٧)

ونظراً لخطر ذلك اليوم الموعود وما يزخر به من ضروب الأهوال والمخاوف، وألوان الأماني والآمال، فقد أنبأ الله عزّ وجلّ عن وقوع إرهاصات وأحداث تستشف عن وشك حلوله واقتراب موعده، كما تُصوِّره الآيات التالية:

﴿إذا ٱلشّمْسُ كُوِّرَتْ * وإذا ٱلنُّجومُ ٱنكَدَرَتْ * وإذا ٱلجِبالُ سُيِّرَتْ * وإذا ٱلعِشارُ عُطِّلَتْ * وإذا ٱلوُحُوشُ حُشِرَتْ * وإذا ٱلبِحارُ سُجِّرَتْ * وإذا ٱلنُّفوسُ زُوِّجَتْ * وإذا ٱلمَوْؤودةُ سُئِلَتْ * بأيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ * وإذا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ * وإذا ٱلسّماءُ كُشِطَتْ * وإذا ٱلجَحيمُ سُعِرَتْ * وإذا ٱلجَنَّةُ أزلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أحْضَرَتْ﴾. (التكوير/ ١ ـ ١٤)

«هنا مشهد انقلاب تام لكلِّ معهود، وثورة شاملة لكلِّ موجود، تشترك في الإنقلاب والثورة الأجرام السماوية والأرضية، والوحوش النافرة، والدواجن الأليفة، ونفوس البشر، وهنا ينكشف كلّ مستور، ويتّضح كلّ مجهول، وهنا يتهيّأ كلّ شيء لموقف الفصل، والجزاء على الخير والشرّ، في يوم عجيب غريب. فالشمس الّتي ترسل بأشعّتها الطليقة المنتشرة، قد انحسر ضوؤها وطويت أشعّتها فلا ضوء ولا شعاع. والنجوم المتماسكة المنيرة قد انفصم رباطها فتناثرت، وخبا نورها فاظلمّت، والجبال الثابتة الجامدة قد خفت ورقّت وسُيِّرت. والنّوق العِشار الساكنة المربوطة قد أرسلت وأهملت. والوحوش النافرة قد هالها الرّعب فحُشِرَت، وٱنزوت تتجمّع من الهول وهي الشاردة في الشِّعاب! والبحار المنبسطة السارية قد تجمّعت مياهها فامتلأت مجاريها. والنفوس المفردة من أجسادها قد التفّت بها في أزواج. والموؤودة الّتي قُتِلَت بلا جريمة، بُعِثَت لتسأل في ذنبها الّذي وُئِدَت له. والصّحف المطويّة قد نُشِرَت فهي مكشوفة مقروءة. والسّماء الّتي كانت حجاباً للأرض وستاراً للجوّ، قد كُشِطَت وأزيحت، فلا ستر ولا خفاء، والجحيم قد أمدّت بالوقود وتأجّجت بالنِّيران، والجنّة قد هُيِّئت وقربت للموعودين في هذا اليوم العجيب الغريب، تعلم كلّ نفس ما

أحْضِرَت معها من أعمال...»[1].

وقال تعالى: ﴿فإذا بَرِقَ ٱلبَصَرُ * وَخَسَفَ ٱلقَمَرُ * وجُمِعَ ٱلشّمْسُ وٱلقَمَرُ * يَقُولُ ٱلإنْسانُ يومئِذٍ أيْنَ ٱلمَفَرّ * كَلّا لَا وَزَرَ * إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلمُسْتَقَرُّ * يُنبّأُ ٱلإنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وأخَّرَ * بَلِ ٱلإنْسانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ ألْقَى مَعاذِيْرَهُ﴾.

(القيامة / ١٥)

هنا مشهد لهول القيامة، تشترك فيه الحواس الإنسانية والمشاهد الكونية، والنفس البشرية: فالبصر يُخْطَف، والقمر يُخْسَف، والشّمس تقترن بعد افتراق. وقد انفطر نظام الكون. وفي وسط الذّعر والإنقلاب، يتساءل الإنسان المرعوب: أين المفرّ ولا ملجأ ولا مستقرّ، فالمستقرّ والمرجع إلى الله، حيث ﴿يُنبّأُ ٱلإنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وأخَّر﴾، وحيث لا تُقْبَل منه المعاذير، فهو على نفسه بصير»[2].

وقال تعالى: ﴿إذا زُلْزِلَتِ ٱلأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأخْرَجَتِ ٱلأرْضُ أثْقالَهَا * وقالَ ٱلإنْسانُ ما لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أخْبارَها * بأنَّ رَبَّكَ أوْحى لَها...﴾. (الزّلزلة / ١ ـ ٥)

«الهول هنا مادّي في مشاهد الطبيعة، وحسّي في داخل الحسّ الإنساني. فالأرض تزلزل زلزالها، والأرض تُخْرِج أثقالها، من جثث مدفونة، ومعادن مطمورة، وكنوز مكنونة. ويبهت الإنسان لهذا المشهد الّذي لم يألفه، فيسأل: ما لها؟ تزلزل وتضطرب، وتخرج ما فيها من دفائن وأجساد.

وهنا يبده[3] الإنسان مشهد لعلّه أشدّ من مشهد الزّلزلة والإنفجار. فهذه

---

(١) مشاهد القيامة، لسيِّد قطب، ص ٦٠ ـ ٦١، بتصرّف.

(٢) مشاهد القيامة، لسيِّد قطب، ص ٧١، بتصرّف.

(٣) يَبْدَهُ: يفاجئُ.

الأرض قد انقلبت شخصيّة حيّة تسأل فتُجيب وتُبدي الطّاعة للخالق المدبِّر...»[1].

(٢) نفخ الصّور:

وأعظم الأحداث والوقائع المؤذنة بحلول القيامة ومؤشّراتها الخطيرة الرهيبة (نفخة الصّور)، تلك النّفخة المدوِّية الّتي يجلجل صداها في مسمع الخلائق فتصعقهم وتحيلهم جثثاً هامدة لا نفس فيها ولا روح، وتغدو الأرض كئيبة موحشة من سكّانها وقد كانت زاهية بهم من وقت قريب.

يحدِّثنا الرّواة عن نفخة الصّور: بأنّ الله عزّ وجلّ يأمر إسرافيل بنفخ الصّور (وهو كالبوق في وجه الشّبه)، فينفخ فيه نفختين:

الأولى: نفخة الصّعق: وبها يهلك جميع الخلائق السماوية والأرضية، وتموت بلحظة واحدة.

والثانية: نفخة الحشر: وبها يُبعث الأموات، ويُساقون إلى الحشر.

ولتقريب هذا الواقع الغيبي إلى الأذهان، نقتبس من حياتنا مثالاً حسِّياً يعكسه ويمثِّله ذلك:

أنّ في مقدور الإنسان أن يضغط على زر كهربائي فيُطفئ بلحظة خاطفة آلاف الملايين من المصابيح الكهربائية، ثمّ يضغط ثانية عليه فيوقدها ويبعث النور فيها من جديد.

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَن فِي ٱلأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ ٱللَّهُ، ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾. (الزّمر/ ٦٨)

---

(١) مشاهد القيامة، لسيِّد قطب، ص ٢٢٤، بتصرّف.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمٰواتِ ومَن فِي ٱلأَرْضِ﴾ أي من شدّة تلك الصّيحة الخارجة من الصّور. ﴿ثُمَّ نُفِخَ فيه أخْرى﴾ يعني النّفخة الثانية نفخة البعث، ﴿فإذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُون﴾ قاموا من قبورهم أحياءً، ﴿يَنْظُرُون﴾ ينتظرون ما يُفْعَل بهم وما يُؤمرون به.(١)

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتى هٰذا ٱلوَعْدُ إن كُنْتُم صادِقين * ما يَنْظُرُونَ إلّا صَيْحَةً واحِدَةً تأخُذُهُم وهم يَخِصِّمُونَ * فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ولا إلى أهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ * ونُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فإذا هُمْ مِنَ ٱلأَجْداثِ إلى رَبِّهِم يَنْسِلُونَ * قالُوا وَيْلَنا مَن بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا هٰذا ما وَعَدَ ٱلرَّحْمٰنُ وَصَدَقَ ٱلمُرْسَلُون﴾. (يس/ ٤٨ ـ ٥٢)

يسأل المكذّبون: ﴿مَتى هٰذا ٱلوَعْدُ إن كُنْتُم صادِقين﴾ فيكون الجواب خاطفاً سريعا، فما هي إلّا صيحةً واحدةً تأخذهم وهم يتجادلون ويتخاصمون، فإذا هم أموات لا يملكون حتّى التوصية ولا العودة إلى أهليهم ليموتوا بين أيديهم.

ثمّ إذا صيحة أخرى، فإذا هم ينتفضون من الأجداث، ويمضون سراعاً وهم في دهش وذعر يتساءلون: ﴿مَن بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا﴾، ثمّ يتأكّدون: ﴿هٰذا ما وَعَدَ ٱلرَّحْمٰنُ وَصَدَقَ ٱلمُرْسَلُون﴾.(٢)

(٣) المحشر:

وهو الموقف العام والمجمع الأعظم الّذي تجتمع فيه حشود البشرية منذ مولدها حتّى قيام الساعة، وتتلاقى في رحابه بعد افتراق وغياب طويلين عاشتها في عالم البرزخ. فتشهد في محشرها عالماً زاخراً بالعجائب، مليئاً بالمخاوف والأهوال. قد

(١) الطّبرسي، بتصرّف.

(٢) مشاهد القيامة، ص ٦٩.

تلاشت فيه الأعراف والتقاليد الدنيوية، وانهارت فيه القِيَم المادِّية، لا ينفع مال ولا بنون، ولا يجدي فيه سلطان نافذ أو جاه عريض، ولا ينجي فيه حسب أصيل أو نسب رفيع، إذ لا محاباة فيه على باطل، وإنّما الجزاء بالأعمال.

هو يوم الفصل بين المظالم، وانتصاف المظلوم من الظالم على شرعة الحقّ والعدل والمساواة.

هو اليوم المصيري الحاسم، يوم النّجاة والفوز والسعادة الأبدية أو الشّقوة الدائمة والعذاب السرمديّ!!

وقد وصف القرآن الكريم الحشر وصفاً دقيقاً باهراً، يملأ النفس ويهزّ الوجدان ويستثير فيها كوامن العِبَر والعِظات.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدّاعِ إلى شَيءٍ نُكُر * خُشَّعاً أبْصارُهُم يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلأجْداثِ كأنّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ * مُهْطِعِينَ إلى ٱلدّاعِ يَقُولُ ٱلكافِرُونَ هٰذا يَوْمٌ عَسِر﴾ . (القمر / ٦ ـ ٨)

﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدّاعِ إلى شَيءٍ نُكُر﴾ منكر فظيع لم يروا مثله، ﴿خُشَّعاً أبْصارُهُم﴾ ذليلة خاضعة عند رؤية العذاب، وإنّما وصف الأبصار بالخشوع لأنّ ذلّة الذّليل، وعزّة العزيز تبدو في نظره وتظهر في عينيه، ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلأجْداثِ﴾ من القبور، ﴿كأنّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ من كثرتهم أو تداخل بعضهم في بعض من الهول والفزع، ﴿مُهْطِعِينَ إلى ٱلدّاعِ﴾ مقبلين إلى صوت الدّاعي، أو مسرعين إلى إجابته قائلين: ﴿هٰذا يَوْمٌ عَسِر﴾ صعب شديد.(١)

وقال تعالى: ﴿يا أيُّها ٱلنّاسُ ٱتّقُوا رَبّكُم إنّ زَلْزَلَةَ ٱلسّاعَةِ شَيءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ

(١) الطّبرسي، بتصرّف.

تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَـةٍ عَمّا أرْضَعَـتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَتَرى ٱلنّاسَ سُكارى وَما هُم بِسُكارى وَلَكِنَّ عَذابَ ٱللهِ شَديدٌ﴾. (الحجّ/ ١ ـ ٢)

﴿إنّ زَلْزَلَةَ ٱلسّاعَةِ﴾ زلزلة الأرض يوم القيامة، ﴿شَيءٌ عَظِيمٌ﴾ أمرٌ صعبٌ هائلٌ لا يُطاق، ﴿يَـوْمَ تَرَوْنَها﴾ الزّلزلة أو السـاعة، ﴿تَذْهَـلُ كُلُّ مُرْضِعَـةٍ عَمّا أرْضَعَتْ﴾ تشغل عن ولدها وتنساه، ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها﴾ تضع الحبالى ما في بطونهـنّ من هول القيامـة وشدائدها، ﴿وَتَرى ٱلنّاسَ سُكارى﴾ من شـدّة الفزع، ﴿وَما هُم بِسُكارى﴾ من الشّراب، ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ ٱللهِ شَديدٌ﴾ فمِن شـدّته أصيبوا بتلك المآسي والأعراض.[١]

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونا فُرَادى كَما خَلَقْناكُمْ أوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم ما خَوَّلْناكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾. (الإنعام/ ٩٤)

﴿وَلَقَدْ جِئْتُـمُونا فُرَادى﴾ وحداناً مجرّدين من المال والولد والخول والحشم، ﴿كَما خَلَقْناكُمْ أوَّلَ مَرَّةٍ﴾ في بطون أمّهاتكم فلا ناصر لكم ولا معين، ﴿وَتَرَكْتُم ما خَوَّلْناكُمْ﴾ ملّكناكم في الدّنيا.[٢]

(٤) حالات المتّقين والمجرمين في القيامة:

ومن أروع الصور وأشدّها إثارة الّتي عرضتها الآيات الكريمة، وصوّرت فيها حالات المتّقين والمجرمين في القيامة، وعكست فيها مظاهر الغبطة والنعيم في الأوّلين، وإحاطتهم بهالة وضّاءة مشعّة بالعزّة والكرامة والرّغـد والهـناء، ورسمت الآخـرين

---

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر.

بسمات الشّقاء والعذاب والهوان، وعرضتهم صوراً هزيلة شوهاء تثير الفزع والتقزّز.

وإليك نماذج منها:

قال تعالى: ﴿فإذا جاءَتِ ٱلصّاخّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ ٱلمَرْءُ من أخِيهِ * وأمِّهِ وأبِيهِ * وصاحِبَتِهِ وبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمرئٍ مِنْهُمْ يومَئِذٍ شأنٌ يُغْنِيهِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ * تَرْهَقُها قَتَرَةٌ * أولَئِكَ هُم ٱلكَفَرَةُ ٱلفَجَرَةِ﴾. (عبس/ ٣٣ ـ ٤٢)

﴿فإذا جاءَتِ ٱلصّاخّةُ﴾ صيحة القيامة تلك الّتي تصكّ الآذان حتّى تكاد تصمّها، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلمَرْءُ من أخِيهِ ... وصاحِبَتِهِ﴾ زوجته، ﴿وبَنِيهِ﴾ أولاده الذّكور لا يلتفت إلى واحدٍ منهم لانشغاله بنفسه، أو لعلمه أنّهم لا ينفعونه ولا يغنون عنه شيئاً، أو لئلّا يرى ما نزل بهم من الهوان إن كان مؤمناً وكان أقرباؤه من أهل النار، ﴿لِكُلِّ ٱمرئٍ مِنْهُمْ يومَئِذٍ شأنٌ يُغْنِيهِ﴾ لكلِّ إنسان منهم همّه الّذي يُشغله عن الأقرباء ويصرفه عنهم ولا يدع له فضلة من وعي أو جهد.

ثمّ قسّم سبحانه أحوال الناس في ذلك اليوم، فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ﴾ مشرقة مضيئة، ﴿ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ فرحاً وسروراً بما أعدّ لها من الثّواب. ﴿وَوُجوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ﴾ سواد وكآبة الهمّ، ﴿تَرْهَقُها﴾ تعلوها ﴿قَتَرَةٌ﴾ سواد وكسوف عند معاينة النار، ﴿أولَئِكَ هُم ٱلكَفَرَةُ﴾ في أديانهم، ﴿ٱلفَجَرَةِ﴾ في أفعالهم.(١)

وقال تعالى: ﴿هَلْ أتاكَ حديثُ ٱلغاشِيَةِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ * عامِلَةٌ ناصِبَةٌ * تَصْلىٰ ناراً حامِيَةً * تُسْقى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ * لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إلّا مِن ضَريعٍ * لا يُسْمِنُ

(١) المصدر السابق.

ولا يُغْني مِن جُوعٍ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ * لِسَعْيِها راضِيَةٌ * في جَنَّةٍ عالِيَةٍ * لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً * فِيها عَيْنٌ جارِيَةٌ * فِيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وأكْوابٌ مَوْضُوعَةٌ * وَنَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾. (الغاشية / ١ ـ ١٦)

﴿هَلْ أتاكَ حديثُ الْغاشِيَةِ﴾ حديث القيامة لأنّها تغشى الناس بأهوالها بغتة، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ﴾ ذليلة بالشدائد الّتي تشاهدها والعذاب الّذي يغشاها، ﴿عامِلَةٌ﴾ في النار، ﴿ناصِبَةٌ﴾ فيها بمعاناة السلاسل والأغلال، ﴿تُسْقى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ حادّة، ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إلّا مِن ضَرِيعٍ﴾ وهو نوع من الشّوك لا ترعاهُ دابّة لخُبثه وبشاعته.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ﴾ مضيئة مشرقة، يبدو عليها أثر النعمة والسرور، ﴿لِسَعْيِها﴾ في الدّنيا، ﴿راضِيَةٌ﴾ حين أعطيت الجنّة بعملها، ﴿في جَنَّةٍ عالِيَةٍ﴾ مرتفعة مكانةً وشرفاً. ﴿لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً﴾ كلمة ساقطة لا فائدة فيها، ﴿فِيها عَيْنٌ جارِيَةٌ﴾ من كلِّ شراب يشتهيه وفي العيون الجارية من الحُسْن واللّذّة ما لا يكون في الواقفة، ﴿فِيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ مرتفعة، فإذا أراد المؤمنون الجلوس عليها تواضعت لهم ثمّ ترتفع إلى موضعها ليروا ما حولهم من الملك، ﴿وأكْوابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ على حافّات العيون الجارية يشربون بها ويتمتّعون بالنظر إلى حُسْنها، ﴿وَنَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ وسائد يتّصل بعضها ببعض، ﴿وَزَرابِيُّ﴾ البُسط الفاخرة والطنافس المخملة، ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ المفرّقة في المجالس.(١)

﴿فَأَمّا مَن أوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هاؤُمُ اقْرَؤا كِتابِيَه * إنِّي ظَنَنْتُ أنِّي مُلاقٍ حِسابِيَه * فَهُوَ في عِيشَةٍ راضِيَةٍ * في جَنَّةٍ عالِيَةٍ * قُطُوفُها دانِيَةٌ * كُلُوا واشْرَبُوا هَنِيئاً

---

(١) المصدر السابق.

بِما أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلأَيّامِ الخالِيَةِ * وَأَمّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ فَيَقُولُ يا لَيْتَني لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ ما حِسابِيَهْ * يا لَيْتَها كانَتِ ٱلقاضِيَةَ * ما أَغْنى عَنِّي مالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ ٱلجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كانَ لا يُؤْمِنُ بِاللهِ ٱلعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلى طَعامِ ٱلمِسْكِينِ ﴾ . (الحاقّة / ١٩ ـ ٣٤)

﴿ فَأَمّا مَن أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ ﴾ لأهل القيامة ، ﴿ هاؤُمُ ﴾ تعالوا ، ﴿ ٱقْرَؤُا كِتابِيَه ﴾ يقول ذلك فرحاً واغتباطاً لما فيه من الطّاعات ، ﴿ إِنِّي ظَنَنْتُ ﴾ علمتُ وأيقنتُ في الدّنيا ، ﴿ أَنِّي مُلَاقٍ حِسابِيَه ﴾ يوم القيامة ، ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ ﴾ مرضيّة ، ﴿ فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ ﴾ رفيعة القدر والمكان ، ﴿ قُطُوفُها دانِيَةٌ ﴾ ثمارها قريبة ممّن يتناولها فيُقال لهم : ﴿ كُلُوا وَٱشْرَبُوا ﴾ في الجنّة ، ﴿ هَنِيئاً بِما أَسْلَفْتُمْ ﴾ قدّمتم من أعمالكم الصالحة ، ﴿ فِي ٱلأَيّامِ الخالِيَةِ ﴾ الماضية في الدنيا .

﴿ وَأَمّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ ﴾ صحيفة أعماله ، ﴿ بِشِمالِهِ فَيَقُولُ يا لَيْتَني لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ ﴾ لما فيه من الأعمال القبيحة ، ﴿ وَلَمْ أَدْرِ ما حِسابِيَهْ ﴾ ولم أدرِ أيّ شيء حسابي ، ﴿ يا لَيْتَها كانَتِ ٱلقاضِيَةَ ﴾ كناية عن الموتة الأولى والقاضية القاطعة للحياة ، أو تمنّي الموت وكان أكره شيء عنده في الدّنيا ، ﴿ ما أَغْنى عَنِّي مالِيَهْ ﴾ لم يدفع عنّي عذاب الله ، ﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ ﴾ ضلّ وهلك تسلّطي وأمري ونهيي في دار الدّنيا . ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾ أوثقوه بالغلّ ، ﴿ ثُمَّ ٱلجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ ثمّ أدخلوه النار ، ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها ﴾ طولها ، ﴿ سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُكُوهُ ﴾ اجمعوه فيها . ﴿ إِنَّهُ كانَ لا يُؤْمِنُ بِاللهِ ٱلعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلى طَعامِ ٱلمِسْكِينِ ﴾ لا يؤدّي الزّكاة والحقوق الواجبة .[1]

(١) المصدر السابق.

وهكذا صوّرت أحاديث أهل البيت عليهم السلام جوانب لامحة من حياة المتّقين والمجرمين في القيامة، وعكست مظاهر سعادتهم وشقائهم، فجاءت متناسقة وصور القرآن الكريم وآياته البلاغية المعبِّرة.

عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم **سُئل عن قوله تعالى**: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْداً﴾.

فقال: يا عليّ! إنّ الوفد لا يكونون إلّا ركباناً، أولئك رجال اتّقوا الله فأحبّهم وٱختصّهم ورضي أعمالهم، فسمّاهم المتّقين.

ثمّ قال له: يا عليّ! أما والّذي فلق الحبّة وبرأ النّسمة، إنّهم ليخرجون من قبورهم، وأنّ الملائكة لتستقبلهم بنوقٍ من نوق العزّ، عليها رحال الذّهب، مكلّلة بالدرّ والياقوت، وجلالها الإستبرق والسندس، وخطمها جدل الأرجوان تطير بهم إلى المحشر، مع كلِّ رجل منهم ألف ملك من قدّامه وعن يمينه وعن شماله، يزفّونهم زفّاً حتّى ينتهي بهم إلى باب الجنّة الأعظم. وعلى باب الجنّة شجرة إنّ الورقة منها ليستظلّ تحتها ألف رجل من النّاس، وعن يمين الشّجرة عين مطهّرة زكيّة، فيُسقون منها شربة، فيطهِّر الله بها قلوبهم من الحسد، وذلك قول الله تعالى: ﴿وَسَقَاهُم رَبُّهُم شَراباً طَهُوراً﴾ من تلك العين المطهّرة.

قال: ثمّ ينصرفون إلى عينٍ أخرى عن يسار الشجرة فيغتسلون فيها، وهي عين الحياة، فلا يموتون أبداً.

قال: يوقف بهم قدّام العرش وقد سلموا من الآفات والأسقام والحرّ والبرد أبداً.

قال: فيقول جلّ ذكره للملائكة الّذينَ معهم احشروا أوليائي إلى الجنّة، ولا توقفوهم مع الخلائق، فقد سبقَ رضائي عنهم، ووجبت رحمتي لهم، وكيف أريد

أنْ أوقفهم مع أصحاب الحسنات والسيِّئات.

قال: فتسوقهم الملائكة إلى الجنّة، فإذا انتهوا بهم إلى باب الجنّة الأعظم، ضربَ الملائكة الحلقة ضربةً تصرّ صريراً، يبلغ صوت صريرها كلّ حوراء أعدّها الله لأوليائه في الجنان، فيتباشرنَ بهم إذا سَمِعْنَ صرير الحلقة فيقول بعضهنّ لبعضٍ قد جاءنا أولياء الله، فيفتح لهم الباب، ويشرف عليهم أزواجهم من الحور العين والآدميين، فيقلن: مرحباً بكم، فما كان أشدّ شوقنا إليكم، ويقول لهنّ أولياء الله مثل ذلك...»[١].

وعن أبي جعفر عليه السلام، قال: «كلّ عينٍ باكيةٍ يوم القيامة غير ثلاث أعين: عين سهرت في سبيل الله، وعين فاضت من خشية الله، وعين غضّت عن محارم الله»[٢].

وعن أبي جعفر عليه السلام، قال: «إذا كان يوم القيامة أمرَ الله تبارك وتعالى منادياً ينادي بين يديه أين الفقراء؟ فيقوم عنق من الناس كثير فيقول: عبادي، فيقولون: لبّيك ربّنا. فيقول: إنِّي لم أفقركم لهوان بكم عليَّ، ولكن إنّما أخّرتكم لمثل هذا اليوم، تصفّحوا وجوه الناس، فمَنْ صنع إليكم معروفاً لم يصنعه إلّا فيَّ فكافوه عنِّي بالجنّة»[٣].

وعنه عليه السلام قال: «إنّ الله تبارك وتعالى يبعث يوم القيامة ناساً من قبورهم مشدودة أيديهم إلى أعناقهم، لا يستطيعون أن يتناولوا بها قيد أنملة، معهم ملائكة يعيرونهم تعييراً شديداً، يقولون: هؤلاء الّذين منعوا خيراً قليلاً من خيرٍ كثير!! هؤلاء الّذين أعطاهم الله فمنعوا حقّ الله في أموالهم»[٤].

---

(١) الوافي، ج ١٣، ص ١٠٥، عن الكافي.
(٢) البحار، م ٣، ص ٢٤٧، عن الكافي.
(٣) البحار، م ٣، ص ٢٤٩، عن الكافي.
(٤) البحار، م ٣، ص ٢٤٨، عن الكافي.

وعن زيد بن عليّ، عن آبائه، عن النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «يجيئ يوم القيامة ذو الوجهين دالعاً لسانه في قفاه، وآخر من قدّامه يلتهبان ناراً حتّى يلهبا جسده. ثمّ يُقال له: هذا الّذي كان في الدنيا ذا وجهين ولسانين، يعرف بذلك يوم القيامة»(١).

وعن أبي عبدالله عليه السلام، في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَقَدِمْنا إلى ما عملوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً﴾. قال: «إن كانت أعمالهم لأشدّ بياضاً من القباطي، فيقول الله عزّ وجلّ لها: «كوني هباءً»، وذلك: أنّهم كان إذا شرع لهم الحرام أخذوه»(٢).

وعن الصادق، عن آبائه عليهم السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يا عليّ! أنا أوّل مَنْ ينفض التّراب عن رأسه، وأنتَ معي ثمّ سائر الناس، يا عليّ! أنتَ وشيعتك على الحوض تسقون مَنْ أحببتم، وتمنعون مَنْ كرهتم، وأنتم الآمنون يوم الفزع الأكبر في ظلِّ العرش، يفزع الناس ولا تفزعـون، ويحزن الناس ولا تحزنون. فيكم نزلت هذه الآية: ﴿إنّ الّذينَ سَـبَقَت لَهُم مِنّا ٱلحُسْـنى أولئِكَ عنها مُبْعَدُون لا يَسْـمَعُونَ حَسِيسها وهُم فيما ٱشْتَهَت أنفُسُهُم خالِدُون لا يَحْزنهُم الفَزَع الأكبَر وَتَتَلقّاهُم ٱلمَلائِكَةُ هذا يَوْمكُم الّذي كُنتُم تُوعَدُون﴾.

يا عليّ! أنتَ وشيعتكَ تطلبون في الموقف، وأنتم في الجنان تتنعّمون»(٣).

وأورد ابن حجر، ص ١٠٣ من صواعقه حديثاً هذا نصّه: «إنّ النّبيّ خرج على أصحابه ذات يوم ووجهه مشرق كدائرة القمـر. فسأله عبدالرّحمٰـن بن عوف عن ذلك، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: بشارة أتتني من ربّي في أخي وابن عمّي وٱبنتي، بأنّ الله زوّجَ

---

(١) البحار، م٣، ص ٢٥٤، عن ثواب الأعمال للصّدوق رحمه الله.
(٢) البحار، م٣، ص ٤٥١، عن الكافي.
(٣) البحار، م٣، ص ٢٤٤، عن فضائل الشّيعة.

علياً من فاطمة، وأمرَ رضوان خازن الجنان فهزّ شجرة طوبى، فحملت رقاقاً (يعني صكاكاً) بعدد محبّي أهل بيتي، وأنشأ تحتها ملائكة من نور، دفع إلى كلّ ملك صكّاً، فإذا ٱستوت القيامة بأهلها نادت الملائكة في الخلائق، فلا يبقى محبّ لأهل البيت إلّا دَفَعَتْ إليه صكّاً فيه فكاكه من النار. فصار أخي وٱبن عمّي وٱبنتي فكّاك رقاب رجال ونساء من أمّتي»(١).

وقال الصادق عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة بعثَ الله عزّ وجلّ العالم والعابد، فإذا وقفا بين يَدَي الله عزّ وجلّ، قيلَ للعابد: انطلق إلى الجنّة، وقيل للعالم: قِفْ تشفع للنّاس بحُسن تأديبك لهم»(٢).

(٥) مصير الأطفال في القيامة:

من الثابت عند أعلام الإمامية: أنّ أطفال المؤمنين يُحشرون في زمرة آبائهم، وينعمون في ظلال جنانهم ونعيمهم، تكريماً للآباء، وإيناساً لهم:

﴿والّذينَ آمَنُوا وٱتّبعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بإيمانٍ ألحَقْنا بِهِم ذرِّيّتَهُم وما ألتناهم من عَمَلِهِم من شَيْء﴾. (الطّور / ٢١)

وقد جاء في تفسير هذه الآية ما رواه الكليني في الكافي والصّدوق في الفقيه، عن الصادق عليه السلام: أنّه قال: «قصرت الأبناء عن عمل الآباء، فالحقوا الأبناء بالآباء، لتقرّ بذلك أعينهم»(٣).

---

(١) الفصول المهمّة، للإمام شرف الدِّين، ص ٤٣.

(٢) البحار، م ١، ص ٧٤، عن علل الشّرائع للصّدوق، وبصائر الدّرجات، لمحمّد بن الحسن الصفّار.

(٣) البحار، م ٣، ص ٨١.

وأمّا أطفال الكفّار: فقد اختلفت آراء الكلاميين في مآلهم، نظراً لطفولتهم وسقوط التكاليف الشرعية عنهم إلى الوجوه التالية:

أ ـ استبعاد تعذيبهم وإدخالهم في النار، لقبح ذلك وامتناعه على الله تعالى. وتردّدت أقوال المستبعدين في مصير هؤلاء الأطفال: بين دخول الجنّة، أو سكن الأعراف «وهو جبل بين الجنّة والنار»، وقيل: إنّهم يجنّدون لخدمة أهل الجنّة على وجه يبهجهم ولا يشقّ عليهم.

ب ـ إنّ الله تعالى يكافئهم حسب علمه واطّلاعه على واقعهم، فيُدخل مَنْ علم إيمانه ـ لو شبّ وكبر ـ إلى الجنّة، ويُدخِل مَنْ علم كفره كذلك إلى النار.

ج ـ إنّ الله تعالى يؤجِّج لهم ناراً في القيامة، ويأمرهم باقتحامها، فينعمهم أو يعذِّبهم حسب طاعتهم أو عصيانهم لأمره، وهكذا يمتحن المجانين والمعتوهين الّذين لا يميِّزون بين الحقّ والباطل، كما يمتحن أطفال الكفّار، ويكون مصيرهم كما في الوجه الثالث.

والأجدر في هذه القضايا الغيبية ونظائرها، إيكال علمها إلى الله عزّ وجلّ لعجز العقول عن إدراك واقعها المكتوم.

(٦) حشر الوحوش:

اختلف الكلاميون في حشر البهائم والوحوش، فنفاه جماعة وأثبته آخرون. ولكلّ منهما حجّته وبرهانه.

احتجّ النافون: بأنّ المحشر مختصّ بالعقلاء والمكلّفين، والحيوان عاطل من العقل والتكليف فلا يحشر.

واحتجّ المثبتـون: بأنّ الحكم على حشر الوحوش نفياً وإثباتاً منوط بالسّمع لا العقل عن استجلاء ذلك. وقد صرّحت النصوص القرآنية والآثار المعبِّرة بحشرها، ولو كان الحشر مختصّ بالعقلاء والمكلّفين، للزمَ إلغاء حشر المجانين والأطفال، وهو واضح البطلان.

قال تعالى: ﴿**وإذا ٱلوُحُوشُ حُشِرَت**﴾. (التكوير/ ٥)

وظاهر الحشر في الآيتين حشرها في المعاد، كما صرّحت بذلك الأخبار. فقد روى الصدوق في الفقيه، عن الصادق عليه السلام، قال: «**أيّ بعير حجّ عليه ثلاث سـنين يُجعل من نِعَم الجنّة**»، ورُوي سبع سنين.[1]

وقد رُوي عن النّـبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «**استـفرهوا ضحاياكم، فإنّها مطاياكم على الصِّراط**»[2].

ونحو ذلك من النصوص الجمّة المعبِّرة عن حشرها، أمّا مصيرها بعد الحشر فعلمه عند الله عزّ وجلّ، إذ لم تنـوّه الأخبار المعـبِّرة عنه، وعلينا أن لا نخوض فيما نجهله من القضايا الغيبية.

---

(١) البحار، م٣، ص ٢٧١.

(٢) المصدر السابق.

الحســاب

هو مساءلة العباد ومحاسبتهم يوم القيامة على ما عملوه في الحـياة الدّنيا من طاعات وحسنات، أو اقترفوه من معاصٍ وسيِّئات لمكافأتهم عليها بالتكريم والإنعام أو التحقير والعذاب.

وهو: ممّا يجب الإعتقاد به لتنويه الكتاب والسنّة عنه وتركيزهما عليه.

تسجيل الأعمال:

ليس الإنسان معفوّاً من رقابة السماء وضوابطها الموجّهة، فليس من حقِّه أن يتحرّر من سلطانها، ويخالف دستورها في مختلف شؤونه وجوانب حياته المادِّية والروحية، الفكرية والعملية، ومتى انحرف عنه، وتمرّد عليه أنذرته السماء بالتّبعة والمسؤولية:

﴿إنّ السّمْعَ والبَصَرَ والفُؤادَ كُلُّ أولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾. (الإسراء/ ٣٦)

وقد يحسب المغفّلون أنّ ممارسة الآثام واقترافها تحت ستار الخفاء وغفلة الرّقباء يخفي جرائمهم، ويغفلها في سجل السيِّئات، وإحاطتها الواعية الشاملة بجميع نشاطات الإنسان وأعماله في السرِّ والعلن والجهر والخفاء:

﴿وإنّ عَلَيْكُم لَحافِظِينَ كِراماً كاتِبينَ يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُون﴾. (الإنفطار/ ١٠)

وقد اكتشفت هذا الواقع العلوم الروحية والنفسية الحديثة، وبرهنت عليه بأساليبها العلمية واختباراتها الحسِّية ومقرّراتها الدقيقة، وأعلنت:

«أنّ أعمال كلّ إنسان تُحفظ وتُسجّل بصفة دائمة، وبغير توقّف. وللإنسان ثلاثة أبعاد يُعرف من خلالها، هي: نيّته، وقوله، وعمله، وهذه الأبعاد الثلاثة تُسجّل بأكملها.

فكلّ حرف يخرج عن لساننا، وكلّ عمل يصدر عن عضو من أعضائنا يُسجّل في الأثير (الفضاء) ويمكن عرضه في أيّ وقتٍ من الأوقات بكلّ تفاصيله، لنعرف إذا شئنا كلّ ما قاله، أو فعله أيّ إنسان في هذه الحياة الدّنيا من خير أو شرّ.

وقد أثبتت التجارب العلمية أنّ جميع أفكارنا تُحفظ في شكلها الكامل، ولسنا قادرين على محوها أبداً. وأثبتت هذه التجارب أيضاً أنّ الشخصية الإنسانية لاتنحصر فيما نسمِّيه الشعور، بل هناك أجزاء أخرى من الشخصية الإنسانية تبقى وراء الشعور، يُسمِّيها فرويد (اللّاشعور)، وهذه الأجزاء تُشكِّل جانباً كبيراً من شخصيّتنا، وقد سلّم علماء النفس بهذه النظرية بصفة عامّة اليوم.

ومعناها: أنّ كلّ ما يخطر على بال الإنسان من الخير والشرّ، يُنقش في صفحة اللّاشعور، فلا يزول إلى الأبد، ولا يؤثّر فيه تغيّر الزّمان وتقلّب الحدثان، ويحدث هذا على رغم الإرادة الإنسانية طوعاً أو كرهاً. ولو قارنّا هذا الواقع مقروناً إلى نظرية الآخرة، لاستطعنا أن نصل إلى حقيقتها بسرعة، أنّ هذا الواقع يؤكِّد بكلِّ صراحة إمكان وجود سجل كامل لأعمال الإنسان في حيازته، عندما يبدأ حياته الأخرى، فإنّ وجوده نفسه سوف يشهد على الأعمال والنِّيّات الّتي عاشها.

﴿وَلَقَد خَلَقْنا الإنْسانَ وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بهِ نَفْسُهُ ونحنُ أقْرَبُ إليهِ من حَبْلِ الوَريد﴾. (ق/ ١٦)

(أ) مسألة القول:

إنّ نظرية الآخرة تقول بأنّ الإنسان مسؤول عن أقواله، فجميع ما نلفظه من

كلام حسناً أو قبيحاً يُحفظ في سجلٍّ كامل:

﴿ما يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إلّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتيدٌ﴾. (ق / ١٨)

وهذا السجلّ سوف يُعرض أمام محكمة الآخرة ليتمّ حساب الإنسان. فنحن نعرف قطعاً أنّ أحداً عندما يُحرِّك لسانه ليتكلّم، يُحرِّك بالتالي موجات في الهواء كالّتي توجد في الماء الساكن عندما نرمي فيه بقطعة من الحجر.

ولقد ثبت قطعياً أنّ هذه الموجات تبقى كما هي في الأثير إلى الأبد، ومن الممكن سماعها مرّة أخرى، ولكنّ علمنا الحديث عاجز حتّى الآن عن إعادة هذه الأصوات، أو بعبارةٍ أصحّ عن أن يضبط هذه الموجات مرّة أخرى مع أنّها لا تزال تتحرّك في الفضاء من زمنٍ بعيد.

ولم يبد العلماء اهتماماً خاصّاً بهذا المجال حتّى الآن، بعد أن سلّموا ـ نظريّاً ـ بإمكان إيجاد آلة لالتقاط أصوات الزّمن الغابر، كما يلتقط المذياع الأصوات الّتي تذيعها محطّات الإرسال.

(ب) مسألة العمل:

وهكذا يؤكِّد العلم الحديث بأنّ جميع أعمالنا سواء باشرناها في الضوء أم في الظلام، فرادى أم مع الناس، كل هذه الأعمال موجودة في الفضاء في حالة الصور، ومن الممكن في أيّة لحظة تجميع هذه الصور حتّى نعرف كلّ ما جاء به إنسان ما، من أعمال الخير والشرّ طيلة حياته.

«فقد أثبتت البحوث العلمية أنّ كلّ شيء حدث في الظلام أو في النور تصدر عنه «حرارة» بصفة دائمة، في كلّ مكان، وفي كلّ حال، وهذه الحرارة تعكس الأشكال وأبعادها تماماً كالأصوات الّتي تكون عكساً كاملاً للموجات الّتي يُحرِّكها اللِّسان.

وقد تمّ اختراع آلات دقيقـة لتصوير المـوجات الحرارية الّتي تخرج عن أيّ كائن، وبالتالي تعطي هذه الآلة صورة فوتوغرافية كاملة للكائن حينما خرجت منه الموجات الحرارية.

وتستعمل في هذه الآلة (انفرارد) الّتي تصوّر في الظلام والضوء على حدٍّ سواء، ولقد بدأ العلماء في بريطانيا والولايات المتحدة استغلال هذه الآلة في تحقيقاتهم، وذات ليلة حلّقت طائرة مجهـولة في سماء نيـويورك، فصـوّروا الموجات الحرارية لفضـاء نيـويورك بهذه الآلة، وأدّى ذلك إلى معرفة طراز الطائرة ونوعها، ولقد أطلق على هذه الآلة إسم: «آلة تصوير الحرارة».

ومعـنى ذلك أنّ حـياة كلّ منّا تُصوّر على مسـتوى علمي كما تُسجِّل آلات التصوير الأوتوماتيكية السريعة جميع تحرّكات الممثّلين السينمائيين. فحياتك كالقصّة الّتي تُصوّر في الأستوديو، ثمّ تشاهدها على شاشة السينما بعد حقب طويلة من الزّمن، وعلى بُعد كبير من مكان التسجيل.

ويتّضح من التفاصيل العلمية الّتي أوردنا بعضها أنّ أجهزة الكون تقوم بتسجيل كامل لكلِّ أعمال الإنسان، فكلّ ما يدور في أذهاننا يُحفظ إلى الأبد، وكلّ ما ننطق به من الكلمات يُسجّل بدقّة فائقة، فنحنُ نعيش أمام كاميرات تشتغل دائماً ولا تُفرِّق بين اللّيل والنهار.

ولا يسعنا أن نُسلِّم بأنّ قضية كلّ منّا سوف تُقدّم أمام محكمة إلٰهية.. وهي الّتي قامت بإعداد هذا النظام العظيم»[١].

فما أخطر يوم الحساب وما أشدّ رهبته!! يوم يمثل المرء في محكمة الله الكبرى،

---

(١) نُقل باختصار وتصرّف عن كتاب الإسلام يتحدّى، للأستاذ وحيدالدِّين خان، ص ٨٦ ـ ٩٠، نقلاً عن مصادر أجنبية متخصِّصة عديدة.

وفي ظلال سلطانها القاهر، وحكمها العادل، فيجد سجلّ أعماله بكلّ صفحاته الناصعة أو السوداء، فلا يملك التنصّل منها، أو التهرّب من عقابها، فيستسلم آنذاك للواقع الرّهيب ذاهلاً منهاراً!!

وكم تعظم الحسرة واللّوعة، ويعصف الندم بالعُتاة الطّغاة الّذين استذلّوا الناس واستباحوا دماءهم وأموالهم، ففوجئوا غداة الحساب والجزاء بنتائج طغيانهم وجورهم وسيقوا أذلّاء صاغرين إلى الهوان والعذاب!!

انظر كيف يصوّر القرآن الكريم مشاعر المحاسَبين يوم الجزاء، وحالاتهم النفسية الجسمية، واغتباط الفائزين به، ولوعة الخائبين، ويعرضه بأسلوب شيّق أخّاذ:

قال تعالى: ﴿وإن تُبْدُوا ما في أنفُسِكُم أو تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُم بِهِ ٱللهُ فيَغْفِرُ لِمَن يَشاءُ ويُعذِّبُ مَن يَشاءُ﴾. (البقرة / ٢٨٤)

﴿وإن تُبْدُوا﴾ تُظهروا ما في أنفسكم وتُعلنوه من الطّاعة والمعصية، ﴿أو تُخْفُوهُ﴾ تكتموه، ﴿يُحاسِبْكُم بِهِ ٱللهُ﴾ يعلم الله ذلك فيُجازيكم عليه، ﴿فيَغْفِرُ لِمَن يَشاءُ﴾ منهم رحمة وتفضيلاً، ﴿ويُعذِّبُ مَن يَشاءُ﴾ منهم استحقاقاً وعدلاً.[١]

وقال تعالى: ﴿فأمّا مَن أوتيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً * ويَنْقَلِبُ إلى أهْلِهِ مَسْرُوراً * وأمّا مَن أوتي كِتابَهُ وراء ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً * ويَصْلَى سَعِيراً﴾. (الإنشقاق / ٧ ـ ١٢)

﴿فأمّا مَن أوتيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ مَنْ أعطيَ كتابه الّذي سُجِّلت فيه أعماله من طاعة أو معصية بيده اليمنى، ﴿فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً﴾ لا يُناقش في الحساب، ولا يوافق على أعماله أمّا بالتوبة أو بالعفو، ﴿ويَنْقَلِبُ﴾ بعد الفراغ من الحساب، ﴿إلى أهْلِهِ مَسْرُوراً﴾ بما أوتيَ من الخير والكرامة، والمراد بالأهل: الحور العين أو

---

(١) الطّبرسي.

أزواجه وأولاده وقد سبقوه إلى الجنّة، ﴿وأمّا مَن أوتي كِتابَهُ وراء ظَهْرِهِ﴾ إعطاء الكتاب باليمين إمارة للملائكة والمؤمنين بأنّ صاحب الكتاب من أهل الجنّة. وإعطاؤه على الوجه الآخر إمارة على أنّ صاحبه من أهل النار، ثمّ حكى سبحانه ما يحلّ به فيُقال: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً﴾ يقول: وا ثبوراه وا هلاكاه، ﴿ويَصْلَى سَعِيراً﴾ يدخل النار ويُعذّب فيها.[١]

وقال تعالى: ﴿ٱليَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أفْواهِهِمْ وتُكَلِّمُنا أيدِيْهِمْ وتَشْهَدُ أرْجُلُهُم بما كانُوا يَكْسِبُون﴾. (يّس/ ٦٥)

﴿ٱليَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أفْواهِهِمْ﴾ تُكتم أفواه الكفّار فلا يقدرون على النّطق والكلام. ﴿وتُكَلِّمُنا أيدِيَهِمْ﴾ بما عملوا، ﴿وتَشْهَدُ أرْجُلُهُم بما كانُوا يَكْسِبُون﴾ تُستنطق الأعضاء لتشهد عليهم بعد أن كانت عديمة النّطق في الدّنيا، وذلك بأن يجعلها قادرة على النّطق كاللِّسان.[٢]

وقد يستغرب البعض من نطق اليد والرِّجل، وليس لهما لسان، وما تقدران على بيان؟!

لقد اخترعت آلات التسجيل، والسينما الناطقة، وصارت تُقام في مداخل المصارف آلات تصوير خفيّة تصوِّر بالأشعّة الّتي لا تُرى (تحت الحمراء) تتحرّك لمجرّد اجتياز شخص من أمامها. فإذا سرق السارق وأنكر، عرضوا عليه (الفلم) يعيد حركاته وسكناته، وهمسه لنفسه وكلامه مع رفيقه. فيُقال لأولئك المستغربين إنّ الله تعالى مكّن الإنسان من هذا الإختراع، أليسَ بقادر على أن يُنطق اليد والرِّجل في

(١) الطّبرسي.
(٢) الطّبرسي، بتصرّف.

الآخرة !![1]

وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ إنسانٍ ألْزَمْناهُ طائِرَهُ في عُنُقِهِ ونُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ ٱلقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً * ٱقْرَأ كِتابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ ٱليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾. (الإسراء/ ١٣ ـ ١٤)

﴿وَكُلَّ إنسانٍ ألْزَمْناهُ طائِرَهُ في عُنُقِهِ﴾ ألزمنا كلّ إنسان عمله من خير أو شرّ، وجعلناهُ كالطّوق في عنقه فلا يفارقه. وقيل طائره كتابه، ﴿ونُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ ٱلقِيامَةِ كِتاباً﴾ وهو ما كتبه الحفظة عليهم من أعمالهم، ﴿يَلْقاه﴾ يرى ذلك الكتاب ﴿منشوراً﴾ مفتوحاً معروضاً عليه ليقرأه ويعلم ما فيه، فيُقال له: اقرأ كتابك. وعن أبي عبدالله عليه السلام، قال: يذكر العبد جميع أعماله، وما كُتِبَ عليه حتّى كأنّه فعله في تلك الساعة، فلذلك قالوا: ﴿يا ويلتنا ما لهذا الكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً ولا كَبِيرَةً إلّا أحْصاها﴾. ﴿كَفَى بِنَفْسِكَ ٱليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾، محاسباً حيث يرى أعماله وجزاءها مكتوباً بالعدل، فيذعن عند ذلك ويعترف، ولا يتسنّى له الإنكار.[2]

وهكذا عرضت أحاديث أهل البيت عليهم السلام صوراً من مشاهد الحساب ومواقفه الخطيرة وصوّرتها تصويراً رائعاً بليغاً.

قال أبو عبدالله جعفر بن محمّد عليهما السلام: **«ألا فحاسِبُوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا، فإنّ في القيامة خمسين موقفاً كلّ موقف مثل ألف سنة ممّا تعدّون، ثمّ تلا هذه الآية: ﴿في يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسينَ ألفَ سَنَةٍ﴾»**[3].

روى القمّي في تفسيره، والشيخ في الأمالي، والصّدوق في الخصال، عن الباقر عليه السلام، عن النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، قال: **«لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة من بين يَدَي الله حتّى**

(١) تعريف عام بدين الإسلام، لعليّ الطنطاوي، ص ١٢٩، بتصرّف.
(٢) الطّبرسي، بتصرّف.
(٣) البحار، م ٣، ص ٢٢٧، عن الكافي وأمالي أبي عليّ بن الشيخ الطّوسي.

يسأله عن أربع خصال: عمركَ فيما أفنيته، وجسدكَ فيما أبليته، ومالكَ من أين كسبته وأين وضعته، وعن حُبِّنا أهل البيت.

وسُئل أميرالمؤمنين عليه السلام: كيف يُحاسِب الله الخلق على كثرتهم، قال: كما يرزقهم على كثرتهم. قيل: كيف يُحاسبهم ولا يرونه، قال: كما يرزقهم ولا يرونه»[1].

«وسُئل الصّادق عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَالِغَةُ﴾. فقال: إنّ الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: عبدي أكنتَ عالماً؟ فإن قال نعم، قال له: أفلا عملت بما علمت. وإن قال كنتُ جاهلاً، قال له: أفلا تعلّمتَ حتّى تعمل فيخصم، فتلك الحجّةُ البالغةُ لِلّهِ عزّ وجلّ على خلقه»[2].

وعن أبي جعفر عليه السلام، قال: «إنّما يُداقّ الله العباد في الحساب يوم القيامة على قدر ما آتاهم من العقول في الدّنيا»[3].

وعن ثوير بن أبي فاخته، قال: سمعتُ عليّ بن الحسين عليهما السلام يُحدِّث في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: «حدّثني أبي أنّه سمع أباه عليّ بن أبي طالب عليه السلام يُحدِّث الناس، قال: إذا كان يوم القيامة بعثَ الله الناس مِنْ حفرهم عزلاً[4] بُهماً[5] جُرداً[6]

---

(١) نهج البلاغة.

(٢) البحار، م٣، ص٢٧٣، عن مجالس الشيخ المفيد وأمالي أبي عليّ بن الشيخ الطّوسي.

(٣) البحار، م٣، ص ١٦٨، عن الكافي.

(٤) عزلاً: العزل جمع الأعزل، أي لا يحملون شيئاً من حطام الدّنيا ومتاعها.

(٥) بهماً: البُهم جمع بهيم، وهو في الأصل: الّذي لا يخالط لونه لون آخر، والمراد به (ليس فيهم شيء من العاهات الدنيوية كالعور والعرج، وأجسادهم سليمة صالحة لخلود الأبد في الجنّة أو النار). وقيل: أي ليس معهم شيء من حطام الدّنيا.

(٦) جرداً: الجرد جمع الأجرد، وهو الذي ليس على بدنه شعر.

مُرداً[١] في صعيدٍ واحد (يسوقهم النّور وتجمعهم الظّلمة) [٢]، حتّى يقفوا على عقبة في المحشر، فيركب بعضهم بعضاً ويزدحمون دونها، فيُمنعون من المضي، فتشتدّ أنفاسهم ويكثر عرقهم وتضيق بهم أمورهم ويشتدّ ضجيجهم وترتفع أصواتهم ـ وهو أوّل هول من أهوال يوم القيامة ـ.

قال: فيُشرف الجبّار تبارك وتعالى عليهم[٣] من فوق عرشه في ظلال من الملائكة، فيأمر ملكاً من الملائكة فيُنادى فيهم:

يا معشر الخلائق أنصتوا واسمعوا مناد الجبّار ـ قال: فيسمع آخرهم كما يسمع أوّلهم ـ قال: فتنكسر أصواتهم عند ذلك وتخشع أبصارهم وتضطرب فرائصهم وتفزع قلوبهم ويرفعون رؤوسهم إلى ناحية الصّوت مهطعين إلى الدّاعي، قال: فعند ذلك يقول الكافر: هذا يوم عسر.

قال: فيُشرف الله عزّ وجلّ الحكم العدل عليهم فيقول: أنّا الله لا إله إلّا أنا الحكم العدل الّذي لا يجور، اليوم أحكم بينكم بعدلي وقسطي، لا يُظلم اليوم عندي أحد، اليوم آخُذُ للضّعيف من القويّ بحقِّه، ولصاحب المظلمة بالقصاص من الحسنات والسيِّئات، وأثيب على الهبات، ولا يجوز هذه العقبة اليوم عندي ظالم ولأحد عنده مظلمة إلّا مظلمة يهبها صاحبها وأثيبه عليها وآخذ له بها عند الحساب، فتلازموا أيّها الخلائق، واطلبوا مظالمكم عند مَنْ ظلمكم بها في الدّنيا وأنا شاهد لكم بما

---

(١) مرداً: المرد جمع الأمرد، وهو الّذي ليست له لحية.

(٢) قوله عليه السلام: «يسوقهم النّور وتجمعهم الظّلمة» أي تسوقهم نار من خلفهم فيهربون منها ويمشون في الظّلام كما جاء في أشراط الساعة: ﴿كُلّما أضاء لَهُم مَشَوْا فِيهِ وَإذا أظْلَمَ عَلَيْهِم قامُوا﴾ (البقرة / ٢٠).

(٣) قوله عليه السلام: «فيُشرِف الجبّار عليهم» وهذا كناية عن اطّلاع المولى عزّ وجلّ عليهم وتعلّق إرادته بالقضاء فيهم.

عليهم، وكفى بي شهيداً.

قال: فيتعارفون ويتلازمون، فلا يبقى أحد له عند أحد مظلمة أو حقّ إلّا لزمه بها.

قال: فيمكثون ما شاء الله، فيشتدّ حالهم ويكثر عرقهم ويشتدّ غمّهم وترتفع أصواتهم بضجيج شديد (جديد) فيتمنّون المَخْلَصَ منه بترك مظالمهم لأهلها.

قال: ويطّلع الله عزّ وجلّ على جهدهم فيُنادي منادٍ من عند الله تبارك وتعالى يسمع أوّلهم كما يسمع آخرهم: يا معشر الخلائق! انصتوا لداعي الله تبارك وتعالى، واسمعوا أنّ الله تبارك وتعالى يقول: أنا الوهّاب إن أحببتُم أن تَواهبوا وإن تَواهبوا أخذتُ لكم بمظالمكم. قال: فيفرحون بذلك لشدّة جهدهم وضيق مسلكهم، وتزاحمهم، قال: فيهب بعضهم مظالمهم رجاء أن يتخلّصوا ممّا هم فيه، ويبقى بعضهم فيقول: يا ربّ مظالمنا أعظم من أن نهبها.

قال: فيُنادي منادٍ من تلقاء العرش: أين رضوان خازن الجنان جنان الفردوس؟ قال: فيأمرهُ الله عزّ وجلّ أن يطلع من الفردوس قصراً من فضّة بما فيه من الآنية والخدم، قال: فيطلعه عليهم، في صفافة القصر الوصائف والخدم، قال: فينادي منادٍ من عند الله تبارك وتعالى: يا معشر الخلائق! ارفعوا رؤوسكم فانظروا إلى هذا القصر.

قال: فيرفعون رؤوسهم فكلّهم يتمنّاه، قال: فينادي منادٍ من عند الله تبارك وتعالى: يا معشر الخلائق! هذا لكلِّ مَنْ عفى عن مؤمن.

قال: فيعفون كلّهم إلّا القليل. قال: فيقول الله عزّ وجلّ:

لا يجوز إلى جنّتي اليوم ظالم ولا يجوز إلى ناري اليوم ظالم ولأحد عنده من

المسلمين مظلمة حتّى يأخذها منه عند الحساب، أيّها الخلائق استعدّوا للحساب. قال: ثمّ يخلي سبيلهم فينطلقون إلى العقبة (يكرد بعضهم بعضاً)[١]، حتّى ينتهوا إلى العرصة (والجبّار تبارك وتعالى على العرش)[٢] قد نُشِرَت الدواوين ونُصِبَت الموازين وأحْضِرَ النّبيّون والشّهداء وهم الأئمّة يشهد كلّ إمام على أهل عالمه بأنّه قد قام فيهم بأمر الله عزّ وجلّ ودعاهم إلى سبيل الله تعالى.

قال: فقال له رجل من قريش: يا ابن رسول الله: إذا كان للرّجل المؤمن عند الرّجل الكافر مظلمة، أيّ شيء يأخذ من الكافر وهو من أهل النار؟

قال، فقال له عليّ بن الحسين عليهما السلام: يطرح عن المسلم من سيّئاته بقدر ما له على الكافر، فيُعذّب الكافر بها مع عذابه بكُفره عذاباً بقدر ما للمسلم قبله من مظلمة.

قال، فقال له القرشيّ: فإذا كانت المظلمة للمسلم عند مسلم كيف يأخذ مظلمته من المسلم؟ قال: يؤخذ للمظلوم من الظالم من حسناته بقدر حقّ المظلوم، فيزداد على حسنات المظلوم.

قال، فقال له القرشي: فإن لم يكن للظالم حسنات. قال: إن لم يكن للظالم حسنات، فإن كان للمظلوم سيّئات تؤخذ من سيّئات المظلوم، فتُزاد على سيّئات الظالم»[٣].

---

(١) قوله عليه السلام: «يكرد بعضهم بعضها» الكرد، هو: السّوق والدّفع.

(٢) قوله عليه السلام: «والجبّار تبارك وتعالى على العرش» أي مستوٍ على عرش العظمة والجلالة، وأنّه يُجري حُكْمَهُ وقضاءَهُ عند العرش.

(٣) الوافي، ج ١٣، ص ١٠١ ـ ١٠٢، عن الكافي.

وعن سليمان بن خالد، قال: «قرأتُ على أبي عبدالله عليه السلام هذه الآية: ﴿**إلاّ مَنْ تابَ وآمَنَ وعملَ صالِحاً فأولئِكَ يُبدِّلُ ٱللهُ سَيِّئاتِهِم حَسَنات**﴾، فقال: هذه فيكم أنّه يؤتى بالمؤمن المذنب يوم القيامة حتّى يوقف بين يَدَي الله عزّ وجلّ فيكون هو الّذي يلي حسابه فيوقفه على سيِّئاته كلّها، كلّ ذلك يقول أعرف، فيقول سترتها عليك في الدّنيا وأغفرها لك اليوم، أبدلوها لعبدي حسنات. قال: فتُرفع صحيفته للناس، فيقولون: سبحان الله، أما كانت لهذا العبد سيِّئة واحدة، وهو قول الله عزّ وجلّ:

﴿**أولئِكَ يُبَدِّلُ ٱللهُ سَيِّئاتِهِم حَسَنات**﴾.

وعن أبي عبدالله عليه السلام، قال: آخر عبد يؤمر به إلى النار يلتفت فيقول الله عزّ وجلّ: اعجلوه، فإذا أُتيَ به قال له: يا عبدي لم ألتفت، فيقول: يا ربِّ ما كان ظنِّي بكَ هذا، فيقول الله جلّ جلاله: عبدي ما كان ظنّك بي؟ فيقول: يا ربّ كان ظنِّي بكَ أن تغفر لي خطيئتي وتسكنِّي جنّتك، فيقول الله: ملائكتي وعزّتي وجلالي وآلائي وبلائي وارتفاع مكاني، ما ظنّ بي هذا ساعة من حياته خيراً قطّ ولو ظنّ بي ساعة من حياته خيراً ما روّعته بالنار، أحيزوا له كذبه وادخلوه الجنّة»(١).

عمّ يُسأل المحاسَب؟

وهذا ما يُحدِّثنا به الحبر الجليل المجلسي رحمه الله:

«وأمّا ما يُحاسب به العبد ويُسأل عنه، فقد اختلفت فيه الأخبار: فمنها ما يدلّ على عدم السؤال عمّا تصرف فيه من الحلال. وفي بعضها: لحلالها حساب، ولحرامها عقاب. ويمكن الجمع بينهما بحمل الأولى على المؤمنين، والأخرى على غيرهم، أو الأولى على الأمور الضرورية كالمأكل والملبس والمسكن، والأخرى على ما زاد على

(١) البحار، م٣، ص ٢٧٤، عن ثواب الأعمال.

الضرورة كجمع الأموال زائداً على ما يحتاج إليه، أو صرفها فيما لا يدعو إليه ضرورة، ولا يستحسن شرعاً ويؤيِّده بعض الأخبار»[1].

الميـزان:

وهو من مشاهد المـعاد، ومفاهيمه البارزة، ومواقفه الخطـيرة، الّتي تـعكس أعمال العباد وأبعاد طاعتهم أو عصيانهم لله عزّ وجلّ، ومبلغ رصيدهم من الحسنات والسيِّئات، والإعتقاد به من ضرورات الدِّين لدلالة الكتاب والسنّة عليه.

واقع الميـزان:

اختلف المتكلِّمون في الميزان، وهل هو كالموازين المألوفة أم هو شيء آخر:

فارتأى بعضهم: أنّها كالموازين المألوفة ذات كفّتين، تُنصب يوم القيامة لوزن أعمال الخلائق حسـناتهم وسـيِّئاتهم، فَمَنْ رجحت كفّة حسـناته كان من السـعداء الفائزين، ومَنْ رجحت كفّة سيِّئاته كان من الشُّقاة الخائبين.

ويؤخذ على هذا الرأي: أنّه كيف يتسنّى وزن الأعمال وهي ليست مادِّية ذات حجم وثقل؟!

وأجيب هذا الإعتراض بأمرين:

(١) إنّ الأعمال تتجسّد في العالم الأخروي، حسبما دلّت عليه النّصوص المتضافرة وصرّح به بعض المحقِّقين الأعلام: كالشيخ البهائي، والشيخ المجلسي رحمهما الله.

(٢) إنّ لكلٍّ من الحسنات أو السيِّئات سماته الخاصّة وطابعه المتمـيِّز، وعند التعادل والتراجح يتجلّى رجحان إحداهما على الأخرى.

---

(١) البحار، م ٣، ص ٢٧٠.

وفسّرها آخرون تفسيراً مجازياً، وأنّها كناية عن المقارنة والتعديل بين الأعمال محاسنها ومساوئها والمكافأة عليها حسب مؤشّرات رجحان إحداهما على الثانية.

قال الشيخ المفيد رحمه الله: «الموازين هي التعديل بين الأعمال والجزاء عليها، ووضع كلّ جزاء في موضعه، وإيصال كلّ ذي حقٍّ إلى حقّه... وإنّ ما ثقل منها هو ما كثر واستحقّ عليه عظيم الثّـواب، وما خفّ منها ما قلّ قدره ولم يسـتحقّ عليه جزيل الثّواب»[1].

والأولى: الإيمان مبدئياً بالميزان، وعدم التعمّق في معرفة واقعها الغيبي.

وإليك قبساً من القرآن والسنّة في الميزان:

قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلمَوازينَ القِسْطَ لِيَومِ ٱلقِيامَةِ فلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَـيْئاً وإن كانَ مِثْقالَ حَبّةٍ مِن خَرْدَلٍ أتَيْنا بِها وكَفى بِنا حاسِبِين﴾. (الأنبياء / ٤٧)

﴿وَنَضَعُ ٱلمَوازينَ القِسْطِ لِيَومِ ٱلقِيامَةِ﴾ لأهل يوم القيامة أو في يوم القيامة، ﴿فلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ لا ينقص من إحسان محسن، ولا يُزاد في إساءة مُسيء، ﴿وإن كانَ مِثْقالَ حَبّةٍ مِن خَرْدَل أتَيْنا بِها﴾ أحضرناها للمجازاة بها، ﴿وكَفى بنا حاسِبين﴾ عالمين حافظين.[2]

وقال تعالى: ﴿فأمّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ * فَهُوَ في عِيشَةٍ راضِيَةٍ * وأمّا مَنْ خَفّتْ مَوازِينُهُ * فأُمُّهُ هاوِيَةٌ * وما أدْراكَ ما هِيَهْ * نارٌ حامِيَة﴾. (القارعة / ٦)

﴿فأمّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ﴾ رجحت حسناته وكثرت خيراته، ﴿فَهُوَ في عِيشَةٍ راضِيَةٍ﴾ مرضيّة يرضاها صاحبها، ﴿وأمّا مَنْ خَفّتْ مَوازِينُهُ﴾ خفّت حسناته وقلّت طاعاته، ﴿فأُمُّهُ هاوِيَةٌ﴾ مأواه جهنّم ومسكنه النار. وسمّاها أمُّهُ لأنّه يأوي إليها كما

---

(١) أوائل المقالات، للشيخ المفيد، ص ٢٠٢.

(٢) الطّبرسي.

يأوي الولد إلى أمّه، ﴿وما أدْراكَ ما هِيَهْ﴾ وهذا تعظيم لأمرها، ثمّ فسّرها: ﴿نارٌ حامِيَة﴾ نار حارّة شديدة الحرارة.[1]

ومن طرائف الآثار في الميزان:

عن عليّ بن الحسين عليهما السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«ما يوضعُ في ميزانِ امرئٍ يوم القيامةِ أفضل من حُسْن الخُلُق»**[2].

وعن الصادق، عن آبائه عليهم السلام، قال: «**قال رسول الله** صلى الله عليه وآله وسلم **: أنا عند الميزان يوم القيامة، فمَنْ ثقلت سيِّئاته على حسناته، جئت بالصّلاةِ عليَّ حتّى أثقل بها حسناته»**[3].

وعن الصادق عليه السلام قال: «**وقع بين سلمان الفارسي** رضي الله عنه **وبين رجل كلام وخصومة، فقال له رجل: مَنْ أنتَ يا سلمان؟ فقال سلمان: أما أوّلي وأوّلك فنطفة قذرة. وأمّا آخري وآخرك فجيفة مُنتنة، فإذا كان يوم القيامة، وَوُضِعَت المَوازين، فمَنْ ثقلَ ميزانهُ فهو الكريم، ومن خفَّ ميزانهُ فهو اللّئيم»**[4].

الصِّراط:

وهو لغة: الطّريق.

وفي اصطلاح المتكلِّمين: جسر على جهنّم تمرّ عليه الخلائق، وتعبره البشرية في مطافها الأخير، فيفضي بهم إلى الجنان والنعيم، أو يهوي بهم إلى النار والعذاب،

---

(١) الطّبرسي.

(٢) البحار، م ٣، ص ٢٦٣، عن الكافي.

(٣) البحار، م ١٩، ص ٧٨، عن ثواب الأعمال.

(٤) سفينة البحار، ج ٢، ص ٣٤٨، عن أمالي الصّدوق.

حسب واقعهم وخصائص عقائدهم وأعمالهم الحقّ أو الباطلة.

والصِّراط: من القضايا الثابتة في المعاد، لتضافر الأخبار المتواترة عليه، وتنويهها عنه.

قال الشيخ المفيد رحمه الله: «الصِّراط في اللّغة هو الطّريق، فلذلك سُمِّي الدِّين صراطاً لأنّه طريق إلى الصّواب، وله سُمِّي الولاء لأمير المؤمنين والأئمّة من ذرِّيّته صراطاً.. يعني: أنّ معرفتهم، والتمسّك بهم طريق إلى الله سبحانه.

وقد جاء الخبر: بأنّ الطريق يوم القيامة إلى الجنّة كالجسر يمرّ به الناس، وهو الصِّراط الّذي يقف عن يمينه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعن شماله أمير المؤمنين عليه السلام، ويأتيهما النداء من قِبَل الله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

وجاء الخبر: أنّه لا يعبر الصِّراط يوم القيامة إلّا مَنْ كان معه براءة من عليّ بن أبي طالب من النار.

وجاء الخبر بأنّ الصِّراط أدقّ من الشّعرة، وأحدّ من السّيف على الكافر، والمُراد بذلك: لا يثبت قدم على الصِّراط، من شدّة ما يلحقهم من أهوال يوم القيامة، فهم يمشون عليه كالذي يمشي على الشيء الّذي هو أدقّ من الشّعرة وأحدّ من السّيف...

وهو: طريق إلى الجنّة، وطريق إلى النار»(١).

ومن طرائف الآثار ما أخرجه الحافظ ابن السمّان في الموافقة، عن قيس بن حازم، قال: «التقى أبو بكر الصِّدِّيق وعليّ بن أبي طالب، فتبسّم أبو بكر في وجه عليّ فقال له: ما لكَ تبسّمت؟ قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: لا يجوز أحد الصِّراط إلّا مَنْ كتبَ له عليّ الجواز»(٢).

---

(١) تصحيح الإعتقاد، للشيخ المفيد رحمه الله، ص ١٩٨.

(٢) الرِّياض النّضرة، ج ٢، ص ١٧٧ و ٢٤٤، والصّواعق، ص ٧٥، وإسعاف الرّاغبين، ص ١٦١.

الشّفاعة

وهي استعطاف الشافع واسترحامه من المولى عزّ وجلّ بالعفو عن المشفوع له، والصّفح عن عقابه وشموله بالرعاية والتكريم، وقد أثبتها القرآن الكريم والسنّة المتواترة، وأجمع عليها أقطاب الفكر، وأعلام المتكلّمين ما جعلها واقعاً ثابتاً لا ريب فيه.

قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ ٱلشّفاعةُ إلّا مَنْ أذِنَ لَهُ ٱلرّحْمٰنُ ورَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾. (طه / ١٠٩)

وقال تعالى: ﴿لا تُغْنِي شَفاعَتُهُم شَيْئاً إلّا مِن بَعْدِ أن يأذَنَ ٱللهُ لِمَن يَشاءُ وَيَرْضى﴾. (النّجم / ٢٦)

وقال تعالى: ﴿ولا يَشْفَعُونَ إلّا لِمَنِ ٱرتَضى﴾. (الأنبياء/ ٢٨)

وقال تعالى حاكياً: ﴿فما لَنا مِن شافِعِين ولا صَديقٍ حَميمٍ﴾. (الشّعراء/١٠١)

وقال تعالى: ﴿مَن ذا ٱلّذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلّا بإذْنِهِ﴾. (البقرة / ٢٥٥)

وهكذا جاءت النصوص النّبويّة في تقرير الشفاعة وإثباتها:

فعن الرِّضا، عن أبيه، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«مَنْ لم يؤمن بحوضي فلا أورده الله حوضي، ومَنْ لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله الله شفاعتي»**.

ثمّ قال عليه السلام: **«إنّما شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي، فأمّا المحسنون فما عليهم من**

سبيل»[1].

وعن الصادق جعفر بن محمّد، عن آبائه عليهم السلام، قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«إذا قمت المقام المحمود وتشفّعت في أصحاب الكبائر من أمّتي، فيشفعني الله فيهم، لا والله لا تشفّعت فيمَن آذى ذريّتي»**[2].

وعن جعفر بن محمّد، عن آبائه، عن عليّ عليهم السلام، قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«ثلاث يشفعون إلى الله فيشفعون: الأنبياء، ثمّ العلماء، ثمّ الشّهداء»**[3].

وعن الرِّضا، عن آبائه، عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«إذا كان يوم القيامة ولينا حساب شيعتنا، فمَنْ كانت مظلمته فيما بينه وبين الله عزّ وجلّ، حكمنا فيها فأجابنا. ومَنْ كانت مظلمته فيما بينه وبين الناس، استوهبناها فوهبت لنا. ومَنْ كانت مظلمته فيما بينه وبيننا، كنّا أحقّ مَنْ عفا وصفح»**[4].

وعن عليّ بن موسى الرِّضا، عن آبائه عليهم السلام، عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه، قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«أربعة أنا شفيع لهم يوم القيامة: المكرم لذرِّيّتي، والقاضي لهم حوائجهم، والسّاعي في أمورهم ما اضطرّوا إليه، والمحبّ لهم بقلبه ولسانه...»**[5].

---

(١) البحار، م ٣، ص ٢٩٩، عن عيون أخبار الرِّضا وأمالي الصّدوق.
(٢) البحار، م ٣، ص ٣٠٠، عن أمالي الصّدوق.
(٣) البحار، م ٣، ص ٢٩٩، عن كتاب الخصال للشيخ الصّدوق.
(٤) البحار، م ٣، ص ٣٠١، عن عيون أخبار الرِّضا.
(٥) البحار، م٣، ص ٣٠٤، عن بشارة المصطفى، لعمادالدين محمّد بن أبي القاسم الطّبري.

وأورد الشيخ الصدوق رحمه الله في توحيده، عن ابن أبي عمير، قال: «سمعتُ موسى ابن جعفر عليه السلام يقول: لا يخلد الله في النار إلّا أهل الكفر والجحود، وأهل الضّلال والشِّرك. ومَن اجتنب الكبائر من المؤمنين لم يُسأل عن الصغائر.

قال الله تعالى: ﴿إن تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُم ونُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾.

قال: فقلت له: يا ابن رسول الله! فالشّفاعة لمَنْ تجب من المؤمنين؟

فقال: حدّثني أبي، عن آبائه، عن عليّ عليه السلام، قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (إنّما شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي، فأمّا المحسنون منهم فما عليهم من سبيل).

قال، فقلت له: يا ابن رسول الله! فكيف تكون الشّفاعة لأهل الكبائر؟! والله تعالى يقول: ﴿ولا يَشْفَعُونَ إلّا لِمَن ارْتَضى وهُم مِن خَشْيَتِهِ مُشْفِقُون﴾، ومَنْ يركب الكبائر لا يكون مرتضى.

فقال: ما من مؤمنٍ يرتكب ذنباً إلّا ساءهُ ذلك وندمَ عليه، وقد قال النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: كفى بالندم توبة. وقال: مَنْ سرّتهُ حسنة، وساءته سيّئة فهو مؤمن. ومَنْ لم يندم على ذنبٍ يرتكبه فليس بمؤمن، ولم تجب له الشّفاعة، وكان ظالماً، والله تعالى يقول: ﴿وما للظّالمينَ من حَميمٍ ولا شَفيعٍ يُطاع﴾.

فقلتُ له: يا ابن رسول الله! وكيف لا يكون مؤمناً مَنْ لم يندم على ذنبٍ يرتكبه؟

فقال: ما من أحدٍ يرتكبُ كبيرةً من المعاصي وهو يعلم أنّه سيُعاقب عليها إلّا ندمَ على ما ارتكب، ومتى ندم كان تائباً مستحقاً للشّفاعة، ومتى لم يندم كان

مُصِرّاً، والمُصِرُّ لا يُغْفَرُ له، لأنّه غير مؤمن بعقوبة ما ارتكب، ولو كان مؤمناً لندم. وقد قال النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: لا كبيرة مع الإستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار.

وأمّا قول الله: ﴿ولا يَشْفَعُونَ إلاّ لِمَن ٱرتضى﴾، فإنّهم لا يشفعون إلاّ لمَن ٱرتضى الله دينه، والدِّين: الإقرار بالجزاء على الحسنات والسيِّئات، ومَن ٱرتضى الله دينه ندم على ما يرتكبه من الذنوب، لمعرفته بعاقبته في القيامة ...»[1].

وهكذا نوّه أهل البيت عليهم السلام عن شفاعة ثلّة من العظماء والأجلّاء، كشفاعة الزّهراء عليها السلام وشفاعة السادة الأبرار من ذراريها، وشفاعة العلماء، وشفاعة فئات من المؤمنين كما تصوِّره النصوص التالية:

عن محمّد بن مسلم، قال: «سمعتُ أبا جعفر عليه السلام يقول: لفاطمة وقفة على باب جهنّم، فإذا كان يوم القيامة كتب بين عيني كلّ رجل مؤمن أو كافر، فيؤمر بمحبّ قد كثرت ذنوبه إلى النار، فتقرأ بين عينيه محبّاً، فتقول: إلٰهي وسيِّدي سمّيتني فاطمة وفطمتَ بي مَنْ تولّاني وتولّى ذرِّيّتي من النار، ووعدك الحقّ وإنّك لا تخلف الميعاد. فيقول الله عزّ وجلّ: صدقتِ يا فاطمة! إنّي سمّيتكِ فاطمة وفطمتُ بكِ مَنْ أحبّكِ وتولّاكِ وأحبّ ذرِّيّتكِ وتولّاهم من النّار، ووعدي الحقّ وأنا لا أخلف الميعاد، وإنّما أمرتُ بعبدي هذا إلى النّار لتشفعي فيه، فأشفعك ليتبيّن لملائكتي ورسلي وأهل الموقف موقفك منّي ومكانتك عندي، فمَن قرأت بين عينيه مؤمناً فجذبت بيده جذبة وأدخلته الجنّة»[2].

وعن أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة جمع الله الأوّلين

---

(١) البحار، م ٣، ص ٣٩٣، عن توحيد الصّدوق.

(٢) البحار، م ٣، ص ٣٠٤، عن علل الشّرائع.

والآخرين في صعيدٍ واحدٍ، فتغشاهم ظلمة شديدة، فيضجّون إلى ربِّهم ويقولون: يا ربِّ اكشف عنّا هذه الظّلمة، قال: فيقبل قوم يمشي النور بين أيديهم قد أضاء أرض القيامة، فيقول أهل الجمع: هؤلاء أنبياء الله، فيجيئُهم النداء من عند الله: ما هؤلاء بملائكة، فيقول أهل الجمع: هؤلاء شهداء، فيجيبُهم النداء من عند الله: ما هؤلاء بشهداء، فيقولون: مَنْ هم؟ فيجيئُهم النداء: يا أهل الجمع! سلوهم مَنْ أنتم؟ فيقول أهل الجمع: مَنْ أنتم، فيقولون: نحن العلويون، نحن ذرِّيّة محمّد رسول الله، نحن أولاد عليّ وليّ الله، نحن المخصّصون بكرامة الله، نحن الآمنون المطمئنون، فيجيئُهم النداء من عند الله عزّ وجلّ: اشفعوا في محبِّيكم وأهل مودّتكم وشيعتكم فيشفعون»[1].

وعن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «إذا كان يوم القيامة بعث الله العالم والعابد، فإذا وقفا بين يَدَي الله عزّ وجلّ، قيل للعابد: انطلق إلى الجنّة، وقيل للعالم: قف تشفع للناس بحسن تأديبك لهم»[2].

وقال أبو عبدالله عليه السلام: «إنّ الجار يشفع لجاره والحميم لحميمه، ولو أنّ الملائكة المقرّبين شفعوا في ناصبٍ ما شُفِّعوا»[3].

ولتعاضد الكتاب الكريم والسنّة المتواترة على تقرير الشفاعة وإثباتها، قال الشيخ الصّدوق رحمه الله في العقائد:

---

(١) البحار، م٣، ص ٣٠٠، عن بشارة المصطفى، للشيخ عمادالدين محمّد بن أبي القاسم الطّبري، وأمالي الصّدوق.

(٢) البحار، م٣، ص ٣٠٥، عن علل الشرائع.

(٣) البحار، م٣، ص ٣٠١، عن محاسن البرقي.

«إعتقادنا في الشـفاعة أنّها لَمَن ٱرتضى الله دينـه من أهل الكبائر والصغائر. فأمّا التائبـون من الذنوب، فغير محتاجين إلى الشـفاعة. قال النّبيّ ﷺ: «**مَنْ لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله الله شفاعتي**». وقال ﷺ: «**لا شفيع أنجح من التّوبة**».

والشفاعة للأنبياء والأوصياء، والمؤمنين والملائكة، وفي المؤمنين مَنْ يشفع في مثل ربيعة ومضر، وأقلّ المؤمنين شفاعة مَنْ يشفع في ثلاثين إنساناً».

والشفاعة بعد هذا من السّنن الإجتماعية، والمبادئ العُرفية الأصيلة.

فقد درجَ الناس عبرَ العصور القديمة والحديثة على الاستشفاع بالعظماء، وذوي الجاه والنفوذ فيما يصيبهم من ضروب الإجحاف والظّلامات، أو تحقيق ما يصبون إليه من ألوان الرغائب والمآرب، وأحرزوا بذلك مكاسب ومغانم خطيرة.

وكم أجدَتْ الشفاعة وحقّقت آمالاً جساماً: ففكّت أسيراً، وأطلقت سجيناً، وأنقذت مكروباً، وأغاثت ملهوفاً، وأفادت بألوان الجدوىٰ والعطاء!!

ولئن درجت البشرية على سنّة الشفاعة والاستشفاع في حياتها العاجلة، فهي ـ دون ريب ـ في أمسّ الحاجة، وأشدّ ضرورة في الحياة الآخرة، والنجاة من أهوالها الرهيبة، وعذابها الأليم.

خصائص الشفاعة:

وللشفاعة خصائصها الرفيعة، نجملها في النقاط التالية:

(أ) إنّها تعكس وتصوِّر رحمة الله تعالى، وكرم عفوه وصفحه عن المذنبين أنْ أتاح لهم فرص الشفاعة، وحباهم عظيم آلائه وألطافه.

(ب) إنّها تُبرز جلالة الشفعاء، وتعبِّر عن حضوتهم وزلفاهم من المولى عزّ وجلّ، وتحيطهم بهالةٍ وضّاءة تتلألأ جمالاً وجلالاً، وعزّة وفخاراً.

(ج) إنّها الوسيلة العظمى، والمنجي الوحيد للحشود الزاخرة من عصاة المؤمنين المستحقّين للعقاب، وتحريرهم وإنقاذهم من العذاب الأبدي.

صفات الشفيع:

من الثابت أنّ نجاح الشفاعة وضمان عطائها، منوط بمنزلة الشفيع، وشرف حضوته وزلفاه لدى المولى عزّ وجلّ، إذ هو الوسيط الّذي يسترحمه ويستشفع إليه بالعفو عن المسيء، والصّفح عن سيّئاته وآثامه، واستبدال تأديبه وعقابه باللّطف والإحسان، والنعيم الخالد.

وتلك طلبة سامية الهدف، بعيدة المنال، لا ينالها إلّا مَن ٱصطفاه الله تعالى وٱرتضاه، وقبل شفاعته وٱسترحامه من الأنبياء والأوصياء، والعلماء الأبرار، ومَنْ حذا حذوهم من صالح المؤمنين.

وهذا ما نوّهت عنه الآية الكريمة:

﴿يَومَئِذٍ لا تَنْفَعُ ٱلشّفاعَةُ إلّا مَنْ أذِنَ لهُ ٱلرّحْمٰنُ ورَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾.

(طٰه / ١٠٩)

وفحوى الآية الكريمة: لا تنفع ذلك اليوم الحقّ شفاعة شافع إلّا مَنْ أذن له (الرّحمٰن) بالشفاعة، وخوّله صلاحيّتها، ورضيَ قوله فيها وأمضاه.

صفات المشفوع لهم:

وهكذا نوّه القرآن الكريم عن سمات المشفوع لهم، والفائزين بالنجاة من العقاب والعذاب، والحائزين على شرف الشفاعة وعزّتها ونعيمها، فقال تعالى:

﴿ولا يَشْفَعُونَ إلّا لِمَنِ ٱرْتضى﴾. (الأنبياء / ٢٨)

وهؤلاء هم المرضيون ديناً واعتقاداً، وإن اقترفوا الذنوب والسيِّئات. لذلك قال النّبيّ ﷺ: «**إذا قمت المقام المحمود، تَشَفّعْتُ في أهل الكبائر من أمّتي فيشفعني الله فيهم**».

وقال ﷺ: «**إنّما شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي، فأمّا المحسنون فما عليهم من سبيل**».

من أجل ذلك لا ينال الشفاعة، ولا ينعم بسلامها وعطائها أرباب الكفر، والشِّرك، والجحود والضّلال، فإنّهم لضلالتهم وسوء اعتقادهم وباطل أديانهم، يبوّأون بالهوان والعذاب.

وقد فصّل الشيخ الصّدوق هذا الواقع على ضوء روايته عن الإمام موسى بن جعفر صلوات الله عليه، الّتي عرضناها في نصوص الشفاعة.

شبهات حول الشّفاعة

ورغم أصالة الشفاعة، ورسوخ واقعها في عالم العقيدة والإيمان، ورغم ثبوتها كتاباً وسنّة وإجماعاً، أثار بعض المتشدِّقين الشبهات حولها،، والشكوك فيها، وحاول تفنيدها بالإعتراضات التالية، الّتي ستكشف زيفها وبطلانها.

الشّبهة الأولى ـ نفي الشفاعة:

زعم المشكِّكون: أن ليس في القرآن الكريم نصّ قطعيّ، ودلالة واضحة على تحقّق الشفاعة، وأنّ من آياته الكريمة ما يُشعر بنفيها وإنكارها.

كقوله تعالى: ﴿**لا بَيْعٌ فيه ولَا خُلَّةٌ ولا شَفاعَة**﴾. (البقرة / ٢٥٤)

وكقوله سبحانه: ﴿**فما تَنْفَعُهُم شَفاعَةُ ٱلشّافِعِين**﴾. (المدّثّر / ٤٨)

وكقوله عزّ وجلّ: ﴿**ما للظّالِمينَ مِن حَمِيمٍ ولا شَفِيعٍ يُطاع**﴾. (غافر / ١٨)

وكقوله تعالى: ﴿**وما للظّالمينَ مِن أنْصار**﴾. (البقرة / ٢٧٠)

وهذه شبهة زائفة، وزعم باطل [ممَّن] لا يفقه دلالة القرآن الكريم ومغزاه الحقّ، وذلك من وجوه:

(أ) إنّه مناقض لصراحة الكتاب والسنّة بالشفاعة، ودلالتها الصارخة عليها، ومناقض كذلك لإجماع المسلمين على ثبوتها.

قال سماحة الحجّة السيِّد محمّدحسين الطباطبائي: «الأخبار الدالّة على وقوع شفاعة النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يوم القيامة من طرق أئمّة أهل البيت، وكذا من طرق أهل السنّة والجماعة بالغة حدّ التواتر، وهي من حيث المجموع إنّما تدلّ على معنى واحد وهو الشفاعة على المذنبين من أهل الإيمان، إمّا بالتخلّص من دخول النار، وإمّا بالإخراج منها بعد الدخول إليها، والمتيقّن منها عدم خلود المذنبين من أهل الإيمان في النار»(١).

وقال النـووي في شرح صحيح مسـلم، قال القاضي عياض: «مذهب أهل السنّة جواز الشفاعة عقلاً، ووجوبها سمعاً بصريح الآيات، وبخبر الصادق عليه السلام، وقد جاءت الآثار الّتي بلغت بمجموعها التواتر بصحّة الشفاعة في الآخرة لمذنبي المؤمنين، وأجمع السلف الصالح ومَنْ بعدهم من أهل السـنّة عليها، ومنعت الخـوارج وبعض المعتزلة منها، وتعلّقوا بمذاهبهم في تخليد المذنبين في النار...»(٢).

وأمّا الآيات الّتي توهّموا من ظواهرها نفي الشفاعة، فليس فيها ما ينفي الشفاعة نفياً مطلقاً، وإنّما تنفي الشفاعة الّتي لا يساندها ولا يُعزِّزها إذن الله تعالى وارتضاؤه. كقوله تعالى: ﴿لا تنفعُ ٱلشّفاعَةُ إلاّ مَنْ أذِنَ لَهُ ٱلرّحمٰنُ ورَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ (طٰه/١٠٩)، وقوله سبحانه: ﴿ولا يَشْفَعُونَ إلاّ لِمَن ٱرْتَضى﴾ (الأنبياء/٢٨)، ونحو ذلك من الآيات الكريمة.

وأمّا الآيات النافية لجدوى الشفاعة ونفعها:

فإنّها لا تنفي جدواها لمذنبي المؤمنين الّذين تضافرت الآثار بنجاتهم وفوزهم بالشّفاعة، وإنّما تنفيه عن الكفّار والمشركين الخالدين في العذاب.

---

(١) تفسير الميزان، ج ١، ص ١٨٣.

(٢) البحار، م ٣، ص ٣٠٧.

وآية ذلك أنّ المصدر المضاف في الآية الكريمة: ﴿**فما تَنْفَعُهُم شَفاعَةُ ٱلشّافِعِين**﴾ (المدّثّر/٤٨)، يُشعر بوقوع الشفاعة وتحقّقها، بخلاف المجرّد من الإضافة، فإنّه لا يُشعر بذلك.

وشتّان بين مضمون هاتين الجملتين: ﴿**لا تَنْفَعُهُم ٱلشّفاعَة**﴾ النافية لجدوى الشفاعة مطلقاً، وبين: ﴿**فَما تَنْفَعُهُم شَفاعَةُ الشّافِعِين**﴾ الدالّة على ثبوتها، وحرمان فئات من عطائها وجدواها.

وأمّا الآيتان الكريمتان: ﴿**ما للظّالِمِينَ مِن أنْصَار**﴾ و ﴿**ما للظّالِمِينَ من حَمِيمٍ ولا شَفِيعٍ يُطاع**﴾. فالمراد من الظالمين فيهما: هم الكفّار والمشركون، حيث أنّ الظّلم هو تعدِّي حدود الله: ﴿**وَمَنْ يَتَعَدّ حُدُودَ ٱللهِ فأولئِكَ هُمُ ٱلظّالِمُون**﴾ (البقرة/ ٢٢٩). ولذلك اعتبر الشِّرك ظلماً عظيماً: ﴿**إنّ ٱلشِّرْكَ لَظِلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ (لقمان/ ١٣).

الشّبهة الثانية:

إنّ وعد العصاة والمذنبين بالشفاعة، وتأميلهم بسلامها وإنقاذها من العذاب، يغريهم ويجرِّئُهم على الإسراف في المعاصي والإنهماك فيها، وهذا مناقض لحكمة الله تعالى، وواجب لطفه على العباد.

وتلك شبهة زائفة من وجوه:

(١) تُزيِّفها الآيات الجمّة الدالّة على سعة رحمة الله عزّ وجلّ، وكره عفوه، وعظيم آلائه وألطافه على المؤمنين يوم الجزاء، فإنّها تملأ النفوس بأمان الغفران والنجاة والسعادة الأخروية أضعاف ما تشيعه وعود الشفاعة وآمالها، ولو كانت بشائرها ووعودها باعثة ـ كما تزعمون ـ على التمادي في الآثام لما نوّهت عنها السماء، وأفاءت بظلالها الوارفة النديّة على المؤمنين.

كقوله تعالى: ﴿إنّ ٱللّهَ لا يَغْفِرُ أن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَن يَشاء﴾.
(النِّساء / ٤٨)

وقوله سبحانه: ﴿قُل يا عِبادِيَ ٱلّذينَ أسْرَفُوا عَلَى أنفُسِهِم لا تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ ٱللهِ، إنّ ٱللّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنوبَ جَمِيعاً، إنّهُ هوَ ٱلغَفُورُ ٱلرّحِيم﴾. (الزّمر / ٥٣)

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وإنّ رَبّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنّاسِ عَلى ظُلْمِهِم﴾. (الرّعد / ٦)

(٢) وطالما أجدت الآمال والوعود في ٱستصلاح العصاة والمنحرفين، الّذين استشعروا الندم، وخافوا أهوال العذاب، فاستحبّوا الطاعة، وأنابوا إلى التوبة، وصدّهم عنها عظم جرائمهم، وفرط قنوطهم من عفو الله تعالى ورضوانه.

والأسلوب الأمثل في ٱستصلاح هؤلاء، وٱستدراجهم إلى الرّشد والصّلاح بإشاعة الرّجاء في نفوسهم، وإشعارهم بأمان الشفاعة وآمالها المرجوّة.

(٣) وليست الشفاعة ضرورة حتميّة لكلِّ جبّار عنيد مستهتر بقيم الدِّين والضمير ومتحلِّل من ضوابط الإيمان ومقوّماته الأصيلة.

إذ الإيمان هو الوسيلة الكُبرى لكسب الشفاعة ونيل شرفها الخالد.

ومن الثابت أنّ اجتراح الذنوب الجسيمة الخطيرة، والإصرار على انتهاك الحرمات، كثيراً ما يُزعزع الإيمان، ويخمد نوره وإلهامه، ممّا يفضي بأولئك المتحلِّلين إلى الشقاء والحرمان من الشفاعة إلى أمدٍ قريب أو بعيد.

﴿ثُمّ كانَ عاقِبَةَ ٱلّذِينَ أساؤوا ٱلسّوأى أن كَذّبُوا بآياتِ ٱللهِ وكانُوا بِها يَسْتَهْزِؤون﴾. (الرّوم / ١٠)

وقد ورد في سياق حديث لأمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال:

«فاعملوا وأطيعوا ولا تتّكلوا ولا تستصغروا عقوبة الله عزّ وجلّ، فإنّ من المسرفين مَنْ لا تلحقه شفاعتنا إلّا بعد عذاب ثلاثمائة ألف سنة»[1].

الشّبهة الثالثة:

الشفاعة للعُصاة الّذين توعّدهم الله بالعقاب إمّا أن تكون عدلاً أو جوراً.

فإن كانت عدلاً: كان الحكم بعقابهم ظلماً، والمولى سبحانه منزّه عنه.

وإن كانت جوراً: كان استشفاع الأنبياء مناشدة بالجور، وهي بحكم عصمتهم معصومون عنها.

وجوابها: أن لا تلازم بين عدل الشفاعة، وبين كون الحكم بالعقاب ظلماً، ذلك لأنّ الشفاعة ليست مناقضة للحكم بالعقاب، أو متحدّية له، وإنّما هي: استرحام المولى واستعطافه بكرم عفوه عن مستحقِّي العقاب، وشموله برحمته الواسعة، وعطفه السامي، وإحسانه الجميل.

فمؤاخذة العصاة وعقابهم من مظاهر العدل الإلهي الّذي يأبى مساواة العصاة بالمطيعين: ﴿**أَفَمَن كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُون**﴾ (السّجدة/ ١٨)، والعفو عنهم، وإسداء المعروف إليهم من خصائص ألوهيّته الرحيمة المِعطاء وآلائه الشاملة لجميع العباد.

﴿**نَبِّئْ عبادي أنِّي أنا ٱلغَفُورُ ٱلرّحيم**﴾. (الحجر/ ٤٩)

---

(١) البحار، ج ٣، ص ١٣٤، عن معاني الأخبار للشيخ الصّدوق رحمه الله.

الحـوض

في موقف الحشر الرّهيب، حيث تحتشد الخلائق وتموج الحشود البشرية ذاهلة مرتاعة من أهواله وأخطاره، وقد أذواها العطش، وفدحها الظّمأ، فلا تجد إلى الريّ سبيلاً في ذلك اليوم العصيب، والفترة المصيرية الحاسمة، أعدّ الله عزّ وجلّ لسيِّد رسله وخاتم أنبيائه حوضاً كبيراً مترعاً بأحلى وأعذب المشارب، لإرواء أمّته وسقيهم من معينه الرائق، فيولّي الرسول صلى الله عليه وآله وسلم آنذاك سقاية الحوض والقوامة عليه وصيّه عليّاً عليه السلام تكرمة له وإعزازاً لشأنه الرفيع.

قال الصدوق رحمه الله في العقائد:

«إعتقادنا في الحوض أنّه حقّ، وأنّ عرضه ما بين أيلة وصنعاء، وهو حوض النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وأنّ فيه من الأباريق عدد نجوم السماء، وأنّ الوالي عليه يوم القيامة أمير المؤمنين يسقي منه أوليائه، ويذود عنه أعداءَه، مَنْ شربَ منه شربةً لم يظمأ بعدها أبداً».

وعن عليّ بن موسى الرّضا، عن آبائه عليهم السلام، عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**مَنْ لم يؤمن بحوضي فلا أورده الله حوضي ...**»[1].

وأخرج أخطب خوارزم في المناقب، ص ٢٤٤، عن أبي هريرة وجابر، قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**عليّ بن أبي طالب صاحب حوضي يوم القيامة، فيه أكواب**

(١) البحار، م٣، ص ٢٩٤، عن عيون أخبار الرّضا عليه السلام وأمالي الصّدوق.

عدد نجوم السماء، وسعة حوضي ما بين الجايتة إلى صنعاء»[1].

وروى ابن قولويه في الكامل، بإسناد معتبر، عن مسمع كردين، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «إنّ الموجع قلبه لنا ليفرح يوم يرانا عند موته لا تزال تلك الفرحة في قلبه حتّى يرد علينا الحوض، وإنّ الكوثر ليفرح بمحبّنا إذا ورد عليه، حتّى أنّه ليذيقه من ضروب الطّعام ما لا يشتهي أن يصدر عنه. يا مسمع! مَنْ شربَ منه شربةً لم يظمأ بعدها أبداً، ولم يشق بعدها أبداً، وهو في برد الكافور وريح المسك وطعم الزنجبيل، أحلى من العسل، وألين من الزّبد، وأصفى من الدّمع، وأزكى من العنبر، يخرج من تسنيم، ويمرّ بأنهار الجنّة على رضراض الدرّ والياقوت، فيه من القدحان أكثر من عدد نجوم السماء، توجد ريحه من مسيرة ألف عام قدحان من الذّهب والفضّة وألوان الجواهر، يموج في وجه الشارب منه كلّ فائحة، حتّى يقول الشارب منه: ليتني تركتُ هاهنا لا أبغي به بدلاً ولا عنه تحويلاً...»[2].

---

(١) كنوز الحقائق، للمناوي، ص ٨، والزّرندي في درر السمطين، ص ١٢٩، والمتّقي الهندي في كنز العمّال، ج ٦، ص ٣٩٣.

(٢) حقّ اليقين، ج ٢، ص ١٣٣.

الجنّــة

وهي لغة: البستان ذو النخل والأشجار المتشابكة الأغصان، الوارفة الظّلال.

واصطلاحاً: هي دار النعيم الخالد، والسعادة الأبدية الحافلة بجميع اللّذائذ والمشتهيات المادِّية والروحية، الّتي أعدّها الله عزّ وجلّ للمؤمنين الأخيار.

والجنّة أعظم معطيات المعاد، وأحبّها إلى النفس لما تزخر به من ضروب المباهج والمتع الّتي يعجز البشر عن تصوير واقعها، وتقييم جمالها وجلالها، وتحديد لذائذها ومسرّاتها.

وقد ٱستطاع القرآن الكريم ـ بمنطقه السماوي وبلاغته الفذّة ـ أن يُصوِّر الجنّة تصويراً فنِّيّاً رائعاً، ويعرض نعيمها وأشواقها عرضاً ساحراً أخّاذاً، يبهر العقل ويملأ النفس ويحفِّزها على التطلّع والتشوّق إلى حياتها السعيدة ويومها الموعود.

فصّل القرآن الكريم خصائص الجنّة، ومعارض جمالها، وألوان نعيمها وحياة سكّانها، ومشاعر الغبطة والسلام فيها تفصيلاً لا نظير له في الكتب السماوية الأخرى.

وتلتهُ أحاديث أهل البيت عليهم السلام فشرحت مغزاه، وقرّرت مفاهيمه، وعكست صور الجنّة ومفاتنها في أطر بلاغية مشرقة تشعّ روعة وإبداعاً.

والجدير بالذكر أنّه لا يستطيع العقل البشري تمثّل واقع الجنّة، وتصوّر نعيمها الخالد، ومباهجها الفاتنة، ولذائذها الممتعة، تلك الّتي لم تشهد البشرية مثلها جمالاً وجلالاً وبهجة وإمتاعاً.

لذلك كان على الباحث أن يجلوها ويقرّبها إلى الأذهان بالمقارنة والتنظير بين عالمنا الأرضي المحدود وبين عالم السماء وأبعاده اللّانهائية الغير محدودة.

إنّ نسبة الحياة الدنيا من الآخرة كنسبة عالم الجنين وحيّزه الضيّق من رحابة الدنيا ومداها الواسع الفسيح الّذي يفوق الأوّل سعةً وجمالاً وعطاءً أضعافاً مضاعفة، فكما يقصر الجـنين وهو في سذاجة فكره، وضيق أفقه عن تصوّر عالم الدنيا وسعة آفاقه، وروعة مناظره، وضروب مباهجه، ولذائذ متعه، كذلك يقصر الإنسان وهو في نطاق حياته الأرضيـة ومجالها المحـدود أن يتصوّر أبعاد الجـنان، وألوان نعيمها، وضروب مسرّاتها، وما أعدّ الله تعالى فيها ممّا تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين.

لذلك كان على المسلم أن لا يستنكر أو يستبعد ما يقصر عن هظمه وإدراكه من روائع الجنان، وخصائصها الباهرة، ومعطياتها الفذّة، الواردة في القرآن الكريم أو الأحاديث والروايات المتواترة.

وعلى ضوء هذه الفكرة الواعية، نستعرض في هذا الفصل طرفاً من صـفات الجنّة ونعيمها ومسرّاتها، وخصائص سكّانها أو المنعمـين فيها، ومباهجهم الروحية والمادِّية.

(١) أبعاد الجنّـة:

وهي: أبعاد شاسعة الآماد، واسعة الآفاق، لايستطيع العقل البشري تحديدها، كما صوّرها القرآن الكريم:

﴿سارِعُوا إلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّـةٍ عَرْضُها ٱلسّـمٰواتُ وٱلأرْضُ أُعِدّتْ لِلْمُتّقِينَ﴾. (آل عمران/ ١٣٣)

وهنا يأمر القـرآن الكريم بالمسـارعة والمبادرة إلى أعمال الطاعات، أو أداء

الفرائض ليغنم المطيعون غفران الله تعالى ورضوانه، وينالوا شرف عطائه وتكريمه بما أعدّ لهم في الحياة الآخرة من نعيم خالد وجنّة واسعة الأبعاد، شاسعة الأرجاء، عرضها السّماوات السّبع والأرضين السّبع، مضمومة بعضها إلى بعض. وذكر عرضها يُشعر بأنّ طولها أوسع وأعظم. والمراد من وصفها بتلك السعة الخارقة: هو تشبيه أبعادها بأوسع وأعظم ما عرفته البشرية من مقاييس البُعْد، وأنّها في غاية السّعة، ونهاية الفسحة، الّتي لا يحدّها الوهم البشري.

وفي هذه الآية الكريمة دليلان:

(أ) إنّ الجنّة مخلوقة فعلاً لتصريح الآية بذلك: ﴿**أُعِدّت للمُتّقين**﴾.

(ب) إنّ الجنّة خارجة عن نطاق السّماوات والأرضين، حيث لا يتّسع ولا يستوعب أبعاد الجنّة المساوية لنطاقها.

ونستطيع أن نتفهّم أبعاد الجنّة، ويُسرها وبساطتها إزاء أبعاد الفضاء وسعته اللّانهائية: فقد ذكر علماء الفلك أنّ قرص الشمس أضخم حجماً ومساحةً من الأرض بـ (مليون وربع المليون مرّة)، وأنّ في السماء شموساً جمّة أضخم من شمسنا، وأقوى منها حرارةً وضوءاً، بيدَ أنّها تبدو نقطاً نورانية لبُعدها الشاسع، فالسماك الرامح مثلاً هو أكبر حجماً من الشمس بـ (ثمانين مرّة)، وكوكب الجوزاء أعظم حجماً من الشمس بـ (سبعة وعشرين مليون ضعف)، وقلب العقرب أضخم من الشمس بـ (تسعين مليون ضعف).

وقال أحد علماء الفلك: إنّ المجرّة قد تشتمل على (مائة بليون) من النجوم بعضها أصغر بكثير من شمسنا، وبعضها أكبر منها أضعافاً مضاعفة، وهي (المجرّة) من الضخامة والسّعة بحيث يقضي شعاع الضوء الّذي ينتقل بسرعة (١٨٦) ألف ميل في الثانية، مائة ألف سنة ضوئية في مسيره من أحد طرفيها إلى الآخر.

ومن وراء المجرّة وعلى بُعد أعظم ممّا يستطيع العقل البشري أن يتصوّره مجرّات أخرى بعضها بعيد عن الآخر أعظم البُعد، وقد أصبح معروفاً على وجه التحقيق وجود مائة ألف أو أكثر من هذه المجرّات.

وبعد أن عرفنا سعة الفضاء ومداره اللّانهائي، نستطيع أن نتفهّم سعة الجنّة ويُسر إيجادها على الله عزّ وجلّ.

(٢) جوّ الجنّة:

وهو: جوّ منعش بهيج، معتدل النور والمناخ، لا يخالطه ظلام ليل، ولا وهج نور، ولا يكدِّره حرّ قائظ أو برد قارس، كإشراقة الفجر الوضّاء، ونسمة السّحر المنعشة، كما وصفه القرآن الكريم:

﴿وَجَزاهُم بما صَبَرُوا جَنّةً وَحَريراً * مُتّكِئِينَ عَلى ٱلأرائِكِ لا يَرَوْنَ فيها شَمْساً ولا زَمْهَرِيراً﴾. (الدّهر / ١٢ ـ ١٣)

لا يرون فيها شمساً يزعج حرّها، ولا زمهريراً يؤلم برده، وإنّما هو جوّ ضاحك ممتع نظير ما بين الطّلوعين.

(٣) حياة أهل الجنّة:

وحيث كانت الجنّة دار السلام، ودار الخلود، والمقام الأمين على حدِّ وصف القرآن الكريم، كان العيش في ظلالها هانئاً ممتعاً بأسمى وأكمل مفاهيم الأفراح والمسرّات والرّغد والرّفاه، وكانت آمنة مطمئنّة من القلق والمخاوف، لا يُكدِّرها حزن، ولا ينغِّصها حرمان، ولا ينتابها سقم، ولا يعروها هرم، ولا يمسّها نصب، ولا يداهمها موت، وإنّما هي سعادة أبديّة ونعيم خالد.

أنظر كيف يصوِّر القرآن الكريم حياة أهل الجنّة، ومباهجهم النفسية والقلبية:

﴿وقالُوا ٱلحَمْدُ للهِ ٱلّذي أذْهَبَ عَنّا ٱلحَزَنَ إنّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * ٱلّذِي أحَلّنا دارَ ٱلمُقامَةِ مِن فَضْلِهِ لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ ولا يَمَسُّنا فِيها لُغُوب﴾. (فاطر/ ٣٤ ـ ٣٥)

صوّرت هذه الآية الكريمة أفراح أهل الجنّة، واغتباطهم بعطائها الزّاخر، ونعيمها الخالد، وشكرهم وامتنانهم البالغين لله عزّ وجلّ: ﴿الحَمْدُ للهِ ٱلّذِي أذْهَبَ عَنّا ٱلحَزَنَ﴾ والخوف والوجل من عناء الدّنيا، وعذاب الآخرة، وأنجانا من ذلك بعفوه ولطفه: ﴿إنّ رَبّنا لَغَفُور﴾ لذنوب عباده، ﴿شَكُور﴾ للمطيعين.

وهو ﴿ٱلّذي أحَلّنا دارَ ٱلمُقامَة﴾ وبوّأنا الجنّة الخالدة، نتفيّأ ظلالها الوارفة النديّة ونعيش نعيمها ومباهجها، آمنين من جميع المتاعب والمشاق.

وهكذا ركّز القرآن الكريم على وصف حياة أهل الجنّة، وتصوير مباهجهم المادِّية والروحية، فقال: ﴿إنّ ٱلمُتّقِينَ في جَنّاتٍ وعُيُون * ٱدخُلوها بِسَلامٍ آمِنِين﴾ (الحجر/ ٤٥ ـ ٤٦).

﴿إنّ ٱلمُتّقِينَ﴾ وهم الّذين روّضوا أنفسهم على طاعة الله تعالى، وفطموها على طاعة الله تعالى، وفطموها عن معاصيه، ﴿في جَنّاتٍ﴾ وبساتين وارفة الظِّلال، ﴿وعُيُون﴾ مختلفة الينابيع والأذواق من ماء ولبن وعسل وخمر. ﴿ٱدْخُلُوها بِسَلامٍ﴾ ادخلوا الجنّة وأنتم سالمون آمنون من جميع المكاره والمنغِّصات، لا تخشون مبارحتها، ولا نفاذ خيرها ونعيمها.

وقال تعالى: ﴿أولئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلغُرْفَةَ بِما صَبَرُوا ويُلَقَّوْنَ فيها تحيّةً وسَلاماً * خالِدِينَ فِيها حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً ومُقاماً﴾. (الفرقان/ ٧٥ ـ ٧٦)

﴿أولئِكَ﴾ أي أولئك المتّصفون بالخِلال المُثلى، والسّجايا الحميدة، والأخلاق

الرفيعة، ﴿يُجْزَوْنَ ٱلغُرْفَةَ﴾ يُثابون بالدرجات العالية والمنازل الفخمة الرفيعة، ﴿بِما صَبَرُوا﴾ بصبرهم على طاعة الله تعالى، واجتنابهم سخطه وعصيانه، ﴿ويُلَقَّوْنَ فِيها تحيّةً وسَلاماً﴾ تبادرهم الملائكة بالتحيّة والسلام، والتكريم والتبجيل، ﴿خالِدِينَ فِيها﴾ مُقيمين فيها إقامة سرمديّة خالدة، ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً ومُقاماً﴾ حسنت تلك المنازل جمالاً وجلالاً، وطابت منزلاً وقراراً.

(٤) أخلاق أهل الجنّة:

وهي: أخلاق مثالية، تجسِّد أروع مثل الأخلاق والآداب، وتعكس أجلّ مفاهيم الطِّيبة والنُّبل، اللّائقة بجلالة أشخاصهم، وسموّ أقدارهم، فلا تنتابهم النّزوات الطائشة والسّجايا الذميمة الّتي تنتاب البشر في هذه الحياة.

فهم مبرّأون من الحسد والبغضاء والعداء وسائر الخِلال المقيتة، وكلّهم يحيون حياة ملائكية النوازع والطِّباع، لا يحسدون مَنْ فوقهم، ولا يتعالون على مَنْ دونهم كما صوّرها القرآن الكريم:

﴿وَنَزَعْنا ما في صُدُورِهِم مِن غِلٍّ إخْواناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقابِلِين﴾. (الحجر/٤٧)

وقد عكست هذه الآية الطّهر والصّفاء، والحبّ والإخلاص، والوفاق والإنسجام الّذي يزدان به أهل الجنّة، ويتحلّون بأمثل وأصدق مفاهيم الأخوّة المتوادّة والمتعاطفة.

فمن مظاهر وفاقهم ونعيمهم: أنّهم يجلسون على سُرر متقابلين، ويستمتعون بأطيب الأحاديث والأسمار، لا تخالجهم نوازع الأثرة والتنافس، ولا تكدِّر حياتهم عوامل النّكد والتنغيص.

وقال تعالى: ﴿لا يَسْمَعُونَ فيها لَغْواً ولا تأثيماً إلّا قِيلاً سَلاماً سَلاماً﴾.

(الواقعة/ ٢٥)

ومن محاسن أخلاق أهل الجنّة، ورفعة آدابهم، وطهارة نفوسهم: أنّ أحاديثهم مبرّأة من الهراء والبذاء واللّغو، فلا يُسمع منهم إلّا الكلام الطيِّب، والقول الحسن، والتحيّة الطّيِّبة، والسّلام العاطر: ﴿إلّا قِيلاً سَلاماً سَلاماً﴾.

وقال تعالى: ﴿وَهُدُوا إلى ٱلطَّيِّبِ مِنَ القَوْلِ وهُدُوا إلى صِراطِ ٱلحَمِيد﴾.

(الحجّ / ٢٤)

جاءت هذه الآية الكريمة مؤكِّدة محتوى سابقتها ومصوِّرة إيّاها في إطار بلاغي رائع، وعرضت سكّان الجنّة قمماً شامخة، ورموزاً وضّاءة في الطِّيبة والأريحيّة، وسموّ الأخلاق والآداب.

(٥) مساكن أهل الجنّة:

وهي نماذج فذّة وأنماط فريدة من المساكن والقصور الّتي يقصر العقل عن تصوّر صور جمالها وجلالها، وروعة تصميمها، وبداعة زخرفها، ونفائس أثاثها ورياشها، ومباهج روحها وشذاها.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللهُ ٱلمُؤْمِنِينَ وٱلمُؤْمِناتِ جَنّاتٍ تَجْري مِن تَحْتِها ٱلأنهارُ خالِدِينَ فِيها ومَساكِنَ طَيِّبَةً في جَنّاتِ عَدْنٍ﴾. (التّوبة / ٧٢)

فأهل الجنّة يعيشون في جنّات، وهي: البساتين الكثيفة الأشجار، الوارفة الظِّلال، الّتي يزيِّنها ويضاعف جمالها وبهجتها انسياب الأنهار وجريانها من تحت أشجارها، ويسكنون المساكن الطِّيِّبة الّتي يطيب العيش في رحابها لاشتمالها على جميع وسائل الراحة والمتعة والسرور وروائع الآثاث والرِّياش وبدائع الزِّينة والجمال.

وتلك المساكن في (جنّات عدن) وهي أعلى مستويات الجنّة، أو هي: دار الخلود الّتي لا يُبارحها سكّانها، بالخروج منها، أو الموت فيها.

وقال تعالى: ﴿**في جَنَّةٍ عالِيةٍ * لا تَسْمَعُ فيها لاغِيَةً * فيها عَيْنٌ جارِيَةٌ * فِيها سُرُرٌ مَرْفُوعةٌ * وأكْوابٌ مَوضُوعَةٌ * ونَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرابِيُّ مَبْثُوثَةٌ**﴾.

(الغاشية / ١٠ ـ ١٦)

﴿**في جَنَّةٍ عالِيةٍ**﴾ مرتفعة القصور والدّرجات أو عالية شرفاً ومكانة، ﴿**لا تَسْمَع فيها لاغِيةً**﴾ كلمة ساقطة لا فائدة فيها، ﴿**فيها**﴾ في تلك الجنّة، ﴿**عَيْنٌ جاريةٌ**﴾ قيل لكلِّ إنسان في قصره من الجنّة عين جارية من كلِّ شراب يشتهيه، وفي العيون الجارية من الحُسْن واللّذّة ما لا يكون في الواقفة، وقيل أنّ عيون أهل الجنّة تجري في غير أخدود، وتجري كما يريد صاحبها، ﴿**فيها**﴾ في تلك الجنّة ﴿**سُرُرٌ مَرْفُوعةٌ**﴾، قال ابن عبّاس: ألواحها من ذهب مكلّلة بالزّبرجد والدّرّ والياقوت، مرتفعة ما لم يجيء أهلها، فإذا أراد أن يجلس عليها تواضعت له حتّى يجلس عليها ثمّ ترتفع إلى موضعها ليرى المؤمنون بجلوسهم عليها جميع ما حولهم من المُلك، ﴿**وأكْوابٌ مَوضُوعَةٌ**﴾ على حافات العيون الجارية، كلّما أراد المؤمن شربها وجدها مملوءة وقيل هي أواني الشرب من الذّهب والفضّة والجواهر، يشربون بها ما يشتهونه من الأشربة، ويتمتّعون بالنظر إليها لحُسنها، ﴿**ونَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ**﴾ وسائد يتّصل بعضها ببعض على هيئة مجالس الملوك في الدّنيا، ﴿**وَزَرابِيُّ مَبْثُوثَةٌ**﴾ وهي البُسُط الفاخرة، والطّنافس المخملة والمبثوثة المبسوطة.[١]

وعن الصادق، عن آبائه، عن عليّ عليهم السلام، قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنّ في الجنّة غرفاً يُرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، يسكنها من أمّتي مَنْ أطاب الكلام، وأطعم الطّعام، وأفشى السّلام،**

---

(١) الطّبرسي.

وصلّى باللّيل والناس نيام»[1].

وعن أبي بصير، قال: قلتُ لأبي عبدالله عليه السلام: جُعِلتُ فداك يا ابن رسول الله شوِّقني. فقال:

«يا أبا محمّد! إنّ الجنّة توجد ريحها من مسيرة ألف عام. وإنّ أدنى أهل الجنّة منزلة لو نزل به الثّقلان والجنّ والإنس لوسعهم طعاماً وشراباً، ولا ينقص ممّا عنده من شيء.

وإنّ أيسر أهل الجنّة منزلة مَنْ يدخل الجنّة فتُرفع له ثلاث حدائق، فإذا دخل أدناهنّ رأى فيها من الأزواج والخدم والأنهار والثِّمار ما شاء الله، فإذا شكر الله وحمده قيل له: ارفع رأسك إلى الحديقة الثانية ففيها ما ليس في الأولى، فيقول: يا ربِّ اعطني هذه، فيقول لعلِّي إن أعطيتكها سألتني غيرها.

فيقول ربِّي: هذه. فإذا هو دخلها، وعظمت مسرّته، شكر الله وحمده.

قال: فيُقال: افتحوا له باب الجنّة، ويُقال له: ارفع رأسك، فإذا قد فُتح له باب من الخُلد، ويرى أضعاف ما كان فيما قبل، فيقول عند تضاعف مسرّاته: ربِّي لك الحمد الّذي لا يُحصىٰ إذ مننتَ عليَّ بالجنان وأنجيتني من النِّيران ...»[2].

(٦) نساء أهل الجنّة:

وهنّ المثل الأعلى للطُّهْر والجمال، والحبّ والإخلاص، وكرم الأخلاق، وشرف الطِّباع، فلا تنتابهنّ العوائد النسائية الّتي تنتاب النساء، ولا تستفزّهنّ مشاعر التنافس

---

(١) البحار، م ٣، ص ٣٢٥، عن أمالي الشيخ الصّدوق.

(٢) حقّ اليقين، ج ٢، ص ١٥٦، للسيِّد عبدالله شبّر.

والغيرة والحسد، ولا يُكدِّرْنَ صفاء أزواجهنّ بالنّكد والتنغيص.

قال تعالى: ﴿**فِيهِنَّ خَيراتٌ حِسَانٌ ... حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي ٱلخِيام ... لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُم ولا جان**﴾. (الرّحمٰن / ٧٠ ـ ٧٤)

ففي الجنان: نساء خيِّرات الأخلاق، حسان الوجوه، وهنّ حور العيون، والحور من صفات الجمال في العين، بأن تكون واسعة شديدة بياض العين مع شدّة سواد وسطها، وهؤلاء الخيِّرات ﴿**مَقْصُورَاتٌ فِي الخِيام**﴾ مصونات ومخدّرات غير مبتذلات، ﴿**لَمْ يَطْمِثْهُنّ**﴾ لم يمسسهنّ ولم يغشَهُنّ أحد من الجنّ والإنس ما جعلهنّ أبكاراً.

وقال تعالى: ﴿**وحُورٌ عِينٌ * كأمثالِ ٱللّؤْلُؤِ ٱلمَكْنُونِ**﴾. (الواقعة / ٢٢ ـ ٢٣)

وهكذا وصف القرآن نساء أهل الجنّة: بأنّهنّ مشرقات الوجوه، كاللآلئ صفاءً ونضارةً وبهاءً.

وقال تعالى: ﴿**ولَهُمْ فيها أَزْواجٌ مُطهّرةٌ وهُم فيها خالِدُون**﴾. (البقرة / ٢٥)

ووصفهنّ القرآن الكريم كذلك بأنّهنّ مطهّرات ومبرّءات من جميع المساوئ والمعائب الجسمية؛ كالحيض والإستحاضة والبول والتغوّط وسائر الأقذار.

ومطهّرات من المعائب النفسيّة والأخلاقية؛ من الكيد والحسد والتنافس الّتي تتّسم به نساء أهل الدّنيا.

قال الصادق عليه السلام: «**إنّ أهل الجنّة ما يتلذّذون بشيءٍ في الجنّة أشهى عندهم من النِّكاح، لا طعام ولا شراب**»[1].

---

(١) البحار، م٣، ص ٣٣١، عن العيّاشي.

(٧) لباس أهل الجنّة:

وهو أفخم الملابس، وأجمل الحلل، وأرفعها أناقة وذوقاً، من سندس وحرير واستبرق، تضفي على مرتديها روائع الجمال والبهاء، وسمات المهابة والوقار.

قال تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيها مِن أساوِرَ مِن ذَهَبٍ ويَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً مِن سُنْدُسٍ وإسْتَبْرَقٍ﴾. (الكهف / ٣١)

يُحلى أهل الجنّة أساور من ذهب تجمّلاً وتزيّنا بها، وجاء في آية أخرى أنّ تلك الأساور من فضّة، وأخرى من ذهبٍ ولؤلؤ، وهذا ما يُشعِر بأنّهم يحلّون بالأساور الثلاث: الفضّة والذّهب واللّؤلؤ في وقتٍ واحد، أو يلبسونها على سبيل التعاقب.

﴿ويَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً مِن سُنْدُسٍ وإسْتَبْرَقٍ﴾: يلبسون من الحرير الرقيق والغليظ المنسوج من أسلاك الذّهب، واختير اللّون الأخضر لاستمتاع الأبصار برؤيته، ومن هنا جعل الله ألوان الأشجار والنّباتات خضراء تُبهج الناظرين، وقد قيل ثلاثة يجلين الحزن: الماء والخضراء والوجه الحَسِن.

وقال تعالى: ﴿عالِيَهُم ثِيابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وإسْتَبْرَقٌ وحُلُّوا أساوِرَ مِن فِضّةٍ﴾. (الدّهر / ٢١)

أي تعلو أهل الجنّة الملابس الفخمة الجميلة من الديباج الثمين والخفيف، ويحلّون بأساور من فضّة شفّافة في غاية الحُسن تفوق الدُّرِّ والياقوت والذّهب روعةً وجمالاً.

(٨) طعام أهل الجنّة:

وهو صنوف وألوان جمّة ممّا لذّ وطاب من المآكل النفيسة، والمطاعم اللّذيذة،

والفواكة الشهيّة، والمشارب العذبة، الّتي تملأ النفس مُتعـة وابتهاجاً. وقد لخّص الله نعيم الجنّة وأشواقها ومشتهياتها بقوله الكريم:

﴿يُطافُ عَلَيْهِم بِصَـحافٍ مِن ذَهَبٍ وأكْوابٍ فيها ما تَشْـتَهيهِ الأنفُسُ وتَلَذُّ الأعْيُن﴾. (الزّخرف/ ٧١)

أي ويُطاف على سكّان الجنّة بقصاع من ذهب وأكواب مفعمة بألوان الأطعمة والمآكل والمشارب الّتي تشـتاقها الأنفس، وتقرّ بها الأعـين، وقد بلغت هذه الآية الكريمة قِمّـة الإعـجاز البلاغي حيث أوجزت ملذّات الجنّـة ونعمها بألفـاظ قـليلة ما يعجز الإنس والجنّ عن وصفها وتبيانها بهذا الإيجاز المعبّر.

وقال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِم وِلْدانٌ مُخَلَّـدُونَ * بأكْوابٍ وأبارِيقَ وكأسٍ مِن مَعِـينٍ * لا يُصـدّعُونَ عَنْها ولا يُنْزِفُون * وفا ِكهِةٍمِمّا يَتَخَـيَّرُونَ * ولَحْمِ طَـ ْيرٍممّا يَشْتَهُونَ﴾. (الواقعة/ ١٧ ـ ٢١)

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِم وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ لا يعروهم الهرم والموت، وقيل: مقرّطـون بالأقراط الّذين يسرّ أهل الجنّة مرآهم، ﴿بأكْوابٍ وأبارِيقَ وكأسٍ مِن مَعِين﴾ من خمرٍ صافية نقـيّة، لا يصدع شاربها، ولا تزيل عقله كطبيعة خمـور الدّنيا. ويطوفون عليهم كذلك بألوان الفـواكه الّتي يشتهونها ويختارونها، وبأنواع لحوم الطّير الشهيّة اللّذيذة.

وقال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلجنّةِ ٱلتي وُعِدَ ٱلمُتّقونَ فيها أنهارٌ من ماءٍ غيرِ آسِنٍ وأنهارٌ مِن لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وأنْهارٌ من خَمْرٍ لَذّةٍ للشّارِبينَ وأنهارٌ من عَسَلٍ مُصَفّى ولَهُم فِيها مِن كُلِّ ٱلثّمَراتِ﴾. (محمّد/ ١٥)

﴿من ماءٍ غيرِ آسِنٍ﴾ غير متغيّر لطول المقام، كما تتغيّر مياه الدّنيا. ﴿وأنْهارٌ من لَبَنٍ لم يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ فهو غير حامض ولا قارص، ولا تصيبه العوارض الّتي تصيب

الألبان في الدّنيا. ﴿وأنْهارٌ من خَمْرٍ لَذّةٍ للشّارِبين﴾ لذيذة يتلذّذون بشربها ولا يتأذّون بها بخلاف خمر الدّنيا الّتي لا تخلو من المرارةِ والسُّكْرِ والصّداع. ﴿وأنْهارٌ مِن عَسَلٍ مُصَفّى﴾ خالص من الشّمع والقذى وجميع العيوب الّتي تكون في عسل الدّنيا. ﴿ولَهُم فيها مِن كُلِّ ٱلثّمَرات﴾ ممّا يعرفون إسمها وما لا يعرفون، مبرّأة من كلّ مكروه يعتري ثمار الدّنيا.

والجـدير بالذِّكر: أنّ طعام أهل الجنّـة وشرابهم هما في غاية الرِّقّة واللّطافة والصّفاء والتجرّد من شوائب طعام الدّنيا وشرابها، فيُهضمان بالترشّحات الجسمية، ويستحيلان عرقاً طيِّباً.

من أجل ذلك، كان أهل الجنّة غير محتاجين إلى التبوّل والتغوّط، كما أعرب الإمام الصادق عليه السلام عن ذلك لمَن سأله:

أليسَ أهل الجنّة يأكلون ويشربون، وتزعم أنّه لا تكون لهم الحاجة؟!

فقال عليه السلام: بلى، لأنّ غـذاءهم رقيق لا ثقـلَ فيه، بل يخرج من أجسـادهم بالعرق.[1]

(٩) متع أهل الجنّة النفسيّة:

ويستمتع أصحاب الجنّـة ـ خلا تلك المباهج واللّذائذ المادِّية السالفة ـ بأشهى المتع النفسية والأشـواق الروحية، ليعيشوا نعيماً متكامل اللّذّات والمسرّات، وينعموا بأروع وأكمل مفاهيم السعادة والهناء المادّي والنّفسي.

ولتلك المتع النفسية صور ثلاث هي أشهاها وأحبّها:

---

(١) البحار، م ٣، ص ٣٣٠، عن احتجاج الطّبرسي.

(أ) رضا الله عزّ وجلّ:

وأعظم ما يغتبط به الأولياء في الجنّة، ويعتزّون به اعتزازاً بالغاً، فوزهم بشرف رضوان الله تعالى عنهم، وكرامة زُلفاه.

ذلك الشّرف العظيم، والوسام الفذّ، الّذي أحلّهم دار الكرامة، وبوّأهم قمم السعادة الأبدية، والنعيم الخالد.

قال عليّ بن الحسين عليهما السلام: «إذا صار أهل الجنّة في الجنّة، ودخل وليّ الله إلى جنانه ومساكنه، واتّكأ كلّ مؤمن منهم على أريكته، حفّتهُ خدّامه، وتهدّلت عليه الثمار، وتفجّرت حوله العيون، وجرت من تحته الأنهار، وبُسطت الزرابي، وصُفِّفت له النمارق، وأتتهُ الخدّام بما شاءت شهوته من قبل أن يسألهم ذلك.

قال: ويخرج عليهم الحور العين من الجنان، فيمكثون بذلك ما شاء الله. ثمّ إنّ الجبّار يُشرف عليهم فيقول لهم: أوليائي وأهل طاعتي، وسكّان جنّتي في جواري، ألا هل أنبِّئكم بخيرٍ ممّا أنتم فيه؟

فيقولون: ربّنا وأيّ شيءٍ خيرٌ ممّا نحنُ فيه؟ نحنُ فيما اشتهت أنفسنا، ولذّت أعيننا من النِّعم في جوار الكريم.

قال: فيعود عليهم بالقول. فيقولون: ربّنا نعم، فأتنا بخيرٍ ممّا نحنُ فيه.

فيقول لهم تبارك وتعالى: رضاي عنكم ومحبّتي لكم خير وأعظم ممّا أنتم فيه.

قال: فيقولون: نعم يا ربّنا رضاك عنّا، ومحبّتك لنا خير لنا وأطيب لأنفسنا.

ثمّ قرأ عليّ بن الحسين عليه السلام هذه الآية:

﴿وَعَدَ ٱللهُ ٱلمُؤْمِنِينَ وَٱلمُؤْمِناتِ جَنّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِها الأنهارُ خالِدِينَ فيها ومَساكِنَ طَيِّبَةً في جَنّاتِ عَدْنٍ ورِضْوانٌ مِنَ ٱللهِ أكْبَرُ ذلِكَ ٱلفَوْزُ ٱلعَظِيم﴾.[1]

---

(١) البحار، م٣، ص ٣٣١، عن تفسير العيّاشي للآية ٧٢ من سورة التوبة.

(ب) لقاءات الأحباب في الجنّة:

ومن مباهج الجنّـة ومتعها ومسرّاتها، أنّها مُلتـقى الأهل والأقرباء، ومجـتمع الأصدقاء والأحـباب، يتلاقون في رحابها الغـنّاء، وقصورها الشـامخة بعد غـياب طويل، وفراق مرير، واشتياق مبرح.

فينعمون بنشوة اللّقاء، ويغتبطون باجتماع الشّمل، ويستمتعون بلذائذ الأحاديث والأسمار، وذلك من أروع طرائف الجنّة ومباهجها الفاتنة.

﴿جَنّاتُ عَـدْنٍ يَدْخُلُونَها ومَنْ صَلَحَ من آبائِهِـم وأزْواجِهِـم وذُرِّيّاتِهِـم * والملائِكَةُ يَدْخُلونَ عَلَيْهِم مِن كُلِّ بابٍ سَلامٌ عَلَيْكُم بما صَبَرْتُم فَنِعْمَ عُقْبى الدّار﴾.

(الرّعد / ٢٣ ـ ٢٤)

والمعنى: أنّه يلحق بأهل الجنّة مَنْ صلح من أهلهم وأزواجهم وذرِّيّاتهم وإن لم يبلغوا مبلغ فضلهم. وذلك تعظيماً لشأن أرباب الجنّة، ومضاعفة لإمتاعهم وإيناسهم والتقيّد بالصّلاح دليل على أنّ وشائج الأنساب العاطلة من الصّلاح لا تجدي نفعاً.

﴿والّذينَ آمَنُـوا واتّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بإيمانٍ ألحَقْـنا بِهِم ذُرِّيَّتَهُمْ وَما ألَتْناهُم مِنْ عَمَلِهِم مِن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ﴾. (الطّور / ٢١)

والمعـنى: أنّا نلحق الأولاد بالآباء في الجنّـة، والدرجة من أجل إيمان الآباء، لتقرّ أعين الآباء باجتماعهم معهم في الجنّة كما كانت تقرّ بهم في الدّنيا.

ورُوي عن عليّ عليه السلام، قال، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنّ المؤمنين وأولادهم في الجنّة، ثمّ قرأ هذه الآية**».

ورُوي عن الصادق عليه السلام، قال: «**أطفال المؤمنين يُهْدَوْنَ إلى آبائِهم في الجنّة**»[1].

---

(١) مجمع البيان، للطّبرسي، م ٩، ص ١٦٦.

هذا إلى ما نوّهت عنه الآية الكريمة الملخِّصة مباهج الجنّة ومتعها النفسية والمادِّية، فقال تعالى: ﴿**فيها ما تَشْتَهِيهِ الأنفُس وتلذُّ الأعْيُن**﴾.

وبديهيّ أنّ من أعذب أماني أهل الجنّة، وأحبّ شهواتهم النفسية والمادِّية، التقاؤهم بأحبابهم وأخدانهم، لتكتمل بهم مباهج النعيم وتتضاعف مسرّاته بمُؤانستهم ومفاكهتهم. فحريّ بلطف الله عزّ وجلّ أن يحقِّق لهم تلك الأمنية الغالية والأمل المرتقب.

وعن عليّ عليه السلام، قال: «**جاء رجل من الأنصار إلى النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: يا رسول الله! ما أستطيع فراقك، وإنِّي لأدخل منزلي فأذكرك فأترك ضيعتي وأقبل حتّى أنظر إليكَ حُبّاً لك. فذكرتُ إذا كان يوم القيامة، وأدخِلْتَ الجنّة، فرُفِعْتَ في أعلى علِّيينَ، فكيفَ لي بكَ يا رسول الله؟! فنزل: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللهَ وٱلرّسُولَ فأولئِكَ مَعَ ٱلّذينَ أنْعَمَ ٱللهُ عَلَيْهِم مِنَ ٱلنّبِيِّينَ وٱلصِّدِّيقِينَ وٱلشُّهَداء وٱلصّالِحِينَ وحَسُنَ أولئِكَ رَفِيقاً﴾. فدعا النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الرّجل، فقرأها عليه وبشرّه بذلك**»[1].

(ج) طرب أهل الجنّة:

ومن لذائذ أهل الجنّة ومُتعهم المفضّلة تلك الأصوات الرخيمة، والنّغمات العذبة الصادحة في ذلك الجوّ الفردوسيّ البهيج، الّتي تملأ النفس نشوة وحبوراً.

فعن أبي الدّرداء، قال: «**كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يذكر الناس، فذكر الجنّة وما فيها من الأزواج والنّعيم، وفي القوم أعرابيّ، فجثا لركبتيه وقال: يا رسول الله! هل في الجنّة من سماع؟**

(١) البحار، م٣، ص ٣٤٥.

قال: نعم يا أعرابيّ، إنّ في الجنّــة لنهراً حافّتاه أبكار من كلٍّ بيضاء، يــتغنّينَ بأصواتٍ لم تسمع الخلائق بمثلها قطّ، فذلك أفضل نعيم أهل الجنّة»[1].

وعن أبي أمامة الباهلي: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «ما من عبدٍ يدخل الجنّة إلّا ويجلس عند رأسه وعند رجليه ثنتان من الحور العين، تغنّيانه بأحسن صوت سمعه الإنس والجنّ ...»[2].

وعن عاصم بن حميد، عن أبي عبدالله عليه السلام، في حديثٍ قال: قلتُ: جُعِلتُ فداك، إنّي أردتُ أن أسألك عن شيءٍ أستحي منه، قلت: في الجنّة غناء؟ قال: «إنّ في الجنّة شجراً يأمر الله رياحها فتهب فتضرب تلك الشجرة بأصواتٍ لم يسمع الخلائق بمثلها حُسْناً. ثمّ قال: هذا عوض لمَن ترك السّماع في الدّنيا من مخافة الله»[3].

(١٠) واقع نعيم الجنّة:

تضاربت وجهات نظر الباحثين في واقع الجزاء الأخروي وطبيعة نعيمه أو عذابه: أهو حيّ مادّي أم معنوي روحي.

فاختار أعلام الإسلام وقادة الفكر العقيدي الوجه الأوّل، واعتبروه من ضرورات الدِّين الّتي لا يسوغ إنكارها، لتعاضد الكتاب والسنّة عليه.

قال الشيخ المفيد رحمه الله:

«وثواب أهل الجنّة الإلتذاذ بالمآكل والمشارب والمناظر والمناكح وما تُدركه حواسّهم ممّا يطبعون على الميل إليه، ويدركون مرادهم بالظّفر به، وليس في الجنّة من

---

(١) البحار، م ٣، ص ٣٤٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) سفينة البحار، م ٢، ص ٣٢٨.

البشر مَنْ يتلذّذ بغير مأكل ومشرب، وما تُدركه الحـواس من الملذّات، وقول مَنْ زعم: أنّ في الجنّة بشراً يلتذّ بالتسبيح والتقديس من دون الأكل والشّرب قولٌ شاذٌّ من دين الإسلام»[1].

واختار الفلاسفة النظريون الوجه الثاني، وحسبوا الثواب والعقاب الأخرويين ضرباً من التصـوّر والتخيّل الفكري، وأنّهما كالرؤى والأحلام البهيجـة السارّة، أو الكئيبة المحزنة، أو من المُتع والمسرّات العقلية والنفسية أو آلامها وكربها.

وهذا رأي مخرف يتناقض وجميع الشرائع السماوية عامّة والإسلام خاصّة، ولا يعضده برهان علمي يُقنِع النفس ويُرضي الوجدان.

وقد نزعت الفلسفة الحديثة ـ رغم مادِّيّتها ـ هذا المنزع التعسّفي الشاذّ، وطفقت بصلف بالغ تُندِّد بالشريعة الإسـلامية على تشويقها بملذّات الجـنان الحسِّية ومتعها المادِّية ممّا تشتهيه الأنفس وتلذّه الأعين، لتعوِّض على حدِّ زعمهم البؤساء والمحرومين من أتباعها عمّا فاتهم في الحياة الدّنيا من تلك اللّذائذ والأشواق!!

وهذا تهريف حاقد مدجل لا يفقه خصائص الإنسان وغرائزه الأصيلة ونوازعه الراسخة فيه والملازمة له في حياته العاجلة أو الآجلة، حيث برهنت الدلائل الشرعية والعقلية على حشر الإنسان وبعثه في المعاد جسداً وروحاً، وإعادته إلى سالف حياته الأولى ومشخّصاته الجسمية والنفسية، كما قرّرته براهين المعاد السالفة.

وبديهي أنّ الإنسان مؤلّف من عنصرين: الجسد والروح. ولكلٍّ منهما أشواقه ومآربه الكفيلة بإسعاده وازدهار حياته، وهنائه الجسمي والنفسي، ومتى فقدَ جانباً من تلك الأشواق المقرونة به، عاشَ بائساً شقيّاً هزيل الجسد أو قلق النفس، معذّب الوجدان.

---

(١) البحار، م ٣، ص ٣٤٨.

وحيث كان الإنسان متّسماً بذلك، وكانت الآخرة دار المكافآت الحقّ، والجزاء العادل الكريم، فلا جرمَ أن يكون نعيمها جسمياً وروحياً، ومباهجها وهناؤها مادِّياً وأدبياً، فإسقاط المسرّات المادِّية في النعيم الأخروي باعث على شقاء الإنسان وحرمانه من أعظم آماله وأمانيه، وافتراضه ملاكاً هائماً في عالم السماء.

وما بال الغربيين ينبزون الإسلام ويتجنّون عليه بتُهمة النوازع الشهوانية والتشويق بمفاهيم النعيم الحسِّي في المعاد، وكان الأجدر بهم أن ينظروا الرغائب الحسِّية والمادِّية الّتي شوّق بها «العهدان القديم والجديد» وجاءت في كتب التراتيل والدعوات:

فقد جاء في الإصحاح الخامس والعشرين من سفر «أشعياء»:

«يضع ربّ الجنود لجميع الشعوب في هذا الجبل وليمة سمائن: وليمة خمر على دردي سمائن ممخة:

دردي مصفّى ويفنى في هذا الجبل وجه النّقاب. النقاب الّذي على كلِّ الشعوب والغطاء المغطّى به على كلِّ الأمم، يبلغ الموت إلى الأبد ويمسح السيِّد الربّ الدموع من كلِّ الوجوه...».

وهكذا رغّب الإنجيل أتباعه بالأشواق المادِّية على لسان السيِّد المسيح عليه السلام:

«إنِّي لستُ شارباً من ابنة هذه الكرمة حتّى أشربها معكم تارةً أخرى في ملكوت السّماوات» (متّى: الإصحاح ٢٦ آية ٢٩).

وقال: «ستأكلون وتشربون على مائدة أبي» (متّى: الإصحاح ٢٢ آية ٣٠).

وقال: «ما أكثر الغرف والمساكن عند أبي» (يوحنّا: الإصحاح ١٤ آية ٢).

وجاء في تراتيل القدِّيس (أفرايم):

«ورأيتُ مساكن الصالحين، رأيتهم تقطر منهم العطور، ويفوح منهم العبير.

تزيِّنهم ضفائر الفاكهة والرّيحان... وكلّ مَنْ عفّ من خمر الدّنيا تعطّشت إليه خمـور الفردوس، وكلّ مَنْ عفّ عن الشّهوات، تلقّتهُ الحِسان في صدر طهور».

(١١) خلق الجنّة والنار:

ذهبَ جمهور المسـلمين إلى أنّ الجنّة والنار مخلـوقتان فعلاً، لصراحة الآيات الكريمة والنصوص الشريفة المتواترة بذلك، كقوله تعالى في الجنّة: ﴿**أُعِدَّت لِلْمُتّقِين**﴾، ﴿**وأُزْلِفَت ٱلجَنّةُ لِلْمُتّـقِين**﴾، ﴿**وَلَقَد رآهُ نَزْلَةً أخْرى * عِنْدَ سِدْرَةِ ٱلْمُنْتَهى * عِنْدَها جَنّةُ المأوى**﴾.

وقال سبحانه في النار: ﴿**أُعِدّتْ لِلكافِرين**﴾، ﴿**وَبُرِّزَتِ ٱلجَحِيم لِلْغاوِين**﴾.

قال الشيخ الصّدوق في العقائد:

«إعتقادنا في الجنّة والنار أنّها مخلوقتان، وأنّ النّبيّ قد دخل الجنّة ورأى النار حين عُرِجَ به. واعتقادنا: أنّه لا يخرج أحد من الدّنيا حتّى يرى مكانه من الجنّة أو من النار، وأنّ المؤمن لا يخرج من الدّنيا حتّى تُرفع له الدّنيا كأحسن ما رآها، ويُرفع مكانه في الآخرة، ثمّ يُخيّر فيختار الآخرة، فحينئذ يُقبض روحه»[(١)].

وارتأت شرذمة من المعتزلة: أنّ الجنّة والنار سوف تُخلقان في الآخرة، وهو رأي مناقض للكتاب والسنّة وجمهرة المسلمين.

روى الصّدوق في الأمالي والتوحيد، عن الهروي، قال: «قلتُ للرِّضا عليه السلام: يا ابن رسول الله! أخبرني عن الجنّـة والنار، أهما اليوم مخلوقتان؟ فقال: نعم، وأنّ رسول الله قد دخل الجنّة ورأى النار لمّا عُرِجَ به إلى السماء. قال: فقلت له: فإنّ قوماً

(١) حقّ اليقين، ج ٢، ص ١٤٨.

يقولون إنّهما اليوم مقدّرتان غير مخلوقتين. فقال عليه السلام: ما أولئك منّا ولا نحنُ منهم، مَنْ أنكرَ خلق الجنّة والنار فقد كذّبَ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وكذّبنا، وليس مِنْ ولايتنا على شيء، وخلد في نار جهنّم...»[1].

---

(١) المصدر السابق.

النّـــار

وصف القـرآن الكريم نار جهنّم، وعذابها وآلامها، ووسائل التعـذيب فيها، وحالات المعذّبين بلظاها، مثّلها تمثيلاً بليغاً رهيباً، يستفزّ النفوس المؤمنة، ويستثير كوامن الفزع والهلع فيها.

وإليك نماذج لامحة من ذلك الوصف:

قال تعالى: ﴿وأعْتَـدْنا لِمَن كَذّبَ بالسّاعةِ سَعيراً * إذا رأتْهُم مِن مكانٍ بَعيدٍ سَمِعُوا لها تَغَيُّظاً وزفيراً * وإذا أُلقُوا مِنْها مكاناً ضيِّقاً مُقَرَّنين دَعَوا هُنالِكَ ثُبُوراً * لا تَدْعُوا ٱليَوْمَ ثُبُوراً واحِداً وٱدْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً﴾. (الفرقان/ ١١ ـ ١٤)

نحـنُ هنا أمام مشهد من هذه المشـاهد الّتي تستجيش الخـيال. مشهد النار المستعرة وقد دبّت فيها الحياة، فإذا هي تنظر فترى أولئك المكذِّبين بالساعة: ﴿إذا رأتْهُم مِن مكانٍ بَعيدٍ سَمِعُوا لها تَغَيُّظاً وزفيراً﴾ فهي تتحرّق عليهم، وتصعد الزفرات غيظاً منهم، وأنّها لفي انتظارهم، وهم إليها في الطريق.

مشهد رهيب، ومنظر عجيب، ولحظات انتظار يا لها من لحظات!!

﴿وإذا أُلقُوا مِنْها مكاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنين دَعَوا هُنالِكَ ثُبُـوراً﴾ لقد وصلوا إلى هذه النار الفظيعة المتحرِّقة من النِّقمة، المتهيِّئة للإنقضاض، وصلوا إليها، وألقوا فيها مقرنين قد قُرنت أيديهم إلى أرجلهم في السلاسـل، وألقـوا في مكانٍ ضيِّق يزيدهم ضيقه كرباً، فراحوا يدعون الهلاك لينقذهم من هذا البلاء، فالهلاك هو المنقذ الوحيد

من هذا الكرب الّذي لا يُطاق.

ثمّها هم أولاء يسمعون ردّ الدعاء. يسمعونه تهكّماً ساخراً مريراً ميئساً من الهلاك: ﴿لا تَدْعُوا ٱليومَ ثُبُوراً واحِداً وٱدْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً﴾.[1]

وقال سبحانه: ﴿يا أيُّها ٱلّذِينَ آمَنُوا قُوا أنْفُسَكُم وأهْلِيكُم ناراً وَقُودُها ٱلنّاسُ والحِجارَةُ عَليها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يَعْصُونَ ٱللّهَ ما أمَرَهُم ويَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُون﴾.

(التحريم/ ٦)

﴿قُوا أنْفُسَكُم وأهْلِيكُم ناراً﴾ قوا أنفسكم النار بالصّبر على الطاعة وعن معصيته، ﴿وأهْلِيكُم﴾ بدعوتهم إلى طاعة الله وحثّهم على أفعال الخير، ونهيهم عن المساوئ والمذام، ﴿عَليها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ﴾ غلاظ القلوب لا يرحمون أهل النار، ﴿لا يَعْصُونَ ٱللّهَ ما أمَرَهُم ويَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُون﴾ لا يخالفون أوامر الله ونواهيه.[2]

(١) وسائل التعذيب في النار:

قال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمّ ٱلجَحيمَ صَلُّوهُ * ثُمّ في سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فاسْلُكُوه﴾.

(الحاقّة/ ٣٢)

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ أوثقوه بالغلّ، وهو أن تُشدّ إحدى يديه ورجله إلى عنقه بجامعة، ﴿ثُمّ ٱلجَحيمَ صَلُّوهُ﴾ ثمّ ٱدخلوه النار العظيمة، ﴿ثُمّ في سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها﴾ طولها، ﴿سَبْعُونَ ذِراعاً فاسْلُكُوه﴾ اجعلوه فيها لأنّه يُؤخذ عنقه فيها ثمّ يُجرّ بها.[3]

---

(١) مشاهد القيامة في القرآن، لسيّد قطب، ص ١٠٢ ـ ١٠٣، بتصرّف بسيط.

(٢) الطّبرسي، بتصرّف.

(٣) الطّبرسي، بتصرّف.

وقال تعالى: ﴿فالّذينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لهُم ثيـابٌ من نارٍ * يُصَـبُّ مِنْ فَـوْقِ رُؤوسِهِم ٱلحَمِيم * يُصْهَرُ به ما في بُطونِهِم والجُلُودُ * ولَهُم مَقامِعُ مِن حَدِيد﴾.

(الحجّ / ١٩ ـ ٢١)

﴿قُطِّعَتْ لهُم﴾ قُدِّرت وفُصِّلت على تقاديرهم، ﴿ثيابٌ من نارٍ﴾ من مقطّعات النِّيران، وهي: الثِّياب القِصار، وقيل إنّ النار تحيط بهم كإحاطة الثِّياب بهم.

﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤوسِهِم ٱلحَميم﴾ الماء المغلي، ﴿يُصْهَرُ به ما في بُطونِهِم والجُلُودُ﴾ يُذاب وينضج ما فيها من الأمعـاء وتُذاب به الجلود، ﴿ولَهُم مَقامِعُ مِن حَدِيد﴾ المقمعة شِبه الجرز يُضربُ بها الرأس.[1]

(٢) حالة أهل النار:

قال تعالى: ﴿وٱلّذِينَ كَفَرُوا لَهُم نارُ جَهَنَّم لا يُقْضى عَلَيْهِم فَيَمُوتُوا، ولا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِن عَذابِها كذلِكَ نَجْزي كُلَّ كَفُور * وهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها رَبّنا أخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غيرَ ٱلّذي كُنّا نَعْمَل، أوَلَم نُعَمِّرْكُم ما يَتَذكَّرُ فيه مَنْ تَذَكَّرَ وجاءَكُم ٱلنّـذِير فَذُوقُوا فما لِلْظّالِمينَ مِن نَصِير﴾.

(فاطر/ ٣٦ ـ ٣٧)

﴿لا يُقْضى عَلَيْهِم﴾ بالموت ويستريحوا، ﴿ولا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِن عَذابِها﴾ ولا يسهل عليهم عذاب النار، ﴿كذلِكَ﴾ مثل هذا العذاب ونظيره، ﴿نَجْزي كُلّ كَفُور﴾ جاحد شديد الكفر، ﴿وهُم يَصْطَرِخُونَ فيها﴾ يتصايحون بالإستغاثة يقولون: ﴿رَبّنا أخْرِجْنا﴾ من عذاب النار، ﴿نَعْمَلُ صالِحاً﴾ نؤمن بدل الكفر، ونطيع بدل العصيان، ﴿غيرَ ٱلّذي كُنّا نَعْمَل﴾ فوبّخهم الله تعالى فقال: ﴿أوَلَم نُعَمِّرْكُم ما يَتَذكَّرُ فيه مَنْ تَذَكَّرَ﴾

---

(١) نفص المصدر.

ألم نُعْطِكُم من العمر مقدار ما يمكن أن يتفكّر وينظر في أمور دينه، وعواقبَ حاله مَنْ يريد أن يتفكّر ويتذكّر، وٱختلف في هذا المقدار، فقيل ستّون سنة، وهو المرويّ عن أمير المؤمنين عليه السلام، ﴿وجاءَكُم ٱلنّذِير﴾ المخوِّف من عذاب الله، وهو: محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، وقيل الشّيب». [1]

وقال تعالى: ﴿إنّ ٱلّذِينَ كَفَـرُوا بآياتِنـا سوفَ نُصْـلِيهِم ناراً كُلّما نَضِجَتْ جُلُودُهم بَدّلْناهُم جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا ٱلعَذاب﴾. (النِّساء/ ٥٦)

﴿كُلّما نَضِجَتْ جُلُودُهم بَدّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها﴾ إنّ الله سبحانه يُجدِّد لهم جلوداً غير الجلود الّتي أحرقت، ﴿لِيَذُوقُوا ٱلعَذاب﴾ ليجدوا ألم العذاب في كلِّ حال.

قال الدكتور عبدالعزيز إسماعيل في كتابه (الإسلام والطبّ الحديث)، ص ٥٨:

«هذه الآية تقول: إنّ النار كلّما أكلت جلودهم بدّلهم الله جلوداً غيرها. والسبب في ذلك أنّ أعصاب الألم في الطبقة الجلدية، وأمّا الأنسجة والعضلات والأعضاء الداخلية فالإحساس فيها ضعيف، ولذلك يعلم الطّبيب أنّ الحرق البسيط الّذي لا يتجاوز الجلد يُحدِث ألماً شديداً بخلاف الحرق الشديد الّذي يتجاوز الجلد إلى الإنسجة لأنّه مع شدّته وخطره لا يُحدِث ألماً كثيراً، فالله تعالى يقول لنا: إنّ النار كلّما أكلت الجلد الّذي فيه الأعصاب نُجدِّدهُ كي يستمرّ الألم بلا انقطاع، ويذوقوا العذاب الأليم، وهنا تظهر حكمة الله قبل أن يعرفها الإنسان».

وقال تعالى: ﴿ولو أنّ لِلّذِينَ ظَلَمُوا ما في ٱلأرْضِ جَمِيعاً ومِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوا بِهِ مِن سُوءِ العَذابِ يومَ ٱلقِيامَـةِ، وبَدا لَهُم مِنَ ٱلله ما لَم يكُونُوا يَحْتَسِبُون * وبدا لَهُم سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وحاقَ بِهِم ما كانُوا يَسْتَهْزِئُون﴾. (الزّمر/ ٤٨)

---

(١) نفس المصدر.

﴿ولو أنّ لِلّذِيــنَ ظَلَمُوا ما في ٱلأَرْضِ جَمِــيعاً ومِثْلَهُ مَعَـهُ﴾ زيادة عليـه، ﴿لافْتَدَوا بهِ مِن سُوءِ العَذابِ يومَ ٱلقِيامَةِ﴾ والمعنى لن يُقبَل من أحدهم فدية ولو ٱفتدى بما في الأرض ومثله زائداً عليه من العذاب في الآخرة، ﴿وبدا لَهُم مِنَ ٱللهِ ما لَم يكُونُوا يَحْتَسِبُون﴾ ظهرَ لهم يوم القيامة من صنوف العذاب ما لم يكونوا يظنّونه ولم يكن في حسابهم، ﴿وبدا لَهُم سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا﴾ ظهرَ لهم سيِّئاتُ أعمالهم، ﴿وحاقَ بِهِم﴾ نزلَ بهم، ﴿ما كانُوا يَسْتَهْزِئُون﴾ وهو كلّ ما يُنذرهم النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ما كانوا ينكرونه ويُكذّبون به.(١)

(٣) طعام أهل النار:

قال تعالى: ﴿إنّ شَجَرَةَ ٱلزّقُّومِ * طَعامُ الأثِيمِ * كالمُهْلِ يَغْلِي في ٱلبُطُون * كَغَلْيِ ٱلحَمِيم﴾. (الدّخان/ ٤٤ ـ ٤٧)

﴿الزّقُّوم﴾ شـجرة في النار يقـتاتها أهل النار، لها ثمرة خشنة اللّمس منتنة الرائحة، ﴿طَعامُ الأثِيمِ﴾ الأثيم وهو أبو جهل، ﴿كالمُهْلِ﴾ وهو المذاب من النحاس أو الرّصاص أو الذّهب أو الفضّـة، ﴿يَغْلِي في ٱلبُطُون * كَغَلْيِ ٱلحَمِيم﴾ إذا حلّت في أجواف أهل النار تغلي كغلي الماء الحار الشديد الحرارة.(٢)

وقال تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إلّا مِن ضَرِيعٍ * لا يُسْمِنُ ولا يُغْني مِن جُوعٍ﴾. (الغاشية/ ٧ ـ ٨)

﴿الضّريع﴾ نوع من الشوك، وهو أخبث طعام وأبشعه، لا ترعاه دابّة، ﴿لا يُسْمِنُ ولا يُغْني مِن جُوعٍ﴾ لا يدفع جوعاً، ولا يُسمِن أحداً.(٣)

---

(١) الطّبرسي.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم أيُّها ٱلضَّالُّونَ ٱلْمُكَذِّبونَ * لآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ * فَمالِئُونَ مِنْها ٱلبُطُونَ * فَشارِبُونَ عَليهِ من ٱلحَمِيمِ * فَشارِبُونَ شُرْبَ ٱلهِيمِ * هٰذا نُزُلُهُم يَوْمَ الدِّين﴾. (الواقعة / ٥٢ ـ ٥٦)

﴿ثُمَّ إنّكُم أيُّها ٱلضّـالُّونَ﴾ الّذين ضللتم عن الحقِّ والهدى، ﴿ٱلمُكَـذِّبونَ﴾ بتوحيد الله ونبوّة نبيِّه، ﴿لآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ﴾ مرّ تفسيره، ﴿فَشارِبُونَ عَليهِ من ٱلحَمِيمِ﴾ الماء الحار الشديد الحرارة، ﴿فَشارِبُونَ شُرْبَ ٱلهِيمِ﴾ وهي الإبل الهيم الشديدة العطش الّتي تشرب الماء حتّى تموت، ﴿هٰذا نُزُلُهُم يَوْمَ الدِّين﴾ والمعنى هذا طعامهم وشرابهم يوم الجزاء في جهنّم.(١)

وقال تعالى: ﴿وإن يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بماءٍ كالمُهْلِ يَشْوِي ٱلوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشّرابُ وساءَت مُرْتَفَقا﴾. (الكهف/ ٢٩)

﴿وإن يَسْتَغِيثُوا﴾ من شدّة العطش وحرّ النار، ﴿يُغاثُوا بماءٍ كالمُهْلِ﴾ وهو المذاب من النحاس والرصاص ونحوهما، أو هو الّذي في منتهى الحرارة، ﴿يَشْوِي ٱلوُجُوهَ﴾ يُحرقها عند دنوِّه منها، ﴿بِئْسَ ٱلشّرابُ﴾ ذلك المهل، ﴿وساءَت﴾ النار، ﴿مُرْتَفَقا﴾ مجتمعاً لهم أو منزلاً ومستقرّاً.(٢)

وقد يتساءل البعض: كيف يُعذِّب الله سبحانه أهل النار ذلك العـذاب الأليم ويُعاقبهم بتلك الأساليب الجهنّمية المذهلة وهو ذو الرّحمة الواسعة، والرأفة البالغة، والنِّعَم السابغة على عباده؟!!

والجواب على ذلك: «إنّ الجرائم والسيِّئات على أنواع، منها الصغيرة الحقيرة،

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر.

ومنها الكبيرة الخطيرة، وأنّه تعالى قد أعدّ لكلّ جريمة عقوبتها على أساس الحقّ والعدل، لا تزيد، وقد تخفّف حسبما تستدعيه حكمته البالغة.

ولا ريب أنّ في الناس مجرمين يستحقّون ذلك العذاب الأليم وأكثر منه، ومن هؤلاء الّذين يحاربون الحقّ، ويُشيعون الفساد والضّلال في الأرض، وينتهكون أعراض الناس وحرماتهم المقدّسة.

ومنهم تجّار الحروب الّذين أعدّوا لسفك الدِّماء، وتدمير الحياة بالأسلحة الجهنّمية كالقنابل الذرِّية والهيدروجينية والمواد السامّة الّتي تقتل الملايين في دقائق معدودات. إنّ أيّة عقوبة يُعاقب بها السفّاحون هي دون ما يستحقّون، وليست السلاسل والأصفاد وسرابيل النار بشيء بجانب تدمير البلاد وتشريد العباد وتقتيلهم، فهل يشكّ عاقل أنّ الحلم بأصحاب هذا السلاح ظلم، وأنّ الرحمة بهم إثم، وهل يستكثر أيّ نوع من أنواع العذاب على مَنْ لا يُروي ظمأه إلّا دماء الألوف، ولا يُشبع جشعه إلّا أقوات الملايين ومقدّراتهم. ولو لم يكن دليل على البعث والمعاد إلّا وجود هذه المظالم لكفى، إذ لو كانت الدنيا هي كلّ شيء، وليس من ورائها عالم آخر تُردّ فيه الحقوق إلى أصحابها ويجد كلّ ظالم الجزاء الّذي يستحقّه، لكان الموت خيراً من الحياة، والظّلم أفضل من العدل»[1].

(٤) هل العذاب الأخروي خالد أم مؤقّت؟

وقد أجاب عن هذا السؤال أعلام المحقِّقين في هذه الأبحاث.

قال الشيخ المفيد رحمه الله: «وأمّا النار فهي دار مَنْ جهل الله سبحانه، وقد يدخلها بعض مَنْ عرفه بمعصية الله تعالى، غير أنّه لا يخلد فيها بل يخرج منها إلى النعيم

---

(١) التفسير الكاشف، للعلّامة الشيخ محمّدجواد مغنية، ج ١٣، ص ٤٦١، بتصرّف.

المقيم، وليس يخلد فيها إلّا الكافرون»[1].

وقال الشيخ الصّدوق رحمه الله: «ولا يخلد فيها (النار) إلّا أهل الكفر والشِّرك، أمّا المذنبون من أهل التوحيد، فإنّهم يخرجون منها بالرّحمة الّتي تُدركهم والشفاعة الّتي تناهم...»[2].

ومَنْ شاء التوسّع في هذا الموضوع، فليرجع إلى الكتب الكلامية المفصّلة.

(٥) شبهة خلق الكافر:

وقد يستنكر بعض الجهّال أو المنحرفين (خلق الكافر) وكيف يخلقه الله سبحانه وهو يعلم ما ينطوي عليه من كفر وإلحاد، وما يؤول إليه من شقاء أخروي وعذاب أليم؟!!

لا.. ليس في خلق الكافر منافاة لعدل الله وحكمته، وليس فيه كذلك ما يحتِّم قسره وإكراهه على الكفر، ثمّ مكافأته بالعذاب والعقاب.

إنّ خلق الكافر وإيجاده خير من أن يكون عدماً محضاً محروماً من نعمة الوجود وخصائصه، فقد خلقهُ الله تعالى، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، جسمية وفكرية، وأتاحَ له صنوف المتع والمآرب الّتي لا يتحسّسها ولا ينالها المعدوم، وجعلهُ في الوقت نفسه حرّاً مختاراً في اعتناق ما شاء من الإيمان أو الكفر، دونما قسر أو إكراه على هذا أو ذاك.

ثمّ ضاعفَ عليه آلاءَه وألطافه، فأرسل إليه الأنبياء والمرسلين مبشِّرين ومنذرين لتوجيهه وجهة الخير والصّلاح، وتأهيله للسعادة الأبدية والنعيم الخالد.

---

(١) حقّ اليقين، ج ٢، ص ١٧٧.

(٢) نفس المصدر.

بيدَ أنّ الكافر أساء الإختيار وآثرَ الكفر والعذاب على الإيمان والنّعيم.

ولو كان علم الله تعالى بمغبّة الكافر ومصيره الخاسر يجعل خلقه وإيجاده قبيحاً مستهجناً، لكان العقل ـ وهو أعظم المواهب الإلهٰية ـ موجباً لخسّة الإنسان وشقائه، إذ به يُسأل ويُعاقب، وبحرمانه يُعفى من المسؤولية والعقاب.

هذا إلى أنّ الله عزّ وجلّ قد أوضح الغاية من خلق وإيجاد عامّة الجنّ والإنس، حيث قال تعالى:

﴿وَما خَلَقْتُ ٱلجِنَّ والإنْسَ إلّا لِيَعْبُدُون﴾. (الذّاريات / ٥٦)

فالغاية من خلقهم هي: عبادته الموجبة لتهذيبهم وتكاملهم وإسعادهم ديناً ودُنيا.

الأعْـــراف

قال الشيخ المفيد وهو يُقرِّر واقع الأعراف:

«قيل إنّ الأعْراف جبل بين الجنّـة والنار، وقيل إنّه سـور بين الجنّـة والنار، وجملة الأمـر في ذلك أنّه مكان ليس من الجنّـة ولا من النـار، وقد جاء الخـبر بما ذكرناه، وأنّه إذا كان يوم القيامة كان به رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وأمير المؤمنـين والأئمّة صلوات الله عليهم وهم الّذين عنى الله بقوله: ﴿**وَعَلَى ٱلأعْـرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلّاً بِسِياهُم**﴾ (الأعراف/ ٤٦).

وذلك أنّ الله يعلمهم أصحاب الجنّة وأصحاب النار بسياء يجعلها عليهم، وهي: العلامات، وقد بيّن ذلك في قوله: ﴿**يَعْرِفُونَ كُلّاً بِسِـياهُم**﴾، ﴿**يُعْرَفُ ٱلمُجْرِمُونَ بِسِياهُم**﴾.

وقال تعالى: ﴿**إنّ في ذلكَ لآياتٍ لِلْمُتَوَسِّـمِين، وإنّها لَبِسَبيلٍ مُقيم**﴾، فأخبر أنّ في خلقه طائفة يتوسّمون الخلق فيعرفونهم بسياهم...

وقد جاء الحديث: بأنّ الله تعالى يسكن الأعراف طائفة من الخلق لم يستحقّوا بأعمالهم الحسنة الثواب من غير عقاب، ولا استحقّوا الخلود في النار، وهم المرجون لأمر الله، ولهم الشفاعة، ولا يزالون على الأعـراف حتّى يُؤذَن لهم في دخول الجنّـة بشفاعة النّبيّ وأمير المؤمنين والأئمّة من بعده صلوات الله عليهم.

وقيل: إنّه مسكن طوائف لم يكونوا في الأرض مكلّفين، فيستحقّون بأعمالهم

جنّة أو ناراً فيُسكنهم الله تعالى ذلك المكان، ويعوِّضهم على آلامهم في الدّنيا بنعيم لا يبلغون منازل أهل الثواب المستحقِّين له بالأعمال.

وكلّ ما ذكرناه جائز في العقول، وقد وردت به أخبار، والله أعلم بالحقيقة...»[1].

ماذا يحدث بعد القيامة؟

وكم يتمنّى المؤمن أن يعرف جواب هذا التساؤل، ويستطلع الواقع الغيبي. بيدَ أنّه سرّ مكتوم لا يستطيع التكهّن به والتعرّف عليه إلّا عن طريق النصوص والآثار الواردة فيه.

روى الصّدوق في الخصال والعيّاشي في تفسيره، عن محمّد بن مسلم، قال: سمعتُ أبا جعفر عليه السلام يقول:

«لقد خلق الله عزّ وجلّ في الأرض منذ خلقها سبعة عالمين ليس هم من وُلد آدم، خلقهم من أديم الأرض فأسكنهم فيها واحداً بعد واحد مع عالمه، ثمّ خلق الله عزّ وجلّ أبا هذا البشر وخلق ذرِّيّته منه، لا والله ما خَلَت الجنّة من أرواح المؤمنين منذ خلقها ولا خلت النار من أرواح الكفّار والعُصاة منذ خلقها الله عزّ وجلّ، لعلّكم ترون أنّه إذا كان يوم القيامة وصيّر الله أبدان أهل الجنّة مع أرواحهم في الجنّة وصيّر أبدان أهل النار مع أرواحهم في النار، إنّ الله تبارك وتعالى لم يُعبد في بلاده ولا يخلق خلقاً يعبدونه ويوحِّدونه ويُعظِّمونه ويخلق لهم أرضاً تحملهم وسماءً تُظِلُّهُم، أليسَ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلأَرْضُ غَيرَ ٱلأَرْضِ والسّمٰوات﴾، وقال الله عزّ وجلّ: ﴿أَفَعَيِينا بِالخَلْقِ ٱلأوّلِ بَلْ هُمْ في لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَديد﴾.

---

(١) البحار، م٣، ص ٣٦٠.

وفي الخصال بسندٍ معتبر، عن جابر بن يزيد، قال: سألتُ أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿أَفَعَيِينا فِي ٱلخَلْقِ ٱلأَوّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَديد﴾، فقال: يا جابر! تأويل ذلك أنّ الله عزّ وجلّ إذا أفنى هذا الخلق وهذا العالم وسكن أهل الجنّة الجنّة وأهل النار النار، جدّد الله عزّ وجلّ عالماً غير هذا العالم، وجدّد خلقاً من غير فحولة ولا أناث، يعبدونه ويوحّدونه، وخلق لهم أرضاً غير هذه الأرض تحملهم، وسماء غير هذه السماء تظلّهم، لعلّك ترى أنّ الله عزّ وجلّ إنّما خلق هذا العالم الواحد، وترى أنّ الله عزّ وجلّ لم يخلق بشراً غيركم، بلى والله لقد خلق الله تبارك وتعالى ألف ألف عالم وألف ألف آدم، وأنتَ في آخر تلك العوالم وأولئك الآدميين».

قال المرحوم آية الله السيّد عبدالله شبّر، معقّباً على هٰذين النصّين:

«مضمون هٰذين الخبرين مذكور في كتب أساطين المحدِّثين، ولم يتعرّض أحد من المتكلِّمين لذلك بالنفي أو الإثبات، وأدلّة العقل لا تنفيه، إلّا أنّ الأخبار الواردة في ذلك لم تصل إلى حدِّ القطع، فينبغي إيكال علمه إلى الله»[1].

وفي الختام، أبتهل إلى الله عزّ وجلّ ضارعاً إليه مستجدياً منه العفو واللّطف الكريمين:

﴿رَبَّنا إنّنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادي للإيمانِ أن آمِنُوا بِرَبِّكُم فآمَنّا، رَبّنا فاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وكفِّر عَنّا سَيِّئاتِنا وتوفّنا مع الأبرار * رَبّنا وآتِنا ما وَعَدْتَنا عَلَى رُسُلِكَ ولا تُخْزِنا يَوْمَ ٱلقِيامَةِ إنّكَ لا تُخْلِفُ ٱلمِيعاد﴾. (آل عمران / ١٩٣ ـ ١٩٤)

(١) حقّ اليقين، ج ٢، ص ١٩٤، بتصرّف.

مصادر ومراجع الكتاب

إسم الكتاب	إسم المؤلف
القرآن الكريم	
المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم	
الوافي	الملّا محسن الفيض
بحار الأنوار	الشيخ محمّدباقر المجلسي
سفينة البحار	الشيخ عبّاس القمّي
حقّ اليقين	السيد عبدالله شبّر
الحضارة الإسلامية	لأبي الأعلى المودودي
على أطلال المذهب المادِّي	لمحمّد فريد وجدي
مشاهد القيامة في القرآن	لسيد قطب
الله والإنسان	لعبدالكريم الخطيب
الإسلام يتحدّى	وحيدالدّين خان
سنن الله الكونية	محمّد أحمد الغمراوي
مبادئ الإيمان	الشيخ محمّدحسين كاشف الغطاء
أصول الدِّين الإسلامي	السيد محمّد جمال الهاشمي
الإسلام	الشيخ محمّد أمين زين الدّين
تفسير الميزان	السيد محمّدحسين الطباطبائي
أوائل المقالات	الشيخ المفيد

تصحيح الإعتقاد .... الشيخ المفيد

روح الدِّين الإسلامي .... عفيف عبدالفتّاح طبارة

الدِّين في مواجهة العلم .... وحيدالدّين خان

لماذا أؤمن بالله؟ .... هلال علي هلال

لغز الحياة .... مصطفى محمود

يوم القيامة .... عبدالرزّاق نوفل

دائرة المعارف .... محمّد فريد وجدي

الطريق إلى الله .... عبدالرزّاق نوفل

الحياة الأخرى .... عبدالرزّاق نوفل

الإنسان روح لا جسد .... رؤوف عبيد

تعريف عام بدين الإسلام .... علي الطّنطاوي

الإنسان وأوّل الواجبات .... الشيخ محمّدرضا فرج الله

أصول الدِّين الإسلامي .... للشيخ محمّدعلي ناصر، قاضي صيدا

فهرس

أصول العقيدة: في الإمامة

فهرس

أصول العقيدة: في المعـاد